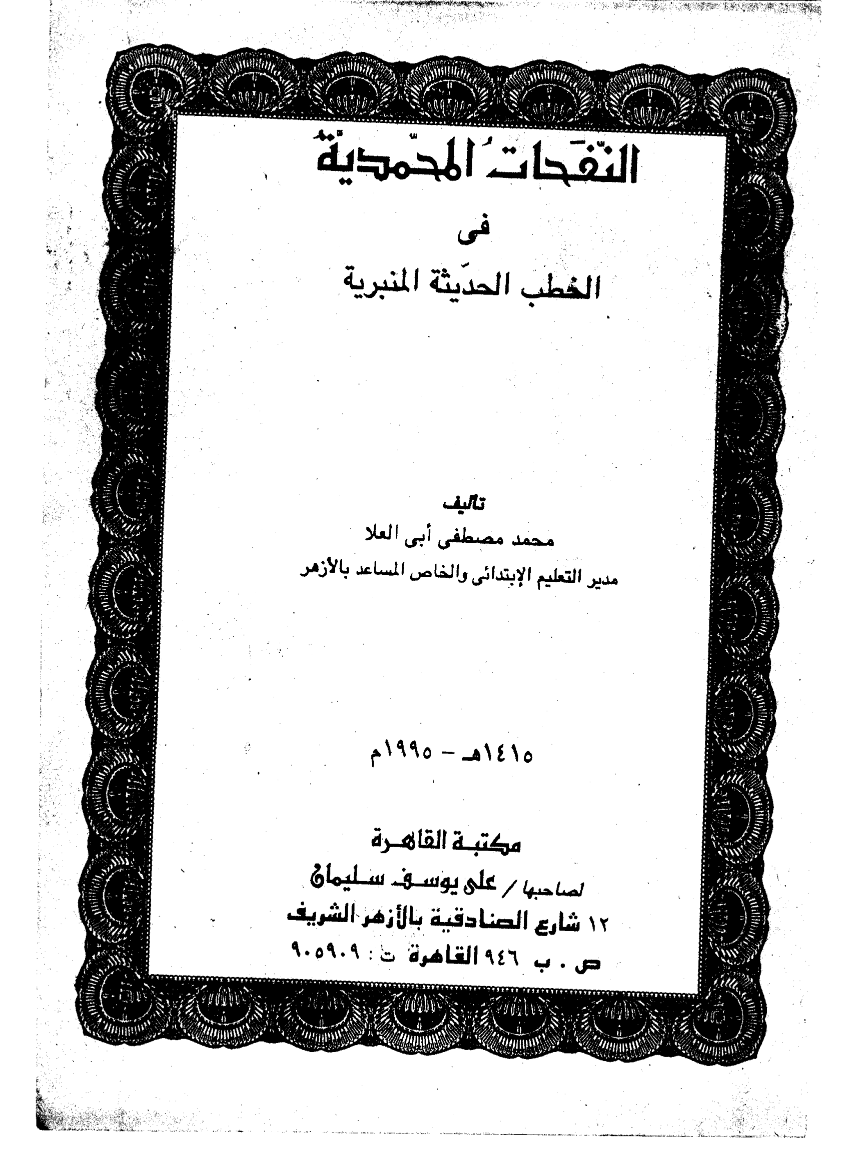


النفحات المحمدية

فى

الخطب الحديثة المنبرية

تاليف

محمد مصطفى أبى العلا

مدير التعليم الإبتدائى والخاص المساعد بالأزهر

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مكتبة القاهرة

لصاحبها / على يوسف سليمان

١٢ شارع الصنادقية بالأزهر الشريف

ص . ب ٩٤٦ القاهرة ت : ٩٠٥٩٠٩

فاست بريس
للطباعة

٢٦٢ ش جسر السويس خلف فيلات ٢٣ يوليو ت. ٢٤٤٢٠٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الديوان

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْمَوْعِظَةَ مُوقِظَةً لِلْقُلُوبِ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ ، وَمُنْقِذَةً لِلْبَصَائِرِ مِنْ سَكْرَةِ الْحَيْرَةِ ، وَمُحْيِيَةً لَهَا مِنْ مَوْتِ الْجَهَالَةِ ، وَمُسْتَخْرِجَةً لَهَا مِنْ ضِيقِ الضَّلَالَةِ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، الَّذِي بِيَدِهِ الْقُلُوبُ ، وَقَدْ اتَّخَذَ قُلُوبَ الصَّالِحِينَ أَوَانِيَ لِمَحَبَّتِهِ ، وَمَشَارِقَ أَنْوَارِ هِدَايَتِهِ ، وَإِنَّمَا تَصْلُحُ الْقُلُوبُ بِالْعِظَاتِ الْبَالِغَاتِ : وَلِذَلِكَ - قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ : (وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً) .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، خَيْرُ مَنْ وَعَظَ . وَهَدَى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ . وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ . وَسَائِرِ مُحِبِّيهِ . وَالْمُهْتَدِينَ بِهَدْيِهِ :

أُولَئِكَ أَنْصَارُ الْفَلَاحِ وَأَهْلُهُ وَلِلدِّينِ وَالدُّنْيَا بُنَاةُ صَلَاحِ

أَمَّا بَعْدُ : وَالْمَدْعُوُّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَنْ يَجْعَلَ حَدِيثِي مَعَ ذَوِي تَوْفِيقٍ وَسَعْدٍ - فَهَذِهِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْخُطَبِ الْمِنْبَرِيَّةِ : شَرَحَ اللَّهُ الصَّدْرَ لِصَوْغِهَا ، وَوَفَّقَ اللَّهُ - لِتَبْلِيغِهَا فَخَطَبْتُ وَخَطَبَ بَعْضُ أَحِبَّائِي بِهَا مِنْ فَوْقِ الْمَنَابِرِ مُرْشِدِي النَّاسِ إِلَى طِيبِ حَيَاتِهِمْ ، وَحُسْنِ عَاقِبَتِهِمْ ، وَقَدْ قَالَ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ »[1] .

وَلِكَثْرَةِ الرَّاغِبِينَ رَغْبَةً مُلِحَّةً فِي طَبْعِهَا وَزِيَادَةِ تَعْمِيمِ نَفْعِهَا ـ سَارَعْتُ بِتَقْدِيمِهَا لِلطَّبْعِ .

وَإِنِّي لَأَرْجُو ـ بِنَشْرِهَا ـ حُسْنَ الْحَالِ وَالْمَآلِ : ثَمَرَةَ رِضَا اللهِ الَّذِي لَهُ وَحْدَهُ الْأَمْرُ جَمِيعاً فِي الْحَيَاتَيْنِ : لِي . وَلِمَنْ أُحِبُّ . وَلِسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ . وَهَاهِيَ ذِي ـ أَمَامَ الرَّاغِبِ فِي الْخَيْرِ ـ تُشْرِقُ لِبَصَرِهِ وَلِبَصِيرَتِهِ ، وَطُوبَى لَهُ وَحُسْنُ مَآبٍ ـ إِذَا نَالَتْ وُدَّهُ ، فَصَاحَبَهَا ، وَاسْتَمَعَ لِنُصْحِهَا ، وَأَنْصَتَ ، فَفَازَ بِرِضَا رَبِّهِ ، فَحَسُنَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهُ .

وَلَعَلَّ الْمَثُوبَةَ بِهَا تَتَضَاعَفُ ـ إِذَا مَا انْشَرَحَ صَدْرُ الْمُسْلِمِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْطُبَ بِهَا . وَيُفِيدَ غَيْرَهُ ، فَبَلَّغَهَا ، بَعْدَ أَنِ اهْتَدَى بِهَا ، وَاسْتَنَارَ بِنُورِهَا وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ، وَعَلِّمُوهُ النَّاسَ »[2] .

وَيَسْتَطِيعُ الْخَطِيبُ الْفَطِنُ أَنْ يَجْعَلَ مِنَ الْخُطْبَةِ اثْنَتَيْنِ[3] : مُرَاعَاةً لِحَالِ سَامِعِيهِ ، وَأَنْ يَجْعَلَ مِنْهَا دَرْسًا كَافِيًا ، أَوْ مُحَاضَرَةً مُجْزِئَةً ، أَوْ حَدِيثًا إِذَاعِيًا وَافِيًا

وَلِأَنَّ هَذِهِ الْخُطَبَ الْحَدِيثَةَ الْمُبْتَكَرَةَ ـ قَدْ أَشْرَقَتْ بِنُورِ الْهُدَى الْمُحَمَّدِيِّ ، وَبِتَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ ، الَّتِي بَلَّغَهَا سَيِّدُ الْأَنَامِ ، رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لطهارة القلوب ، وتزكية النفوس — كانت نفحات منه : صلى الله عايه وسلم.

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى عن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه

(٢) رواه البيهق عن أبى بكر رضى الله عنه .

(٣) يخطب بهما فى جمعتين ، أو فى جمعة واحدة : إحداهما الخطبة الاولى والثانية : الثانية .

لِذَلِكَ سَمَّيْتُ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِى يَضُمُّهَا - دِيوَانَ النَّفَحَاتِ الْمُحَمَّدِيَّة ، فِى الْخُطَبِ الْحَدِيثَةِ الْمِنْبَرِيَّةِ ، وَمِسْكُ خِتَامِ كُلِّ خُطْبَة مِنْهَا غَالِبًا طَائِفَةٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ : بِهَا - يَقْوَى مَبْنَاهَا ، وَيَزْكُو وَيَسْمُو مَعْنَاهَا ، وَتَظْهَرُ حُجَّتُهَا ، وَحَسْبُ الْخَطِيبِ حِينَ يَخْطُبُ بِهَذِهِ الْخُطَبِ بَعْضُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ .

وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْمَسْئُولُ - أَنْ يَهْدِيَ بِتِلْكَ الْخُطَبِ إِلَى أَقْوَمِ طَرِيقٍ ، وَأَنْ يَكْسُوَهَا ثَوْبَ الْقَبُول ، وَهُوَ وَحْدَهُ لِكُلِّ خَيْرٍ مَأْمُول ، وَأَقُولُ كَمَا قَالَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» .

محمد مصطفى أبو العلا

الشهير بحامد

القاهرة فى يوم الأحد { ٢٣ من صفر سنة ١٣٨٦ هـ
١٢ من يونيه سنة ١٩٦٦ م

العلم المعمول به يكسب خيرى الدنيا والآخرة

الْحَمْدُ لِلَّهِ : جَعَلَ الْعِلْمَ أَفْضَلَ مُكْتَسَبٍ . وَأَكْرَمَ مُنْتَسَبٍ . وَأَشْرَفَ ذَخِيرَةٍ ، وَأَطْيَبَ ثَمَرَةٍ . لاَ يَذِلُّ كَاسِبُه . وَلاَ يَخِيبُ طَالِبُهُ . وَقَالَ تَعَالَى : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ[1] . وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) .

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ : خَيَّرَ[2] ـ سُلَيْمَانَ ـ عليهِ السَّلامُ ـ بَيْنَ الْمَالِ وَالْمُلْكِ وَالْعِلْمِ ، فَاخْتَارَ الْعِلْمَ ، فَأَعْطِىَ الْمُلْكَ وَالْمَالَ ـ مَعَ الْعِلْمِ : لِاخْتِيَارِهِ الْعِلْمَ ، وَقَالَ تَعَالَى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ : أَعْلَنَ فَضْلَ الْعِلْمِ النَّافِعِ ـ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ـ وَنَوَّهَ بِطَالِبِهِ وَحَيَّاه : قال لَهُ صَفْوانُ بْنُ عَسَّالٍ الْمُرَادِىُّ يَارسولَ اللهِ : إِنِّى جِئْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ . فقالَ : مَرْحَباً بِطَالِبِ الْعِلْمِ إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ تَحُفُّهُ الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا ، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً حَتَّى يَبْلُغُوا السَّماء

---

(٢) أى يعلمون العلم النافع ، وعن زيد بن أرقم رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : «اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع ومن قلب لايخشع ومن نفس لاتشبع ومن دعوة لايستجاب لها » رواه مسلم فى صحيحه .

(٢) رواه ابن عساكر والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس رضى الله عنهما .

الدُّنيَا مِنْ مَحبَّتِهِمْ لِمَا يَطْلُبُ »[1] .

اللَّهُمْ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، الَّذِينَ نَفَعُوا بِعِلْمِهِمُ الْعَالَمِينَ ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ : « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ . أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ . أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ »[2] .

أَمَّا بعدُ فيَاعِبَادَ اللهِ :

رَحَلَ[3] جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَلَى بَعِيرٍ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ بِمِصْر ، وَبَيَّنَ لَهُ سَبَبَ رِحْلَتِهِ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : حَدِيثٌ فِي الْقِصَاصِ . لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ يُحَدِّثُ بِهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ غَيْرُكَ . أَرَدْتُ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْكَ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ أَوْ أَمُوتَ . قَالَ ابنُ أُنَيْسٍ : سَمِعْتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : يَحْشُرُ اللهُ الْعِبَادَ[4] عُرَاةً غُرْلاً - أي بِقُلَفِهِمْ

---

(١) روى الطبرانى أن صفوان بن عسال المرادى رضى الله عنه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد متكىء على برد له أحمر فقلت له يارسول الله إنى جئت أطلب العلم .. إلخ

(٢) روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) روى حديث هذه الرحلة البيهقى فى المدخل والخطيب فى الجامع والبخارى فى كتابه الأدب المفرد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما وفيها أن الرحلة كانت إلى الشام وذكر أنها كانت إلى مصر الإمام جلال الدين السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة فى أخبار مصر القاهرة والإمام الخزرجى فى الخلاصة .

(٤) أو قال الناس : شك الراوى : أى اللفظين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الْمَقْطُوعَةِ فِي الْخِتَانِ[١] ـ بُهْماً . قُلْنَا : مَابُهْماً قَالَ : لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ[٢] يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ : أَنَا الْمَلِكُ . أَنَا الدَّيَّانُ . لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ، وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ ، وَلاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَدْخُلُ النَّارَ ، وَأَحَـدٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ . قُلْتُ : وَكَيْفَ . وَإِنَّمَا نَأْتِي اللهَ عُرَاةً بُهْماً ؟ قَالَ : بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ) : أَيْ يَـكُونُ رَدُّ الْمَظَالِمِ إِلَى أَهْلِهَا بِإِعْطَاءِ الْمَظْلُومِينَ مِنْ حَسَنَاتِ الظَّالِمِينَ ، أَوْ بِالْوَضْعِ مِنْ سَيِّئَاتِ الْمَظْـلُومِينَ عَلَى الظَّالِمِينَ وَهَـكَذَا ـ يَاقَوْمِ ـ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْعَوْنَ إِلَى

---

(١) هو فى حق الذكر ـ قطع الجلدة التى تغطى الحشفة حتى تنكشف وفى حق الأنثى:قطع جزء من أعلى الجلدة : كعرف الديك ويسمى ختان الذكر إعذاراً وختان الأنثى خفضاً ، وهو واجب فى حق الرجال والنساء عند الشافعى وكثير من العلماء ، وعند مالك وأبى حنيفة ، وأكثر أهل العلم سنة فى حقهما ، والمشهور عند المالكية أنه سنة فى حق الذكور مندوب فى حق الإناث . لقوله صلى الله عليه وسلم : الختان سنة للرجال مكرمة للنساء . رواه أحمد والبيهقى عن شداد بن أوس رضى الله عنه. وقال صلى الله عليه وسلم لأم عطية: اخفضى ولا تنهكى ، أى لا تبالغى فى ختان الأنثى ، فإنه أنضر للوجه . وأحظى عند الزوج رواه الحاكم وغـيره ، وهو ضعيف والحق أنه لم يقم دليل صحيح على الوجوب ، والمتيقن السنة ، ووقته المستحب يوم السابع من الولادة كما ختن صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين يوم السابع من ولادتهما ، والمعتاد الشائع فى ختان الإناث لمن يتجه إليـه من بعد سبع سنين إلى قبيل البلوغ .

(٢) ليس لله تعالى صوت كذوى الأصوات من خلقه ، قال تعالى : (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) ، والسلف يفوضون معنى ذلك إليه تعـالى ، والخلف يؤولون ويقولون : المعنى فيناديهم بصوت ملك ، أو لعله تعـالى يخلق صوتاً كذلك ، ينطق عن الله تعالى بالقول المذكور .

الْعِلْمِ ، الَّذِي يَصِلُهُمْ بِرَبِّهِمْ ، وَيُحْيِي قُلُوبَهُمْ ، حَيْثُ كَانَ ، مَهْمَا بَعُدَ الْمَكَانُ وَيَطْلُبُونَهُ فِي حِرْصٍ عَلَيْهِ ، مُسْتَهِينِينَ بِالصِّعَابِ فِي سَبِيلِهِ ، وَلَوْ كَانَ الْمَطْلُوبُ مِنْهُ قَلِيلاً .

وَقَدْ حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَضْلُ الْعِلْمِ . وَثَمَرَتُهُ الطَّيِّبَةُ : فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ . فَقَدْ قَالَ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم : « فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ . وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ »[1] ، وَقَالَ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ . وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ . وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ . وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً . إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ . فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ »[2] ، وَقَالَ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم : « يَا أَبَا ذَرٍّ لَأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ . وَلَأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ بَاباً مِنَ الْعِلْمِ عُمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يُعْمَلْ بِهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ »[3] .

وَتَزِيدُ حَسَنَاتُ الْمُتَعَلِّمِ الْعَامِلِ بِعِلْمِهِ بِتَعْلِيمِهِ لِغَيْرِهِ : قال صلّى اللهُ عليهِ وسلّم : « إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْماً عَلَّمَهُ

---

(١) رواه الطبرانى والبزار عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما .

(٢) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والبيهق عن أبى الدرداء رضى الله عنه .

(٣) رواه ابن ماجه .

وَنَشَرَهُ . وَوَلَداً صَالِحَاً تَرَكَهُ أَوْ مُصْحَفاً وَرَّثَهُ أَوْ مَسْجِداً بَنَاهُ أَوْ بَيْتاً لِابْنِ[1] السَّبِيلِ بَنَاهُ أَوْ نَهْراً أَجْرَاهُ أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ : يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ »[2] .

أَلاَ وَإِنَّ مُعَلِّمَ غَيْرِهِ الْعِلْمَ - إِرْضَاءً لِلَّهِ - يَكُونُ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ الْمُكَرَّمِينَ الْمَرْحُومِينَ . قَالَ رَسُولُنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « عُلَمَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ رَجُلاَنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْماً فَبَذَلَهُ لِلنَّاسِ ، وَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِ طَمَعاً وَلَمْ يَشْتَرِ بِهِ ثَمَناً فَذَلِكَ تَسْتَغْفِرُ لَهُ حِيتَانُ الْبَحْرِ . وَدَوَابُّ الْبَرِّ . وَالطَّيْرُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْماً فَبَخِلَ بِهِ عَنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعاً . وَشَرَى بِهِ ثَمَناً فَذَلِكَ يُلْجَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ ، وَيُنَادِي مُنَادٍ هَذَا الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ عِلْماً فَبَخِلَ بِهِ عَنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعاً وَاشْتَرَى بِهِ ثَمَناً وَكَذَلِكَ حَتَّى يَفْرُغَ الْحِسَابُ »[3] .

وَبِالْعِلْمِ الْمَعْمُولِ بِهِ ، وَالْحِلْمِ - يَفُوزُ الْعُلَمَاءُ - بِرِضَا اللَّهِ الْعَظِيمِ يَوْمَ فَصْلِ الْقَضَاءِ : قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْعُلَمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا قَعَدَ عَلَى كُرْسِيِّهِ لِفَصْلِ عِبَادِهِ : إِنِّي لَمْ أَجْعَلْ عِلْمِي وَحِلْمِي فِيكُمْ إِلاَّ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَ لَكُمْ عَلَى مَا كَانَ فِيكُمْ وَلاَ أُبَالِي »[4] .

---

(١) المسافر عن ماله .

(٢) رواه ابن ماجه والبيهق عن أبي هريرة رضى الله عنه .

(٣) رواه الطبراني فى الأوسط عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٤) رواه الطبرانى فى الكبير عن ثعلبة بن الحكم رضى الله عنه ، وقعود الله على كرسيه ليس كقعودنا على كراسينا بل المعنى مفوض لله : عند السلف ، وعند الخلف ذلك لبيان شدة أمر المحاكمة والحساب يوم القيامة .

وَيَاأَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

أَولُ مَانَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ » .

فَهَذَا أَولُ دَرْسٍ عَلاَ بِقَدْرِ الْعِلْمِ لِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَنَوَّهَ بِقِيمَتِهِ ، وَأَعْلَنَ الْحَرْبَ عَلَى الْأُمِّيَّةِ الْغَافِلَةِ ، وَجَعَلَ اللَّبِنَةَ الْأُولَى فِي بِنَاءِ كُلِّ رَجُلٍ عَظِيمٍ أَنْ يَقْرَأَ وَأَنْ يَتَعَلَّمَ ، وَقَالَ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ »[1] .

وَالْعُلُومُ الَّتِي تُدْرَسُ فِي الْمَدَارِسِ وَالْمَعَاهِدِ وَالْجَامِعَاتِ لِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: مِنْهَا مَابِهِ تَحْسُنُ الْعَقِيدَةُ ، وَتَنْمُو وَتَرْسَخ ، وَتَسْتَقِيمُ الْعِبَادَةُ وَتَكْمُلُ ، وَمِنْهَا مَابِهِ تُعْمَرُ الْحَيَاةُ مَكْفِيَّةَ الْمَطَالِبِ : كَعُلُومِ الزِّرَاعَةِ وَالصِّنَاعَةِ وَالطِّبِّ.

لِذَلِكَ - يَدْعُو الْإِسْلَامُ إِلَيْهَا جَمِيعاً ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْمُسْتَعَانُ لِتَحْصِيلِهَا وَالْإِفَادَةِ مِنْهَا ، وَقَدْ قَالَ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « احْرِصْ عَلَى

---

(١) رواه أبو داود والترمذى . وابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجد بللا . ولا يذكر احتلاماً . قال : يغتسل . وعن الرجل يرى أنه قد احتلم ، ولم يجد بللا . قال : لاغسل عليه قالت أم سلمة يارسول الله : هل على المرأة ترى ذلك - غسل ؟ قال : نعم إن النساء شقائق الرجال » . ومن القواعد المقررة أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب فهن شقائق الرجال فى سائر الأحكام مالم يرد تخصيص فى حكم : كتشييع الجنازة الخاص بالرجال : لقوله صلى الله عليه وسلم : « ارجعن مأزورات غير مأجورات» رواه ابن ماجه عن على كرم الله وجهه ، ورضى عنه . وأبو يعلى عن أنس رضى الله عنه .

مَايَنفَعُكَ . وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ »[١] .

وَإِذَا كَانَ الفَرْدُ لاَ يَسْتَطِيعُ تَحْصِيلَ جَمِيعِ الْعُلُومِ ، وَلِذَلِكَ يَتَخَصَّصُ فِي فَرْعٍ مِنْهَا — فَإِنَّ الْجَمِيعَ مُطَالَبُونَ بِعِلْمِ الدِّينِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِالْعُلُوم : لِأَنَّهُ قَانُونُ نِظَامِ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ فِي عِـزَّةٍ وَسَعَادَةٍ ، وَبِهِ الْغَدُ الْمَحْمُودُ ، وَحُسْنُ الْعَاقِبَةِ ، وَالْعِيشَةُ الرَّاضِيَةُ : (فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) ، وَقَدْ قَالَ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا فَقَّهَهُ فِي الدِّينِ . وأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ »[٢] .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

إِنَّ التَّعَلُّمَ وَالتَّعْلِيمَ — لِعُلُومِ الدُّنْيَاوَالآخِرَةِ — رُوحُ الإِسْلَامِ : بِهِمَا يَبْقَى وَيَسُودُ . وَبِهِمَا بقَاء أَهْـلِهِ وَسِيَادَتُهُمْ . وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ »[٣] .

وَالنَّـاسُ فِي نَظَرِ الإِسْـلَامِ نَوْعَانِ : مُتَعَلِّمٌ يَطْلُبُ الرَّشَادَ وَيَدْعُو : (رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) وَعَالِمٌ يَطْلُبُ الْمَزِيدَ وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) . وَلَيْسَ بَعْدَ الْمُتَعَلِّمِ وَالْعَالِمِ أَحَدٌ حَرِيٌّ بِالْمُبَالَاةِ بِهِ : قَالَ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكَانِ فِي الْخَيْرِ وَلاَ خَيْرَ فِي سَائِرِ النَّاسِ »[٤] .

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) رواه البزار والطبرانى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٣) رواه أبو يعلى عن أنس رضى الله عنه .

(٤) روى ابن ماجه عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بهذا العلم قبل أن يقبض . وقبضه أن يرفع . وجمع بين إصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام هكذا ثم قال : العالم والمتعلم شريكان .. الخ .

أَلاَ وَإِنَّ سَعْىَ الطُّلاَّبِ إِلَى دُورِ العِـلْمِ مُبَـكِّرِينَ لاَ يُبَالُونَ بِبَرْدٍ، وَلاَ بِحَرٍّ، وَيُعَانُونَ فِي الْمُوَاصَلاَتِ مَتَاعِبَ شَدِيدَةً - لَعَمَلٌ جَلِيلٌ، دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «اغْـدُوا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الْغُدُوَّ بَرَكَةٌ وَنَجَاحٌ»(١).

وَيُحَقِّقُ لَهُمُ النَّجَاحَ عَلَى الدَّوَامِ - تَقْوَى اللهِ الْقَائِلِ: (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَـلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا. ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ. وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا).

وَتَتَحَقَّقُ تَقْوَى اللهِ فِي النَّفْسِ بِتَعَلُّمِ الْعِلْمِ الدِّينِيِّ وَالْعَمَلِ بِهِ. وَالْمَسَاجِدُ عَامِرَةٌ بِدُرُوسِ ذَلِكَ العِـلْمِ، فَاحْرِصُوا عَلَيْهَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، وَالْحِرْصُ عَلَيْهَا - يَا طُلاَّبَ الْمَدَارِسِ وَالْمَعَاهِدِ وَالْجَامِعَاتِ - طَرِيقُ النَّجَاحِ، فَاسْلُـكُوهُ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لاَ يُرِيدُ إِلاَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يُعَلِّمَهُ(٢) كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ تَامًّا حِجَّتُهُ»(٣).

وَلْيَعْمَلْ كُلُّ فَرْدٍ بِمَا تَعَلَّمَ لِيَزِيدَهُ اللهُ عِلْمًا، فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

---

(١) رواه الخطيب عن عائشة رضى الله عنها.

(٢) وفى تعلم العلم للخير وتعليمه - قال أيضاً رسولنا صلى الله عليه وسلم: «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً، ثم يعلمه أخاه المسلم» رواه ابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة رضى الله عنه، ثم هذا الأجر العظيم لمن يتعلم الخير ويعلمه لله تعالى، وإلا فقد قال صلى الله عليه وسلم: (إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم اللسان» رواه الطبرانى فى الكبير والبزار، عن عبد الله بن حصين رضى الله عنه.

وَسَلَّمَ : « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ تَعَالَى عِلْمَ مَالَمْ يَعْمَلْ »[١] .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

اتَّقُوا اللهَ . واحْرِصُوا عَلَى التَّفَقُّهِ[٢] فِي دِينِكُمْ ، وأَكْرِمُوا عُلَمَاءَكُمْ

---

(١) رواه أبو نعيم عن أنس رضى الله عنه .

(٢) روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما وابن ماجه فى سننه . عن معاوية رضى الله عنه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » ورواه أبو يعلى . وزاد فيه : « ومن لم يفقهه لم يبال به » . ورواه الطبرانى فى الكبير ، ولفظه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ؛ « ياأيها الناس إنما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه . ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين. وإنما يخشى الله من عباده العلماء » وروى الدارمى عن عمران قال : قلت للحسن يوماً فى شىء ماهكذا قال الفقهاء . قال ؛ ويحك . هل رأيت فقيهاً : إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا . الراغب فى الآخرة . البصير بأمر دينه . المداوم على عبادة ربه وروى الترمذى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » ، وذلك أن غاية العابد أن يخلص نفسه من مكائد الشيطان ، وقد لايقدر عليه ، فيدركه الشيطان من حيث لايدرى : بخلاف الفقيه ، فقد يخلص الله تعالى على يديه العباد من مكايد الشيطان ، ففرق بينهما ، والمراد بالفقيه : العالم العامل . . . ، الذى من تواضعه لايقول : إنه عالم ، ولكن حاله تنطق بذلك ، وروى الطبرانى عن مجاهد بن عمر رضى الله عنه : عنه صلى الله عليه وسلم قال : «من قال إنى عالم فهو جاهل» ولاشك أن علمه هو العلم النافع ، وقد روى الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخه عن جابر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلم علمان : علم فى القلب فذاك العلم النافع . وعلم على اللسان . فذاك حجة الله على ابن آدم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قيل يارسول الله أى جلسائنا خير ؟ قال : من ذكركم الله رؤيته . وزاد فى علمكم منطقه وذكركم بالآخرة عمله» رواه أبو يعلى ، والعلماء العاملون هم الأكابر فى قوله صلى الله عليه وسلم : « البركة مع أكابركم » رواه

واتبعوهم فيما أرشدوكم إليه من حق ، واطلبوا العلم : للعمل به ابتغاء وجه الله تعالى ، وليجتهد العاقل في العمل ، قبل أن تحول الحوائل ، وأحسنوا إلى نفوسكم بالعمل بكل ما تعلمتم من دينكم ، حتى لا يراكم الله حيث نهاكم . ولا يفقدكم حيث أمركم : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : يا رسول الله ، وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس العلم » . رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن لقمان قال لابنه : يا بني عليك بمجالسة العلماء . واسمع كلام الحكماء فإن الله ليحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر » رواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة رضي الله عنه .

الطبراني في الأوسط والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يجل كبيرنا . ويرحم صغيرنا . ويعرف لعالمنا حقه » . رواه الحاكم ، والإمام أحمد . عن عبادة بن الصامت : رضي الله عنه ورواه أحمد والطبراني بلفظ : « ليس من أمتي من لم يجل . . إلخ » ، والعالم العامل - كما أنه قدوة حسنة للمسلمين بعمله الصالح - يبلغهم ما تعلمه من خير وقد قال صلى الله عليه وسلم : « مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدث به كمثل الذي يكنز الكنز ثم لا ينفق منه » رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقالَ رسولُنا صلى اللهُ عليهِ وسلم : « من تعلمَ عِلماً مِمَّا يُبتَغى بِهِ وجْهُ الله تَعالَى لاَ يَتعَلمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عرَضاً مِنَ الدُّنيا لَمْ يجِدْ عرْفَ الجَنَّةِ يوْمَ القِيامَةِ » . وَعرْفُ الجَنَّةِ رِيحُها : رَوَاهُ أبو داوُدَ وَابْنُ ماجَهْ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَالحَاكِمُ عن أبى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وقالَ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « اللهُمَّ لاَ يُدْرِكْنِي زَمَانٌ أوْ[1] قالَ : لاَ تُدْرِكُوا زَمَاناً لاَ يُتَّبَعُ فِيهِ العَلِيمُ ، وَلاَ يُسْتَحْيَا فِيهِ مِنَ الحَلِيمِ : قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الأَعَاجِمِ . وَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ العَرَبِ » رَوَاهُ أَحْمَدُ ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وقالَ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « ثَلاَثٌ لاَ يَسْتَخِفُّ بِهِمْ إلاَّ مُنَافِقٌ : ذُو الشَّيْبَةِ فِي الإِسْلاَمِ . وَذُو العِلْمِ . وَإِمَامٌ مُقْسِطٌ »[2] رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

---

(١) شك من الراوى .

(٢) فى إجلال هؤلاء الثلاثة المذكورين فى الحديث ـ روى أبو داود عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ـ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن من إجلال الله إكرام ذى الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالى فيه ، ولا الجافى عنه ، وإكرام ذى السلطان المقسط ، وروى أحمد ، والطبرانى فى الكبير عن عبد الله ابن بسر : رضى الله عنه قال لقد سمعت حديثاً منذ زمان : « إذا كنت فى قوم عشرين رجلا أو أقل أو أكثر فتصفحت وجوههم فلم تر فيهم رجلا يهاب الله عز وجل فاعلم أن الأمر قد رق » .

٢ – إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم

الحمد لله: أنعم علينا بالإيجاد بعد العدم، ولم يتركنا في وجودنا حيارى أمام الرغبات والأهواء، فأرسل إلينا رسولنا الأعظم – بالقرآن يهدي للطريقة التي هي أقوم.

وأشهد أن لا إله إلا الله، ربنا الأكرم، الذي أراد القرآن دستوراً للعالم، منذ بعث النبي صلى الله عليه وسلم – إلى يوم القيامة، يهدي إلى الشريعة الإسلامية الحقة الصادقة، التي بلغت نهاية الكمال في الاستقامة، واشتملت على كل ما يقيم أمر الإنسان في الدنيا – بسلامة، ويضمن له الفوز في الآخرة – في أمن من الحسرة والندامة: بما حوت من عقائد صحيحة، ومن عبادات سمحة صافية تبعث على الخير، وتصرف عن الشر، ومن أخلاق شريفة، ومن أصلح نظم السياسة والحكم، ومن معاملات العدل والرحمة: (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد).

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، الذي أيد الله دعوته بالقرآن معجزة[1] دائمة باقية: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا

---

(١) القرآن – معجز: ببلاغة نظمه، فليس مثله كلام، وقد قال في حقه الوليد بن المغيرة، وهو ممن مات على الكفر: عناداً واستكباراً: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة – أي حسناً وجمالاً – وإن أعلاه لمثمر. وإن أسفله لمغدق – أي لكثير الماء – وما هو بقول بشر، والقرآن معجز: – أيضاً – بتشريعه =

بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى هَذَا الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، ذَوِى الرُّتَبِ الْعَلِيَّةِ فِى مَيَادِينِ الْقُوَّةِ وَالْكَرَامَةِ : (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ) .

أَمَّا بَعْدُ :

فَالْقُرْآنُ ـ كَلاَمُ اللهِ تَعَالَى ، الَّذِى نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، عَلَى قَلْبِ رَسُولِهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُبِينٍ ، شَاهِداً عَلَى صِدْقِهِ ، فَكَانَ لِلنَّاسِ هُدًى وَرَشَاداً : (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُبِينٍ) .

لَقَدْ كَانَ الْعَالَمُ قَبْلَ إِرْسَالِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِى أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَإِلَى الإِنْقَاذِ مِنَ الْفَوْضَى وَالظُّلْمِ وَالْخَوْفِ وَالْفَسَادِ ، فَأَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَلِّغُهُ قُرْآنَهُ ، فَأَحْيَاهُ بِالْعَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ ـ حَيَاةَ الْكَرَامَةِ ، وَأَنْقَذَهُ مِنَ الذُّلِّ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ ـ إِلَى الْعِزِّ بِعِبَادَةِ اللهِ ، الَّذِى لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ وَلاَ مَعْبُودَ سِوَاهُ ، الْقَائِلِ : (يَاأَيُّهَا

= المحكم الذى لااختلاف فيه ولاتناقض ، مع شموله كل جوانب الحياة الإنسانية وبإخباره بالغيب ، مامضى منه وماهو آت ، وبكونه لايتعارض مع مايثبته العلم فمثلا أثبت العلم ـ أن الماء أصل الحياة ، والقرآن يقول : (وجعلنا من الماء كل شىء حى) . ولم يقرر العلم شيئاً ينافى ماجاء فى القرآن من سنن الله الكونية ، وكلما تأمل المفكرون هدوا إلى ماشاء الله من أمور إعجازه .

النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

وَكَمَا دَعَا القُرْآنُ الكَرِيمُ إِلَى الإِيمَانِ بِاللهِ وَعِبَادَتِهِ وَالإِقْرَارِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ دَعَا إِلَى الإِيمَانِ بِالمَلَائِكَةِ وَبِالكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا سُبْحَانَهُ مِنْ قَبْلِ القُرْآنِ وَبِالرُّسُلِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ: قَالَ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً).

وَدَعَا القُرْآنُ إِلَى الصَّلَاةِ الَّتِي تَرْبِطُ العَبْدَ بِاللهِ، وَتُقَوِّي فِي نَفْسِهِ الخَشْيَةَ مِنْهُ تَعَالَى: قَالَ سُبْحَانَهُ: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ).

وَدَعَا إِلَى الصَّوْمِ، وَهُوَ رِيَاضَةٌ بَدَنِيَّةٌ وَنَفْسِيَّةٌ: قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

وَدَعَا إِلَى الزَّكَاةِ، وَهِيَ مُطَهِّرَةٌ لِلنَّفْسِ مِنَ الشُّحِّ وَالبُخْلِ، وَكَفِيلَةٌ بِحَاجَةِ المُحْتَاجِ، وَمُقَوِّيَةٌ لِرَوَابِطِ المَوَدَّةِ بَيْنَ الفُقَرَاءِ وَالأَغْنِيَاءِ: قَالَ تَعَالَى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا).

وَدَعَا إِلَى الحَجِّ، وَهُوَ مُؤْتَمَرٌ إِسْلَامِيٌّ عَامٌّ، وَعِبَادَةٌ يَتَجَلَّى فِيهَا الإِذْعَانُ لِلَّهِ، وَالمُسَاوَاةُ بَيْنَ النَّاسِ: قَالَ تَعَالَى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً).

وَقَالَ جَلَّ وَعَزَّ : (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا[1] وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ[2] يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ[3] عَمِيقٍ[4] لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) .

وَبَيَّنَ الْقُرْآنُ نِظَامًا مُحْكَمًا . وَعِلَاجًا نَاجِعًا لِمُشْكِلَاتِ النَّاسِ : بِمَا شَرَعَ لَهُمْ فِي الزَّوَاجِ وَالطَّلَاقِ وَالْمِيرَاثِ وَشُئُونِ الْمَالِ وَفِي الْقِصَاصِ . وَالْحُدُودِ الَّتِي تَصُونُ الْمُجْتَمَعَ مِنَ الْفَسَادِ .

وَفِي عَلَاقَةِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِغَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ ، وَفِي عَلَاقَةِ الْحَاكِمِ بِالْمَحْكُومِينَ فِي الْأُمَّةِ ، وَفِي نِظَامِ الشُّورَى الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ الْحُكْمُ .

وَإِلَى تَحْقِيقِ مَصْلَحَةِ الْإِنْسَانِ وَنَفْعِهِ وَصِيَانَةِ حُقُوقِهِ مِنْ عَبَثِ الْمَطَامِعِ وَالْأَهْوَاءِ وَضَعَ الْقُرْآنُ قَوَاعِدَ الْمُعَامَلَاتِ

وَالْآدَابُ الْفَرْدِيَّةُ وَالِاجْتِمَاعِيَّةُ ـ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ـ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تُكَوِّنَ فَرْدًا صَالِحًا ، وَأُسْرَةً طَيِّبَةً ، وَمُجْتَمَعًا سَلِيمًا .

وَكُلُّ مَاجَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ مِنْ أَحْكَامٍ ، وَمَبَادِئَ وَنُظُمٍ ـ يَصْلُحُ لِلنَّاسِ جَمِيعًا عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ ، وَأَزْمَانِهِمْ ، وَبِيئَاتِهِمْ ، وَيَتَّسِعُ لِكُلِّ مَاتَتَكَشَّفُ عَنْهُ الْأَيَّامُ مِنْ تَطَوُّرٍ فِي الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ : قَالَ تَعَالَى : (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) .

وَكَمَا هَدَى الْقُرْآنُ لِلطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ : فِعْلًا ـ هَدَى لِلطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ : قَوْلًا ، فَرَقَّى اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ وَآدَابَهَا . إِذْ قَرَّبَ بَيْنَ لَهَجَاتِ

---

(١) مشاة (٢) أى وركبانا على كل بعير مهزول ، أتعبه بعد السفر ، فهزله . (٣) طريق (٤) بعيد .

الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَسَادَتْ بِهِ لُغَةُ قُرَيْشٍ ، وَظَفِرَتْ بِثَرْوَةٍ ضَخْمَةٍ مِنَ الْمُفْرَدَاتِ ، وَالْعِبَارَاتِ وَالْمَعَانِي وَالْأَمْثَالِ وَالْحِكَمِ ، وَهَذَّبَ الذَّوقَ الْأَدَبِيَّ وَصَقَلَهُ ، وَجَعَلَ الْأُدَبَاءَ يُؤْثِرُونَ الْأَسَالِيبَ الرَّقِيقَةَ الْعَذْبَةَ الْوَاضِحَةَ السَّهْلَةَ ، وَالْحُجَجَ الْمُقْنِعَةَ ، وَجَعَلَ اللغةَ العربيةَ لغةً حَيَّةً عَالَمِيَّةً تَفِي بِمَطَالِبِ الدُّوَلِ المتحضرة : مِنْ تَشْرِيعٍ وَعُلُوم وَفنون ، وَهُوَ الَّذِي أَبْقَاهَا عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ وَنَشَرَهَا ، فَقَدْ حَرَصَتِ الْأُمَمُ الَّتِي دَخَلَتْ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى أَنْ تَتَعَلَّمَهَا طَوَاعِيَةً ، وَتَهْجُرَ لِسَانَهَا الْأَصْلِيَّ : كَمَا حَدَثَ بِمِصْرَ ، وَشَمَالِ أَفْرِيقِيَّةَ ، وَكَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ ، مَعَ أَنَّنَا شَاهَدْنَا الدُّوَلَ الاسْتِعْمَارِيَّةَ تُحَاوِلُ فَرْضَ لُغَتِهَا عَلَى الْمُسْتَعْمَرَاتِ بِشَتَّى الْوَسَائِلِ ، فَلَمْ تُفْلِحْ ، وَلَمْ تَنْتَشِرْ لُغَتُهَا انْتِشَارَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِفَضْلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

وَيَا عَبْدَ اللهِ :

أَلَمْ يَكُنِ الْعَرَبُ ضَالِّينَ . يَعْبُدُونَ آلِهَةً مُتَعَدِّدَةً ، لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ فَهَدَاهُمُ اللهُ ـ بِالْقُرْآنِ ـ إِلَى تَوْحِيدِهِ تَعَالَى ، وَالاسْتِمْسَاكِ بِتَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ فَأَلَّفَ ـ بِذَلِكَ ـ بَيْنَهُمْ ، وَوَحَّدَ كَلِمَتَهُمْ ، وَقَوَّى وَحْدَتَهُمْ ، وَهُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِقَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا) وَجَعَلَهُمْ أَئِمَّةً هُدَاةً ، وَخَاطَبَهُمْ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) ، وَفِي زَمَنٍ يَسِيرٍ نَشَرُوا الْإِسْلَامَ مِنَ الصِّينِ إِلَى الْمُحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ . أَوَلَمْ يَكُونُوا أُمِّيِّينَ فَدَعَاهُمُ الْقُرْآنُ أَوَّلَ مَا نَزَلَ إِلَى أَنْ يَقْرَءُوا وَيَتَعَلَّمُوا : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ

الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) .

فاستجابوا لربهم ، فقرءوا وتعلموا ، وصاروا علماء حكماء يمشون بالهدى والنور ، وقد قال تعالى : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

وهكذا ـ أيها المسلم ـ يؤثر القرآن الكريم ـ حجة دينك ـ فيمن يقبل إليه صادقا ، ويستمسك به مخلصا ، فاهتد بنوره ، واملأ قلبك به ـ تنم بصلتك بربك ، وتعز وتسعد ـ بقيادتك لنفسك وعلاقتك بأسرتك ، ومعاملتك لزملائك ، وحياتك فى مجتمعك ، وما تقدم لأهلك ووطنك وقوميتك ودينك ، والإنسانية جمعاء من خير ونفع .

(إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

اتق الله ـ أيها المسلم ـ وأقبل على القرآن الكريم ، معطرا لسانك بتلاوته ، وتدبر معانيه ، واستمسك بهديه وأحكامه ، وادع له ، واعمل على نشر مبادئه ، وإعلاء كلمته على الدوام ـ تفز فوزا مبينا فى الدنيا والآخرة ، والله تعالى يقول : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فاقبلوا مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء

النَّافِعُ عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ وَنَجَاةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ لاَ يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ[١]، وَلاَ يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمَ ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ وَلاَ يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ أُتْلُوهُ ، فَإِنَّ اللهَ يَأْجُرُكُمْ عَلَى تِلاَوَتِهِ كُلُّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ أَمَا إِنِّي لاَ أَقُولُ لَكُمْ : أَلَمَّ : حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ وَلاَمٌ وَمِيمٌ » رَوَاهُ الْحَاكِمُ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ : رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّكُمْ لاَ تَرْجِعُونَ إِلَى اللهِ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِمَّا خَرَجَ مِنْهُ يَعْنِي الْقُرْآنَ » ، رَوَاهُ الْحَاكِمُ ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ : رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

---

(١) فيطلب منه الرجوع إلى ما كان عليه من عدم الزيغ .

٣ - الحث على حفظ آية الكرسي والفوز بفوائدها

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ . الَّذِي لَيْسَ لِجَلَالِهِ حَدٌّ . وَلَا لِصِفَاتِ كَمَالِهِ وَجَمَالِهِ عَدّ .

لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَكُلُّ مُمَيَّزٍ كَفَاهُ اعْتِزَازاً أَنْ يُقَالَ : هُوَ الْعَبْدُ .

« اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ ، خَيْرُ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ ، وَدَعَا إِلَى رِضَاهُ ، وَقَالَ :

« مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ مُضَاعَفَةٌ ، وَمَنْ تَلَاهَا كَانَتْ لَهُ نُوراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ . وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَأَطَاعُوهُ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ، وَأَسْلَمُوا إِلَيْهِ جَمِيعَ أُمُورِهِمْ ، فَطَابَتْ حَيَاتُهُمْ وَسَعِدَتْ آخِرَتُهُمْ : (لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

أَمَّا بَعْدُ فَيَا عِبَادَ اللَّهِ :

وَكَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم - أَبَا هُرَيْرَةَ[2] رضي اللهُ عنه بِحِفْظِ

---

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أحد المكثرين من رواية الحديث عنه صلى الله عليه وسلم . المذكورين في قول بعضهم :

زَكَاةِ رَمَضَانَ ، فَأَتَاهُ شَيْطَانٌ جِنِّيٌّ[1] - فِي صُورَةِ سَارِقٍ إِنْسِيٍّ : ثَلَاثَ لَيَالٍ مُتَوَالِيَةً : طَمَعاً فِي السَّرِقَةِ مِنْ تِلْكَ الزَّكَاةِ ، وَفِي اللَّيْلَةِ الأولَى وَالثَّانِيَةِ - أَخَذَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ : لِيَرْفَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ، فَاعْتَذَرَ بِأَنَّهُ مُحْتَاجٌ وَذُو عِيَالٍ ، وَوَعَدَ بِعَدَمِ الْعَوْدَةِ ، فَرَحِمَهُ وَخَلَّى سَبِيلَهُ ، وَفِي اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ - أَخَذَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ ، وَقَالَ لَهُ : هَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ. فَقَالَ : دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ - كَسَائِرِ الصَّحَابَةِ - كَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ ، فَقَالَ لَهُ : وَمَاهِيَ ؟ قَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ - فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ : (اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ...) حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ . فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ . وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ ، وَحَكَى فِي الصَّبَاحِ لِرَسُولِ اللهِ - مَا كَانَ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم :

« أَمَا إِنَّهُ صَدَقَكَ . وَهُوَ كَذُوبٌ . تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مِنْ ثَلَاثِ لَيَالٍ . يَاأَبَا هُرَيْرَةَ . ذَاكَ شَيْطَانٌ » .

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : « سُورَةُ الْبَقَرَةِ فِيهَا آيَةٌ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ لَا تُقْرَأُ فِي بَيْتٍ وَفِيهِ شَيْطَانٌ إِلَّا خَرَجَ مِنْهُ : آيَةُ الْكُرْسِيِّ »[2] .

= والمكثرون بحرهم وأنس ... عائشة وجابر المقدس
صاحب دوس وكذا ابن عمرا ... رب فتى بالمكثرين الضررا

وبحرهم هو ابن عباس رضى الله عنهما ، وصاحب دوس هو أبو هريرة رضى الله عنه ، فقبيلته : دوس .

(١) تشكل الجن فى غير صورهم - أمر مشهور ، ومن أدلته - هذا المذكور فى هذه القصة ، التى رواها البخارى فى صحيحه .

(٢) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وَمَعْنَى أَفْضَلِيَّةِ هَذِهِ الآيَةِ عَلَى سِوَاهَا ـ أَنَّ الثَّوَابَ عَلَى قِرَاءَتِهَا : مِنَ الْمُتَدَبِّرِ لَهَا ، الصَّادِقِ الإِيمَانِ بِهَا ـ أَعْظَمُ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى قِرَاءَةِ سِوَاهَا ، وَإِلا فَآيَاتُ الْقُرْآنِ كُلُّهَا ـ سَوَاءٌ فِي الْكَمَالِ لاَ نَقْصَ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا .

وَلاَ عَجَبَ أَنَّ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ـ بِهَذَا الْقَدْرِ السَّنِيِّ ، فَقَدْ تَضَمَّنَتْ صِفَاتِ اللهِ الْعَلِيَّةَ ، وَأَنَّهُ وَحْدَهُ ـ الْقَائِمُ ـ عَلَى الدَّوَامِ ـ بِتَدْبِيرِ الْخَلْقِ مِنْ غَيْرِ سَهْوٍ ، الْمَالِكُ لِمَا يُدَبِّرُهُ ، صَاحِبُ الْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، الْمُحِيطُ عِلْمًا بِأَحْوَالِ الْخَلْقِ ، مَاضِيهَا ، وَحَاضِرِهَا ، وَمُسْتَقْبَلِهَا ، الأَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُقَاسَ بِهِ فِي الْقَدْرِ وَالْعَظَمَةِ أَحَدٌ ، فَلاَ يَلِيقُ أَنْ يُسَوَّى بِهِ شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ : لِذَلِكَ ـ أَسْقَطَ الْعُقَلاَءُ الأَصْنَامَ . وَدُوَلَ الْمُتَجَبِّرِينَ ، فَلاَ عُبُودِيَّةَ إِلاَّ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ :

(اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) .

يَا قَوْمِ يَا بَنِي الإِسْلاَمِ :

اللهُ : الَّذِي خَلَقَ وَرَقَةَ التُّوتِ : طَعْمُهَا ، وَلَوْنُهَا ، وَرِيحُهَا ، وَطَبْعُهَا ـ وَاحِدٌ ، وَمَعَ ذَلِكَ ـ يَخْلُقُ مِنْهَا أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً : يَأْكُلُهَا دُودُ الْقَزِّ ، فَيَخْلُقُ مِنْهَا سُبْحَانَهُ الْقَزَّ ، وَيَأْكُلُهَا النَّحْلُ ، فَيَخْلُقُ مِنْهَا الشَّهْدَ ، وَيَأْكُلُهَا الظِّبَاءُ ، فَيَخْلُقُ مِنْهَا الْمِسْكَ ، وَتَأْكُلُهَا الشَّاةُ فَيَخْلُقُ مِنْهَا الْبَعْرَ ، وَهُوَ

سُبْحَانَهُ الَّذِي بَصَّرَ بِشَحْمٍ ، وَأَسْمَعَ بِعَظْمٍ ، وَأَنْطَقَ بِلَحْمٍ :

(وَمِنْ[1] آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

أَيُّهَا الْمُتَفَكِّرُونَ . الْعَالِمُونَ . السَّامِعُونَ . الْعُقَلَاءُ :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) : لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ أَنْ يُطَاعَ وَلَا يُعْصَى : هَيْبَةً لَهُ ، وَإِجْلَالاً ، وَمَحَبَّةً ، وَخَوْفاً ، وَرَجَاءً ، وَتَوَكُّلاً عَلَيْهِ ، وَاسْتِعَانَةً بِهِ ، وَسُؤَالاً مِنْ فَضْلِهِ ، وَدُعَاءً لَهُ ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ سُبْحَانَهُ ، وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ ، وَمَنْ صَدَقَ فِي اعْتِقَادِ ذَلِكَ - لَا يُطِيعُ شَيْطَاناً ، وَلَا يُوَافِقُ هَوَى نَفْسِهِ ، وَنُصْبُ عَيْنَيْهِ - قَوْلُهُ تَعَالَى :

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) .

---

(١) أي ومن العلامات الدالة على قدرته تعالى .

وَلِذَلِكَ ـ لَمَّا أَكْرَهَ رَجُلٌ امْرَأَةً عَلَى نَفْسِهَا ، وَأَمَرَهَا بِإِغْلَاقِ الأَبْوَابِ فَأَغْلَقَتْهَا ، فَقَالَ لَهَا : هَلْ بَقِيَ بَابٌ لَمْ تُغْلِقِيهِ ـ قَالَتْ بِصِدْقِ إِيمَانٍ ، وَهِيَ طَارِحَةٌ لِهَوَاهَا : نَعَمِ الْبَابُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللهِ . . فَأَخَافَهُ اللهُ مِنْهَا ، فَتَرَكَهَا ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا .

وَإِلَهُنَا الْوَاحِدُ ـ يَاقَوْمِ ـ (الْحَيُّ) الَّذِي لَا أَوَّلَ لِحَيَاتِهِ وَلَا انْتِهَاءَ لَهَا فَلَا يَلْحَقُهُ عَدَمٌ وَلَا فَنَاءٌ : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ، (الْقَيُّومُ) : الدَّائِمُ الْقِيَامِ بِتَدْبِيرِ الْخَلْقِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ : (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) ، (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ[1] . وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ[2] الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ، وَلِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَيُّومٌ : (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ) نُعَاسٌ (وَلَا نَوْمٌ)[3] .

وَلِذَلِكَ ـ لَمَّا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : هَلْ يَنَامُ رَبُّكَ ؟

---

(١) منقادون لفعله فيهم لا يمتنعون عليه .

(٢) الوصف العجيب الشأن : كالقدرة العامة والحكمة التامة .

(٣) قال الإمام أحمد الفيومى فى المصباح المنير مانصه : (وأول النوم النعاس : وهو أن يحتاج الإنسان إلى النوم ، ثم الوسن : وهو ثقل النعاس : ثم الترنيق : وهو مخالطة النعاس العين ، ثم الكرى والغمض : وهو أن يكون الإنسان بين النائم واليقظان ، ثم العنق : وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم ، ثم الهجود والهجوع .

أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : (قُلْ لِهَؤُلَاءِ : إِنِّي أُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقُدْرَتِي . فَلَوْ أَخَذَنِي نَوْمٌ أَوْ نُعَاسٌ لَزَالَتَا).

يا قَوْم :

إِلٰهُنَا الْمَوْصُوفُ بِهٰذَا الْكَمَال : (لَهُ) لَا لِغَيْرِهِ (مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) فَجَمِيعُ مَا فِيهَا ـ مِلْكٌ لَهُ تَعَالَى ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ : (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا).

فَلَا يَغْتَرَّ الْإِنْسَانُ بِعُصْبَتِهِ ، وَلَا يَتَجَبَّرْ بِشِيعَتِهِ ، وَلَا يُرْضِ أَحَدًا فِي مَعْصِيَةِ خَالِقِهِ ، فَلَا يَنْصُرْ ظَالِمًا ، وَلَا يَشْهَدْ زُورًا لِأَحَدٍ ، فَإِنَّهُ يَجِيءُ فَرْدًا يَوْمَ الْحِسَابِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدْفَعَ حُكْمَ اللهِ عَلَيْهِ بِعَذَابٍ. وَلَا أَنْ يَشْفَعَ لَهُ إِلَّا بِأَمْرِهِ تَعَالَى : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) ، وَلِذَلِكَ قَالَ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ لِفِلْذَةِ كَبِدِهِ ابْنَتِهِ : « يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا »[1].

وَهُوَ سُبْحَانَهُ : (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) : يَعْلَمُ مَا قَبْلَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ، وَمَا بَعْدَهُمْ : (إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) . (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) فَلَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مَا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، كَمَا أَطْلَعَ الرُّسُلَ

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

وَالأنبياء وَالأولياء : وَكَمَا يُطْلِعُ سُبْحَانَهُ بِالرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ ، عَلَى بَعْضِ الأمُورِ المُسْتَقْبَلَةِ مَنْ يَشَاء ، وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لاَ يُطْلِعُ الدَّجَّالِينَ عَلَى غَيْبٍ مُسْتَقْبَلٍ : لأنَّهُ لاَ يُكْرِمُ الضَّالِّينَ المُضِلِّينَ ، وَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلمَ : « مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ اللهُ : (إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) »[1] .

وَكَمَا جَعَلَ سُبْحَانَهُ الكَعْبَةَ بَيْتاً لَهُ يَطُوفُ النَّاسُ بِهِ : لِنَيْلِ المَقَاصِدِ - كَمَا يَطُوفُونَ - لِذَلِكَ - بِبُيُوتِ المُلُوكِ وَالحُكَّامِ - جَعَلَ سُبْحَانَهُ لَهُ - وَلَهُ المَثَلُ الأعْلَى - كُرْسِيًّا وَعَرْشاً : كَالمُلُوكِ وَالحُكَّامِ : يَدُلاَّنِ عَلَى عِظَمِ قَدْرِهِ وَنُفُوذِ سُلْطَانِهِ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ عَنْهُمَا غَنِيٌّ : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) . وَقَالَ : (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ) وَقَالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ عِنْدَ الكُرْسِيِّ إِلاَّ كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاَةٍ . وَإِنَّ فَضْلَ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلاَةِ عَلَى تِلْكَ الحَلْقَةِ »[2] وَقَالَ تَعَالَى : (وَلاَ يَئُودُهُ) وَلاَ يُثْقِلُهُ ، وَلاَ يَشُقُّ عَلَيْهِ (حِفْظُهُمَا) حِفْظُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ (وَهُوَ العَلِيُّ) المُتَعَالِي عَنِ الأنْدَادِ وَالأشْبَاهِ (العَظِيمُ) المُسْتَحْقَرُ بِالنِّسْبَةِ لَهُ كُلُّ مَاسِوَاهُ .

---

(١) رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما .

(٢) رواه أبو بكر بن مردويه عن أبي ذر الغفارى رضى الله عنه .

أيها المسلم :

اتقِ اللهَ . واحفظ آيةَ الكرسيِّ - إن لم تكن حافظاً لها ، وتدبَّرْ معانيها ، واقرأها صباحاً ومساءً ومتى شئتَ ، وعقبَ الصلوات ، وخاصةً المكتوباتِ وأنتَ واقفٌ عندَ حدودِها ، مُبَرهِنٌ بسلوكِكَ - أنكَ مؤمنٌ بها ، ومستنيرٌ بنورِها : لتحفظَ أنتَ وبيتُكَ من السوءِ والضُّرِّ - إذ أقمتَ بذلكَ - حارساً قويّاً يقظاً أميناً عليكَ وعلى أهلِكَ ، وليقوى إيمانُكَ باللهِ العزيزِ القهارِ ، فترجو جنّتَهُ وثوابَهُ ، وتخافَ نارَهُ وعذابَهُ ، وتطيعَهُ ولا تعصيَه ، وتحسنَ على الدوامِ ولا تسيء : (وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) .

قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ قرأَ آيةَ الكرسيِّ دُبُرَ كُلِّ صلاةٍ لم يمنعْهُ مِنْ دُخُولِ الجنةِ إلا أنْ يموتَ » رواهُ النسائيُّ والطبرانيُّ[1] ، عن أبي أُمامةَ رضيَ اللهُ عنهُ .

وقالَ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ : « مَنْ قرأَ آيةَ الكرسيِّ في دبرِ الصلاةِ المكتوبةِ - كانَ في ذمةِ اللهِ إلى الصلاةِ الأخرى » رواهُ الطبرانيُّ ، عن الحسنِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهما .

وقالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ لأُبيِّ بنِ كعبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : « يا أبا المنذرِ[2] . أتدري أيُّ آيةٍ من كتابِ اللهِ معكَ أعظمُ ؟ قالَ : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ قالَ : يا أبا المنذرِ . أتدري أيُّ آيةٍ مِنْ كتابِ اللهِ معكَ

---

(١) زاد الطبراني في بعض طرقه : (وقل هو الله أحد) .

(٢) أبو المنذر : كنية أبي بن كعب .

أعظمُ ؟ قالَ : (اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ . . .) ، فضَرَبَ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ في صَدْرِهِ ، وقالَ : « وَاللهِ لِيَهْنِكَ[1] العِلْمُ أَبَا المُنْذِرِ » . رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ .

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ : « لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ[2] . وَإِنَّ سَنَامَ القُرْآنِ سُورَةُ البَقَرَةِ . وَفِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ القُرْآنِ : آيَةُ الكُرْسِيِّ » .

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

---

(١) أي ليكن العلم هنيئاً لك . ونافعاً لك . ورافعاً لذكرك .
(٢) أي علو .

٤ — الموعظة النافعة ـ بسورة الواقعة

(الحمدُ للهِ الذِي أنزلَ عَلَى عبدِهِ الكتابَ ، ولمْ يجعلْ لهُ عِوَجاً قيِّماً لِيُنذِرَ بأساً شديداً مِنْ لدُنْهُ ويُبشِّرَ المؤمنينَ الذينَ يعملونَ الصالحاتِ أنَّ لهمْ أجراً حسناً ماكثينَ فيهِ أبداً) .

وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ : أنزلَ القرآنَ الكريمَ ، مُسْتوفياً هدايةَ الأرضِ والسماءِ : (ذلكَ الكتابُ لاَ رَيْبَ فيهِ هُدًى لِلمُتَّقِينَ) .

وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمَّداً رسولُ اللهِ ، الذِي اختصَّهُ سُبحانَهُ بالمُعجزةِ الخالدةِ ، وقدْ اختارَهُ رسولاً للناسِ كافَّةً . وقالَ لهُ : (قلْ أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً قُلِ اللهُ شهيدٌ بيني وبينَكمْ وأوحيَ إليَّ هذا القرآنُ لأُنذِرَكُمْ بهِ ومَنْ بلَغَ أئنَّكمْ لتشهدونَ أنَّ معَ اللهِ آلهةً أخرى قلْ لاَ أشهدُ قلْ إنَّما هوَ إلهٌ واحدٌ وإنَّني بريءٌ ممَّا تُشركونَ) .

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ عَلَى سيِّدِنا محمَّدٍ ، وعلَى آلهِ وصحبهِ ، الذينَ تدبَّروا القرآنَ . وتواصَوْا بحفظهِ ، والاستمساكِ بهِ ، فنشرُوا الخيرَ في الوجودِ ، ففازُوا وسعِدُوا في اليومِ الموعودِ : (ذلكَ يومٌ مجموعٌ لهُ الناسُ وذلكَ يومٌ مشهودٌ) .

أمَّا بعدُ :

فاللهُ تبارَكَ وتعالَى الذِي خلقَنا لعبادتِهِ : (وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاَّ ليعبدُونِ) هدانا إليْها برسولٍ كريمٍ ، أنزلَ عليهِ قولَهُ الحكيمَ :

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ).

وَانْتَبِهُوا - عِبَادَ اللهِ - مَرِضَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - مَرَضَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَزَارَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ: رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. فَقَالَ لَهُ: مَاتَشْتَكِي؟ قَالَ: ذُنُوبِي. فَقَالَ لَهُ: مَاتَشْتَهِي؟ قَالَ: رَحْمَةَ رَبِّي فَقَالَ لَهُ: أَلاَ آمُرُ لَكَ بِطَبِيبٍ؟ قَالَ: الطَّبِيبُ أَمْرَضَنِي. قَالَ: أَلاَ آمُرُ لَكَ بِعَطَاءٍ؟ قَالَ: لاَحَاجَةَ لِي فِيهِ. قَالَ: يَكُونُ لِبَنَاتِكَ مِنْ بَعْدِكَ. قَالَ: أَتَخْشَى عَلَيْهِنَّ الْفَقْرَ؟ إِنِّي أَمَرْتُهُنَّ أَنْ يَقْرَأْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ - سُورَةَ الْوَاقِعَةِ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَدًا»[1].

عِبَادَ اللهِ:

أَتَدْرُونَ. لِمَاذَا: إِنَّ هَـذِهِ السُّورَةَ الْكَرِيمَةَ - هَادِيَةٌ - لِمَنْ تَدَبَّرَ مَعَانِيهَا، وَاتَّعَظَ بِعِظَاتِهَا - لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، فَيَتَّقِي رَبَّهُ، وَيَسْتَعِدُّ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ - بِفِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِبُ)، فَكَيْفَ يَخْشَى الْفَاقَةَ وَالْفَقْرَ - قَارِئُهُ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ وَقَارِئَتُهَا - بِتَدَبُّرٍ وَاسْتِفَادَةٍ، وَوُقُوفٍ عِنْدَ حُدُودِ اللهِ، الَّذِي لاَيُخْلِفُ وَعْدَهُ: (وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ).

فَيَاحَرِيصًا عَلَى تَدَبُّرِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ. وَالِانْتِفَاعِ بِهَا قَالَ تَعَالَى: (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ. خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ. إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ

---

(١) رواه ابن عساكر والبغوى. وأبو يعلى.

رَجا . وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنبَثًّا . وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً . فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) .

الْوَاقِعَةُ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَوْمُ زَلْزَلَةِ الْأَرْضِ ، وَتَفَتُّتِ الجِبَالِ ، وَتَفَرُّقِهَا غُبَاراً . فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ـ يَجْتَمِعُ النَّاسُ ، وَهُمْ مُخْتَلِفُو الرُّتَبِ : لاَ بِالْهَوَى وَلَكِنْ وَفْقَ الْقُرْبِ مِنَ اللهِ ـ بِطَاعَةِ اللهِ . وَالْبُعْدِ عَنْهَا فِي دُنْيَاهُ ـ يَكُونُونَ أَصْنَافاً ثَلاَثَةً فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَبُوسِ ، وَلِكُلِّ صِنْفٍ جَزَاؤُهُ : (وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ) .

اللهُ أَكْبَرُ : مَا أَعْظَمَ كَرَمَهُ . فِي جَزَاءِ مَنْ حَازُوا الدَّرَجَةَ الْعُلْيَا : أُولَئِكَ الأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ . وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، الَّذِينَ لَمْ يَعْرِفْهُمُ النَّهَارُ إِلاَّ بِحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ وَصَلاَحِ الأَعْمَالِ ، وَلَمْ يَعْرِفْهُمُ اللَّيْلُ إِلاَّ بِذِكْرِ اللهِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ، الَّذِي قَالَ : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . ثُلَّةٌ ـ أَيْ جَمَاعَةٌ ـ مِنَ الأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ . عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ـ أَيْ مَنْسُوجَةٍ مِنْ ذَهَبٍ ـ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ ـ أَيْ لاَ تَذْهَبُ عُقُولُهُمْ بِشُرْبِ خَمْرِ الْجَنَّةِ ، فَهِيَ لاَ تُصَدِّعُ وَلاَ تُسْكِرُ ـ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ . جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً) .

وفى جزاء أصحاب الميمنة ، الذين كثرت حسناتهم - قال جل شأنه :
(وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . فى سدر - أى نبق - مخضود - أى مقطوع الشوك - وطلح - أى موز - منضود - أى منتظم - وظل ممدود . وماء مسكوب - أى متدفق - وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة أى فهى موجودة فى كل زمن . وفرش - ثمن - وفرش مرفوعة قال صلى الله عليه وسلم : « ارتفاعها كما بين السماء والأرض ، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام »[1] .

(إنا أنشأناهن - أى نساء الجنة - إنشاء . فجعلناهن أبكاراً . عرباً - أى متحببات لأزواجهن : بالملاحة والظرافة وحسن المعاملة - أتراباً : أى على سن واحدة - لأصحاب اليمين . ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين) .

(وأصحاب الشمال - أى الذين أعطوا كتابهم بشمالهم - وهم الكافرون - ما أصحاب الشمال : ما جزاؤهم . وما الذى سبب لهم هذا الجزاء : (فى سموم وحميم - أى ماء شديد الحرارة . وظل من يحموم - أى دخان شديد السواد - لا بارد ولا كريم : إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث - أى الذنب - العظيم . وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون . قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم . ثم إنكم أيها الضالون المكذبون .

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا والترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ - أي الإبلِ العِطَاشِ - هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ).

وَيُلْحَقُ بِالْكُفَّارِ فِي دُخُولِ النَّارِ - عُصَاةُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَعْدَ تَمْحِيصِ أُولَئِكَ الْعُصَاةِ . وَتَطْهِيرِهِمْ - بِالْعَذَابِ مِنَ الذُّنُوبِ - يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ ، وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .

فَانْتَبِهُوا يَاقَوْمِ : إِلَى آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ ، وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَسَائِرِ صِفَاتِ أُلُوهِيَّتِهِ : لِتَعْبُدُوهُ ، وَلاَ تَعْصُوهُ ، فَلاَ تَنْحَطَّ دَرَجَتُكُمْ عِنْدَ اللهِ ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ الشِّمَالِ وَلِتَسْعَدُوا بِدُخُولِ الْجَنَّةِ بِدُونِ سَابِقَةِ عَذَابٍ .

قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ . أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ . نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ . أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ . أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا - أي يَابِسًا - فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ - أي تَعْجَبُونَ أَوْ تَنْدَمُونَ قَائِلِينَ : إِنَّا لَمُغْرَمُونَ - أي لَمُصَابُونَ بِغَرَامَةٍ - بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ . لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا - أي شَدِيدَ الْمُلُوحَةِ - فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ . أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ - أي تُوقِدُونَ -

أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة - أي لنار الآخرة - ومتاعاً للمقوين - أي للمحتاجين لحرها أو نورها .

أيها المسلمون :

اتقوا الله ، وانظروا - معتبرين - لما خلق الله : من آيات في الآفاق . وفي أرضه وسمائه ، وتدبروا آيات ربكم القرآنية ، كما تتدبرون آياته تعالى الكونية ، وقد قال جل شأنه : (فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين . أفبهذا الحديث أنتم مدهنون - أي مسرون خلاف ما تظهرون - وتجعلون رزقكم - أي شكركم على رزق الله لكم ، ومن أعظمه آيات كتابه - أنكم تكذبون أي ولا تعتبرون ولا تنتفعون ، وليملأ المسلم نفسه عظة بتلك الظاهرة ، الدالة على عظم قدرة صاحب القوة القاهرة - الموت - ذلك هادم اللذات ومفرق الجماعات ؛ إنه سبحانه - ينزع الحبيب من بين أحبائه - بإخراج روحه من جسده انتزاعاً ، حيث لا يقدرون على ردها ، وتمتعه بالحياة ، قال تعالى : (فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين - أي غير مجزيين يوم القيامة على ما في الدنيا تعملون : يقول ذلك الكفار بلسان المقال ، والعصاة بلسان الحال - ترجعونها - أي الروح للجسد - إن كنتم صادقين) .

وَقُبَيْلَ خُرُوجِ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ - وَالْعَبْدُ فِي الاحْتِضَارِ - يُرِيهِ اللهُ مَصِيرَهُ ، وَمِنْ أَيِّ صِنْفٍ هُوَ مِنَ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ . أَهُوَ مِنَ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ ، أَمْ هُوَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، الَّذِينَ فَازُوا فِي دُنْيَاهُمْ بِالصَّالِحَاتِ وَالتَّوْبَةِ ، أَمْ هُوَ مِنْ أَصْحَابِ الشِّمَالِ . أَوْ مِنَ الْمُلْحَقِينَ بِهِمْ ، وَهُمُ الْعُصَاةُ الَّذِينَ لَمْ يَتُوبُوا قَبْلَ فِرَاقِ الْحَيَاةِ .

(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ - أَى فَلَهُ رَحْمَةٌ أَوْ فَرَحٌ وَسُرُور - وَرَيْحَانٌ - أَيِ اسْتِرَاحَةٌ . أَوْ طِيبُ رَائِحَةٍ عِنْدَ قَبْضِ رُوحِهِ . وَفِى قَبْرِهِ . وَعِنْدَ بَعْثِهِ - وَجَنَّةُ نَعِيمٍ - أَى جَنَّةٌ ذَاتُ تَنَعُّمٍ فِى آخِرَتِهِ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ - فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ : أَىْ يَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْمُتَوَفَّى مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ عِنْدَ قَبْضِ رُوحِهِ . وَفِى قَبْرِهِ . وَفِى الْجَنَّةِ : سَلَامٌ لَكَ يَاصَاحِبَ الْيَمِينِ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ - فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ - أَى فَلَهُ إِكْرَامٌ ، عَذَابٌ شَدِيدٌ فِى الْبَرْزَخِ - بِحَرَارَةِ النَّارِ وَدُخَانِهَا . وَإِدْخَالٌ فِى النَّارِ فِى الْآخِرَةِ ، وَمُقَاسَاةٌ لِأَلْوَانِ عَذَابِهَا ، إِنَّ هَذَا - أَى الَّذِى ذَكَرْنَاهُ - يَاعَبْدَ اللهِ - فِى هَذِهِ السُّورَةِ - لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ - أَى لَهُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ مِنَ الْيَقِينِ ، وَالْعِلْمِ الْمُتَيَقَّنِ . الَّذِى لَاشَكَّ فِيهِ - فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) .

قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ . خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ . ثَقِيلَتَانِ فِى الْمِيزَانِ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ . سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ » .

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : يَارَسُولَ اللهِ . قَدْ شِبْتَ .

قَالَ صلى اللهُ عليهِ وسلم : (شَيَّبَتْنِي هُودُ . وَالْوَاقِعَةُ . وَالْمُرْسَلَاتُ ، . وَعَمَّ يَتَسَاءلُونَ . وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » .

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ .

---

٥ – صفات عباد الرحمن وجزاؤهم

الْحَمْدُ لِلَّهِ: أَنْعَمَ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ – بِنَبِيِّهِ الْمُرْسَلِ، وَكِتَابِهِ الْمُنَزَّلِ، الَّذِي يَهْدِي إِلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ وَيَكْسِبُ الْخَيْرَ الْعَمِيمَ، وَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ – بِعِبَادَتِهِ – يُحْيِي الضَّمَائِرَ، وَيَدْفَعُ الْهُمُومَ، وَيَمْنَحُ الْحُرِّيَّةَ وَالسِّيَادَةَ، وَالْعِزَّةَ وَالسَّعَادَةَ، وَلِذَلِكَ – كَلَّفَ بِهَا عِبَادَهُ، مُدَّةَ حَيَاتِهِمْ، وَقَالَ: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، وَكَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَاسْتَعَانَ بِهَا عَلَى تَبْدِيدِ مَا أَهَمَّهُ، وَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: «مَا أَوْحَى اللَّهُ أَنْ أَجْمَعَ الْمَالَ وَأَكُونَ مِنَ التَّاجِرِينَ، وَلَكِنْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ»[1] أَيِ الْمَوْتُ.

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ الْهُدَاةِ، وَصَحَابَتِهِ، عِبَادِ الرَّحْمَنِ الْأَطْهَارِ التُّقَاةِ: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ).

أما بعد:

فَمِنْ عِبَادِ الرَّحْمَنِ – أَبُو بَكْرٍ الْوَاسِطِيُّ: مَرَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِدُكَّانِ

---

(١) رواه البغوى، عن جبير بن نفير: رضى الله عنه.

مُصْلِح نِعَالٍ ، وَهُوَ قَاصِدُ الْمَسْجِدِ : لِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ ، فَانْقَطَعَ شِسْعُ[1] نَعْلِهِ ، وَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِذَا انْقَطَعَ شِسْعُ نَعْلِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَمْشِ فِي الْأُخْرَى حَتَّى يُصْلِحَهَا »[2] ، وَقَالَ : « إِذَا انْقَطَعَ شِسْعُ نَعْلِ أَحَدِكُمْ فَلْيَسْتَرْجِعْ : فَلْيَقُلْ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، فَإِنَّهَا مِنَ الْمَصَائِبِ »[3] وَلِذَلِكَ أَعْطَى الْوَاسِطِيُّ النَّعْلَ لِمُصْلِحِ النِّعَالِ ، وَلَهُ قَالَ مُتَّعِظاً وَوَاعِظاً : أَتَدْرِي : لِمَ انْقَطَعَ شِسْعُ نَعْلِي ؟ قَالَ : لَا . قَالَ لِأَنِّي مَا اغْتَسَلْتُ لِلْجُمُعَةِ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ مُصْلِحُ النِّعَالِ دُخُولَ حَمَّامٍ بِجِوَارِهِ ، فَقَبِلَ : وَاغْتَسَلَ فِيهِ غُسْلَ الْجُمُعَةِ ، وَهُوَ سُنَّةٌ : قَالَ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَبِهَا وَنِعِمَتْ : وَمَنِ اغْتَسَلَ - فَالْغُسْلُ أَفْضَلُ »[4] :

وَإِذَا كَانَ أَبُو بَكْرٍ هَذَا - قَدَّرَ السُّنَّةَ كَذَلِكَ ، مُوقِناً أَنَّ تَقْصِيرَهُ فِيهَا - هُوَ سَبَبُ مَا أَصَابَهُ مِنْ شَرٍّ - فَلَا عَجَبَ أَنِ اشْتَهَرَ بِفِعْلِ مَا أَوْجَبَهُ اللهُ ، وَتَرْكِ مَا حَرَّمَهُ اللهُ وَعَرَفَهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ بِطَاعَتِهِ تَعَالَى ، فَحَازَ شَرَفَ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ ، وَكَانَ عَبْداً لِلرَّحْمٰنِ حَقًّا ، جَدِيراً بِإِكْرَامِهِ ، مَعْدُوداً فِي أَهْلِ رِضَاهُ ، حَرِيًّا أَنْ يُقْتَدَى بِهِ .

وَهَكَذَا - كُلُّ عَبْدٍ لِلرَّحْمٰنِ رَشِيدٍ سَعِيدٍ - يَعِيشُ فِي غَايَةِ التَّذَلُّلِ

---

(١) سير النعل بين الأصابع حتى يمكن المشي بها .
(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) رواه البزار ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن سمرة رضي الله عنه .

وَالخُضوعِ للهِ ، المُتَفضِّلِ بالإحسانِ يُطيعهُ عَلَى الدَّوامِ في كلِّ زمانٍ ، ولسانُ حالِهِ يُخاطِبُهُ تعالَى ، فيقولُ :

عزمتُ عَلَى ألاَّ أحسَّ بخاطرٍ عَلَى القلبِ إلاَّ كُنتَ أنتَ المُقدَّما
وألاَّ تَرَاني عندَ ما قدْ نَهيتَني لِكَونِكَ في قلبي كبيراً مُعظَّما

وجزاءُ العُبُوديةِ طيبُ الحياةِ ، وحُسْنُ العاقبةِ يومَ لِقاءِ اللهِ ، وليسَ شيءٌ أشرفَ منَ العُبُوديةِ للرَّحْمنِ تباركَ وتعالَى ، ولاَ وصفَ للمُؤْمنِ أكملُ منْ هذَا الوصفِ ، وكفَاهُ فضْلاً أنَّهُ سُبْحانَهُ وصفَ النَّبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم بهِ ، ليلةَ الإسْراءِ والمِعْراجِ ، وهيَ أشرفُ أوقاتِهِ في الدُّنيا فقالَ : (سُبْحانَ الَّذِي أسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً منَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى) . وقالَ : (فأَوْحَى إلَى عَبْدِهِ ما أَوْحَى) .

يا قوْمِ :

النَّاسُ جميعاً : صالِحُهُمْ وطالِحُهُمْ ، مُسْلِمُهُمْ وكافرُهُم - عِبادُ الرَّحْمنِ : منْ حَيْثُ إنَّهُ خَلَقَهُمْ ، ويتصرَّفُ فيهِمْ كما يشاءُ : وقالَ جلَّ شأنُهُ : (إنْ كلُّ مَنْ في السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ إلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً) ولكنِ الفائزُونَ منْهُمْ لشرَفِ العُبُوديةِ ، الفائزُونَ بعَظِيمِ قدْرِهَا ، وحُسْنِ جزائِها - هُمْ مَنْ وصَفَهُمُ اللهُ تعالَى ، فقالَ : (وعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً) : يسيرُونَ لِتأديةِ رسالتِهِمْ في الحياةِ - برِفْقٍ ولِينٍ ، وسكينةٍ ووقارٍ ، وتواضُعٍ ، فلاَ يعتَفُونَ عَلَى النَّاسِ ولاَ يتكبَّرُونَ بشيْءٍ عليْهِمْ ، ولاَ يذِلُّونَ لغيْرِ اللهِ : كما وصفَهُمُ الحسَنُ البصْريُّ فقال : (إنَّ المُؤْمنينَ قوْمٌ

ذُلُلٌ : أى هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ مُنْقَادُونَ لِلْحَقِّ كما قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ : كالْجَمَلِ الأَنِفِ - أى الَّذِى بِأَنْفِهِ وَجَعٌ - إِنْ قِيدَ انْقَادَ ، وَإِذَا أُنِيخَ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتَنَاخَ »[1] ، ثُمَّ قالَ الْحَسَنُ : ذَلَّتْ أى انْقَادَتْ لِلْحَقِّ مِنْهُمْ وَاللهِ الأَسْمَاعُ وَالأَبْصَارُ وَالْجَوَارِحُ - أىْ سائِرُ الأَعْضَاءِ - حَتَّى يَحْسَبَهُمُ الْجَاهِلُ مَرْضَى ، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ وَإِنَّهُمْ وَاللهِ لأَصِحَّاءُ ، وَلَـكِنْ دَخَلَهُمْ مِنَ الْخَوْفِ مالَمْ يَدْخُلْ غَيْرَهُمْ ، وَمَنَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا عِلْمُهُمْ بالآخِرَةِ ، فقالُوا : الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحُزْنَ ، أَمَا وَاللهِ ما أَحْزَنَهُمْ ما أَحْزَنَ النَّاسَ . وَلاَ تَعَاظَمَ فِى نُفُوسِهِمْ شَىْءٌ طَلَبُوا بِهِ الْجَنَّةَ ، وَلَـكِنْ أَبْكَاهُمُ الْخَوْفُ مِنَ النَّارِ ، إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَتَعَزَّ بِعَزَاءِ اللهِ - أىْ مَنْ لَمْ يَتَصَبَّرْ بأَجْرِ الصَّبْرِ الَّذِى وَعَدَ بِهِ[2] اللهُ ، فقالَ : (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً) تَقَطَّعَ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسَرَاتٍ ، وَمَنْ لَمْ يَرَ لِلهِ نِعْمَةً إِلاَّ فِى مَطْعَمٍ أَوْ مَشْرَبٍ - فَقَدْ قَلَّ عِلْمُهُ وَحَضَرَ عَذَابُهُ » ، ثُمَّ قالَ تَعَالَى : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً » أىْ سَدَاداً مِنَ الْقَوْلِ ، يَسْلَمُونَ فِيهِ مِنَ الإِيذَاءِ ، وَمُجَارَاةِ السُّفَهَاءِ : فَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ - لاَ يُقَابِلُونَ الْقَوْلَ السَّيِّئَ بِمِثْلِهِ ، وَيَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ ، وَلاَ يَقُولُونَ إِلاَّ خَيْراً ، وَلِذَلِكَ كانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر رضى الله عنهما .

(٢) أى فى كثير من آياته ومنها الآية المذكورة . وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم : كقوله : (من صبر على القوت الشديد صبراً جميلا أسكنه الله من الفردوس حيث شاء) رواه أبو الشيخ ، عن البراء رضى الله عنه ، عنه صلى الله عليه وسلم .

وسلم لا تزيده شدة القول الجاهل عليه إلا حلماً ، وشتم رجل أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو ساكت ، فلما ابتدأ ينتصر منه – قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : إنك كنت ساكتاً لما شتمني ، فلما تكلمت – قمت ؟ قال : لأن الملك – كان يجيب عنك ، فلما تكلمت – ذهب الملك ، وجاء الشيطان ، فلم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان)[1] .

ولذلك – كان الأفضل ترك مقابلة القول الذى يسوء النفس بمثله ولو لم يزد[2] على قدر الحق ، ولم يكن كذباً ، ولا حراماً ، فإذا زاد على قدر الحق ، أو كان كذباً ، أو حراماً : كالنسبة إلى الفحش ، وسب الوالدين كانت المقابلة إثماً يعاقب عليه .

وبعد أن وصف الرحمن سبحانه – عباده أهل الفضل والكمال في نهارهم ، وبين ماذا يفعلون فيه – وصفهم في ليلهم ، وذكر فعلهم فيه ، وأنهم يحيونه كله أو أكثره بطاعته تعالى ، فقال : (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً) وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من صلى العشاء في

---

(١) رواه أبو داود . عن أبي هريرة رضى الله عنه .

(٢) فقد روى مسلم حديث إذنه صلى الله عليه وسلم لعائشة فى الجواب عن كلام ضرتها زينب ، الذى ساءها ، وآلمها ، ولم يكن هذا الجواب زائداً على قدر الحق ، ولا كذباً ، ولا حراماً .

جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ نِصْفِ اللَّيْلِ ، وَمَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ »[١] .

وَإِنَّ عِبَادَ الرَّحْمٰنِ بِطَاعَتِهِ لَهُ تَعَالَى - فِي نَهَارِهِمْ وَلَيْلِهِمْ - يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَثَوَابَهُ، وَيَخَافُونَ نِقْمَتَهُ. وَعَذَابَهُ ، وَلِذَلِكَ وَصَفَهُمْ سُبْحَانَهُ ، فَقَالَ : (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) ، أي مُلَازِمًا دَائِمًا : (إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) ، بِئْسَتْ مَوْضِعَ قَرَارٍ وَإِقَامَةٍ : قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ هَذِهِ النَّارَ - أي نَارَ الدُّنْيَا - جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ مِنْ جَهَنَّمَ »[٢] ، وَقَالَ : « إِنَّ[٣] فِي النَّارِ حَيَّاتٍ كَأَمْثَالِ أَعْنَاقِ الْبُخْتِ[٤] تَلْسَعُ إِحْدَاهُنَّ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَرَّهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا[٥] . وَإِنَّ فِي النَّارِ عَقَارِبَ كَأَمْثَالِ الْبِغَالِ الْمُوكَفَةِ[٦] تَلْسَعُ إِحْدَاهُنَّ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حُمُوَّتَهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً » ، وَطَعَامُهَا مِنْ ضَرِيعٍ ، وَهُوَ شَجَرٌ فِيهَا يُشْبِهُ الشَّوْكَ ، مَعَ شِدَّةِ الْحَرَارَةِ أَمَرُّ مِنَ الصَّبِرِ ، وَأَنْتَنُ مِنَ الْجِيفَةِ ، وَشَرَابُهَا حَمِيمٌ : مَاءٌ شَدِيدُ الْحَرَارَةِ ، وَغَسَّاقٌ ، وَهُوَ مَا يَسِيلُ مِنْ جُلُودِ أَهْلِ النَّارِ :

---

(١) رواه مسلم عن عثمان بن عفان : رضى الله عنه .
(٢) رواه أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٣) رواه أحمد والطبرانى عن عبد الله بن الحارث : رضى الله عنه .
(٤) نوع من الإبل .
(٥) فصل من فصول السنة : والمراد : فيجد من يعذب فى النار حرها سبعين سنة .
(٦) الموضوع عليها الإكاف .

مِنَ القَيْحِ وَالصَّدِيدِ ، وَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الرَّاحَةِ يُنَفِّسُ عَنْ أَهْلِهَا حَرَّهَا قَالَ تَعَالَى : (لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً)وَقَالَ سُبْحَانَهُ (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ) .

فَعَجَبًا لِلْغَافِلِ عَنْهَا ، وَلَمْ يَعْمَلِ الْيَوْمَ لِلسَّلاَمَةِ مِنْهَا : بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى الْقَائِلِ : (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى) .

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ـ لَيْسُوا مُبَذِّرِينَ فِي إِنْفَاقِهِمْ ، فَلَمْ يَصْرِفُوا فَوْقَ الْحَاجَةِ وَلاَ بُخَلاَءَ ، فَلَمْ يَمْتَنِعُوا عَنِ الإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلاَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَأَهْلِيهِمْ : قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِهِمْ بِذَلِكَ : (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ، وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً) قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ قَصْدُهُ فِي مَعِيشَتِهِ »[1] .

وَفِي وَصْفِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ : بِأَنَّهُمْ مُوَحِّدُونَ ، وَعَنْ قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ قَتْلَهَا ، وَعَنِ الزِّنَا بَعِيدُونَ ، وَأَنَّ مَنْ تَابَ تَوْبَةً صَادِقَةً مُنْتَظِمٌ فِي سِلْكِهِمْ قَالَ تَعَالَى : (وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً[2]

---

(١) رواه أحمد ، عن أبي الدرداء : رضي الله عنه .

(٢) جزاء الإثم .

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ، وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا) .

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ : لاَ يَحْضُرُونَ مَجَالِسَ الْمُنْكَرِ وَالْبَاطِلِ ، فَلاَ يَحْضُرُونَ مَوَائِدَ الْخَمْرِ وَأَنْدِيَةَ الْقِمَارِ : كَمَا لاَ يَشْهَدُونَ شَهَادَةَ زُورٍ ، وَإِذَا صَادَفَ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ مُرُورُهُمْ بِتِلْكَ الْمَجَالِسِ الَّتِي يَنْبَغِي تَرْكُهَا - أَعْرَضُوا عَنْهَا ، وَلَمْ يُدَنِّسُوا أَنْفُسَهُمْ بِالإِقْبَالِ إِلَيْهَا ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى : (وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً) .

وَمِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ ، الْمُحَقِّقَةِ عُبُودِيَّتَهُمْ لَهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ - عِنْدَ تَذْكِيرِهِمْ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ - يُقْبِلُونَ عَلَيْهَا مُتَفَهِّمِينَ بِهَا سَامِعِينَ بِآذَانٍ وَاعِيَةٍ وَمُبْصِرِينَ بِعُيُونٍ رَاعِيَةٍ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى : (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) .

وَمِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ - أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً أَتْقِيَاءَ صَالِحِينَ مُطِيعِينَ لِلَّهِ ، بِهِمْ تَقَرُّ عُيُونُهُمْ ، وَيُسَرُّونَ وَيَفْرَحُونَ - فِي الدَّارَيْنِ ، وَلاَ شَكَّ أَنَّ مَنْ يَسْأَلُ اللهَ ذَلِكَ - يَحْرِصُ عَلَى تَقْوَى زَوْجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، وَيَبْذُلُ عَلَى ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَ لِذَلِكَ سَبِيلاً ، فَيَكُونُ قُدْوَةً لَهُمْ بِتَقْوَاهُ ، فَلاَ يَرَوْنَهُ إِلاَّ مُمْتَثِلاً لأَوَامِرِ اللهِ ، مُجْتَنِباً لِنَوَاهِيهِ ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ تَقِيّاً عَلَى الدَّوَامِ ، حَرِيصاً عَلَى أَنْ يَكُونَ مَتْبُوعاً فِي الْخَيْرِ ، فَلاَ يَنْصَرِفَ عَنْهُ ، إِذَا انْصَرَفَ عَنْهُ سِوَاهُ .

فَلَا يَنْصَرِفُ عَنْهُ إِنِ انْصَرَفَ عَنْهُ سِوَاهُ ، وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ — أَيُّهُمْ — كَذَلِكَ ، يَسْأَلُونَهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً يُقْتَدَى بِهِمْ فِي تَقْوَى اللهِ ، وَمَنْ سَأَلَ اللهَ ذَلِكَ — عَمِلَ عَلَى أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ ، إِمَامًا فِي الْخَيْرِ ، وَاجْتَهَدَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى طَاعَةِ اللهِ . « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

وَفِي هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ لِعِبَادِ الرَّحْمَنِ — قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) .

وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الرَّحْمَنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى صِفَاتِ عِبَادِهِ الْجَلِيلَةَ ، وَأَقْوَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمُ الْجَلِيلَةَ — ذَكَرَ الْجَزَاءَ الَّذِي أَعَدَّهُ لَهُمْ ، فَقَالَ : (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) .

وَالْغُرْفَةُ — يَاقَوْمِ — هِيَ الْجَنَّةُ ، ذَاتُ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ ، بِهَا — يُلَقَّى عِبَادُ الرَّحْمَنِ — التَّحِيَّةَ وَالْإِكْرَامَ ، وَالتَّوْقِيرَ وَالِاحْتِرَامَ ، وَفِيهَا لَهُمُ السَّلَامُ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَفِيهَا يُقِيمُونَ ، لَا يَبْرَحُونَ ، وَلَا يَمُوتُونَ ، وَلَا يَمَلُّونَ فِيهَا ، وَلَا يَسْأَمُونَ : نِعْمَتْ مَوْضِعَ اسْتِقْرَارٍ وَإِقَامَةٍ .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

اتَّقُوا اللهَ وَاصْبِرُوا عَلَى طَاعَتِهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ ، وَالْبُعْدِ عَنْ مَعَاصِيهِ عَلَى الدَّوَامِ ، وَكُونُوا عِبَادَ الرَّحْمَنِ — بِاتِّصَافِكُمْ بِصِفَاتِهِمُ الَّتِي بُيِّنَتْ لَكُمْ — تُكْرِمُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَتَسْلَمُوا فِي الدَّارَيْنِ مِنْ سَخَطِهِ تَعَالَى ، وَأَلِيمِ عَذَابِهِ

فِي نَارِهِ ، وَتَفُوزُوا بِالْجَنَّةِ ، الَّتِي فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ .

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى : قَالُوا : وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى » : رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : رضى اللهُ عنهُ .

وقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَلَا يَا رُبَّ نَفْسٍ طَاعِمَةٍ نَاعِمَةٍ فِي الدُّنْيَا جَائِعَةٌ عَارِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . أَلَا يَا رُبَّ نَفْسٍ جَائِعَةٍ عَارِيَةٍ فِي الدُّنْيَا طَاعِمَةٌ نَاعِمَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . أَلَا يَا رُبَّ مُكْرِمٍ لِنَفْسِهِ . وَهُوَ لَهَا مُهِينٌ . أَلَا يَا رُبَّ مُهِينٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ لَهَا مُكْرِمٌ . أَلَا يَا رُبَّ مُتَخَوِّضٍ وَمُتَنَعِّمٍ فِيمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مَا لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ ، أَلَا وَإِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ ـ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، أَلَا وَإِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ، أَلَا يَا رُبَّ شَهْوَةٍ ـ أَوْرَثَتْ حُزْنًا طَوِيلًا » . رواه الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ ، عَنْ أَبِي الْبُجَيْرِ رضى اللهُ عنه .

وَالْمُرَادُ بِطَاعِمَةٍ نَاعِمَةٍ : أَنَّهَا مَشْغُولَةٌ بِلَذَّاتِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ ، غَافِلَةٌ عَنِ الْآخِرَةِ ، وَجَائِعَةٌ عَارِيَةٌ أَيْ هِيَ جَائِعَةٌ عَارِيَةٌ أَيْ مُعَذَّبَةٌ بِالْجُوعِ أَيْ وَالْعَطَشِ ، وَالْعُرْيِ يَوْمَ الْمَحْشَرِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْخَلَائِقُ كُلُّهَا مُحْشَرَةً عُرَاةً ، لِأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهَا يَحْصُلُ لَهَا نَوْعُ عَذَابٍ بِالْعُرْيِ ، وَالنَّفْسُ الْجَائِعَةُ الْعَارِيَةُ فِي الدُّنْيَا ـ طَاعِمَةٌ نَاعِمَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ـ بِسَبَبِ طَاعَتِهَا لِلهِ فِي الدُّنْيَا ـ

وَقَوْلُهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَلَا يَا رُبَّ مُكْرِمٍ لِنَفْسِهِ » أَيْ فِي الظَّاهِرِ ـ بِمُتَابَعَةِ هَوَاهَا ، وَتَبْلِيغِهَا مُنَاهَا (وَهُوَ لَهَا مُهِينٌ) أَيْ فِي نَفْسِ

الأَمْرِ ، فَإِنَّ مُتَابَعَةَ الهَوَى - يُبْعِدُ مَنَ اللهِ ، وَيُوجِبُ حِرْمَانَهُ (وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ) ، (أَلاَ يَارُبَّ مُهِينٍ لِنَفْسِهِ) أَيْ بِمُخَالَفَتِهَا وَإِذْلاَلِهَا لِلهِ تَعَالَى : (وَهُوَ لَهَا مُكْرِمٌ) أَيْ فِي الوَاقِعِ وَنَفْسِ الأَمْرِ ، فَالنَّفْسُ المُطِيعَةُ لِلهِ - مُكْرَمَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَكَفَى إِكْرَامُ الآخِرَةِ الدَّائِمُ البَاقِي (أَلاَ يَارُبَّ مُتَخَوِّضٍ) أَيْ رُبَّ شَخْصٍ سُلْطَانٍ أَوْ نَائِبِهِ ، (وَمُتَنَعِّمٍ فِيمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ) أَيْ مُتَنَعِّمٍ بِمَالِ بَيْتِ المَالِ : مِنَ الغَنِيمَةِ ، وَمِنَ الفَيْءِ ، وَهُوَ المَالُ يُحَصَّلُ عَلَيْهِ مِنَ الأَعْدَاءِ بِلاَ قِتَالٍ : بِأَنْ يَتَبَسَّطَ بِهِ زِيَادَةً عَلَى قَدْرِ مَا يَسْتَحِقُّ ، وَلِذَا كَانَ العُمَرَانِ : عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ : وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ - يُقَتِّرَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْ بَيْتِ المَالِ (مَالَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلاَقٍ) أَيْ مِنْ نَصِيبٍ .

(أَلاَ وَإِنَّ عَمَلَ الجَنَّةِ) أَيِ العَمَلَ المُوَصِّلَ إِلَيْهَا (حَزْنٌ) : هُوَ ضِدُّ السَّهْلِ ، أَيْ صَعْبٌ . شَاقٌّ عَلَى النَّفْسِ (بِرَبْوَةٍ) أَيْ بِمَكَانٍ مُرْتَفِعٍ ، فَلاَ يَصِلُهُ الشَّخْصُ إِلاَّ بِمَشَقَّةٍ ، وَقَدْ رَوَى البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى اللهُ عنه أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ : (حُجِبَتِ[1] النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ ، وَحُجِبَتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ) .

وَقَوْلُهُ صلى اللهُ عليه وسلم : (أَلاَ وَإِنَّ عَمَلَ النَّارِ وَهُوَ المَعْصِيَةُ سَهْلٌ) أَيْ عَلَى النَّفْسِ : لِمُوَافَقَتِهِ لِشَهْوَتِهَا (بِسَهْوَةٍ) أَيْ بِأَرْضٍ لَيِّنَةٍ : شُبِّهَتْ

---

(١) فى رواية لمسلم ، عن أنس رضى الله عنه : (حفت) فى الجملتين ، بدلا من (حجبت) فيهما .

المَعْصِيَةُ فِي سُهُولَتِهَا عَلَى مُرْتَكِبِهَا بِالأَرْضِ السَّهْلَةِ ، الَّتِي لَا خُشُونَةَ فِيهَا .

وَقَوْلُهُ صلى اللهُ عليه وسلم : (أَلَا يَارُبَّ شَهْوَةِ سَاعَةٍ) أَيْ كَشَهْوَةِ بَطْنٍ إِلَى مُسْتَحْسَنٍ مُحَرَّمٍ (أَوْرَثَتْ حُزْنًا طَوِيلًا) أَيْ فِي الدَّارَيْنِ :

وَلَذَّةُ سَاعَةٍ ذَهَبَتْ وَوَلَّتْ   وَأَبْقَتْ بَعْدَهَا حَسَرَاتِ دَهْرِ

---

٦ — من وسائل الفلاح فى الدارين

تقوى الله ، والعمل الصالح ، والجهاد فى سبيل الله

الحمدُ لله : أعزَّ مَنْ توسَّلَ إليه بتقواه ، وأسعدَهُ ووقاه ، ورضِىَ عنهُ وأرضاه ، ولذلكَ حثَّ عليها رسولُ اللهِ فقال[1] : « عليكَ بتقوى اللهِ فإنَّها جِماعُ كلِّ خيرٍ » .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ : سبيلُهُ خيرُ سبيلٍ . مَنْ سارَ فيهِ - أحبَّهُ تعالَى ؛ فكانَ التقىَّ النبيلَ ، والمجاهدَ الجليلَ ، الجديرَ بالفلاحِ والتبجيلِ ، وفى الحديثِ النبوىِّ الشريفِ[2] : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً قذفَ حبَّهُ فى قلوبِ الملائكةِ ، وإذا أبغضَ اللهُ عبداً قذفَ بغضَهُ فى قلوبِ الملائكةِ ، ثمَّ يقذفُهُ فى قلوبِ الآدميينَ » .

وأشهدُ أنَّ سيدَنا محمداً رسولُ اللهِ : كانَ يسألُ ربَّهُ وسائلَ الخيراتِ فى دنياه وأخراه ، ويقولُ[3] : « اللهمَّ أغنِنى بالعلمِ ، وزيِّنِّى بالحلمِ ، وأكرمْنِى بالتقوى ، وجمِّلْنِى بالعافيةِ » .

---

(١) روى أبو يعلى فى مسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلمين ، وعليك بذكر الله ، وتلاوة كتاب الله فإنه نور لك فى الأرض وذكر لك فى السماء ، واخزن لسانك إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان » .

(٢) رواه الديلمى عن أنس رضى الله عنه .

(٣) رواه ابن النجار عن ابن عمر رضى الله عنهما .

اللهمّ صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه ، الّذين اتّقوا الله ليلاً ونهاراً ، وعملوا الصّالحات سرّاً وجهاراً ، وجاهدوا فى الله حقّ جهاده ، ففازوا فى الدّارين بإعزازه وإسعاده : « أولئك الّذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب »

أمّا بعدُ : فيا عبادَ الله :

مرّ أميرٌ بباب دار حاتم الأصمّ ، أحد سلفنا الصّالح ، فاستسقى ماء من أهل الدّار ، فلمّا شرب ـ أعطاهم مالاً جزيلاً ، ففرحوا سوى ابنة صغيرة لحاتم ، فإنّها بكت ، فقيل لها : ما يبكيك ؟ قالت : مخلوقٌ نظر إلينا نظرة فاستغنينا ، فكيف لو نظر إلينا الخالق سبحانه وتعالى .

ولقد صدقت البُنيّة ، ففى نظرته تعالى ـ الفلاحُ فى الدّارين ، الآخرة والأولى ، وفى الوسيلة إلى ذلك الفلاح ـ قال تعالى : (يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلّكم تفلحون) .

فيا أتباع خير الأنام يقول لكم الله مولاكم :

يا أيّها الّذين آمنوا : صدّقوا بأنّ الفلاح ، والفوز بنيل الآمال ، والسّلامة من الوبال : فى سائر الأوقات والأحوال ـ لا يملكه إلّا الله الكبيرُ المتعال ـ يكسب ذلك الفلاح أمورٌ ثلاثة : تقوى الله ، وابتغاء الوسيلة إليه ، والجهاد فى سبيله ، وكلّها ثمرات الإيمان ، الّذى سعد وعزّ به الفضلاء الرّاشدون ، الّذين قال فى جزائهم جلّ شأنه : (قد أفلح المؤمنون)

وتقوى الله ـ يا قوم ـ هى توقّى غضب الله وسخطه ، وما يبعد من

رِضْوَانِهِ وَإِكْرَامِهِ وَإِنْعَامِهِ ، وَذَلِكَ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ ، وَاتِّبَاعِ تَعَالِيمِ دِينِهِ الَّذِي يَعْرُجُ بِالْأَرْوَاحِ إِلَى سَمَاءِ الْكَمَالِ ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى عَنْهُ مِنْ سَيِّءِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ : (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا) .

وَيَا قَوْمِ : ابْتِغَاءُ الْوَسِيلَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ـ هُوَ طَلَبُ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ : مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ ، وَمُرَاعَاةُ الطَّرِيقِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهِ تَعَالَى ، الَّتِي تُنِيلُ رِضَاهُ ، حَتَّى يَعِيشَ الْمَرْءُ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ ـ مُرْتَاحَ الْبَالِ ، مَقْضِيَّ الْحَاجَاتِ ، نَائِلَ الْآمَالِ . وَمِنَ الْعَمَلِ الَّذِي يُرْضِي اللَّهَ ، وَيُنِيلُ الْعَبْدَ مُنَاهُ الدُّعَاءُ : فَإِنَّهُ عِبَادَةٌ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ ، الْقَائِلِ : (وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ »[1] . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي فَائِدَةِ الدُّعَاءِ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا »[2] .

---

(١) رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه .

(٢) رواه أحمد والبزار وأبو يعلى والحاكم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه

وَتَوَسُّلُنَا إلى اللهِ تعالى : بِالعَمَلِ الصَّالِحِ ، أَوْ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ أَوْ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ ، أَوْ بِحَقِّ نَبِيٍّ أَوْ وَلِيٍّ مِنْ أَحِبَّائِهِ ، أَوْ جَاهِ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَمَنْزِلَتِهِ - لِقَضَاءِ الحَاجَاتِ - هُوَ دُعَاءٌ مِنَّا لَهُ تعالى ، قَدِ اشْتَمَلَ عَلَى وَسِيلَةٍ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ، يَزِيدُ عَطْفَهُ عَلَيْنَا ، وَرِضَاهُ عَنَّا ، وَفِى ذَلِكَ قَضَاءُ حَاجَاتِنَا ، وَلْنَتَأَمَّلْ مَا رَوَى ابْنُ السُّنِّيِّ فى عَمَلِ اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَنْ بِلَالٍ مُؤَذِّنِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا خَرَجَ إلى الصَّلَاةِ قَالَ : بِسْمِ اللهِ آمَنْتُ بِاللهِ ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ ، لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ، اللَّهُمَّ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ وَبِحَقِّ مَخْرَجِي هٰذَا ، فَإِنِّى لَمْ أُخْرِجْهُ أَشَرًا[1] ، وَلا بَطَرًا ، وَلا رِيَاءً ، وَلا سُمْعَةً : خَرَجْتُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ ، وَاتِّقَاءَ سَخَطِكَ ، أَسْأَلُكَ أَنْ تُعِيذَنِى مِنَ النَّارِ وَتُدْخِلَنِى الجَنَّةَ »

وَيَا أَيُّهَا المُسْلِمُ : الجِهَادُ فى سَبِيلِ اللهِ ، وَبَذْلُ الجُهْدِ وَالطَّاقَةِ فى قِتَالِ أَعْدَاءِ اللهِ ، وَالسَّعْيُ لِإِذْلَالِهِمْ ، وَتَطْهِيرِ الأَرْضِ مِنْهُمْ ، وَمُجَاهَدَتُهُمْ بِاليَدِ وَالمَالِ وَاللِّسَانِ وَالقَلْبِ : لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ تعالى - سَبِيلٌ مُوَصِّلٌ إلى الدَّرَجَاتِ السَّامِيَةِ (فى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ) . قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ فى الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فى سَبِيلِ اللهِ ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ »[2] ، وَالمُجَاهِدُ كَذَلِكَ - لِيَسُودَ الحَقُّ ، وَيَسْعَدَ بِهِ الخَلْقُ - يَجِدُ اللهَ مَعَهُ ، يَنْصُرُهُ وَيَخْذُلُ مَنْ يُقَاتِلُهُ . قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم :

---

(١) كفراً بالنعمة .

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

« ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ : الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَالْمُكَاتَبُ[1] الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ »[2]

وَجِهَادُ النَّفْسِ وَمُخَالَفَةُ هَوَاهَا — لِتَكُونَ طَاهِرَةً مِنَ الذُّنُوبِ وَمُتَجَمِّلَةً بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ ، وَصَالِحِ الأَعْمَالِ ، وَشَرِيفِ الْخِصَالِ — جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ « قَدِمَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم مِنْ غَزَاةٍ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ ، وَقَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ . قَالُوا : وَمَا الْجِهَادُ الأَكْبَرُ ؟ قَالَ : مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ »[3]

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

تَقْوَى اللهِ بِهَا تَقْوَوْنَ عَلَى الأَعْدَاءِ ، وَتَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ ، وَتَتَيَسَّرُ لَكُمُ الأَرْزَاقُ ، فَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) .

وَالتَّوَسُّلُ إِلَى اللهِ بِكُلِّ مَا يُرْضِيهِ — طَرِيقُ نُورٍ يَبْلُغُ بِهِ الأَمَلَ مَنْ سَارَ فِيهِ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ ، وَعَلَامَةُ ذَلِكَ تَوْبَةٌ صَادِقَةٌ ، وَعَمَلٌ صَالِحٌ .

وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ فُرُوضِ الإِسْلَامِ الَّتِي تَعْلُو بِهَا الْجِبَاهُ ، فَاتَّقُوا اللهَ ، وَاحْذَرُوا أَنْ يَرَاكُمْ سُبْحَانَهُ حَيْثُ نَهَاكُمْ ، أَوْ يَفْقِدَكُمْ حَيْثُ أَمَرَكُمْ ، وَتَوَسَّلُوا إِلَيْهِ تَعَالَى بِحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ ، وَقَوْلِ الْخَيْرِ ، وَالْفِعْلِ الْحَمِيدِ . (وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ) ، وَجَاهِدُوا أَنْفُسَكُمْ ، لِتَكُونُوا حُلَفَاءَ ،

---

(١) هو العبد يكاتب على نفسه بثمنه فإذا سعى وأداه عتق وصار حراً .
(٢) رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه والحاكم .
(٣) رواه الخطيب فى تاريخه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما .

رُحَماءَ ، صادِقِينَ ، كُرَماءَ ، أطْهاراً أعِفَّاءَ ، لِهَوَاهُمْ مُخالِفِينَ ، وَلِلدِّينِ مُتَّبِعِينَ وَلِلشَّيْطَانِ عاصِينَ وَخاذِلِينَ ، وَلِلْحَقِّ ناصِرِينَ (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً) (وَتُوبُوا إِلى اللّٰهِ جَمِيعاً أيُّهَا المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

قالَ رسولُ اللّٰهِ صلى اللّٰهُ عليه وسلم : « اتَّقِ اللّٰهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » رواه الترمذى عن أبى ذر الغفارى ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما .

وقال صلى اللّٰهُ عليه وسلم : « اتَّقِ اللّٰهَ فى عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ » رواه أبو قُرَّةَ الزَّبِيدِيُّ فى سُنَنِهِ عن طُلَيْبِ بن عَرَفَةَ رضى الله عنه .

وقال صلى اللّٰهُ عليه وسلم : « اتَّقِ اللّٰهَ فيما تَعْلَمُ » رواه البخاريُّ فى التاريخ الكبير ، والتِّرْمِذِيُّ عن يزيدَ بنِ سَلَمَةَ الجُعْفِيِّ رضى الله عنه .

٧ – الإيمان الحق الصادق

يكسب خيرى الدنيا والآخرة

الحمدُ للهِ : جَعَلَ الإيمانَ تصديقاً بالقلبِ وإذعاناً[1] ، وصالحَ الأعمالِ لهُ عُنواناً ، وَفِى الحديثِ النَّبَوِىِّ الشَّريفِ : « لَيْسَ الإِيمانُ بالتَّمَنِّى[2] وَلَكِنْ مَاوَقَرَ[3] فِى القَلْبِ وَصدَّقهُ العملُ . وَإِنَّ قَوْماً غَرَّتْهُمُ الأَمَانِىُّ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنيا وَلاَ حَسَنَةَ لَهُمْ وَقَالُوا : نَحْنُ نُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ تَعَالَى وَكَذَبُوا لَوْ أَحْسَنُوا الظَّنَّ لأَحْسَنُوا العَمَلَ »[4] .

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ : حَبَّبَ الإِيمانَ إِلَى مَنْ اخْتَارَهُمْ مِنْ عِبادِهِ ، وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِهِمْ وَكَرَّهَ إِلَيْهِمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيانَ . أُولٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا مُحَمَّداً رسُولُ اللهِ : بَيَّنَ شُعَبَ الإيمانِ وَفُرُوعَهُ ، وَأَنَّ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ أَعْلاَهَا . وَإِمَاطَةَ الأَذَى – وَإِزَالَتَهُ – عَنِ الطَّرِيقِ أَدْنَاهَا ، وَأَنَّ مِنْهَا الحَيَاءَ ، وَقَالَ : « لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ تَمْنَعُ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَالَمْ يُؤْثِرُوا صَفْقَةَ[5] دُنْيَاهُمْ عَلَى دِينِهِمْ . فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ثُمَّ قَالوا : لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ – قَالَ اللهُ : كَذَبْتُمْ »[6] .

---

(١) وانقياداً (٢) بالتشهى (٣) ثبت

(٤) رواه البخارى فى تاريخه .

(٥) المراد البيعة . (٦) رواه البزار عن أنس بن مالك .

وَفِي الحديثِ[1] القدسيِّ قال تعالى : « أعْدَدْتُ لعبادي الصَّالِحِينَ مَالاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »[2] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ كَانُوا بِاللَّيْلِ - رُهْبَانًا عَابِدِينَ ، وَبِالنَّهَارِ فُرْسَانًا مُجَاهِدِينَ ، وَعَلَى مَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

أما بَعْدُ :

فَيَا عِبَادَ اللهِ : كَانَ أُمَيَّةُ أَحَدُ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ - يُلْبِسُ بِلَالاً دِرْعًا مِنَ الْحَدِيدِ . وَيَقْذِفُ بِهِ فِي وَهَجِ الشَّمْسِ ، حَتَّى إِذَا حَمِيَ الْحَدِيدُ - قَلَبَهُ فَوْقَ جَسَدِهِ : لِيَذُوقَ الْعَذَابَ ، وَهُوَ يَقُولُ لَهُ : لاتَقُلْ : اللهُ أَحَد ، فَيَأْبَى بِلَالٌ ذَلِكَ ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ وَيَقُولُ : أَحَدٌ . أَحَد ، حَتَّى اشْتَرَاهُ أَبُو بَكْرٍ وَأَعْتَقَهُ .

وَلَمَّا مَاتَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ بْنُ الْحُسَيْنِ - رضى اللهُ عنهما - ظَهَرَ أَنَّهُ كَانَ يُنْفِقُ - شُكْرًا لِلَّهِ - عَلَى أَهْلِ مِائَةِ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ[3]

---

(١) الحديث القدسي هو ما أضيف إلى الله معنى . وعبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم لفظاً، ونسبه إليه تعالى ، والحديث النبوي هو ما أضيف إلى النبي ﷺ لفظاً ومعنى ، وأما القرآن الكريم فهو اللفظ العربي المنزل من عند الله تعالى على نبيه الكريم . المتعبد بتلاوته . المعجز للبشر بلفظه ومعناه وأسلوبه المتحدى بأقصر سورة منه .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(٣) روى أنه رضى الله عنه كان لايدع صلوات الليل في السفر والحضر ، وكان إذا توضأ اصفر لونه، وإذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة ، فقيل له : مالك ؟ فقال : ماتدرون بين يدى من أقوم ، وحكى أنه حج هشام بن عبد الملك قبل—

رضى اللهُ عنه - يَرَى أنّ اللهَ مُسْتَحِقٌ لِلْعِبَادَةِ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ - شُكْراً لَهُ تَعَالَى - لِسَابِقِ فَضْلِهِ ، وَلاَ فَضْلَ لِسِوَاهُ ، وقالَ : إنّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ عَزّ وَجَلّ : رَهْبَةً ، فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ ، وَآخَرِينَ عَبَدُوهُ : رَغْبَةً ، فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجّارِ ، وَقَوْماً عَبَدُوهُ : شُكْراً ، فَتِلْكَ عِبَادَةُ الأَحْرَارِ » .

وَالصّبْرُ وَالشُّكْرُ - يَاقَوْم - هُمَا رُكْنَا الإِيمَانِ ، اللّذَانِ - بِهِمَا - يَقُومُ ، وَيَكْسِبُ النّعِيمَ الْمُقِيمَ ، وَيَقِي الْعَذَابَ الأَلِيمَ : قالَ : صلى اللهُ عليه وسلم : « الإِيمَانُ نِصْفَانِ ، فَنِصْفٌ فِي الصّبْرِ ، وَنِصْفٌ فِي الشُّكْرِ »[1] .

ـــ أن يلى الخلافة ، فاجتهد أن يستلم الحجر الأسود فلم يمكنه ، وجاء زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب : رضى الله عنهم ، فوقف الناس له وتنحوا عنه حتى استلم الحجر ، فقيل لهشام من هذا ؟ : قال لاأعرفه . من هذا ؟ فقال الفرزدق : لكنى أعرفه ، وأنشد يقول :

هذا ابن خير عباد الله كلهمو   هذا التقى التقى الطاهر العلم
هذا الذى تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحل والحرم
يكاد يمسكه عرفان راحته   ركن الحطيم إذا ماجاء يستلم
ماقال لاقط إلا فى تشهده   لولا التشهد كانت لاءه نعم
إذا رأته قريش قال قائلها   إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
إن عد أهل التقوى كانوا أئمتهم
أو قيل : من خير أهل الأرض ؟ قيل : هم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله   بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت والعجم
يغضى حياء ويغضى من مهابته   فلا يكلم إلا حين يبتسم

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس : رضى الله عنه .

وَفِى تَفْسِيرِ الْإِيمَانِ - يَا عَبْدَ اللهِ - قَالَ رَسُولُنَا صلى اللهُ عليه وسلم : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ »[1]، أى أن تُصَدِّقَ بِكُلِّ ذَلِكَ من قلبكَ ولِذَلِكَ التَّصْدِيقِ - عَلَامَاتٌ تَدُلُّ عَلَيْهِ : هِيَ صَالِحَاتُ الْأَعْمَالِ الْمُرْشِدَةُ - بِدَوَامِهَا - إِلَيْهِ ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنِ ادَّعَى الْإِيمَانَ صَادِقًا ، وَلَا كُلُّ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا - وَقْتًا دُونَ وَقْتٍ لِغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ - مُؤْمِنًا حَقًّا . قَالَ تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ » .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ[2] الْمَسَاجِدَ - أى يَجْعَلُ تَرَدُّدَهُ عَلَيْهَا : لِلْعِبَادَةِ - عَادَةً لَهُ : لِتَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِهَا . . - فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ »[3] .

وَفِى الْإِيمَانِ الصَّادِقِ ، وَالْعَمَلِ النَّافِعِ الْخَالِصِ - قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ قَرِينَانِ لَا يَصْلُحُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَّا مَعَ صَاحِبِهِ »[4] .

---

(١) مسلم فى صحيحه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) فى رواية يتعاهد المسجد ، وقال الطيبى : يتعاهد - أشمل وأجمع لما يناط به أمر المساجد من العمارات واعتياد الصلاة وغيرهما أى كتنظيفها وتنويرها بالمصابيح .

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده والترمذى وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه والنسائى والبيهقى فى السنن الكبرى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٤) ابن شاهين فى السنة عن محمد بن الحنفية بن على رضى الله عنهم وهو حديث مرسل : سقط منه الصحابى .

فيأيها المسلم :

مِنْ عَلَامَاتِ الإِيمَانِ الصَّادِقِ – وَجَلُ القَلْبِ ، وَخَوْفُهُ مِنَ اللهِ عِنْدَ ذِكْرِهِ تعالى ، وَمِنْ ذَلِكَ الخَوْفِ – يَمْتَنِعُ العَبْدُ عَمَّا يُسْخِطُ اللهَ ، وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ آدَمَ المُؤْمِنُ لِأَخِيهِ . الذي أَوْعَدَهُ بِالقَتْلِ : « لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ » .

وَمِنْ عَلَامَاتِ ذَلِكَ الإِيمَانِ – تَوَكُّلُ الإِنْسَانِ وَاعْتِمَادُهُ عَلَى رَبِّهِ ، فِي نَوَالِ طَلَبِهِ ، بَعْدَ الأَخْذِ فِي سَبَبِهِ : قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم ، لِمَنْ قَالَ : أَعْقِلُ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ ؟ : « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ »[1] .

وَمِنْ عَلَامَاتِ ذَلِكَ الإِيمَانِ – أَدَاءُ الصَّلَاةِ بِأَدَبٍ وَخُشُوعٍ ، وَتَذَلُّلٍ وَخُضُوعٍ ، وَفِي القُرْآنِ الكَرِيمِ : (قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) ، وفي الحديثِ القُدْسِيِّ قال تعالى : « إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمَتِي »[2] .

وَمِنْ عَلَامَاتِ ذَلِكَ الإِيمَانِ – بَذْلُ المَالِ لِلْيَتِيمِ وَالمِسْكِينِ وَالأَرْمَلَةِ ، وَإِنْفَاقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَكُلِّ مَشْرُوعٍ يَرْضَى عَنْهُ اللهُ ، القَائِلُ : « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » .

---

(١) الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) رواه البزار عن ابن عباس رضي الله عنه .

وَالمُؤْمِنِ الَّذِى صَدَّقَ إِيمَانَهُ تِلْكَ الصَّالِحَاتُ – رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ، وَغُفْرَانُ الزَّلَّاتِ، وَكَرِيمُ الْمَطِيَّاتِ – مِنَ اللهِ الْقَائِلِ: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ».

أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ:

الْمُؤْمِنُ حَقًّا – سَهْلُ الطَّبْعِ، لَيِّنُ الْجَانِبِ، وَلِذَلِكَ يُحِبُّهُ النَّاسُ وَيُحِبُّهُمْ، قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ وَخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ»[1].

وَالْمُؤْمِنُ حَقًّا – مَنْ يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنِينَ أَعْوَانَهُ. وَأَحْبَابَهُ وَإِخْوَانَهُ، وَيَكُونُ لَهُمْ عَوْنًا عَلَى الْفَضِيلَةِ، وَحُسْنِ الْحَالِ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ:

«وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» ويقول «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»، وقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ: يَكُفُّ عَنْهُ ضَيْعَتَهُ. وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ»[2].

وقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا».

---

(١) رواه الدارقطنى فى الافراد والضياء عن جابر رضى الله عنهما.

(٢) رواه البخارى فى الأدب وأبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه، ومعنى أن المؤمن مرآة المؤمن: أنه يرى به عيوبه كما يراها بالمرآة، وذلك – كان لابد من تناصحهما بما يذهب عيوبهما برفق ومعنى يكف عنه ضيعته: يجمع عليه معيشته ويضمها إليه، وضيعة الرجل ما يكون من معاشه كالصنعة والتجارة والزراعة وغير ذلك قاله فى النهاية، ومعنى يحوطه من ورائه – يصونه ويذب عنه فى غيبته بقدر الطاقة.

وَالمُؤْمِنُ حَقًّا ـ مَنْ يَمْقُتُ الذِّلَّةَ وَالمَهَانَةَ ، ويأبَى إلاَّ العِزَّةَ وَالكَرَامَةَ فلا يُرَائِى ولا يُنَافِقُ ، ويَعْمَلُ ولا يَعِيشُ عالَةً عَلَى سِوَاه ، وَاللهُ تعالى يقولُ : ﴿ وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَالمؤْمِنُ حَقًّا ـ مَنْ يَنْجَحُ فى امتِحَانِ اللهِ ، القَائِلِ : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ ، فَيَشْكُرُ لِلهِ عَلَى تَفَضُّلِهِ بالنَّفعِ وَالخَيْرِ ، وَيَصْبِرُ عِنْدَ الإِصَابَةِ بالضُّرِّ وَالشَّرِّ ، وقد قالَ تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾ . وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « عَجَبًا لِأَمْرِ المؤْمِنِ إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْر وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إلاَّ لِلمُؤْمِنِ : إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاء شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاء صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »[1]

وَالمؤْمِنُ حَقًّا ـ يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ، وَيَكْرَهُ لَهُ مَا يَكْرَهُ لَهَا ، فَيُحِبُّ لَهُ صَلاحًا فى الأَعمالِ ، وَارْتِقَاء فى مَرَاتِبِ الكَمالِ ، وَزِيَادَةَ نِعَمِ اللهِ ، ويَكْرَهُ لَهُ الأَلَمَ والذُّلَّ والضُّرَّ ، والرَّسُولُ يقولُ : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »[2] ، ويقولُ : « المؤْمِنُ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ ، يَأْلَمُ المؤْمِنُ لِأَهْلِ الإِيمَانِ كَمَا يَأْلَمُ الجَسَدُ لِمَا يَحْصُلُ فى الرَّأْسِ »[3]

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٣) رواه الإمام أحمد عن سهل بن سعد رضى الله عنه .

والمؤمنُ صدقًا – مَنْ يهجرُ المقاهيَ والملاهيَ ، ويَعمُرُ بيوتَ اللهِ ، بذكرِ اللهِ ، وتلاوةِ القرآنِ ، وإقامةِ الصّلاةِ ، ومدارسةِ العلمِ ، وسماعِ العظاتِ ، ويؤتي الزّكاةَ ، ويكونُ شجاعًا في الحقّ ، لا يخافُ إلاّ اللهَ ، القائلَ : (إنّما يعمرُ مساجدَ اللهِ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وأقامَ الصّلاةَ وآتى الزّكاةَ ولَمْ يخشَ إلاّ اللهَ فعسى أولئكَ أنْ يكونوا مِنَ المهتدينَ) .

والمؤمنُ الصّادقُ الإيمانِ – مَنْ يلتزمُ الصّدقَ ، ولا ينكرُ الحقَّ ، حتّى لا يكونَ كالمرأةِ الآثمةِ ، الّتي تنكرُ الحملَ أو الحيضَ : لتطويلِ مدّةِ العدّةِ أو تقصيرِها ؛ لقصدٍ لها في ذلكَ ، واللهُ تعالى يقولُ : « ولا يحلُّ لهنَّ أنْ يكتمنَ ما خلقَ اللهُ في أرحامهنَّ إنْ كنَّ يؤمنَّ باللهِ واليومِ الآخرِ » .

والمؤمنُ الصّادقُ في إيمانِه – لا سلطانَ للشّيطانِ عليهِ . ولا قوّةَ لهُ على تنفيذِ وسوستِهِ لهُ : قالَ تعالى : « إنّهُ أي الشّيطانَ ليسَ لهُ سلطانٌ على الّذينَ آمنوا وعلى ربّهمْ يتوكّلونَ » .

والمؤمنُ الصادقُ إيمانًا – أمينٌ : لا يخونُ النّاسَ في أموالِهمْ وأعراضِهمْ وأنفسِهمْ ، وقدْ قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « المؤمنُ مَنْ أمنَهُ النّاسُ على دمائِهمْ وأموالِهمْ »[1] . وقال : « الإيمانُ عفيفٌ عنِ المحارمِ عفيفٌ عنِ المطامعِ »[2] .

---

(١) الحديث : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » رواه الترمذى والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية عن محمد بن النضر الحارثى وهو حديث مرسل أى سقط من سنده الصحابى ، ومعناه أن شأن أهله – تجنب المحرمات ، والقناعة بما قسم الله

والمؤمنُ حقًّا وصدقًا ـ الحياءُ خُلُقُهُ ، والحياءُ يكفُّ عن ارتكابِ القبائحِ والدنايا : لذلكَ ـ قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « الحياءُ لا يأتي إلاَّ بخيرٍ »[1] .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : لِمَنْ كانَ يُعاتِبُ أخاهُ بالحياءِ : « دَعْهُ فإنَّ الحياءَ مِنَ الإيمانِ »[2] . والمؤمنُ حقًّا وصدقًا ـ يدفعُ الأذى عَنْ دِينِهِ ونفسِهِ وحريمِهِ وعُمُومِ المؤمنينَ : قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « المؤمنُ يغارُ واللهُ أشدُّ غيرًا »[3] .

وجماعُ القولِ ـ أنَّ المؤمنَ حقًّا وصدقًا ـ مَنْ طَهُرَتْ نفسُهُ ، وعَظُمَتْ أخلاقُهُ ، وصلُحَتْ أعمالُهُ ، وصدَّقَ بكلِّ ما جاءَ بِهِ القرآنُ الكريمُ ، أوْ بلَّغَهُ الرسولُ صلى اللهُ عليه وسلم : ـ تصديقًا لا يُزَلزِلُهُ رَيْبٌ وشَكٌّ ، وجاهَدَ بنفسِهِ ومالِهِ في سَبيلِ نُصْرَةِ الدِّينِ وإقامةِ الحقِّ المُبينِ . قال تعالى : « إنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

تلكَ الصالحاتُ ، التي هيَ للإيمانِ علاماتٌ ـ هيَ مِعيارُ الإيمانِ ، بوُجُودِهَا وتحقُّقِهَا ـ يكونُ في ازديادٍ وكمالٍ ، وبقدرِ فقدِهَا يكونُ في نقصانٍ وضعفٍ .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن عمران بن حصين رضى الله عنه .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما .

(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وغيراً : بفتح الغين المعجمة وسكون الياء المثناة التحتية أى غيرة ، وهى حفظ الله تعالى للمؤمنين ودفاعه عنهم : قال تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » .

فَهَلْ نَحْنُ ـ الآنَ ـ مُؤْمِنُونَ حَقًّا وَصِدْقًا ؟ لا : قَلَّ بَيْنَنَا الوَفَاءُ ، وَكَثُرَ الغَدْرُ ، وَالخِصَامُ ، وَالأَنَانِيَةُ ، وَالإِسَاءَةُ ، وَالذُّلُّ لِغَيْرِ اللهِ ، وَغَدَتِ المَعَاصِي ظَاهِرَةً ، وَتَضْحَكُ وَآيَاتُ الخَوْفِ تُتْلَى ، وَلَمْ نَتَّخِذْ مِنَ القُرْآنِ عِبْرَةً وَذِكْرَى ـ فَلَا شَكَّ أَنَّ الإِيمَانَ ـ بَيْنَنَا ـ ضَعِيفٌ . نَاقِص .

وَالإِيمَانُ القَوِيُّ الظَّاهِرُ العَلَامَاتِ عَلَى الدَّوَامِ ـ هُوَ القُوَّةُ الَّتِي بِهَا نَعِيشُ فِي الدُّنْيَا أَعِزَّاءَ أَقْوِيَاءَ ، سُعَدَاءَ عُظَمَاءَ ، وَبِهِ تَكُونُ سَعَادَةُ الآخِرَةِ وَالمَعِيشَةُ الرَّاضِيَةُ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قال تعالى : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

أَيُّهَا المسلمونَ :

اتَّقُوا اللهَ ، وَتَدَبَّرُوا آيَاتِ اللهِ القُرْآنِيَّةَ ، وَتَفَكَّرُوا فِي آيَاتِهِ تَعَالَى الكَوْنِيَّةِ يَزِدْ[1] إِيمَانُكُمْ ، وَيُشْرِقْ نُورُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَيَعْظُمْ تَصْدِيقُكُم[2]

---

(١) لتدبر قوله تعالى : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون » .

(٢) التصديق القلبي أو الإيمان بالقلب هو أصل الإيمان ، والعمل الصالح مصدق له : روى الإمام أحمد عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال : « الإسلام علانية والإيمان بالقلب » ، وقال البخاري : كتبت عن ألف شيخ وثمانين ليس فيهم إلا صاحب حديث كلهم يقولون : « الإيمان قول وعمل يزيد وينقص » . وذكر ابن أبي الدنيا أن وهب بن منبه قال : « الإيمان عريان: فلباسه التقوى ، وزينته الحياء ، وماله الفقه » . فالإيمان كالجسد العاري : يضعف وينقص من الحر والبرد ، ويوقى الضعف والنقص باللباس والكساء ، وفي قوله : وهب بيان

القلبيُّ واعتقادُكم الجازمُ المؤكَّدُ في اللهِ ، المتَّصِفِ بصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ ، وفي رسولِهِ ، وفيما بلَّغَهُ صلى اللهُ عليه وسلم وهوَ الحقُّ المبينُ والمُسْعِدُ ، وليزدَدِ المؤمنُ إيمانًا بطاعةِ اللهِ[٢] وتقواهُ واستكمِلوا إيمانَكم - بالتوبةِ من السيئاتِ : فرارًا من العقابِ ، وبفعلِ الحسناتِ : حرصًا على الثوابِ ، وبالمراقبةِ على الدوامِ - فيما تفعلونَ وتتركونَ - للهِ ، الذي لهُ الأمرُ كلُّهُ ، وفي الحياتينِ - كلُّ خيرٍ في رضاهُ ، وكلُّ شرٍّ في سخطِهِ ، وحينئذٍ - تعلمونَ أنكم - مؤمنونَ : قالَ أبو رزينٍ العقيليُّ : يا رسولَ اللهِ . كيفَ لي بأن أعلمَ أني مؤمنٌ ؟ قال صلى اللهُ عليه وسلم : « ما من أمتي عبدٌ يعملُ حسنةً ، فيعلمُ أنها حسنةٌ . وأنَّ اللهَ مجازيهِ بها خيرًا ، ولا يعملُ سيئةً ، فيعلمُ أنها سيئةٌ ويستغفرُ اللهَ منها ، ويعلمُ أنهُ لا يغفرُها إلا اللهُ - إلا وهوَ مؤمنٌ »[١] ، واللهُ تعالى يقولُ : « إنَّ الذينَ

لباس الإيمان الذى يقيه الضعف والنقص ، حتى يكون قويا زائداً ، وهو تقوى الله تعالى ، وهى طاعة الله سبحانه ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وروى مسلم فى صحيحه عن العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ﷺ قال : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا » ، والرضا بربوبيته تعالى ، وبالإسلام وبمحمد رسولا - يتضمن الرضا بتقوى الله وطاعته وعبادته وطعم الإيمان حلو : قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . وأن يحب المرء لايحبه إلا الله تعالى وأن يكره أن يعود فى الكفر - بعد أن أنقذه الله منه - كما يكره أن يقذف فى النار » رواه البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه .

(١) رواه الإمام أحمد .

آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ، خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً » .

قال صلى اللهُ عليه وسلم : مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَاتُهُ ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَاتُهُ ـ فَهُوَ مُؤْمِن » رواه الإمامُ أحمدُ عَنْ أَمِيرِ المؤمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضى الله عنه .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ أَفْضَلَ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ » رواه الطَّبَرَانِيُّ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضى الله عنه .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ أَعْطَى لِلهِ وَمَنَعَ لِلهِ ، وَأَحَبَّ لِلهِ وَأَبْغَضَ لِلهِ ـ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ »[1] رواهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ الْجُهَنِيِّ رضى اللهُ عنه .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم : « المؤمِنُ[2] مَنْفَعَةٌ : إِنْ ماشَيْتَهُ نَفَعَكَ . وَإِنْ شَاوَرْتَهُ نفعك . وَإِنْ شَارَكْتَهُ نفعك وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ مَنْفَعَةٌ » رواهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِى الْحِلْيَةِ عن ابْنِ عُمَرَ رضى اللهُ عنهما .

---

(١) ورواه الإمام أحمد ، وزاد « وأنكح لله » أى زوج لله ؛ أى من أجل الدين والخلق الكريم (٢) ولا يكون المؤمن كذلك إلا إذا خالط الناس . وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » رواه الإمام أحمد والبخارى فى الأدب وابن ماجه . عن عمر رضى الله عنه بإسناد حسن ، وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن مكفر » أى مكفر الذنوب بما يصيبه من البلايا والمصائب : رواه الحاكم وأبو داود والنسائى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، ومما يصيب ويكفر الذنوب مقاساة العناء السلامة من أثر الشهوة ، ولذلك قال ﷺ : « المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة » رواه ابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، والمراد بالمؤمن : المؤمن الكامل ، وببعض الملائكة : عوامهم : لأن خواصهم

لا يفضلهم إلا الأنبياء ، وذلك لأن الملائكة لا شهوة لهم تدعو إلى قبيح ، والمؤمن سلطت عليه الشهوة والشيطان والنفس والدنيا ومغرياتها ، فإذا انتصر فى ميدان جهاده هذا ـ استحق هذا الفضل والكرم ، فما أجدر المؤمن أن يبذل جهده لهذه الغاية وهذا الشرف وهو يقول مستعيناً بالله القوى العزيز :

إنى بليت بأربع يرميننى ... بالسهم عن قوس لها توتير
إبليس والدنيا ونفسى والهوى ... يارب أنت على الخلاص قدير

وحرصاً من المؤمن على هذه المنزلة ـ مع كياسته وفطنته وتحذره : قال ﷺ : « المؤمن كيس فطن حذر » رواه القضاعى عن أنس ـ ينخدع بحسن ظنه لسلامة صدره الذى يحكم الخداع له فى أول معاملة له : قال ﷺ : « المؤمن غر كريم ، والفاجر خب لئيم » رواه أبو داود والترمذى والحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وغر : بكسر الغين المعجمة وتشديد الراء المهملة ـ أى يغره كل أحد ويغيره كل شىء مادام الأمر لا يدرك إلا بمكر ، وهو ليس بذى مكر ، وكريم أى شريف الأخلاق . وطيب الأصل ، والفاجر أى الفاسق ـ خب بفتح الخاء المعجمة . وقد تكسر ـ أى مسرع للفساد فى الأرض والإفساد بين الناس ، ومنه التخبب أى إفساد الزوجة على زوجها ، والعبد أو الأمة على مالكهما .

ولمقاساة المؤمن للشدائد والأكدار فى الدنيا ، بصبر جميل يبلغه الجنة دار السلام والنعيم ، والله تعالى يقول : (وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) ـ كانت الدنيا سجناً له : قال صلى الله عليه وسلم : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » ، رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه والطبرانى فى معجمه الكبير والحاكم عن سلمان الفارسى رضى الله عنه ، والبزار عن ابن عمر رضى الله عنهما ، وقد حكى القرطبى عن سهل الصعلوكى الفقيه الخراسانى ، وكان ممن جمع رياسة الدين والدنيا : أنه كان فى بعض مواكبه ذات يوم إذ خرج عليه يهودى من تنور ـ فرن ـ حمام ، وهو بثياب دنسة ، وصفة نجسة ، فقال . ألستم تزعمون أن نبيكم قال : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » وأنا عبد كافر ، وترى حالى ، وأنت مؤمن ، وترى حالك ، فقال له على الفور : إذا صرت غداً إلى عذاب الله ـ كانت هذه ـ أى الدنيا . . ـ الجنة لك ، وإذا

صرت أنا إلى النعيم ورضوانه ـ كان هذا ـ أى ما أنا فيه من حسن الحال ـ سجنى .

وفى مجمل أحوال المؤمن قال رسولنا صلى الله عليه وسلم : « المؤمن بخير على كل حال ، تنزع نفسه من بين جنبيه وهو يحمد الله » رواه النسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما بإسناد حسن .

فالمؤمن حقاً : لشكره فى حال الرخاء وصبره فى حال البلاء ـ بخير على كل حال ، وحمده لله تعالى عند مماته ، ونزع روحه من جسده : النعيم الذى هو أمامه فضلا من الله وإكراماً ، وهو الأمر الذى بالنظر إليه ـ الدنيا سجنه ، وأمنية المسجون أن يخرج من سجنه ، فإذا تحقق خروجه من سجنه ـ كان ذلك نعمة يحمد الله تعالى عليها ، وروى الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا أباذر ، إن الدنيا سجن المؤمن ، والقبر أمنه ، والجنة مصيره ، وإن الدنيا جنة الكافر ، والقبر عذابه ، والنار مصيره » وروى الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أوثق عرى الإيمان ـ أى أقوى الأسباب التى يتمسك بها المؤمن ـ الموالاة فى الله والمعاداة فى الله والحب فى الله والبغض فى الله عز وجل » ، وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لن يشبع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة » زاد الله إيماننا ، ووفقنا لما يحبه ويرضاه على الدوام .

٨ — المسلم يؤدى رسالته فى الحياة

فى نور الإيمان بالقضاء والقدر

الحمدُ لله الواحدِ الأحد ، الذى بالإيمانِ والعملِ الصالحِ أعزَّ وأسعدَ ، وقال : (إنَّ الذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصالحاتِ لَهُمْ جنّاتُ النعيمِ خالدينَ فيها وَعْدَ اللهِ حقًّا وهُوَ العزيزُ الحكيمُ) .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ الفَرْدُ الصَّمَدُ ، الذى لا يُعْتَمَدُ إلاّ عليْهِ ، وتَنْجحُ المقاصدُ إذا أُسْنِدَتْ إليْهِ (قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عليْهِ يتوكّلُ المتوكّلونَ) .

وأشهدُ أنَّ سيّدَنا مُحمّداً رسُولُ اللهِ ، أفضلُ مَنْ توكّلَ على اللهِ ، وسعَى لخيْرِ دُنياهُ وأُخْراه ، وحرَصَ على رِضاهُ جلّ عُلاه ، وبلّغَ قوْلَهُ سبْحانَهُ : (ومَنْ يتوكّلْ على اللهِ فهُوَ حسْبُهُ إنَّ اللهَ بالِغُ أمْرِهِ) .

اللّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على سيّدِنا محمّدٍ وعلى آلِهِ وصحْبِهِ ، الذينَ تعلّقَتْ قلوبُهُمْ باللهِ ، فلَمْ ييأَسُوا مِنْ رحْمَتِهِ ، ولَمْ يخافُوا غيْرَهُ ، ولَمْ يرْجُوا سِواه (أُولئِكَ الذينَ هَدَاهُمُ اللهُ وأُولئِكَ هُمْ أُولُو الألبابِ) .

أمّا بعْدُ :

فقدْ قالَ أنسُ بْنُ مالِكٍ رضيَ اللهُ عنه[1] : خدَمْتُ رسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عشْرَ سنِينَ فما قالَ لى لشَيْءٍ فعَلْتُهُ : لِمَ فعَلْتَهُ ، ولا لشَيْءٍ لَمْ أفعَلْهُ : لِمَ لا فعَلْتَهُ ؟ ولا قالَ فى شَيْءٍ كانَ ليْتَهُ لَمْ يكُنْ ، ولا فى شَيْءٍ

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

لَمْ يَكُنْ لَيْتَهُ كَانَ ، وَكَانَ إِذَا خَاصَمَنِي مُخَاصِمٌ مِنْ أَهْلِهِ يَقُولُ : دَعُوهُ ، لَوْ قُضِيَ شَيْءٌ لَكَانَ .

عِبَادَ اللهِ :

الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ـ رَاحَةٌ لِلنَّفْسِ ، وَوِقَايَةٌ مِنَ الْحُزْنِ وَالْحَسْرَةِ ، كَمَا أَنَّهُ إِقْرَارٌ بِعِلْمِ الْقَادِرِ جَلَّ شَأْنُهُ وَإِرَادَتِهِ ، وَلَمَّا سَأَلَ جِبْرِيلُ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم عَنِ الْإِيمَانِ ، قَالَ[1] : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » . قَالَ جِبْرِيلُ : صَدَقْتَ ، وَالْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ ، قَالَ تَعَالَى : (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) ، وَمَا جَازَ زِيَادَتُهُ جَازَ نَقْصُهُ ، وَهُوَ يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي تَنْقُصُهُ .

وَالْإِيمَانُ كُلُّهُ خَيْرٌ ، فَالْمُؤْمِنُ لَا يَخْلُو مِنْ خَيْرٍ ، إِلَّا أَنَّ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ بِالطَّاعَاتِ تَجْعَلُ الْمُؤْمِنَ قَوِيًّا ، ذَا عَزْمٍ وَإِقْدَامٍ إِلَى عَمَلِ الصَّالِحِ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ثَابِتًا عِنْدَ الشِّدَّةِ ، لِاتِّصَالِهِ بِاللهِ . وَنُقْصَانُ الْإِيمَانِ بِالْمَعَاصِي يَجْعَلُ الْمُؤْمِنَ ضَعِيفًا جَبَانًا مُسْتَسْلِمًا لِأَهْوَائِهِ ، لِبُعْدِهِ عَنِ اللهِ . لِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم[2] : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ » .

أَلَا إِنَّ الْمُؤْمِنَ الْقَوِيَّ يَكُونُ حَرِيصًا عَلَى كُلِّ مَا يَنْفَعُهُ وَيَنْفَعُ أُسْرَتَهُ

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وَيَنْفَعُ إِخْوَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَيَسْعَى إِلَى ذَلِكَ بِهِمَّةٍ فَتِيَّةٍ ، بَعِيداً عَنْ كُلِّ مَا يَضُرُّهُ وَيُؤْذِي غَيْرَهُ .

وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ الْحِرْصِ ـ التَّهَالُكَ عَلَى كَسْبِ الدُّنْيَا ، بَلْ هُوَ عَدَمُ التَّفْرِيطِ وَالتَّوَاكُلِ ، اعْتِمَاداً عَلَى أَنَّ اللهَ قَسَمَ الْأَرْزَاقَ ، وَحَدَّدَ الْآجَالَ ، وَكَتَبَ الْأَشْقِيَاءَ وَالسُّعَدَاءَ ، وَقَدْ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ ، فَإِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَباً .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ قَالَ لِمَرْيَمٍ وَهُزِّي إِلَيْكِ الْجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرُّطَبْ

وَلَوْ شَاءَ مِنْهَا الْجَنَى مِنْ غَيْرِ هَزِّهِ جَنَتْهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبْ

ولا نُسْأَلُ إِلَّا عَنِ الْأَخْذِ بِهَذَا السَّبَبِ ، وَهُوَ عَمَلُنَا الَّذِي نُحَاسَبُ عَلَيْهِ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) .

فَيَا عِبَادَ اللهِ :

أَخْطَأَ مَنْ يَعْتَقِدُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا حُظُوظ ، وَأَنَّهَا لا تُقْبِلُ إِلَّا عَلَى الْمَحْظُوظ ، فَيَرْكَنُ إِلَى الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَيَعْتَمِدُ عَلَى الْحَظِّ ، وَهُوَ يُنَافِي صِحَّةَ الْإِيمَانِ وَقُوَّةَ الْيَقِينِ ، وَقَدْ اسْتَعَاذَ[1] نَبِيُّنَا صلى اللهُ عليه وسلم

(١) روى أبو داود عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الانصار يقال له أبو أمامة جالساً فيه ، فقال : يا أبا أمامة ، مالى أراك جالساً فى المسجد فى غير وقت صلاة ؟ قال : هموم لزمتنى وديون يارسول الله ، فقال : « ألا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله عز وجل همك ، وقضى عنك دينك ، فقال: بلى يارسول الله =

مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَأَمَرَنَا سُبْحَانَهُ بِالسَّعْيِ وَالْعَمَلِ : قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

فَالْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ يَطْلُبُ حَاجَاتِهِ ، وَيَسْعَى إِلَى مَا يَنْفَعُهُ ، وَلَكِنْ عَلَى هَدْيِ قَوْلِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم : « اطْلُبُوا الْحَوَائِجَ بِعِزَّةِ الْأَنْفُسِ فَإِنَّ الْأُمُورَ تَجْرِي بِالْمَقَادِيرِ »[1] .

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ :

قَالَ رسولُنَا صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »[2] .

وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى : بَعْدَ أَنْ قَسَمَ الْأَرْزَاقَ وَحَدَّدَ الْآجَالَ ، وَعَلِمَ السُّعَدَاءَ وَالْأَشْقِيَاءَ - غَيَّبَ ذَلِكَ عَنَّا ، فَلَا يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ الْمُقَدَّرَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَقَعَ فَإِذَا لَيْسَ الْمُقَدَّرُ فِي وُسْعِنَا وَقَدْ كُلِّفْنَا بِالسَّعْيِ إِلَى مَطَالِبِ حَيَاتِنَا مَعَ الِاسْتِمْسَاكِ بِمَعَالِمِ دِينِهِ ؛ حَتَّى لَا نَغْفُلَ فِي سَعْيِنَا ، فَنُضَيِّعَ حَقَّنَا ، أَوْ نَأْخُذَ حَقَّ غَيْرِنَا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ - لَا يُحَاسِبُنَا إِلَّا عَلَى مَا كَلَّفَنَا بِهِ ، وَهُوَ

= قال : قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ، قال : ففعلت ذلك فأذهب همي وقضى عني ديني .

(١) رواه ابن عساكر عن عبد الله بن بسر : رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو : رضي الله عنهما .

حا في وُسْعِنا ، قالَ تعالَى : « لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ » ، وقالَ : « وَما تَدْرِي نَفْسٌ ماذَا تَكْسِبُ غَداً ، وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » . وقال : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً[1] فامْشُوا في مَنَاكِبِها[2] وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإلَيْهِ النُّشُورُ »[3] .

فالمؤْمِنُ القَوِيُّ يَعْمَلُ لِلْمُسْتَقْبَلِ ، وَيَسِيرُ في الحَياةِ لِغَاياتِهِ بِرَجاءٍ وَأَمَلٍ مُوَطِّناً نَفْسَهُ عَلَى تَلَقِّي القَضاءِ بالرِّضا إذا نَزَلَ ، وَنُصْبُ عَيْنَيْهِ قَوْلُ الإمامِ الشَّافِعِيِّ رضي اللهُ عنه ، يُخاطِبُ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالَى :

فَمَا شِئْتَ كانَ وَإنْ لَمْ أَشَأْ ... وَمَا شِئْتُ إنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ العِبادَ عَلَى ما عَلِمْتَ ... فَفِي العِلْمِ يَجْرِي الفَتَى وَالمُسِنّْ
فَهَذَا هَدَيْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ[4] ... وَهَذَا أَعَنْتَ وَذَا لَمْ تُعِنْ
وَهَذَا شَقِيٌّ وَهَذَا سَعِيدٌ ... وَهَذَا قَبِيحٌ وَهَذَا حَسَنْ
وَهَذا قَوِيٌّ وَهَذا ضَعِيفٌ ... وَكُلٌّ بِأَفْعالِهِ مُرْتَهِنْ

والمؤْمِنُ القَوِيُّ عاقِلٌ يَقِظٌ - يَعْتَبِرُ بِما صادَفَهُ وَصادَفَ غَيْرَهُ في

---

(١) سهلة مذللة مسخرة لما تريدون منها من سعى فيها ، ومشى عليها ، وغرس بها ، وبناء فوقها . (٢) جوانبها .

(٣) إحياء الموتى يوم القيامة ، فيسألهم أشكروا نعمه أم كفروا .

(٤) لاييأس المطلع على هذا . قول الإمام الشافعى رضى الله عنه قبل هذا خلقت العباد على ما علمت - فإنه يتذكر هذا - لايقول كبعض القاصرين : إن من حجة العبد أن يقول لله تعالى : لم تعذبنى والكل فعلك ، فهذا مردود بأن الله تعالى علم مايختاره العبد من خير أو شر .

الماضي مِنْ عِظاتٍ وَعِبَرٍ ، ولا تمنعهُ العقباتُ مِنْ مُوَاصَلَةِ السَّيْرِ ، ولا تصرفُهُ آخِرَتُهُ عَنْ دُنْياهُ ، وَلا دُنْياهُ عَنْ آخِرَتِهِ .

فمَعَ حُبِّهِ الآخِرَةَ دارَ الجزاء ، وَهُوَ خيرٌ دائمٌ لَهُ عَلَى الاستقامةِ في دُنْياهُ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ طَرِيقاً لِأُخْرَاهُ – لا ينقطعُ لِصَلاتِهِ وَصِيامِهِ وَحَجِّهِ ، وَذِكْرِ اللهِ في خَلْوَتِهِ مُنْصَرِفاً كلَّ الانصرافِ عَنِ التَّعامُلِ مَعَ خَلْقِ اللهِ ، حيثُ ينفعُ وينتفعُ ، وَيُظْلَمُ فيدفعُ ، وَيَصْبِرُ وَيَلْتَزِمُ حُدُودَ اللهِ ، وَالرَّسُولُ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : « مَنْ أَحَبَّ دُنْياهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْياهُ فَآثِرُوا ما يَبْقَى عَلَى ما يَفْنَى »[1] .

فالمُسْلِمُ وَإِنْ كانَتِ الآخِرَةُ مَوْضِعَ اهتمامِهِ – لا ينسى نصيبَهُ مِنَ الدُّنْيا . قالَ تعالى : « وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا » .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « اعْمَلْ عَمَلَ امْرِئٍ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَمُوتَ أَبَداً وَاحْذَرْ حَذَرَ امْرِئٍ يَخْشَى أَنْ يَمُوتَ غَداً »[2] .

يا قَوْمِ :

المؤمنُ القَوِيُّ – يعمَلُ جُهْدَهُ في سَبِيلِ النَّافِعِ ، وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَنْ

---

(١) رواه أحمد والطبراني والقضاعي وغيرهم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) رواه البيهقي في السنن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

يَصِلَ إِلَى مَطْلُوبِهِ . وَأَنْ يَتَحَقَّقَ لَهُ أَمَلٌ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَفَضْلِهِ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : « قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » .

فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ إِنْ فَاتَهُ شَيْءٌ مِمَّا يَسْعَى لِتَحْقِيقِهِ لاَ يَنْدَمْ وَيَصْبِرْ ، وَإِنْ أَتَاهُ شَيْءٌ - لا يَفْرَحْ فَرَحَ بَطَرٍ ، وَيَشْكُرْ وَيَذْكُرْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا[1] إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ لِكَيْلاَ تَأْسَوْا[2] عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ[3] فَخُورٍ[4] » .

والمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ يُغْلِقُ أَبْوَابَ الشَّرِّ وَالْوَسَاوِسِ ، وَمَنَافِذَ الشَّيْطَانِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى زَعْزَعَةِ الْإِيمَانِ ، وَلاَ يَقُولُ عِنْدَ اسْتِعْصَاءِ الشِّفَاءِ مِنَ الْمَرَضِ : لَوْ أَنِّي أَحْضَرْتُ طَبِيباً بَارِعاً لَشُفِيتُ .

وَلاَ يَقُولُ - عِنْدَ خُسْرَانِ الْقَضِيَّةِ - لَوْ أَنِّي أَحْضَرْتُ مُحَامِياً بَارِعاً - لانْتَصَرْتُ ، وَهَكَذَا - عِنْدَ كُلِّ مُصَابٍ - لا يَقُولُ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا - كَانَ كَذَا وَكَذَا ، فَلاَ فَائِدَةَ فِي هَذَا الْكَلاَمِ ، بَعْدَ أَنْ وَقَعَ الْمَكْرُوهُ .

---

(١) نخلقها .

(٢) لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من نعم الدنيا حزن قنوط . ولا تفرحوا بما آتاكم منها فرح بطر ، فإن من علم أن ذلك مقدر أزلا من الله تعالى - رضى واطمأن ، وصبر أو شكر .

(٣) متكبر عن تخيل فضيلة تراءت له من نفسه .

(٤) على الناس يباهيهم بنحو المال والجاه .

وما ليس بالمرام ، بل يعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] : « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء الله فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » أى تجلب وساوسه ، وتضعف الإيمان ، وتأتى بالحسرة والهم والأحزان ، حين يذكر المرء حرمان الخير ، وإصابة الشر ، فحقاً حقاً

سيكون الذى قضى سخط العبد أم رضى

فدع الهم يا فتى كل هم سينقضى

لتجد للحياة طعماً ، وليكون لك بها آثار باقية .

دع الهم - أيها العاقل - واسع للتخلص منه ، بالتخلص من سببه ما استطعت لذلك سبيلا ، فإذا كان مرضاً سعيت إلى الشفاء منه بالعلاج وتناول الدواء . وإذا كان حرماناً من خير فاستعن بالله ، وخذ فى الوسيلة إليه ، ولا تقنط من رحمة الله ، فهو تعالى قد قال : (كل يوم هو فى شأن) ومن شأنه تعالى أن يغفر ذنباً ، ويكشف كرباً ، ويرفع قوماً ويضع آخرين ، والعمل لخير الدنيا والآخرة يشغل عن الهم . قال صلى الله عليه وسلم :[2] « إذا قصر العبد فى العمل ابتلاه الله بالهم » .

---

(١) تكملة الحديث الذى سبق جزؤه : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير . احرص ... » الخ .

(٢) رواه الإمام أحمد فى الزهد .

عبدَ الله ، أيُّها المسلم :

اتقِ اللهَ ، وَاعملْ لِخَيرِ دُنياكَ وَأخراكَ ، وَاحذَرِ الكَسَلَ ، فالعملُ رِسالتُكَ في الحياةِ ، وَبِها يتحققُ العمرانُ ، وَتوكَّلْ في عَملِكَ عَلى اللهِ عزَّ وَجلَّ ، مُسلِّماً لَهُ الأمرَ ، صابِراً راضِياً بِما قضى ، لِتكونَ راضياً بِما يُرضيهِ ، فيمنحكَ الرِّضا ، قالَ موسى عليهِ السَّلامُ لِربِّهِ : دُلَّني عَلى عَملٍ إذا عَمِلتهُ رَضيتَ عنِّي ، فأوحى إليهِ أنَّ رِضايَ في رِضاكَ بِقضائي . وَأعِدَّ لِلمستقبلِ عُدَّتَهُ ، مُعتبِراً بِما مَضى ، مُتجنِّباً لِلأسبابِ التي أدَّتْ إلى وُقوعِ المكروهِ . وَسِرْ في حياتِكَ وَأنتَ ذاكِرٌ عَلى الدَّوامِ قولَ رَبِّكَ (رَبَّنا عَليكَ تَوكَّلنا وَإليكَ أنبنا وَإليكَ المصيرُ) .

قالَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « إنَّ لِكلِّ شيءٍ حَقيقةً ، وَما بَلغَ عَبدٌ حَقيقةَ الإيمانِ حتَّى يَعلمَ أنَّ ما أصابَهُ لَمْ يكنْ لِيُخطِئَهُ وَأنَّ ما أخطأهُ لَمْ يكنْ لِيُصيبَهُ » رواهُ الإمامُ أحمدُ عن أبي الدرداء رضيَ اللهُ عنه .

وقالَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « لا يُؤمِنُ عَبدٌ حتَّى يُؤمِنَ بأربعةٍ : يَشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَأنِّي رَسولُ اللهِ ، بَعثَني بِالحقِّ ، وَيُؤمِنُ بالبعثِ بَعدَ الموتِ ، وَيُؤمِنُ بالقدرِ خَيرِهِ وَشرِّهِ وَحُلوِهِ وَمُرِّهِ » رواهُ أحمدُ في مُسندِهِ والترمذيُّ وابنُ ماجه والحاكمُ عن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وَجهه ، وَرَضيَ عنه وأرضاه .

وقالَ سُراقةُ بنُ مالكٍ : يا رَسولَ اللهِ بَيِّنْ لنا دِينَنا كأنَّا خُلِقنا الآنَ ، فيمَ العملُ ، أفيما جَفَّتْ بِهِ الأقلامُ ، وَجَرَتْ بِهِ المقاديرُ أمْ فيما نَستقبِلُ ؟ قالَ : « فيما جَفَّتْ بِهِ الأقلامُ ، وَجَرَتْ بِهِ المقاديرُ » قالَ : ففيمَ العملُ ؟ قالَ : « اعملوا فكلٌّ مُيسَّرٌ لِما خُلِقَ لهُ ، وكلُّ عامِلٍ بِعملِهِ » رواهُ مُسلمٌ في صحيحِهِ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهما .

٩ — التفكر فى آيات الله

يثمر حسن الحال فى الحياتين

(الحمدُ لِلهِ الذى خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وجَعَلَ الظلماتِ والنورَ)

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، لهُ الخلقُ والأمرُ، والحكمُ والقهرُ، ويعلمُ السرَّ والجهرَ، وإليهِ الرجوعُ يومَ الحشرِ.

وأشهدُ أنَّ سيدَنا محمداً رسولُ اللهِ، خيرُ من تفكَّرَ فى خلقِ اللهِ، وتدبَّرَ آياتِ اللهِ.

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ على سيدِنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبِهِ، ذوى الإيمانِ واليقينِ.

أما بعدُ. فياعبادَ اللهِ:

قالَ عطاءٌ[1]: انطلقتُ أنا وابنُ عمرَ، وعُبيدُ بنُ عُميرٍ — إلى عائشةَ رضىَ اللهُ عنها، فدخلنا عليها، وبيننا وبينها حجابٌ، فقالتْ: ياعُبيدُ، ما يمنعُكَ من زيارتِنا؟ قالَ: قولُ الشاعرِ: زُرْ غِبًّا تزددْ حبًّا. فقالَ ابنُ عمرَ: ذَرِينا، أخبِرينا بأعجبِ ما رأيتِهِ من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم، فبكتْ، وقالتْ: كلُّ أمرِهِ كانَ عجبًا: أتانى فى ليلتى، حتى مسَّ جلدُهُ جلدى، ثم قالَ: ذَرِينى أتعبَّدْ لربى عزَّ وجلَّ. قالتْ فقلتُ: واللهِ إنى لأحبُّ قربَكَ، وإنى أحبُّ أن تعبدَ ربَّكَ، فقامَ إلى القربةِ فتوضأَ، ولم يُكثرْ صبَّ الماءِ، ثم قامَ يصلى، فبكى حتى بلَّ لحيتَهُ، ثم سجدَ فبكى حتى بلَّ الأرضَ، ثم اضطجعَ على جنبِهِ فبكى حتى

---

(١) رواه ابن مردويه.

إذا أتى بلالٌ يؤذنه بصلاةِ الصُّبحِ قالت: فقال: يارسولَ اللهِ مايُبكيكَ وقد غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبكَ وما تأخَّرَ؟ فقال: «وَيحكَ يا بلالُ، وما يمنعُني أن أبكي وقد أنزلَ اللهُ عليَّ في هذهِ اللَّيلةِ: (إنَّ في خلقِ السَّمواتِ والأرضِ واختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الألبابِ[1])» ثمَّ قال[2]: «وَيلٌ لِمَنْ قرَأها ولَمْ يتفكَّرْ فيها». وقال وَهبُ بنُ مُنبِّهٍ: «ماطالَتْ فِكرةُ امرئٍ قطُّ إلاَّ عَلِمَ، وماعَلِمَ امرُؤٌ قطُّ إلاَّ عَمِلَ».

فياعبدَ اللهِ: التَّفكُّرُ في آياتِ اللهِ وقايةٌ مِنَ الهلاكِ، فإنَّ ذلكَ يغرسُ في القلوبِ الإيمانَ باللهِ، ويَزيدُهُ. والإيمانُ باللهِ أساسُ عملِ الصَّالحاتِ، التي تَقي الهلاكَ، وتَمنحُ الخيراتِ. قال تعالى: (وَمَنْ يُؤمِنْ باللهِ ويعمَلْ صالِحاً يُدخِلْهُ جنَّاتٍ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ خالِدينَ فيها أبداً قدْ أحسَنَ اللهُ لهُ رِزقاً). وقالَ الحسنُ البصريُّ: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ قيامِ ليلةٍ». وقالَ الشَّيخُ أبو سُليمانَ الدَّارانيُّ: إنِّي لأخرُجُ مِنْ منزِلي فما يقعُ بصَري على شيءٍ إلاَّ رأيتُ للهِ عليَّ فيهِ نِعمةً ولي فيهِ عِبرةً.

ومِنْ آياتِ اللهِ البيِّناتِ الدَّالةِ على عظمتِهِ تعالى، وكمالِ قُدرتِهِ ووَحدانيَّتِهِ، ويغرسُ بها الإيمانُ أو يَزيدُ - طلوعُ الشَّمسِ وغروبُها في مَواقيتَ مُحدَّدةٍ: بدقَّةٍ فائقةٍ، ونظامٍ عجَبٍ، يَبهرُ الأبصارَ، ويُحيِّرُ الألبابَ، ويترتَّبُ عليهِ حياةُ كلِّ كائنٍ حيٍّ، ودُخولُ اللَّيلِ في النَّهارِ، والنَّهارِ في اللَّيلِ، مِنْ غيرِ فاصلٍ بينَهُما، وسَعيُ النَّاسِ في النَّهارِ وسُكونُهم

(١) لأصحاب العقول. (٢) ويل: هلاك.

فى اللّيلِ ، وَمَعَاشُهُمْ فى الشّتاء ، وَالرّبيعِ ، وَالصّيفِ ، وَالخريفِ : (وَمِنْ آيَاتِهِ اللّيلُ وَالنّهارُ وَالشّمْسُ وَالقَمَرُ) .

وَلِيَتّجِهْ أَصحابُ العُقُولِ ـ فى هُدًى ـ إلى مَنَافِعِ الشّمْسِ المُضِيئةِ ، وَالقَمَرِ المُنِيرِ ، وَإلى نِعْمَةِ النَّوْمِ وَالسُّكُونِ وَالهُدُوءِ فى اللّيلِ ، وَالسّعْيِ وَالحَرَكَةِ لِعِمَارَةِ الدُّنيا فى النّهارِ ، فَيَشْكُرُوا لِلخَلّاقِ العَظيمِ ، وَيُطِيعُوهُ . أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ ـ فى الذّكْرِ الحَكِيمِ ـ بِهَا ، فَقَالَ : (وَالشّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَالقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ، وَالنّهارِ إِذَا جَلّاهَا ، وَاللّيلِ إِذَا يَغْشَاهَا) .

فَيَأَيُّهَا المُؤمِنُ باللهِ ، الّذِى دَلّتِ الشّمْسُ بِعَظَمَتِهَا عَلَى عَظَمَتِهِ جَلّ عُلاه : انْتَبِهْ لِنَهَارِكَ ، وَالشّمْسُ طَالِعَةٌ مُحْرِقَةٌ فى الصّيْفِ ، وَاذْكُرْ أَنّ نَارَ جَهَنّمَ أَشَدُّ حَرًّا مِنْهَا ، وَأَنّهَا أُعِدّتْ لِلعُصَاةِ الّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ . وفى الكِتَابِ المُبِينِ : (قُلْ نَارُ جَهَنّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) . وَاذْكُرْ ـ وَالشّمْسُ مُخْتَفِيَةٌ فى الشّتاء ، وَالبَرْدُ شَدِيدٌ ـ زَمْهَرِيرَ[1] جَهَنّمَ الّذِى يُسْقِطُ اللّحْمَ ، حَتّى يَسْتَغِيثَ أَهْلُهَا مِنْهُ بِحَرّهَا ، وَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم[2] : « اشْتَكَتِ النّارُ إلى رَبّهَا فَقَالَتْ : يَارَبِّ أَكَلَ بَعْضِى بَعْضًا ، فَأَذِنَ لَهَا فى نَفَسَيْنِ : نَفَسٍ فى الشّتاء ، وَنَفَسٍ فى الصّيفِ : فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَهُ فى الصّيْفِ مِنْ حَرّهَا ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَهُ فى الشّتاء مِنْ زَمْهَرِيرِهَا .

---

(١) زمهرير جهنم : بردها .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وَاذْكُرْ نَعِيمَ الْجَنَّةِ وَطِيبَ عَيْشِهَا بِفَصْلِ الرَّبِيعِ ، فَاعْمَلْ صَالِحًا .

وَاذْكُرْ - بِكَمَالِ اجْتِنَاءِ ثَمَرَاتِ الدُّنْيَا فِى فَصْلِ الْخَرِيفِ - كَمَالَ اجْتِنَاءِ ثَمَرَاتِ الْأَعْمَالِ فِى الْآخِرَةِ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) .

وَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ : إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ ، وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ كَاللِّبَاسِ فِى سَتْرِهِ لِمَا يَكُونُ بِالنَّهَارِ مَكْشُوفًا - فَاذْكُرْ أَنَّ رَبَّكَ الَّذِى جَعَلَ النَّوْمَ رَاحَةً لِبَدَنِكَ - لَا يَغْفُلُ وَلَا يَنَامُ ، فَلَا تَنَمْ قَبْلَ أَنْ تَتُوبَ مِمَّا قُلْتَ ، أَوْ فَعَلْتَ ، (وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) وَاحْذَرْ أَنْ تَنْتَهِزَ فُرْصَةَ هُدُوءِ اللَّيْلِ وَسَتْرِهِ بِظَلَامِهِ ، وَتَرْتَكِبَ مَا يُغْضِبُ اللهَ رَبَّكَ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى - يَرَاكَ وَإِنْ لَمْ تَرَهُ ، وَهُوَ - تَعَالَى - عَلَى هَتْكِ السِّتْرِ ، وَكَشْفِ السِّرِّ - قَدِيرٌ . وَاذْكُرْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَنْظُرُ إِلَى السَّاجِدِينَ الْخَاشِعِينَ ، الَّذِينَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم(1) : « أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ » .

وَانْتَبِهْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ - إِلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِذَا أَقْبَلَ النَّهَارُ وَأَدْبَرَ اللَّيْلُ يَنْظُرُ لِلصُّوَّامِ نَظْرَةَ إِقْبَالٍ وَإِكْرَامٍ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم(2) « مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِى سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى إِلَّا بَاعَدَ اللهُ - بِذَلِكَ الْيَوْمِ -

---

(1) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة فى صحيحه .
(2) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد رضى الله عنه .

وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً[1] » . ولا يَغْتَرَّ عاصٍ بِسَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ فى بَعْضِ اللَّيَالِي ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مُنْتَقِمٌ جَبَّار ، عَزِيزٌ قَهَّار ، كما أَنَّهُ حَلِيمٌ سَتَّار ، (وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) :

سَرَقَ سارِقٌ فى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضى اللهُ عنه ، وَأُحْضِرَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : اعْفُ عَنْهُ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، فَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ ، فَقَالَ عُمَرُ : لاَ ، إِنَّ اللهَ تَعالى لَمْ يَكْشِفْ سِتْرَهُ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ سَتَرَ عَلَيْهِ مِرَاراً ، وَيا عَجَباً لِلْعَبْدِ الَّذِي تَحْرُسُهُ عَيْنُ سَيِّدِهِ ، وَيَعُمُّهُ بِلُطْفِهِ وَسَتْرِهِ فى حالَةِ عِصْيانِهِ لَهُ بِاللَّيْلِ عَسَى أَنْ يُصْبِحَ تائِباً ، فَيُرَى مُجاهِراً بِمَعْصِيَتِهِ ، مُتَبَاهِياً بِهَا نَهاراً ، مُعْلِناً جُرْأَتَهُ عَلَى رَبِّهِ وَداعِياً غَيْرَهُ إِلى التَّشَبُّهِ بِهِ ، وفى ذَلِكَ يَقُولُ رَسُولُنَا صلى اللهُ عليه وسلم[2] : « كُلُّ أُمَّتِي مُعافَى إِلاَّ المُجَاهِرِينَ ، وَإِنَّ مِنَ المَجَانَةِ ـ أَىْ عَدَمَ مُبالاَةِ الرَّجُلِ بِمَا يَصْنَعُ ـ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ ، فَيَقُولَ : يا فُلاَنُ ، عَمِلْتُ البارِحَةَ كَذَا وَكَذَا ، وَقَدْ باتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ » .

ما هَذِهِ الغَفْلَةُ الفَظِيعَةُ الَّتِى حَرَمَتِ المَرْءَ عَقْلَهُ ، وَدَفَعَتْ بِهِ إِلى هَذَا الحَدِّ مِنْ عَدَمِ الحَياءِ ، وَعَدَمِ الخَوْفِ مِنَ اللهِ (وَهُوَ القاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ) .

تَعَجَّبْ ـ أَيُّهَا العاقِلُ ـ مِنْ غَفْلَةِ هَذَا الغافِلِ ، وَانْظُرْ إِلى صِلَةَ بْنِ

---

(١) سنة (٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

أشيم ، أحد التابعين لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوج بمعاذة العدوية ، وفى ليلة الزفاف أدخله ابن أخيه الحمام ، ثم أدخله على زوجته فى بيت جميل ، ولما أصبح الصباح سأله عن الحال ، فقال : يابن أخى ، تذكرت بالحمام ومائه الساخن — النار وجحيمها ، وبالبيت الجميل — الجنة ونعيمها ، ومازالت ذكرى الجنة والنار مسيطرة على فكرى طول الليل ، فأخذت أصلى ومعى زوجتى حتى الصباح ، لعل الله يزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة .

وهكذا كان سلفنا الصالح — يرون دائما — الدنيا وما فيها — مرآة تنجلى فيها الآخرة وما فيها ، فازدادوا إيمانا وعملا للآخرة ، (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين) .

أيها المسلم : النوم موت أصغر ، والموت نوم أكبر ، واليقظة من النوم حياة محدودة ، والحياة بعد الموت لا حد لها فى نعيم مقيم ، أو عذاب أليم ومن ذكر الموت معتبرا عمل لما بعده ، فلم يقصر يوما فى طاعة ، ولم يفعل معصية . فاتق الله ، واذكر الموت واعمل لغدك ، وتدبر قول بشر الحافى[1] : « لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه » .

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم

---

(١) كان عارفاً بربه زاهداً ، وهو من رجال التصوف المشاهير ، وشيوخه الأئمة العادين .

أولئكَ هُمُ الفاسِقُونَ ، لا يَسْتَوِي أصحابُ النّارِ وَأصحابُ الجَنّةِ أصحابُ الجَنّةِ هُمُ الفائِزُونَ) .

قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « لَيْسَ مِنْ عَمَلِ يَوْمٍ إلاَّ يُخْتَمُ عَلَيْهِ » رواهُ الإمامُ أحمدُ عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ اللهُ عنه .

وقالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « أعطُوا أعْيُنَكُمْ حَظَّهَا مِنَ العِبادَةِ . قالوا : يارَسُولَ اللهِ ، وَمَا حَظُّهَا مِنَ العِبادَةِ ؟ قال: النَّظَرُ في المُصْحَفِ وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ وَالاعْتِبارُ عِنْدَ عَجائِبِهِ » رواه ابنُ أبي الدُّنيا عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضيَ اللهُ عنه .

وقالَ ابنُ عَبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما : إنَّ قَوْماً تفَكَّرُوا في اللهِ عزَّ وَجَلَّ فقَالَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : « تفَكَّرُوا في خَلْقِ اللهِ وَلا تَتَفَكَّرُوا في اللهِ فإنَّكُمْ لَنْ تَقْدُرُوا قَدْرَهُ » رواه الأصبهانيُّ في الترغيبِ والترهيبِ .

١٠ — الإيمان القوى لاتزعزعه الحوادث

الحمدُ لله : بالإيمان ـ نوّرَ القلوبَ ، وعظّمَ النفوسَ ، وقالَ : « يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » .

وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ ، أكرمُ مسئولٍ . وأعظمُ مأمولٍ ، ولسانُ حالِ المؤمنِ بهِ على الدوامِ يقولُ : إنْ أعطيتَني ـ قبلتُ ، وإنْ منعتَني ـ رضيتُ ، وإنْ تركتَني ـ عبدتُ ، وإنْ دعوتَني ـ أجبتُ .

وأشهدُ أنَّ سيّدَنا محمداً رسولُ اللهِ ، أرسخُ الناسِ إيماناً ، وأقوامُهم يقيناً وأجملُهم إحساناً ، وقالَ : « المؤمنُ بخيرٍ على كلِّ حالٍ : تُنزَعُ نفسُهُ مِنْ بينِ جنبيهِ ، وهوَ يحمدُ اللهَ »[1] .

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ على سيّدِنا محمدٍ ، وعلى آلهِ وصحبِهِ ، الَّذِينَ حبَّبَ اللهُ إليهِمُ الإيمانَ ، وزيّنَهُ في قلوبِهِمْ ، وكرَّهَ إليهِمُ الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ : « أولئكَ هُمُ الراشدونَ » .

أمّا بعدُ : فيا عبادَ اللهِ :

قالَ أنسُ بنُ مالكٍ : رضيَ اللهُ عنه[2] : « ماتَ ابنٌ لأبي طلحةَ مِنْ أمِّ[3]

---

(١) رواه النسائى ، عن ابن عباس : رضى الله عنهما .

(٢) رواه البخارى ومسلم ، فى صحيحهما .

(٣) هى أم أنس أيضاً وسيأتى فى الحديث مايفيد ذلك من مالك : زوجها قبل أبى طلحة .

سُلَيْم ، فقالَتْ لِأَهْلِها : لا تُحَدِّثُوا أبا طَلْحَةَ بِابْنِهِ ، حتى أكونَ أنا أُحَدِّثُهُ فَجاء ، فقرَّبَتْ إليهِ عَشاء ، فأكَلَ ، وشَرِبَ ، ثمَّ تَصَنَّعَتْ[1] لهُ أحسَنَ ما كانَتْ تَصنَعُ قبلَ ذلِكَ ، فوَقَعَ[2] بها ، فلمّا أنْ رأتْ أنَّهُ قدْ شَبِعَ ، وأصابَ مِنها - قالَتْ : يا أبا طَلْحَةَ أرأيْتَ[3] : لَوْ أنَّ قوْماً أعارُوا عارِيَتَهُمْ أهْلَ بَيْتٍ ، فطَلَبُوا عارِيَتَهُمْ . ألَهُمْ أنْ يَمْنَعُوهُمْ ؟ قالَ : لاَ . فقالَتْ فاحْتَسِبْ[4] ابنَكَ : قالَ : فغَضِبَ ، ثمَّ قالَ : تَرَكْتِنِي ، حتَّى إذا تَلَطَّخْتُ[5] ثمَّ أخبَرْتِنِي بِابْنِي ، فانطَلَقَ حتَّى أتَى رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فأخبَرَهُ بِما كانَ ، فقالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : بارَكَ اللهُ فِي لَيْلَتِكُما . قالَ : فحَمَلَتْ . قالَ : وكانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : فِي سَفَرٍ ، وهِيَ معَهُ ، وكانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم - إذا أتَى المَدِينَةَ مِنْ سَفَرٍ - لا يَطْرُقُها[6] طُرُوقاً فدَنَوْا مِنَ المَدِينَةِ ، فضَرَبَها المَخاضُ[7] ، فاحْتَبَسَ عَلَيْها أبُو طَلْحَةَ ، وانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : قالَ : يقُولُ أبُو طَلْحَةَ : إنَّكَ لَتَعْلَمُ يا رَبِّ أنَّهُ يُعْجِبُنِي أنْ أخرُجَ معَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، إذا خَرَجَ ، وأدْخُلَ معَهُ ، إذا دَخَلَ ، وقَدِ احْتَبَسْتُ

---

(١) أى بتحسين الهيئة بالحلى ونحوه .

(٢) أى جامعها

(٣) أى أخبرنى .

(٤) أى اطلب ثواب مصيبتك فى ابنك من الله تعالى .

(٥) أى تقذرت بالجماع .

(٦) أى لا يأتيها ليلا : لئلا يرى من أهله ما قد يكره .

(٧) وجع الولادة .

بِمَا تَرَى ، تَقُولُ أُمُّ سُلَيْمٍ : يَا أَبَا طَلْحَةَ مَا أَجِدُ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ ، انْطَلِقْ ، فَانْطَلَقْنَا ، وَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ ، حِينَ قَدِمَا ، فَوَلَدَتْ غُلَامًا ، فَقَالَتْ لِي أُمِّي : يَا أَنَسُ لَا يُرْضِعْهُ أَحَدٌ ، حَتَّى تَغْدُوَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ـ احْتَمَلْتُهُ ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَبَعَثَ أَبُو طَلْحَةَ ـ مَعَهُ ـ بِتَمَرَاتٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ـ صلى اللهُ عليه وسلم : أَمَعَهُ شَيْءٌ ؟ قَالَ ـ أَنَسٌ ـ : نَعَمْ تَمَرَاتٌ ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم فَمَضَغَهَا ، ثُمَّ أَخَذَهَا مِنْ فِيهِ ، فَجَعَلَهَا فِي فِي[1] الصَّبِيِّ ، ثُمَّ حَنَّكَهُ[2] ، وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ .

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ : « قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ : فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ . فَرَأَيْتُ تِسْعَةَ أَوْلَادٍ . كُلُّهُمْ قَدْ قَرَءُوا الْقُرْآنَ ـ يَعْنِي مِنْ أَوْلَادِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَوْلُودِ » .

وَهٰكَذَا مَنْ رَسَخَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ ، وَكَانَ مُؤْمِنًا صَادِقًا مُخْلِصًا : يَرْضَى بِالْقَضَاءِ ، وَيَصْبِرُ عَلَى الْبَلَاءِ ، وَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلصَّابِرِينَ .

وَقَدْ كَانَ بِلَالٌ مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللهُ عليه وسلم ـ مَمْلُوكًا لِأُمَيَّةَ ابْنِ خَلَفٍ ، أَحَدِ صَنَادِيدِ الْكُفْرِ بِمَكَّةَ ، فَكَانَ يَطْرَحُهُ فِي حَرِّ الظَّهِيرَةِ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَوْقَ الْحَصَى ، وَهُوَ مُحْمًى بِحَرِّ الشَّمْسِ ، وَيَضَعُ الصَّخْرَةَ ـ كَذَلِكَ ـ عَلَى صَدْرِهِ : لِيَحْمِلَهُ عَلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ ، فَمَا كَفَرَ بِلَالٌ بِاللَّهِ ، وَمَا تَرَكَ ذِكْرَ اللَّهِ ، وَظَلَّ يَقُولُ : أَحَدٌ أَحَدٌ ، حَتَّى اشْتَرَاهُ أَبُو بَكْرٍ مِنْ

---

(١) أي فمه .
(٢) أي دلك : صلى الله عليه وسلم ـ حنك الصبي ـ بالتمر الذي مضغه .

أُمَيَّةَ ، وأعتقه ، وفى غزوة بدرٍ – مَكَّنَ اللهُ بلالاً من أُمَيَّةَ ، فقتله ، وهنَّأه أبو بكرٍ بقوله :

هنيئاً زادك الرحمنُ فضلاً فقد أدركتَ ثأرك يا بلالُ

وقال الأشعثُ بنُ قيسٍ : دخلتُ مرَّةً على أميرِ المؤمنين ، عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضى اللهُ تعالى عنه ، فوجدته قد أثَّر فيه صبرُه على العبادةِ الكثيرةِ يقومُ فى طاعةِ اللهِ الليلَ إلا قليلاً ويصومُ ، وبخاصَّةٍ فى الصيفِ كثيراً ، فقلتُ له : ياأميرَ المؤمنين ، إلى كم تصبرُ على مكابدةِ هذه الشدَّةِ فى الطاعةِ ، فما زادنى إلا أن قال :

اصبرْ على مضضِ الإدلاجِ[1] فى السَّحرِ
وفى الرَّواحِ إلى الطاعاتِ فى البُكَرِ[2]
إنِّى رأيتُ وفى الأيامِ تجربةٌ للصبرِ عاقبةٌ محمودةُ الأثرِ
وقلَّ منْ جدَّ فى أمرٍ يؤمِّلُهُ واستصحبَ الصبرَ إلا فازَ بالظفرِ

فحفظتُ ذلك ، وألزمتُ نفسى الصبرَ فى كلِّ الأمورِ ، فوجدتُ بركتَه . .

ولا عجبَ ، فالصبرُ على الطاعةِ وتركِ المعصيةِ يزيدُ الإيمانَ ويقوِّيه ، فتدومُ استقامةُ الصبورِ لربِّه القائلِ : «والذين اهتدوا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم» .

---

(١) أى السير فى الطاعة ، وقت السحر ، وهو قبيل الصبح .
(٢) جمع بكرة أى باكر .

وَتحتَ ظِلاَلِ الهِدَايَةِ يَحيَا وَيَمُوتُ المُؤمِنُ قَوِيَّ الإِيمَانِ ، مُرْضِياً لِلوَاحِدِ الدَّيَّانِ ، الَّذِى عَرَفَ مَقَامَهُ ، فَخَافَهُ : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى ».

أَلاَ وَإِنَّ عَبْدَ اللهِ ، المُؤْمِنَ بِهِ تَعَالَى إِيمَاناً صَادِقاً خَالِصاً قَوِيًّا يَرَى ، وَيَعْلَمُ يَقِيناً ، أَنَّ كُلَّ مَا يَنَالُهُ مِنْ خَيْرٍ ، وَمَا يُصِيبُهُ مِنْ شَرٍّ مُمْتَحَنٌ بِهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، الَّذِى وَصَفَ نَفْسَهُ ، فَقَالَ : « لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » ، « إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ، « فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ » ، « وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ».

فَالأَسْبَابُ وَالمُسَبَّبَاتُ كُلُّهَا بِيَدِ اللهِ : الخَيْرُ وَالشَّرُّ ، وَاليُسْرُ وَالعُسْرُ ، وَالجُوعُ وَالشِّبَعُ ، وَالرِّيُّ وَالعَطَشُ ، وَالطَّعَامُ وَالمَاءُ ، وَالنَّفْعُ وَالضُّرُّ ، وَالذُّلُّ وَالسَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ ، وَالدَّاءُ وَالدَّوَاءُ وَالشِّفَاءُ ، وَالحِرْمَانُ ، وَالعَطَاءُ وَالعِزُّ وَالقُوَّةُ ، وَالعَافِيَةُ ، وَالكِسَاءُ : كُلُّ ذَلِكَ بِيَدِ اللهِ ، وَلاَ يَحْكُمُ الحَاكِمُ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ، وَلاَ يَقْضِى القَاضِى إِلاَّ بِإِرَادَةِ اللهِ ، الَّذِى لاَ رَادَّ لِمَا قَضَاهُ.

وَمَا السَّبَبُ الَّذِى يَأْخُذُ العَبْدُ بِهِ : لِنَيْلِ مُرَادِهِ – إِلاَّ عَلاَمَةٌ يُوجِدُ اللهُ عِنْدَهَا المُسَبَّبَ ، إِذَا أَرَادَهُ تَعَالَى ، فَلَيْسَ السَّبَبُ مُؤَثِّراً بِذَاتِهِ فِى مُسَبَّبِهِ ، وَلِذَلِكَ لَمَّا أُلْقِيَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِى النَّارِ ، الَّتِى أَوْقَدَهَا لَهُ قَوْمُهُ لَمْ تُحْرِقْهُ : لِأَنَّ اللهَ لَمْ يُرِدْ إِحْرَاقَهُ ، وَقَالَ : « قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ».

وَلِذَلِكَ الحَقُّ المُبِين لاَ يَكُونُ مِنَ المُؤْمِنِ القَوِيِّ الإِيمَانِ، إِذَا نَالَ خَيْراً ، أَوْ شَرًّا ، إِلاَّ مَا يُرْضِيهِ تَعَالَى ، فَكَمَا لاَ تُطْغِيهِ النِّعَمُ لاَ تُزَعْزِعُ إِيمَانَهُ الحَوَادِثُ ، مَهْمَا عَظُمَتْ ، وَلاَ تَنْقُصُ إِيمَانَهُ المَصَائِبُ ، مَهْمَا كَثُرَتْ ، وَعِنْدَ مَا تَنْزِلُ بِهِ حَادِثَةٌ ، أَوْ تُصِيبُهُ كَارِثَةٌ - يَتَلَقَّاهَا بِالصَّبْرِ الجَمِيلِ ، فَلاَ يُسْخِطُ اللهَ بِالجَزَعِ ، وَلاَ يَقُولُ مَا يُغْضِبُهُ تَعَالَى ، وَلاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ - كَمَا أَنْزَلَهَا ، وَأَصَابَ بِهَا - يُهَوِّنُهَا ، وَيُزِيلُهَا : « لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وَمِنْ هُنَا - يَتَّجِهُ المُؤْمِنُ القَوِيُّ الإِيمَانِ - بِنُورِ إِيمَانِهِ - إِلَيْهِ تَعَالَى : لِيُهَوِّنَ عَلَيْهِ مُصَابَهُ ، وَاللهُ تَعَالَى - عِنْدَ اتِّجَاهِهِ : قال رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ »[1] ، وَلِذَلِكَ - حِينَ عَلِمَ ابْنُ عَبَّاسٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَابْنُ عَمِّهِ - وَفَاةَ ابْنَتِهِ - قَامَ يُصَلِّي للهِ تَعَالَى : رَجَاءَ أَنْ يُهَوِّنَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ مُصَابَ فِرَاقِهَا ، مُهْتَدِياً بِقَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

وَبِالصَّبْرِ الجَمِيلِ ، وَالرَّجَاءِ فِي اللهِ - رَدَّ سُبْحَانَهُ يُوسُفَ وَأَخَاهُ عَلَى أَبِيهِمَا يَعْقُوبَ ، وَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِجَمْعِ شَمْلِ الأَهْلِ جَمِيعاً بِمِصْرَ ، فِي خَيْرٍ وَأَمَانٍ : « إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ » .

---

(١) جزء من حديث . رواه الترمذى ، عن ابن عباس رضى الله عنهما .

فالمؤمنُ القويُّ الإيمانِ – كما يكونُ عندَ النعمةِ شاكراً – يكونُ عند المصيبةِ صابراً ، ولينالَ أجرَ الصبرِ ، وما أعظمَهُ : « إنما يُوفَّى الصابرونَ أجرَهُم بغيرِ حسابٍ » ، فلا يلطِمُ خدًّا ، ولا يشُقُّ ثوباً ، ولا يفعلُ ، ولا يقولُ ما يُغضِبُ اللهَ ، وبلغَ من حرصِ سلفِنا الصالحِ على أجرِ الصبرِ – أنَّ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ الذي كانَ مُجابَ الدعوةِ – لمَّا قيلَ لهُ : اسألِ اللهَ أن يرُدَّ عليكَ بصرَكَ ، حينَ فقدَهُ في آخرِ حياتِهِ – أبى وقالَ : صبري على ما ربِّي بهِ ابتلاني خيرٌ من نورِ عيني .

ويا قومِ ما أحوجَ الأمَّةَ في بناءِ نهضتِها ، ونيلِ عزَّتِها – إلى قوَّةِ الإيمانِ فلا تضعُفُ أمامَ ضغطِ عدوٍّ ، ولا تذِلُّ ، وتعمَلُ في نشاطٍ : لوفرةِ الإنتاجِ ، بدونِ كسَلٍ ، وبغيرِ ملَلٍ « ونِعمَ أجرُ العامِلينَ » ، « وقُلِ اعملُوا فسيرَى اللهُ عملَكُم ورسولُهُ والمؤمنونَ وستُرَدُّونَ إلى عالِمِ الغيبِ والشهادةِ فيُنبِّئُكُم بما كُنتُم تعملُونَ » .

ألا وإنَّ ضعيفَ الإيمانِ – يتعرَّضُ للضررِ الشديدِ في الدُّنيا والآخرةِ حُكِيَ أنَّ مُسلِماً ، رأى نصرانيَّةً يوماً ، فوقعَ في شَرَكِ جمالِها ، فخطبَها ، فأبى أهلُها أن يُزوِّجُوهُ بها ، حتَّى يتنصَّرَ ، فقبِلَ : لضعفِ إيمانِهِ : بعدمِ استمساكِهِ بتعاليمِ الإسلامِ ، الهاديةِ إلى السعادةِ والسلامةِ .

ولمَّا علِمَتِ المرأةُ ذلكَ – عجِبَتْ أن يُفرِّطَ الرجُلُ في دينِهِ ، وهوَ أغلى ما في الحياةِ ، ولا شكَّ أنَّ من فرَّطَ في دينِهِ – كانَ أيسرَ عليهِ تفريطُهُ في سِواهُ ، وأخذَتْ تُفكِّرُ في الأمرِ ، فتجلَّتْ لها في شرحٍ لصدرِها ،

وَاشْرَاقِ قَلْبِهَا - غَايَةُ الإِسْلَامِ ، دِينِ الْفِطْرَةِ ، وَأَنَّهَا السَّعَادَةُ الأَبَدِيَّةُ ، وَخَيْرُ الْحَيَاتَيْنِ ، فَاحْتَقَرَتِ الرَّجُلَ ، وَخَرَجَتْ مِنْ مَكَانِهَا فِى الْبَيْتِ إِلَى مَجْلِسِهِ ، وَبَصَقَتْ فِى وَجْهِهِ ، وَقَالَتْ : تَرَكْتَ دِينَ الْحَقِّ لِشَهْوَةٍ ، فَكَيْفَ لا أَتْرُكُ أَنَا دِينَ الْبَاطِلِ : لِنَعِيمِ الأَبَدِ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ .

وَكَذَلِكَ الرَّجُلِ الْخَاسِرِ - سَائِرُ الْمُنَافِقِينَ : تُعْمِيهِمْ فِتْنَةُ النَّاسِ : لَذَّةً كَانَتْ أَوْ أَذًى عَنْ عَذَابِ اللهِ ، الشَّدِيدِ الدَّائِمِ : وَفِيهِمْ يَقُولُ تَعَالَى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِى اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ » .

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْكُفْرَ بَعْدَ الإِيمَانِ - أَفْظَعُ إِثْمٍ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : « وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

فَلْيَحْذَرِ الْمُسْلِمُ مَا يُضْعِفُ إِيمَانَهُ : مِنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ لِلهِ ، وَلْيَحْرِصْ عَلَى مَا يُقَوِّيهِ : حِرْصاً عَلَى الْفَلَاحِ وَالنَّجَاةِ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : « مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

الدُّنْيَا مَمْلُوءَةٌ بِالْحَوَادِثِ وَالْمَصَائِبِ ، وَالْمُؤْمِنُ مُعَرَّضٌ لَهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ وَعُدَّةُ السَّلَامَةِ مِنْ خَطَرِهَا - قُوَّةُ الإِيمَانِ ، الَّذِى مِنْ شُعَبِهِ ،

وَفُرُوعِه - الصَّبْرُ : قال رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :[١] « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » .

وَلِذَلِكَ تُصِيبُ ضَعِيفَ الإِيمَانِ الْمُصِيبَةُ ، أَوْ يَلْحَقُهُ ظُلْمٌ ، أَوْ تَكُونُ لَهُ حَاجَةٌ ، فيدْعُو اللهَ ، مُلِحًّا فى دُعَائِهِ ، فَيُؤَخِّرُ اللهُ الإِجَابَةَ : لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا تَعَالَى ، فَيَتَزَعْزَعُ إِيمَانُهُ ، وَيَزِيدُ هَمُّهُ وَحُزْنُهُ وَيَسْتَحْوِذُ عليهِ الشَّيْطَانَ فيدْفَعُهُ إِلَى إِيقَاعِ الضُّرِّ بِنَفْسِهِ أَوْ بِغَيْرِه ، وَيَنْسَى قولَهُ تَعَالَى : (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) .

وَقَدْ يُصَادِفُ أَنْ يَمْرَضَ إِنسَانٌ ، أَوْ يُصِيبَهُ أَذًى أَوْ ضَرَرٌ فى بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ أَهْلِهِ ، عَقِبَ زِيَارَةِ الْمَسْجِدِ - لِأَوَّلِ مَرَّةٍ - بَعْدَ عَزْمِهِ عَلَى الصَّلاَةِ ، فَيَتَشَاءَمُ ، وَحِينَئِذٍ - يَسْتَغِلُّ الشَّيْطَانُ ضَعْفَ إِيمَانِهِ ، فَيُزَيِّنُ لَهُ الرُّجُوعَ إِلَى سَابِقِ حَالِهِ ، وَنَقْضَ تَوْبَتِهِ وَاجْتِنَابَ الْمَسَاجِدِ ، فَيُطِيعُهُ ، وَلاَ يُذَكِّرُ نَفْسَهُ بِمَا كَسَبَ مِنْ وُضُوئِهِ مِنَ انْتِعَاشٍ ، وَانْشِرَاحٍ ، وَمَا كَسَبَ مِنَ صَلاَتِهِ مِنْ رَاحَةِ نَفْسٍ وَهُدُوءِ بَالٍ وَاطْمِئْنَانٍ .

وَلَوْ قَدَّرَ ذَلِكَ الإِنْسَانُ مَنْفَعَتَهُ فى تِلْكَ الطَّاعَةِ ، كَمَا قَدَّرَ مَنْفَعَتَهُ مِنَ السُّوقِ ، وَقَدْ سُرِقَ فِيهَا ، فَلَمْ يَنْقَطِعْ عَنْ زِيَارَتِهَا - لَمَا انْقَطَعَ - بَعْدُ - عَنِ الْمَسْجِدِ ، وَعَنِ الصَّلاَةِ ، وَقَالَ : إِنَّ مَرَضِي - بَعْدَ تَوْبَتِي - إِحْسَانٌ مِنَ اللهِ

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه عن صهيب : رضى الله عنه .

وَصَبْرِى عَلَى مَاأَصَابَنِي ... ـ لَعَلَّهُ ـ تَعْوِيضٌ لِبَعْضِ مافَاتَنِي : مِنْ حَسَنَاتٍ فِى أَيَّامِ العِصْيَانِ : بِتَرْكِ الصَّلاَةِ ، وَهِجْرَانِ المَسَاجِدِ ، وَلاَ يَلِيقُ أَنْ يَصْرِفَنِى هَذَا الامْتِحَانُ عَنْ طَاعَةِ الدَّيَّانِ ، وَأَنَا مُؤْمِنٌ بِحِسَابِهِ ، وَعِقَابِهِ ، وَثَوابِهِ فَأَكُونَ مِمَّنْ قَالَ اللهُ فِيهِمْ : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ) ـ أى عَلَى طَرَفٍ مِنَ الدِّينِ : لاَ ثَبَاتَ لَهُ وَلاَ اسْتِقْرَار ، كَالذِى يَكُونُ عَلَى طَرَفِ الجَيْشِ ، فَإِنْ أَحَسَّ ظَفَراً ـ قَرَّ ، وَإِلاَّ فَرَّ ـ .

(فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ) .

فَاتَّقُوا اللهَ ـ عِبَادَ اللهِ ـ وَاعْمَلُوا على تَقْوِيَةِ إِيمَانِكُمْ بِصَبْرِكُمْ على المَصَائِبِ ، وَاعْتِقَادِكُمْ أَنَّهَا مِنْحَةٌ مِنَ اللهِ لَكُمْ إِذْ هِيَ مُكَفِرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ ، أَوْ رَافِعَةٌ لِلدَّرَجَاتِ قَالَ تَعَالَى : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) وَقَدْ مَرَّ مُوسَى عَليه السلامُ بِرَجُلٍ كَانَ يَعْرِفُه مُطِيعاً للهِ عزَّ وَجلَّ ، قَدْ مزقت السِّبَاعُ لحمه وَأَضلاعه ، وكبدُه مُلقَاةٌ على الأَرْضِ ، فَوَقَفَ مُتعجباً ، فقال : أَىْ رَبٍّ : عبدَكَ ابْتليته بما أَرَى فأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِليهِ أنه سألنِى درجَةً لم يَبْلغهَا بِعَمَلِه ، فابتليتُه لأُبَلِّغَهُ تلك الدَّرجة وَاذْكُروا دَائماً أَنَّ كُلَّ شَىْء مِنَ اللهِ ، وَأَنَّ مَاقَدَّرَه سُبْحَانهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍ ـ كَائِنٌ لاَمَحالَة ، وَأَنَّهُ تَعَالَى كَمَا يَمْتَحِنُ العَبْدَ بِالخَيْرِ ، فَإِذَا شَكَرَ زَادَهُ وَأَثَابَهُ ، وَإِذَا جَحَدَ حَرَمَهُ ، وَعَذَّبَهُ ـ يَمْتَحِنُهُ بِالشَّرِّ ، فَإِذَا صَبَرَ ، وَاسْتَعَانَ بِهِ سُبْحَانَهُ : لِدَفْعِ مُصَابِهِ ـ نَالَ مُنَاهُ ، وَهَانَ مُصَابُهُ ، وَعُوِّضَ

خَيْراً ، وَنَالَ أَجْـراً ، وَازْدَادَ إِيمَاناً بِهِ تَعَالَى ، وَإِذَا جَزِعَ ازْدَادَ شَرّاً وَتَعَباً وَغَمّاً (وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) وَيَقُولُ جَلَّ شَأْنُهُ : (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْـكَاذِبِينَ) .

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ يُذْهِبُ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ » : رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي تَارِيخِهِ ، وَالْقُضَاعِيُّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « الْإِيمَانُ نِصْفَانِ ، فَنِصْفٌ فِي الصَّبْرِ ، وَنِصْفٌ فِي الشُّـكْرِ » : رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ ، فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ ، عَنْ أَنَسٍ : رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ — أَيْ كَالطَّاقَةِ الْغَضَّةِ الرَّطْبَةِ مِنَ النَّبَاتِ أَوَّلَ مَا يَنْبُتُ — تُفَيِّئُهَا — أَيْ تُمِيلُهَا — الرِّيحُ مَرَّةً وَتَعْدِلُهَا مَرَّةً — وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَالْأَرْزَةِ — أَيْ كَشَجَرَةِ الصَّنَوْبَرِ — لاَ تَزَالُ ، حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا — أَيِ انْقِلَاعُهَا ، أَوِ انْكِسَارُهَا مِنْ وَسَطِهَا — مَرَّةً وَاحِدَةً » : رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ ، وَاللَّفْظُ لَهُ ، وَمُسْلِمٌ ، فِي صَحِيحَيْهِمَا ، عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ : رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وَوَجْهُ التَّشْبِيهِ — أَنَّ الْمُؤْمِنَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ — إِنْ جَاءَهُ أَمْرُ اللهِ — انْطَاعَ لَهُ ، وَرَضِيَ بِهِ ، فَإِنْ جَاءَهُ خَيْرٌ فَرِحَ بِهِ ، وَشَكَرَ ، وَإِنْ وَقَعَ بِهِ مَكْرُوهٌ

ـ صَبَرَ ، وَرَجَا فِيهِ الاجْرَ ، فإِذَا انْدَفَعَ عَنْهُ ـ اسْتَقَامَ شَاكِرًا لِرَبِّهِ تعالى وَأَنَّ المنافِقَ ـ لَا يَتَفَقَّدُهُ اللهُ ـ بِاخْتِبَارِهِ ، بَلْ يَجْعَلُ لَهُ غَالِبًا التَّيْسِيرَ فِي الدُّنْيَا : لِتَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ الْحَالُ فِي المَعَادِ ، حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللهُ إِهْلَاكَهُ ـ قَصَمَهُ فَيَكُونُ مَوْتُهُ أَشَدَّ عَذَابًا عَلَيْهِ ، وَأَكْثَرَ أَلَمًا فِي خُرُوجِ نَفْسِهِ ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَى .

---

١١ – الترهيب من قضاء الله يوم القيامة

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، الْمَلِكِ الْقَادِرِ ، أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ، وَأَعْدَلِ الْعَادِلِينَ ، الْقَائِلِ : « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .
وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، الْبَشِيرُ النَّذِيرُ بِأَمْرِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ بَرْهَنُوا عَلَى إِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ - بِفِعْلِ كُلِّ خَيْرٍ ، وَتَرْكِ كُلِّ شَرٍّ ، فَفَازُوا فَوْزًا عَظِيمًا .

أَمَّا بَعْدُ : فَيَا عِبَادَ اللَّهِ :

سَمِعَ يَحْيَى الْبَكَّاءُ قَارِئًا يَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » .

أَيْ وَلَوْ تَرَى إِذَا وَقَفَ الْكُفَّارُ عَلَى حُكْمِ رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَوْمَ لَا حَاكِمَ سِوَاهُ - لَرَأَيْتَ اعْتِرَافَهُمُ الصَّرِيحَ بِرَبِّهِمْ بَعْدَ إِنْكَارِهِمْ فِي الدُّنْيَا ،

وَرَأَيْتَ هَمَّهُمْ الثَّقِيلَ : مِنَ الْهَوْلِ الْعَظِيمِ : جَزَاءَ ذَلِكَ الإِنْكَارِ . . ،
فَذَكَرَ يَحْيَى عِظَمَ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ تَعَالَى يَوْمَ الدِّينِ ، فَصَاحَ صَيْحَةً
عَظِيمَةً أَلْزَمَهُ بَعْدَهَا - الْمَرَضُ - الْفِرَاشَ - أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ نَتِيجَةً لِخَوْفِهِ
مِنْ وُقُوفِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ تَعَالَى ، يَوْمَ لاَ مَالَ يَنْفَعُ ، وَلاَ وَلَدَ يَشْفَعُ ، إِلاَّ مَاقَدَّمَ
الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَعَالَى مِنْ صَالِحَاتٍ : لِسَلاَمَةِ قَلْبِهِ الْعَامِرِ بِالإِيمَانِ بِهِ جَلَّ
شَأْنُهُ : « يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

عَبْدَ اللهِ :

لِلْقَضَاءِ - فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا - جَلاَلُهُ ، وَقَدَاسَتُهُ وَمَهَابَتُهُ وَرَهْبَتُهُ .

فَمَا مِنْ أَحَدٍ دُعِيَ لِلْمُحَاكَمَةِ إِلاَّ اعْتَرَاهُ الْخَوْفُ ، مَهْمَا كَانَتْ
مَكَانَتُهُ ، وَقَدَّرَ الْمَوْقِفَ بَيْنَ يَدَيِ الْقَاضِي ، مَهْمَا بَلَغَ قَدْرُهُ ، وَمَهْمَا كَانَ
الْحَقُّ فِي جَانِبِهِ ، وَحَرَصَ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ فِي صَالِحِهِ ، فَجَنَّدَ -
لِذَلِكَ - أَفْكَارَهُ ، وَتَوَسَّلَ لِذَلِكَ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ - مَعَ أَنَّ الْقَاضِيَ بَشَرٌ :
خُلِقَ : لِيَمُوتَ ، وَهُوَ - بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ - لاَ يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ - جَلْبَ نَفْعٍ
وَلاَ دَفْعَ ضَرَرٍ ، وَيَذْكُرُ وَيَنْسَى ، وَإِنْ عَرَفَ شَيْئًا - غَابَتْ عَنْهُ أَشْيَاءُ
وَمَعَ ذَلِكَ - غَايَةُ الْحُكْمِ - غَرَامَةٌ مَالِيَّةٌ ، وَالْمَالُ غَادٍ وَرَائِحٌ ، أَوْ سِجْنٌ
فِيهِ غِذَاءٌ ، وَقَدْ سُجِنَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ .

وَإِنْ كَانَ الْحُكْمُ الإِعْدَامَ - فَالْمَوْتُ نِهَايَةُ كُلِّ شَيْءٍ : « كُلُّ شَيْءٍ
هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

فَمَا بَالُنَا - مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَضَاءِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ نُقَدِّرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ ،

وَهُوَ أَقْدَسُ قَضَاء ، وَأَحَقُّهُ بِالْخَوْفِ وَالِاهْتِمَامِ : أَلَسْنَا نَقْرَأُ قَوْلَهُ تَعَالَى : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ » . وَكَمْ أَنْذَرَنَا سُوءَ الْعَاقِبَةِ : لِنَرْجِعَ عَنِ الْغَيِّ الْيَوْمَ ، قَبْلَ وُقُوعِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ - بِإِنْذَارَاتٍ تَلَاحَقَتْ ، كَفِيلَةٍ - بِتَنْبِيهِ الْغَافِلِ ، وَرَدِّ الشَّارِدِ كَالْأَمْرَاضِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِنَا ، وَالْآفَاتِ وَالْفِتَنِ الَّتِي تَهُدُّ كِيَانَنَا ، وَالْفَقْرِ ، وَضِيقِ الرِّزْقِ ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

لِمَاذَا لَا نُقَدِّرُ حُكْمَهُ تَعَالَى يَوْمَ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ ، بَيْنَ يَدَيْهِ تَعَالَى ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ، وَالَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » .

لِمَاذَا يَتَهَاوَنُ بَعْضُنَا بِالصَّلَاةِ ، فَيُؤَخِّرُهَا عَنْ وَقْتِهَا ، وَلَا يَخْشَعُ فِيهَا ، وَبِالزَّكَاةِ ، فَلَا يُؤَدِّيهَا ، وَيَحْرِمُ مُسْتَحِقِّيهَا حَقَّهُ ، وَلَا يَصُومُ ، وَهُوَ قَادِرٌ ، وَلَا يَحُجُّ وَهُوَ مُسْتَطِيعٌ ، وَيَظْلِمُ ، وَلَا يُبَالِي بِتَنَاوُلِ الْحَرَامِ وَالْمُنْكَرِ ، وَيَكْذِبُ وَيَخُونُ الْأَمَانَةَ وَيُخْلِفُ الْوَعْدَ : « أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى » .

أَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ يَوْمِ قَضَاءِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ ، « إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ » .

اللهَ اللهَ - عِبادَ اللهِ - لا يَغُرَّنَّكُمْ حِلْمُهُ تعالى ، وَإِمْهالُهُ ، وَانتَبِهُوا إلى الذي أمامَكُمْ : مِنْ عَظائِمِ الأُمُورِ وَالوَيْلِ وَأليمِ العَذابِ يَوْمَ يُؤْتَى بالعاصِي بَيْنَ يَدَيْهِ : جَلَّ وَعَلا ، فتَرتَعِشُ رُكْبَتاهُ ، فيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أما اسْتَحْيَيْتَ مِنِّي ، أما راقَبْتَنِي ، أما خَشِيتَ نِقْمَتِي ، أما عَلِمْتَ أنِّي مُطَّلِعٌ عَلَيْكَ خُذُوهُ إلى أُمِّهِ الهاوِيَة ، « وَما أدْراكَ ماهِيَهْ . نارٌ حامِيَةٌ » .

أيها المسلمون :

إنَّ القاضِيَ ، اللهَ الذي هُوَ أحَقُّ بالخَشْيَةِ مِن سِواهُ : « الذي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَياةَ » - عاقِبَةُ حُكْمِهِ ، في أُخْراهُ لِمَنْ عَصاهُ في دُنْياهُ سِجْن وغرامةٌ ، وَمَحْضُ عَذابٍ ، لا يُخَفَّفُ وَلا يَزُولُ : في دارِ جَهَنَّمَ الَّتِي أهْوَنُ عذابِها : لَوْ أنَّ رَجُلاً بالمَغْرِبِ وَكُشِفَ لَهُ عنها بالمَشْرِقِ - لَسالَ دِماغُهُ مِنْ حَرِّها .

وَقَدْ قالَ صلى اللهُ عليه وسلم[1] : « نارُكُمْ هَذِهِ مايُوقِدُ بَنُو آدَمَ - جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نارِ جَهَنَّمَ » ، قالُوا : وَاللهِ إنْ كانَتْ لَكافِيَةً ، قالَ : إنَّها فَضَلَتْ عَلَيْها بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّها » وَأمَّا عاقِبَةُ حُكْمِهِ تَعالَى لِلطّائِعِينَ - فالتَّكَرُّمُ في دارِ النَّعِيمِ الَّتِي (فِيهِا عَيْنانِ تَجْرِيانِ) : لِمَنْ كانَ لَهُ في الدنيا - عَيْنانِ تَجْرِيانِ - بالدُّمُوعِ مِنْ خَشْيَةِ الدَّيّانِ : فِيها بَساتِينُ زاهِرَةٌ ، لِمَنْ كانَ لَهُ في الدُّنْيا عَيْنٌ في الطّاعَةِ ساهِرَة : فِيها قُصُورٌ عالِيَة ، وَفَواكِهُ كَثِيرَةٌ ، لا مَقْطُوعَةٌ - في زَمَن ، وَلاَ مَمْنُوعَةٌ - بِثَمَنٍ ،

(١) رواه مالك والبخاري ومسلم والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه

(أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا)، (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً).
وَتَحِيَّةُ أَصْحَابِهَا سَلَامٌ (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

وَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم[1] : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ـ قَالَ ـ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنْجِنَا مِنَ النَّارِ . قَالَ : فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)، وقال تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ)وَوُجُوه يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ، أَيْ كَالِحَةٌ عَابِسَةٌ ـ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ـ أَيْ دَاهِيَةٌ تُكَسِّرُ فَقَرَاتِ الظَّهْرِ .

عِبَادَ اللهِ :

مِنَ الْعَجَبِ ـ أَنَّنَا نَخْتَارُ الظِّلَّ عَلَى الشَّمْسِ : لِنَفْعِنَا فِي دُنْيَانَا وَلَا نَخْتَارُ الْجَنَّةَ عَلَى النَّارِ لِرَاحَتِنَا وَخَيْرِنَا فِي أُخْرَانَا .

وَمِنَ الْعَجَبِ ـ أَنَّنَا نَخَافُ قَاضِيَ الْبَشَرِ وَلَا نَخَافُ الْقَاضِيَ الْعَلِيَّ الْأَكْبَرَ (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)، مع أَنَّنَا نَعْتَرِفُ بِمُلْكِهِ تعالى لَنَا يَوْمَ الدِّينِ ، يَوْمَ الْجَزَاء ، فِي الْيَوْمِ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً عَلَى الْأَقَلِّ ، حَيْثُ نَتْلُو مِنْ آيَاتِ الْفَاتِحَةِ ، فِي رَكَعَاتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الْمَفْرُوضَةِ ، السَّبْعَ عَشْرَةَ قَوْلَهُ تعالى : (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ).

---

(١) رواه مسلم عن صهيب : رضي الله عنه .

وَلَقَدْ خَافَ قَضَاءَهُ تعالَى مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ - مَنْصُورُ بْنُ عَمَّارٍ ، الَّذِي رَجَا أَنْ يُخْتَمَ لَهُ بِحُسْنِ عُقْبَاه .

مَرَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَوْماً بِالطَّرِيقِ ، فَوَجَدَ شَاباً يُحَدِّثُ امْرَأَةً ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمَا نَظْرَةَ إِنْكَارٍ عَلَيْهِمَا ، فَانْصَرَفَ الشَّابُّ عَنِ الْمَرْأَةِ ، فَأَقْبَلَتْ إِلَى مَنْصُورٍ ، فَوَجَدَ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يَعِظَهَا ، فَدَعَاهَا أَنْ تَمْشِيَ خَلْفَهُ إِلَى بَيْتِهِ ، فَتَبِعَتْهُ ، وَهِيَ تَظُنُّ أَنَّهُ يُوَافِقُ هَوَاهَا ، فَلَمَّا دَخَلَا الْبَيْتَ - قَعَدَتْ ، وَوَقَفَ مَنْصُورٌ يُصَلِّي ، وَأَطَالَ ، حَتَّى مَلَّتْ ، وَأَعْلَنَتْ ذَلِكَ ، فَأَتَمَّ صَلَاتَهُ ، وَقَالَ لَهَا : مَاتَقُولِينَ فِيمَنْ عَلَيْهِ حَقٌّ بِأَرْبَعَةِ شُهُودٍ بِهِ ، وَالْحَاكِمُ يَعْلَمُهُ ، هَلْ يَقْدِرُ أَنْ يُنْكِرَهُ ؟ قَالَتْ : لَا وَاللهِ . قَالَ : ذَلِكَ الْحَقُّ - هُوَ مَاتُرِيدِينَ مِنِّي : يَكُونُ حَقّاً عَلَيَّ وَعَلَيْكِ وَمَعِي مَلَكَانِ ، وَمَعَكِ مَلَكَانِ ، وَالْحَاكِمُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ وَصَدَقَ مَنْ قَالَ :

إِنَّ مَنْ يَرْكَبُ الْفَوَاحِشَ سِرّاً حِينَ يَخْلُو بِنَفْسِهِ غَيْرُ خَالِ
كَيْفَ يَخْلُو وَعِنْدَهُ شَاهِدَاهُ كَاتِبَاهُ وَرَبُّهُ ذُو الْجَلَالِ

فَخَافَتِ الْمَرْأَةُ ، وَتَابَتْ إِلَى اللهِ ، وَعَاهَدَتْ مَنْصُوراً عَلَى تَقْوَاهُ جَلَّ عُلَاهُ :

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ :

تَفَكَّرْ يَوْمَ تَأْتِي اللهَ فَرْداً وَقَدْ نُصِبَتْ مَوَازِينُ الْقَضَاءِ
وَهُتِّكَتِ السُّتُورُ عَنِ الْمَعَاصِي وَجَاءَ الذَّنْبُ مَكْشُوفَ الْغِطَاءِ

اتَّقِ اللهَ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُ ، وَتَصَوَّرْ وُقُوفَكَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ يَوْمَ الْحِسَابِ :

حانياً . عارياً : (يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ) (وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ) ، فَامْلأْ قَلْبَكَ بِخَشْيَتِهِ ، وَرَاقِبْهُ فِي سِرِّكَ وَعَلاَنِيَتِكَ ، وَاذْكُرْهُ فِي كُلِّ قَوْلِكَ وَعَمَلِكَ ، وفي نيتكَ : وَاعْمَلِ الْخَيْرَ عَلَى الدَّوَامِ .

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يومَ القِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ » ، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وَقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « لَوْ أَنَّ رَجُلاً يَخِرُّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يوم وُلِدَ إِلَى يوم يَمُوتُ هَرَماً في مَرْضَاةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَحَقَرَهُ[1] يومَ القِيَامَةِ » ، رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ ، عن عُتْبَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ : رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

---

(١) أي لحقر عمله ذلك الذي خضع فيه لربه تعالى ، مرضياً له : جل شأنه في هذه المدة الطويلة بالنظر لما يناسب ذلك اليوم من كثير العمل الصالح المرضى له تعالى .

١٢ – كن مع الله – يكن الله معك

الحَمْدُ لِلهِ : مَنِ اخْتَارَ مَحَبَّتَهُ – اتَّقَاه ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى سِوَاه ، فَكَانَ مَعَهُ الْقُوَّةُ الَّتِي لاَ تُغْلَبُ ، وَالْحَارِسُ الَّذِي لاَ يَنَامُ ، وَالْهَادِي الَّذِي لاَ يَضِلُّ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ : مَنْ كَانَ مَعَهُ – رَاقَبَهُ فِي سِرِّهِ وَعَلاَنِيَتِهِ ، فَحَسُنَتْ مُعَامَلَتُهُ وَسِيرَتُهُ ، وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتُهُ : قَالَ تَعَالَى : «مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، كَانَ مَعَ اللهِ ، فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ، وَسِرِّهِ وَجِهَارِهِ ، وَقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ ، وَخُلُقِهِ وَسَائِرِ أَحْوَالِهِ ، فَكَانَ اللهُ مَعَهُ : زَادَ نُورَهُ ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ ، وَرَفَعَ ذِكْرَهُ ، وَنَصَرَهُ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً ، وَقَالَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ : «أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ»[1] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ عَرَفُوا رَبَّهُمْ بِطَاعَتِهِ عَلَى الدَّوَامِ ، فَعَرَفَهُمْ بِحِفْظِ الإِيمَانِ ، وَالنَّصْرِ وَالإِكْرَامِ .

أَمَّا بَعْدُ :

فَمِنْ آلِ الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ – الإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ زَيْنِ الْعَابِدِينَ بْنِ

(١) رواه الطبرانى ، فى معجمه الكبير ، وأبو نعيم فى الحلية ، عن عبادة ابن الصامت : رضى الله عنه .

الْحُسَيْنِ ، الَّذِى اشْتَهَرَ بِالْبَاقِرِ : لِأَنَّهُ بَقَرَ الْعِلْمَ : أَى شَقَّهُ ، فَقَدْ وَقَفَ عَلَى خَفَايَاهُ وَدَقَائِقِهِ ، وَخَاطَبَهُ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ فَقَالَ :

يَا بَاقِرَ الْعِلْمِ لِأَهْـــلِ التُّقَى وَخَيْرَ مَنْ لَبَّى عَلَى الْأَجْبُلِ(١)

كَانَ رَضِىَ اللهُ عنه ـ كَآبَائِهِ ـ عَارِفًا بِرَبِّهِ ، فَكَانَ مُمْتَثِلًا لِأَوَامِرِهِ ، مُجْتَنِبًا لِنَوَاهِيهِ ، وَاقِفًا عِنْدَ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى ، فِى سَائِرِ أُمُورِهِ ، لا يَتَجَاوَزُ مَا أَذِنَ بِهِ تَعَالَى إِلَى مَالَمْ يَأْذَنْ بِهِ ، فَمَا كَانَ يَقُولُ قَوْلًا ، وَلَا يَعْمَلُ عَمَلًا ، وَلَا يُعَامِلُ أَحَدًا ، وَلَا يَتَصَرَّفُ تَصَرُّفًا ، وَلَا يَتَّجِهُ اتِّجَاهًا ـ إِلَّا مُرْضِيًا لِرَبِّهِ ، مُمْتَثِلًا بِهِ .

وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ ـ كَانَ ـ مَعَ اللهِ ـ حَقًّا مُرَاعِيًا حُقُوقَهُ ، وَمَنْ كَانَ مَعَ اللهِ ـ كَانَ مَعَ الْغَالِبِ عَلَى أَمْرِهِ ، الَّذِى لَا يُعْجِزُهُ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ : يَجِدُهُ مَعَهُ ، فِى كُلِّ أَحْوَالِهِ ، حَيْثُ تَوَجَّهَ ، وَيُوَفِّقُهُ وَيُسَدِّدُهُ ، وَيَنْصُرُهُ وَيُؤَيِّدُهُ ، وَيَفْعَلُ لَهُ مَا فِيهِ خَيْرُهُ ، وَالْوِقَايَةُ مِنْ ضُرِّهِ ، فِى الدُّنْيَا وَالْآخِـــرَةِ .

وَقَدْ رُوِىَ أَنَّ الْحَجَّاجَ ـ أَمَرَ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ـ بِقَتْلِ رَجُلٍ ، فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ : أَصَلَّيْتَ الصُّبْحَ ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَانْطَلِقْ ، فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ : مَا مَنَعَكَ مِنْ قَتْلِهِ ، فَقَالَ سَالِمٌ : حَدَّثَنِى أَبِى أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ : « مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ كَانَ

---

(١) أى الجبال .

فى جِوَارِ اللهِ يَوْمَهُ »(١) ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَقْتُلَ رَجُلاً قَدْ أَجَارَهُ اللهُ ، فقالَ الحَجَّاجُ لابْنِ عُمَرَ : أَنْتَ سَمِعْتَ هٰذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ؟ فقالَ ابْنُ عُمَرَ : نَعَمْ .

وَيَا قَوم :

مَنْ كانَ مَعَ اللهِ ، فَأَصَابَهُ ضُرٌّ فى دُنْيَاهُ — أَرَاحَ سُبْحَانَهُ بَالَهُ مِنْ جِهَتِهِ ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِهِ ، وَصَبَّرَهُ عَلَيْهِ ، فَوَجَدَهُ عَذْبًا لاَ عَذَابًا ، وَرَفَعَ تَعَالَى بِهِ دَرَجَتَهُ عِنْدَهُ ، فَيَجِدُ بِهِ ، فى أُخْرَاهُ — مَكَانًا عَلِيًّا .

فَمَا يَنْقُصُ إِيمَانُ العَارِفِ بِرَبِّهِ ، إِذَا لَقِيَ فى دُنْيَاهُ ضُرًّا ، وَيَنْجَحُ فى امْتِحَانِهِ بِهِ ، وَلِسَانُ حَالِهِ — يَقُولُ :

إِذَا أَعْطَى — فَقَدْ أَرْضَى وَلَكِنْ   إِذَا أَخَذَ الَّذِى أَعْطَى أَثَابَا
فَأَيُّ النِّعْمَتَيْنِ أَحَقُّ شُكْرًا   وَأَحْمَدُ عِنْدَ مُنْقَلَبٍ إِيَابَا
أَنِعْمَتُهُ الَّتِى أَهْدَتْ ثَنَاءً   أَمِ الأُخْرَى الَّتِى أَهْدَتْ ثَوَابَا

وَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ البَاقِرُ : رضى اللهُ عَنْهُ — يُصَلِّى فى اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسِينَ وَمِائَةَ رَكْعَةٍ : تَطَوُّعًا للهِ تَعَالَى — مَعَ تَأْدِيَةِ الفَرَائِضِ : لِتَزِيدَ صِلَتُهُ باللهِ تَعَالَى ، وَمَعْرِفَتُهُ بِهِ : جَلَّ شَأْنُهُ ، وَهُوَ — سُبْحَانَهُ — عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَحَجَّ : رضى اللهُ عنه عامًا ، فَلَمَّا دَخَلَ المَسْجِدَ ، وَنَظَرَ البَيْتَ بَكَى ، ثُمَّ طَافَ بالبَيْتِ ، ثُمَّ صَلَّى عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ، فَلَمَّا فَرَغَ — وُجِدَ مَوْضِعُ سُجُودِهِ — مُبْتَلاًّ مِنْ دُمُوعِ عَيْنَيْهِ .

---

(١) رواه الطبرانى ، فى معجميه الكبير والأوسط .

وكانَ : رضى اللهُ عنه – يَدْعُو إلى طاعةِ اللهِ بكلِّ نوعٍ منها : قالَ لابنِهِ ، جعفرٍ – يوماً : يا بُنَيَّ : إنَّ اللهَ – خَبَأَ ثلاثةَ أشياءَ فى ثلاثةِ أشياءَ : خَبَأَ رِضاهُ فى طاعتِهِ ، فلا تَحقِرَنَّ مِنَ الطّاعةِ شيئاً ، فلعلَّ ، رِضاهُ فيهِ ، وخَبَأَ سَخَطَهُ فى مَعصيتِهِ ، فلا تَحقِرَنَّ مِنْ مَعصيتِهِ شيئاً ، فلعلَّ سَخَطَهُ فيهِ ، وخَبَأَ أولياءَهُ فى خَلقِهِ ، فلا تَحقِرَنَّ أحداً ، فلعلَّهُ وَليٌّ .

وَمَنْ أخذَ بهذا النُّصْحِ – كانَ مَعَ رَبِّهِ ، فمرَفَهُ تعالى – بإكرامِهِ وَخَيْرِهِ ، وَقَدْ قالَ جَلَّ شأنُهُ : « إنَّ اللهَ مَعَ الذينَ اتَّقَوْا والذينَ هُمْ مُحسِنُونَ » .

يا عِبادَ اللهِ :

كتبَ بعضُ السَّلَفِ إلى أخٍ لهُ : أمّا بعدُ – فإنْ كانَ اللهُ معكَ – فَمَنْ تَخافُ ، وإنْ كانَ عليكَ – فَمَنْ ترجُو . وإنَّ مَعِيَّتَهُ تعالى لجميعِ خَلقِهِ ، وكونَهُ معهم جميعاً – أمرٌ ثابتٌ . حقٌّ : لاشكَّ فيهِ ، فهُوَ سُبْحانَهُ مُطَّلِعٌ على أحوالِهِمْ ، ومُراقِبٌ لأعمالِهِمْ ، ولا يَخفَى عليهِ شأنٌ مِنْ شُئُونِهِمْ : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعلَمُ ما فى السَّمٰوَاتِ وما فى الأرضِ ما يكونُ مِنْ نَجْوَى ثلاثةٍ إلاّ هُوَ رابِعُهُمْ ولا خمسةٍ إلاّ هُوَ سادِسُهُمْ ولا أدنى مِنْ ذلكَ ولا أكثرَ إلاّ هُوَ مَعَهُمْ أينَما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بما عَمِلُوا يومَ القيامةِ إنَّ اللهَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ » .

وَمَنْ آمنَ بهذهِ المَعِيَّةِ العامَّةِ ، مُستيقِظاً غيرَ غافلٍ ، خافَهُ تعالى ، وسَعَى لِمَعِيَّتِهِ الخاصَّةِ ، وهِيَ المَعِيَّةُ السَّنِيَّةُ حقّاً ، وهِيَ مُصاحَبَتُهُ تعالى

بِتَقْوَاهُ ، وَهِيَ الْمَعِيَّةُ الَّتِي تَكْسِبُ حِفْظَهُ تَعَالَى . وَعِنَايَتَهُ ، وَرِضَاهُ ، وَالْحَيَاءَ مِنْهُ ، وَالاسْتِئْنَاسَ بِهِ ، وَالاسْتِغْنَاءَ بِهِ عَنْ خَلْقِهِ ، وَحُسْنَ الْحَالِ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ ، وَهِيَ الْمَعِيَّةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : لِمُوسَى وَهَارُونَ ، حِينَ بَعَثَهُمَا لِفِرْعَوْنَ : « لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى » ، وَالْمَذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : حِكَايَةً عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ يُطَمْئِنُ أَصْحَابَهُ ، الَّذِينَ خَرَجُوا مَعَهُ مِنْ مِصْرَ ، حِينَ رَأَوْا فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ يَسْعَوْنَ لِرَدِّهِمْ وَإِهْلاَكِهِمْ ، قَالَ تَعَالَى : « كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ » ، وَهِيَ الْمَعِيَّةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ : صلى اللهُ عليه وسلم يُطَمْئِنُ أَبَا بَكْرٍ ، وَهُوَ فِي الْغَارِ :

« يَا أَبَا بَكْرٍ مَاظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا »[1] .

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى : « إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا » .

فَيَا عَبْدَ اللهِ :

اللهَ قُلْ وَذَرِ الْوُجُودَ وَمَا حَوَى ... إِنْ كُنْتَ مُرْتَاداً بُلُوغَ كَمَالِ

فَالْكُلُّ دُونَ اللهِ إِنْ حَقَّقْتَهُ ... عَدَمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالإِجْمَالِ

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ وَالْعَوَالِمَ كُلَّهَا ... لَوْلاَهُ فِي مَحْوٍ وَفِي اضْمِحْلاَلِ

مَنْ لاَ وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ ... فَوُجُودُهُ لَوْلاَهُ عَيْنُ مُحَالِ

وَالْعَارِفُونَ فَنُوا بِهِ لَمْ يَشْهَدُوا ... شَيْئاً سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِ

وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكاً ... فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالاسْتِقْبَالِ

فَاتَّقِهِ تَعَالَى ، وَكُنْ مَعَهُ عَلَى الدَّوَامِ ، وَاحْذَرْ أَنْ يَرَاكَ ، حَيْثُ نَهَاكَ ، أَوْ يَفْقِدَكَ

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، في صحيحيهما .

حَيْثُ أَمَرَكَ ، وَاعْدِلْ وَلاَ تَظلِمْ ، وَتَوَاضَعْ وَلاَ تَتَكَبَّرْ ، وَاحْلُمْ وَلاَ تَغْضَبْ ، وَارْحَمْ ، وَلا تَقْسُ ، وَتَلَطَّفْ بِالنَّصِيحَةِ لِأَخِيكَ الْمُسْلِمِ ، إِذَا رَأَيْتَ مِنْهُ مُخَالَفَةً ، مُنْتَبِهاً لِقَوْلِ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ : رضيَ اللهُ عنه : « مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ سِرًّا فَقَدْ نَصَحَهُ وَزَانَه ، وَمَنْ وَعَظَهُ عَلاَنِيَةً فَقَدْ فَضَحَه وَشَانَهُ » ، وَاقْبَلْ نَصِيحَةَ أَخِيكَ ، فَفِيهَا حُسْنُ حَالِكَ وَمَآلِكَ ، وَاقْبَلْ عُذْرَ أَخِيكَ ، مُقْتَدِياً قَوْلَ نَبِيِّكَ : صلى اللهُ عليه وسلم[1] : « مَنْ أَتَاهُ أَخُوهُ مُتَنَصِّلاً مِنْ ذَنْبِهِ - فَلْيَقْبَلْ مِنْهُ مُحِقًّا كَانَ أَوْ مُبْطِلاً ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ - لَمْ يَرِدْ عَلَى الْحَوْضَ .

وَصَالِحْ إِخْوَانَكَ بِرِفْقٍ وَلِين ، وَأَصْلِحْ بَيْنَهُمْ مُنْصِفاً ، وَلا تُعِنْ أَحَداً مِنْهُمْ عَلَى الآخَرِ ، وَلا تَدَعْ لِبَعْضِهِمْ حَقًّا عَلَى بَعْضٍ ، وَنُصْبُ عَيْنَيْكَ قولُهُ تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » ، وَقولُه صلى اللهُ عليه وسلم[2] : « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْن » « وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذاكِرِينَ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » .

وَكَمْ مِنْ خَيْرٍ لَكَ فى الْحَيَاةِ : لِذَلِكَ : لِفَوْزِكَ بِكَوْنِ اللهِ مَعَك ، وَقَدْ رُئِيَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ ، الْوَلِيُّ الْمَشْهُورُ - نَائِماً ، فى بُسْتَانٍ ، وَعِنْدَهُ حَيَّةٌ ، فى فَمِهَا طَاقَةُ نَرْجِسٍ ، فَمَا زَالَتْ تَذُبُّ عَنْهُ ، حَتَّى اسْتَيْقَظَ .

---

(١) رواه الحاكم عن أبى هريرة : رضى الله عنه .

(٢) رواه الطبرانى فى معجمه الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن عبدالله ابن عمرو : رضى الله عنهما .

« فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ » ، وَاعْلَمُوا أَنَّ كَسْبَ مَنْ كَانَ مَعَ اللهِ : فِي الآخِرَةِ - أَعْظَمُ مِنْ كَسْبِهِ فِي الدُّنْيَا « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً » .

عَنْ أَبِي العَبَّاسِ ، عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ : رضيَ اللهُ عنهما - قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلمَ يَوْماً ، فَقَالَ لِي : « يَاغُلاَمُ . إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ . إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ . وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ . وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، وَرَوَى عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، فِي مُسْنَدِهِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : رضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ : « احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ ، تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ - يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً » .

وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « الكَيِّسُ - أَيِ العَاقِلُ - مَنْ عَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ ، وَالعَارِي العَارِي مِنَ الدِّينِ ، اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ » : رَوَاهُ البَيْهَقِيُّ ، فِي شُعَبِ الإِيمَانِ ، عَنْ أَنَسٍ : رضِيَ اللهُ عنهُ .

١٣ — حب الله لعباده أساس الخير كله

الْحَمْدُ لِلَّهِ : يُحِبُّ مَنْ أَحَبَّهُ ، فَحَرَصَ عَلَى رِضَاهُ ، وَأَطَاعَهُ إِذْ نَادَاهُ : « يَاعَبْدِي قِفْ عَلَى بَابِي - أَكْتُبْكَ مَعَ أَحْبَابِي » .

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، الْمُتَصَرِّفُ وَحْدَهُ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ ، فَلاَ يَأْتِي بِالْخَيْرِ وَلاَ يَصْرِفُ السُّوءَ سِوَاهُ ، وَمِفْتَاحُ رِضَاهُ حُبُّهُ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ مَنِ اتَّقَاهُ ، وَقَدْ قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ : « يَاعِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ »[1] .

---

(١) روى مسلم فى صحيحه ، عن أبى ذرالغفارى : رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، فيما يرويه عن ربه : عز وجل - أنه قال : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم . ياعبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ياعبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم . ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم . ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد - أى جهة واحـــدة على وجه الأرض - فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته مانقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط - أى الإبرة - إذا أدخل البحر ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم . .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، وَحَبِيبُهُ وَمُصْطَفَاهُ ، وَخَيْرُ مَنِ اسْتَرْضَى رَبَّهُ فَأَرْضَاهُ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، طِبِّ الْقُلُوبِ وَدَوَائِهَا ، وَعَافِيَةِ الْأَبْدَانِ وَشِفَائِهَا ، وَنُورِ الْأَبْصَارِ وَضِيَائِهَا ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ، أَحِبَّاءِ اللهِ ، وَأَوْلِيَائِهِ « وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » .

أَمَّا بَعْدُ : فَيَاعِبَادَ اللهِ : مِنْ صَالِحِي الْأُمَّةِ — رَجُلٌ يُسَمَّى عَطَاء :

دَخَلَ رضى اللهُ عنه سُوقاً ، فَوَجَدَ جَارِيَةً تُبَاعُ ، فَاشْتَرَاهَا ، وَجَاءَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ، وَقَدْ مَضَى بَعْضُهُ ـ رَآهَا قَدْ تَوَضَّأَتْ ، وَاسْتَقْبَلَتِ الْقِبْلَةَ تُصَلِّي ، فَسَمِعَهَا تَخْتَنِقُ بِالدُّمُوعِ ، وَتَقُولُ : إِلَهِي بِحُبِّكَ لِي إِلَّا[1] رَحِمْتَنِي ، فَقَالَ لَهَا ـ بَعْدَ فَرَاغِهَا مِنَ الصَّلَاةِ : لَا تَقُولِي هَكَذَا فَإِنَّ حُبَّ اللهِ لَكِ ـ سِرٌّ لَا تَعْرِفِينَهُ ، وَلَكِنْ قُولِي : بِحُبِّي لَكَ ـ فَإِنَّ حُبَّكِ لَهُ تَعَالَى ـ أَمْرٌ تُحِسِّينَهُ وَتَجِدِينَهُ ، فَقَالَتْ : إِلَيْكَ عَنِّي ، فَوَحَقِّ حَقِّهِ لَوْ لَمْ يُحِبَّنِي مَا أَنَامَكَ وَأَقَامَنِي ، ثُمَّ سَقَطَتْ عَلَى وَجْهِهَا ، وَجَعَلَتْ تُصَوِّرُ حُبَّهَا[2] لَهُ

---

(١) أى إلهى لاأسألك بحبك لى إلا رحمة منك لى .

(٢) حب هذه الجارية العظيم لله تعالى ـ ظهر فى فعلها . وحالها . وقولها : كنطقها له تعالى ـ بما هو صحيح ، وواضح المعنى عندها ، وليس كذلك عند من يسمعها ، ولذلك اعترض عطاء على توسلها إليه تعالى بحبه لها ، ورأى أن تتوسل بحبها له ، ومن أجل مظهر هذا الحب ـ رأى من يملكها أنها مجنونة ، ولذلك اشتراها عطاء بثمن بخس : سبعة دنانير ، وما هى ـ كما ترى ـ بمجنونة ، لكنها بحب الله ـ غالية ميمونة .

تَعَالَى ، وَأَثَرَهُ فِيهَا ، وَتَذْكُرُ رَجَاءَهَا فِيهِ سُبْحَانَهُ - تَقُولُ :

الكَرْبُ مُجْتَمِعٌ وَالقَلْبُ مُحْتَرِقٌ ... وَالصَّبْرُ مُفْتَرِقٌ وَالدَّمْعُ مُسْتَبِقُ
كَيْفَ القَرَارُ عَلَى مَنْ لاَ قَرَارَ لَهُ ... مِمَّا جَنَاهُ الهَوَى وَالشَّوْقُ وَالقَلَقُ
يَارَبِّ إِنْ كَانَ شَيْءٌ فِيهِ لِي فَرَجٌ ... فَامْنُنْ عَلَيَّ بِهِ مَادَامَ بِي رَمَقُ

ثُمَّ نَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا : إِلَهِي كَانَتِ المُعَامَلَةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سِرًّا ، وَالآنَ قَدْ عَلِمَ المَخْلُوقُونَ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ ، ثُمَّ شَهِقَتْ شَهْقَةً فِي عَقِبِهَا - فَارَقَتِ الدُّنْيَا رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا .

يا قوم :

يَعْتَزُّ المَرْءُوسُ بِحُبِّ رَئِيسِهِ ، وَالضَّعِيفُ بِحُبِّ القَوِيِّ ، وَمَنْ لاَ جَاهَ لَهُ بِحُبِّ ذِي الجَاهِ - مَعَ أَنَّ كُلَّ أُولَئِكَ لاَ دَوَامَ لَهُمْ وَلاَ بَقَـاءَ ، وَلاَ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ : « تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

أَفَيَلِيقُ أَنْ يَغِيبَ عَنِ العُقُولِ الاعْتِزَازُ بِحُبِّهِ تَعَالَى الَّذِي اعْتَزَّتْ بِهِ جَارِيَةُ عَطَاءٍ ، فَتَوَسَّلَتْ بِهِ إِلَيْهِ تَعَالَى : لِيَرْحَمَهَا ، وَهُوَ - سُبْحَانَهُ العَزِيزُ الَّذِي يَزُولُ مُلْكُهُ ، وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الضَّعْفُ وَالعَجْزُ وَلاَ يَعِزُّ مَنْ عَادَاهُ ، وَلاَ يَذِلُّ مَنْ وَالاَهُ « وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ » .

وَحَسْبُنَا مِنْ حُبِّهِ تَعَالَى - أَنْ يَحْفَظَنَا مِنْ فِتَنِ الدُّنْيَا وَيُدِيمَ عَلَيْنَا نِعْمَةَ التَّوْفِيقِ لِطَاعَتِهِ ، وَالاِسْتِمْسَاكِ بِدَعَائِمِ دِينِهِ ، فَبِذَلِكَ وَحْدَهُ - السَّعَادَةُ

وَالسَّلَامَةُ فِي دَارِ الْبَقَاءِ : صلى اللهُ عليه وسلم[1] : « وَإِنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ » فَحُبُّ اللهِ الْكَنْزُ الَّذِي يُحْرَصُ عَلَيْهِ ، وَالْهَدَفُ الَّذِي يُسْعَى إِلَيْهِ ، وَالْغَايَةُ الَّتِي يَجِدُّ - لِإِدْرَاكِهَا - الْعُقَلَاءُ الْوَاعُونَ . . .

وَقَدْ رَحِمَنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَدَلَّنَا عَلَى الْوَسِيلَةِ الَّتِي نَنَالُ بِهَا حُبَّهُ ، فَنَفُوزُ بِقُرْبِهِ ، وَنَعِزُّ بِهِ ، وَنَحْيَا حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَنَسْعَدُ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ .

قال تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

فَاتِّبَاعُ الرَّسُولِ وَالِاقْتِدَاءُ بِهِ : فِي أَخْلَاقِهِ الْكَرِيمَةِ ، وَأَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ وَمُعَامَلَاتِهِ السَّنِيَّةِ - تُثْمِرُ حُبَّ اللهِ ، الَّذِي مَنْ أَحَبَّهُ غَفَرَ لَهُ ذَنْبَهُ ، وَجَعَلَهُ لَهُ حَبِيبًا بَعْدَ أَنْ كَانَ عَدُوًّا ، وَحَبِيبُ اللهِ حَبِيبُ الْقَوِيِّ الَّذِي لَا يُقْهَرُ ، وَالْغَنِيِّ الَّذِي لَا حَدَّ لِغِنَاهُ ، وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْفَقْرُ : « وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ » ، « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ » : أي تعاليمَ الدِّينِ الَّتِي بِهَا حَيَاةُ النُّفُوسِ : « عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ » يَوْمَ تَلَاقِي الْأَرْوَاحِ ، وَالْأَجْسَادِ : ظَالِمِيهِمْ

---

(١) روى الإمام أحمد وغيره ، عن عبد الله بن مسعود : رضى الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا من يحب . فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه . والذى نفسى بيدى لا يسلم أو لا يسلم عبد حتى يسلم=

وَمَظلومِهِمْ ، وَيُقَالُ لِلظَّالِمِ تَقَدَّمْ ، وَلِلْمَظْلُومِ تَحَكَّمْ فأَنتَ بَيْنَ يَدَيِ العَلِيِّ الأَعْظَمِ « يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ لِلهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ اليَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ » .

فَحَبِيبُ اللهُ هُوَ وَحْدَهُ السَّالِمُ فِي أُخْرَاهُ : « يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ » .

وَلَيْسَ حَبِيبُ اللهِ يَاقَوْمِ : مَنْ يَقُولُ بِلِسَانِهِ ، أُحِبُّ اللهَ ، وَقَلْبُهُ وَسَائِرُ أَعْضَائِهِ غَارِقَةٌ فِي المَعَاصِي ، فَأَيْنَ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ ، وَهُوَ العَلاَمَةُ على حُبِّ اللهِ : كَمَا قَالَ جَلَّ عُلاَهُ .

فَحَبِيبُ اللهِ ـ يَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا ، وَيُعْرِضُ عَنْهَا ، وَلا يُبَالِي بِإِقْبَالِهَا ، وَلا إِدْبَارِهَا : إِنْ أَقْبَلَتْ شَكَرَ لِلهِ ، وَإِنْ أَدْبَرَتْ ـ صَبَرَ على مَا ابْتَلاَهُ . وقد قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ »[1] .

= أو يسلم قلبه ولسانه ، ولايؤمن حتى يؤمن جاره بوائقه : قالوا وما بوائقه، قال : غشمه وظلمه ولايكسب عبد مالا حراماً فيتصدق به فيقبل منه ، ولاينفق منه فيبارك له فيه ولا يتركه خلف ظهره إلاكان زاده إلا النار ، إن الله تعالى لايمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لايمحو الخبيث.

(١) روى ابن ماجه ، وغيره عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدى : رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يارسول الله ، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله ، وأحبني الناس . فقال : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » .

وَحَبِيبُ اللهِ ذَاكِرٌ لَهُ عَلَى الدَّوَامِ ، امْتِثَالاً لِأَمْرِهِ تَعَالَى ، وَرَغْبَةً فِي ذِكْرِهِ ، حَيْثُ خَيْرُهُ وَنَفْعُهُ : قَالَ سُبْحَانَهُ : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ » .

وقد قال رَسُولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم[1] : « لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ عَلَى شَيْءٍ[2] إِلاَّ عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا » .

وَحَبِيبُ اللهِ مُتَوَاضِعٌ لا يَتَكَبَّرُ ، وَيَدُهُ سَخِيَّةٌ لِدَفْعِ حَاجَةِ الْمُحْتَاجِينَ مِنْ خَلْقِ اللهِ وَهُوَ دَائِمُ التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ : بِكَثْرَةِ الصِّيَامِ تَطَوُّعاً وَلَوْ كَانَ الْفَصْلُ صَيْفاً ، وَقُرَّةُ عَيْنِهِ فِي الصَّلَاةِ ، كَمَا كَانَ كَذَلِكَ قُدْوَتُهُ رَسُولُ اللهِ ، وَقَدْ قَال تعالى في الحديثِ القُدْسِيِّ : « وَلاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي عَلَيْهَا وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ »[3] .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير ، والبيهقي في الشعب ، عن معاذ رضي الله عنه .

(٢) على شيء مما فاتهم في الدنيا .

(٣) روى البخاري في صحيحه ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه : قال : قال : رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قال : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب - أي أعلمته بها ، أي ومن حاربه الله - أهلكه تبارك وتعالى - وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . . . إلخ » .

وَجِمَاعُ الْقَوْلِ ـ يَاقَوْمِ ـ أَنَّ حَبِيبَ اللهِ ـ هُوَ الْمُؤْمِنُ التَّقِيُّ ، فَهُوَ لِلهِ ـ وَلِيٌّ ، وَالرَّسُولُ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الأَبْرَارَ الأَتْقِيَاءَ الأَصْفِيَاءَ »[1] .

فَيَاأَيُّهَا المسلم :

اتَّقِ اللهَ ، وَاسْتَمْسِكْ بِمَعَالِمِ دِينِكَ الَّتِي اخْتَارَهَا اللهُ ، وَبَلَّغَهَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : لِخَيْرِكَ : فَفِيهَا حَيَاةُ قَلْبِكَ وَسَلَامَةُ بَدَنِكَ ، وَرَاحَةُ نَفْسِكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ على ذَلِكَ ، وَسَلْهُ تَوْفِيقاً : لِيُدِيمَ عَلَيْكَ نِعْمَةَ طَاعَتِكَ لَهُ ، وَتُبْ إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرْهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ .

فَقَدْ قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » .

وَاذْكُرْهُ تَعَالَى كَثِيراً : وَلْيَكُنْ لَكَ وِرْدٌ مِنَ الْقُرْآنِ مَا اسْتَطَعْتَ فِي يَوْمِكَ ، وَأَحْسِنْ إِلَى نَفْسِكَ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ كَثِيراً على رَسُولِكَ ـ تَفُزْ بِمَحَبَّةِ اللهِ الْقَائِلِ : « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

---

(١) روى ابن ماجه ، والحاكم ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ـ أن عمر بن الخطاب : رضى الله عنه ـ خرج إلى المسجد ، فوجد معاذاً عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى ، فقال : مايبكيك ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ قال : « اليسير من الرياء شرك ، ومن عادى أوليـــاء الله ـ فقد بارز الله بالمحاربة ، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأصفياء ، الذين إن غابوا لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة » .

قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ تَوَاضَعَ لِلهِ رَفَعَهُ اللهُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللهُ ، وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللهِ أَحَبَّهُ اللهُ » .

رواهُ ابنُ مَاجَهْ ، وَأبُو يَعْلَى ، وَأَحْمدُ ، عَنْ أبى سَعِيدٍ الخُدْرِىِّ - رضى اللهُ عنهُ .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ : عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قالَ : « عَبْدِى المُؤْمِنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَعْضِ مَلَائِكَتِى » .

رواهُ الطَّبَرَانِىُّ فِى مُعْجَمِهِ الأَوْسَطِ ، عَنْ أبى هُرَيْرَةَ رضى اللهُ عنه .

١٤ ـ التحذير من الذنوب

لأنها سبب حرمان الرزق الحسى والمعنوى

الحمدُ لِلهِ : « العَزِيزِ العَلِيمِ . غافِرِ الذَّنبِ وَقابِلِ التَّوبِ شَدِيدِ العِقابِ ذِى الطَّوْلِ[1] لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المَصِيرُ » .

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ : يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ الصِّغارَ : كالعُبُوسِ عِنْدَ اللِّقاءِ ـ عَمَّنِ اجْتَنَبَ الكَبائِرَ : كالظُّلْمِ وَالكِبْرِياءِ قال تعالى : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا » .

وَأَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، المُبَرَّأُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ، النَّقِى مِنْ كُلِّ ذَنْب ، المُنَزَّلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِر » ، القائِلُ فى تَذْكِيرِهِ : لِيَذْكُرَ العَبْدُ ذَنْبَهُ دائمًا : فَيُكَرِّرَ التَّوْبَةَ مِنْهُ ؛ فَلاَ يَعُودَ إِلَيْهِ ، فَلاَ يُحْرَمَ رِزْقَ الخَيْرِ أَبَداً « إِنَّ العَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الجَنَّةَ : يَكُونُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ تائِبًا فارًّا حَتَّى يَدْخُلَ بِهِ الجَنَّةَ »[2] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ البَرَرَةِ الأَطْهار .

أَمَّا بَعْدُ فَيا عِبادَ اللهِ :

رُوِى أَنَّ سُلَيْمانَ : عليهِ السَّلاَمُ ـ طارَتِ الرِّيحُ يَوْمًا بِبِساطِهِ ، وَهُوَ

---

(١) ذى الفضل بالإنعام ، وإيتاء الثواب وترك العقاب .

(٢) رواه ابن المبارك عن الحسن البصرى مرسلا إذ سقط من سنده الصحابى .

عليه ، فنظرَ إلى ثوبِه ، وكانَ جديداً ، فأعجبَه ، وهذا أمرٌ في حدِّ ذاتِه - مُباحٌ ، ولكنَّه شغلَه لحظةً بنظرِه إليه - عن ذِكرِ الله بقلبِه ولا ينبغي إلا أنْ تكونَ كلُّ لحظاتِه ذِكراً لله .

ولذلكَ - وضعَتِ الريحُ البساطَ ، فهبطَ به : عليه السلامُ ، فقالَ لها وهوَ الذي أُوتِيَ[1] مِن كلِّ شيءٍ ، ومِن ذلكَ - مُخاطبةُ الريحِ وإجابتُها - لِمَ فعلتِ هذا ، ولمْ آمُرْكِ ؟ قالتْ : إنَّما نُطيعُكَ ، إذا أطعتَ الله .

وقالَ يوسفُ : عليهِ السلامُ - لِصاحبِ الملكِ الذي ظنَّ أنَّهُ ناجٍ : مِنَ الفتيينِ ، اللذينِ دخلا معَهُ السجنَ : « اذكُرْني عندَ ربِّكَ فأنساهُ الشيطانُ ذِكرَ ربِّهِ فلبثَ في السجنِ بضعَ سنينَ » ، والبضعُ ما بينَ الثلاثِ إلى التسعِ : وذلكَ لأنَّهُ توسَّلَ للخروجِ مِنَ السجنِ - بطلبِ ذِكرِه عندَ الملكِ ، وهوَ أمرٌ مُباحٌ ، ولكنَّ اللائقَ بهِ لِنبوَّتِهِ - ألاَّ يتوسَّلَ - لذلكَ - بغيرِ سؤالِ اللهِ ، الذي بيدِهِ القلوبُ : يُصرِّفُها كيفَ يشاءُ ، وهوَ العليمُ القديرُ .

وإذا كانَ اللهُ تباركَ وتعالى - يحرِمُ أنبياءَهُ رزقَ الخيرِ يرجونَهُ : لأمورٍ مُباحةٍ في ذاتِها ، وما هيَ إلاَّ هفواتٌ صغيرةٌ غيرُ مقصودةٍ : لقُربِهم مِنَ اللهِ تعالى ، ومعرفتِهم بما يليقُ بمقامِهِ الأعلى : لتدومَ لهُمْ منازلُهُمْ

---

(١) تأمل ما حكاه الله عنه : من قوله في سورة النمل : (وأوتينا من كل شيء) .

فى الآخرة - بصبرهم على هذا الحرمان ، ورضاهم عنه سبحانه - مع هذا البلاء - كان حريًّا بالمسلم ، الذى يحرم رزق الخير فى الدنيا : من جاه أو صحة ، أو مال ، أو ولد ونحو ذلك - بما يقترف من ذنوب ، وربما كانت كبائر مقصودة - أن ينتبه إلى أن هذا الحرمان - إيقاظ له من الله الذى أراد له رفعة الدرجة والنعيم المقيم فى أخراه : ليرضى عنه تعالى بما به ابتلاه ، ويصبر على بلواه ، ويسعى إلى كسب رضاه جل علاه ، فيتوب مما جنته يداه .

وإن المسلم الذى ينتبه إلى ما يليق به - هو الرجل المقصود فى قوله : صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » (١) .

فلا عجب أن نرى كثيراً من الفسقة والكفرة - موسَّعاً عليهم فى الرزق ، وأكثر مالاً وأحسن صحة من الأتقياء البررة ، وفى رزقهم - قال صلى الله عليه وسلم : « إن الرزق لا تنقصه المعصية . ولا تزيده الحسنة ... » (٢) .

ألا وإن ذلك لهم - استدراج (٣) - لهم من الله - لمضاعفة عقابهم يوم القيامة : « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » ، وقد قيل : إذا رأيت

---

(١) رواه الحاكم ، عن ثوبان : رضى الله عنه .

(٢) رواه الطبرانى فى الصغير ، عن أبى سعيد : رضى الله عنه ، وفى آخره : وترك الدعاء - معصية) .

(٣) أى استدناء لهم قليلا قليلا - إلى ما يزيد عذابهم فى جهنم .

اللهَ تعالى أنعمَ على عبدٍ وهوَ مُقيمٌ على معصيتِهِ ـ فاعلمْ أنَّهُ مُستدرَجٌ » ، واللهُ تعالى يقولُ : « والذينَ كذَّبوا بآياتِنا سنستدرجُهُمْ مِنْ حيثُ لا يعلمُونَ . وأُمْلِي لهمْ إنَّ كيدِي متينٌ »[1] .

فمَنْ حُرِمُوا الرِّزقَ في الدُّنيا ـ كانتْ سعادتُهُمْ في أنْ عُوجِلُوا بالمؤاخذةِ بذُنُوبِهِمْ ، ولمْ يُؤخَّرُوا إلى الآخرةِ : كما أُخِّرَ الأشقياءُ : مِنَ الفجرَةِ : « ولعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبقى » .

فياعبدَ اللهِ :

لا تَغبِطْ عاصياً مرزُوقاً في الحياةِ ، فعاقبتُهُ حِرمانٌ طويلٌ وعذابٌ أليمٌ في أُخراه .

واعلمْ أنَّ الفسادَ الذي انتشرَ في البرِّ والبحرِ : مِنْ قِلَّةِ الثِّمارِ والخيراتِ ونقصِ الأموالِ ، وكثرةِ الآفاتِ في الزِّراعاتِ ، وقِلَّةِ الرِّبحِ في التِّجاراتِ ، وتفشِّي الآلامِ والأمراضِ في النَّاسِ والدَّوابِّ ، ومَحْقِ البركةِ مِنْ كلِّ شيءٍ ونحوِ ذلكَ مِنْ شرٍّ ـ إنَّما كانَ بشؤمِ الذُّنوبِ . ومعاصي النَّاسِ : ليُذيقَهُمْ في الدُّنيا بعضَ جزائِها : ليُقلِعُوا عنْ تلكَ الجرائمِ والسَّيِّئاتِ ، المُغضِبَةِ لهُ تعالى ، فيَسلَمُوا مِنْ تمامِ جزائِها في الآخرةِ ، ويُوقَوْا حِرمانَ خيرِ الآخرةِ وهوَ مُقيمٌ : قالَ جلَّ شأنُهُ : « ظهرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما كسبَتْ أيدي النَّاسِ ليُذيقَهُمْ بعضَ الذي عمِلُوا لعلَّهُمْ يرجِعُونَ » ، وقال تعالى :

---

(١) أى وأمهلهم ملاوة من الدهر ، وهى المدة الطويلة : من الإملاء ، وهو الإمهال وإطالة المدة .

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » ، وقالَ جَلَّ شَأْنُهُ : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ »[1] .

وَكَمَا يَنْشَأُ عَنِ الذُّنُوبِ حِرْمَانُ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ الرِّزْقِ الْحِسِّيِّ الَّذِي يَحْتَاجُهُ الْبَدَنُ : لِلْغِذَاءِ . وَالْكِسَاءِ . وَالدَّوَاءِ ـ يَنْشَأُ عَنْهَا حِرْمَانُ جَمِيعِ النُّفُوسِ مِنَ الرِّزْقِ الْمَعْنَوِيِّ ، الَّذِي يُمْنَحُهُ الْمَرْءُ ، إِذَا كَانَ قَلْبُهُ سَلِيمًا ، صَالِحًا مُنَوَّرًا ، عَامِرًا بِمَحَبَّةِ اللهِ وَخَشْيَتِهِ ، فَذَلِكَ الرِّزْقُ الْمَعْنَوِيُّ هُوَ التَّوْفِيقُ لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ ، وَالْفَهْمُ السَّلِيمُ ، وَالْفَتْحُ بِالْعُلُومِ النَّافِعَةِ ، وَعُلُوُّ الْمَنْزِلَةِ فِى الْقُلُوبِ الْمُؤْمِنَةِ ـ بِتِلْكَ الْمَزَايَا الْعَظِيمَةِ ، فَإِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ـ أَظْلَمَ قَلْبُهُ ، فَحُرِمَ ذَلِكَ الرِّزْقَ الْمَعْنَوِيَّ . وَلِذَلِكَ قَالَ رَسول الله صلى اللهُ عليه وسلم[2] : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نُكِتَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِى قَلْبِهِ ، فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ لَمْ يَتُبْ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ـ أى حَتَّى

---

(١) ومن هنا ـ قالت عائشة : رضى الله عنها . « مامن مسلم يصيبه وصب أى مرض ولا نصب ، حتى الشوكة يشاكها ، وحتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب ومايعفو الله أكثر » والنصب : بفتح النون والصاد : التعب ، وبضم النون وسكون الصاد : الشر والبلاء .

(٢) رواه أحمد ، والترمذى والحاكم والنسائى ، وابن ماجه ، وغيرهم ، عن أبى هريرة : رضى الله عنه ، ونكتت : ألقيت : بضم النون وكسر الكاف : فعل مبنى للمجهول وقد ضبطناه بغير هذا فى بعض كتبنا وفق شرح آخر ، ولكن ماجرينا عليه هنا أسهل ، وصقل : أى جلى .

تغطيه تلك النكتة - أي النقطة - السوداء - فذلك الران . الذي ذكره الله في كتابه : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » : أي غلب وغطى على قلوبهم ما كانوا يكسبون : من الذنوب ، حتى لم يبق - من ذلك - منفذ للنور يدخل إلى تلك القلوب » .

وقال أبو سليمان الداراني ، أحد كبار صالحي الأمة : رحمه الله : « لا يفوت أحداً صلاة الجماعة إلا بذنب يذنبه » .

وقال حذيفة ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القلب مثل الكف المفتوحة . كلما أذنب العبد ذنبا - انقبضت إصبع ، حتى تنقبض الأصابع كلها ، فيسد على القلب ، فذلك هو الطبع » ، وفي المنافقين - قال تعالى : « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » .

ومن هنا كان السلف يقولون : « المعاصي بريد الكفر » أي رسوله : فإنها إذا غطت القلب ، فأقفر من خوف الله - فسد ، واستولى عليه اتباع الهوى ، فانبعثت الأعضاء في طاعته - إلى كل المعاصي : قال صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »(١) .

وكتبت عائشة إلى معاوية : رضى الله عنهما : « أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله - عاد حامده من الناس ذاما » .

---

(١) جزء من حديث . رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن النعمان بن بشير : رضى الله عنهما .

وقالَ أبو الدَّرْدَاء ، صَاحِبُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « احْذَرْ أنْ تُبْغِضَكَ قلوبُ المُؤْمِنِينَ . وَأنْتَ لاَ تَشْعُرُ » .

قالَ الفُضَيْلُ : أحَدُ مَشاهِيرِ الأوْلِيَـاء ، مُبَيِّنًا : كَيْفَ يَحْصُلُ ذَلِكَ البُغْضُ : « هُوَ العَبْدُ يَخْلو بِمَعاصِي اللهِ ، فَيُلْـقِي اللهُ بُغْضَهُ فِي قلوبِ المُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُ » .

وقالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ، الصَّحابِيُّ المَشْهُورُ : « إنِّي لأَحْسَبُ أنَّ العَبْدَ يَنْسَى العِلْمَ بالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » .

فالحِرْمَانُ مِنَ الرِّزْقِ المَعْنَوِيِّ - أعْظَمُ حِرْمَان ، وَمَنْ حُرِمَهُ فى دُنْيَاهُ - خَسِرَ أُخْرَاهُ .

قالَ تَعَالَى : « تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

وَيَا عَبْدَ اللهِ :

قالَ الإمَامُ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، وَرَضِيَ عَنْهُ : « لاَ يَنْزِلُ البَلاَءُ إلاَّ بِذَنْبٍ . وَلا يُرْتَفَعُ إلاَّ بِتَوْبَةٍ » . فَاتَّقِ اللهَ ، وَتَوَقَّ بَلاَءَ حِرْمَانِكَ رِزْقَيْكَ ، وَخَاصَّةً المَعْنَوِيَّ مِنْهُمَا ، الَّذِي يَكْسِبُ الآخِرَةَ ، وَنَعِيمَهَا المُقِيمَ ، فَاجْتَنِبِ الذُّنُوبَ ، وَارْفَعْ ذَلِكَ البَلاَءَ ، وَادْفَعْهُ - بالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ فَوْرًا وَلاَ تُسَوِّفْ ، تَقُولُ : غَدًا أوْ بَعْدَ غَدٍ أتُوبُ ، فَمَا بَقَاؤُكَ لِغَدٍ بِمَضْمُون .

---

(١٠) رد واه

وَالتَّوْبَةُ النَّصُوحُ هِيَ أَنْ تَتُوبَ لِلَّهِ تَعَالَى، رَاغِبًا فِي رَحْمَتِهِ وَثَوَابِهِ، خَائِفًا مِنْ نِقْمَتِهِ وَعَذَابِهِ، وَتُقْلِعَ عَنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، وَتَعْزِمَ عَزْمًا مُؤَكَّدًا عَلَى أَلَّا تَعُودَ إِلَى ذَنْبٍ مِنْهَا، وَتَتَحَلَّلَ مِنْ حَقِّ الآدَمِيِّ عَلَيْكَ، وَتَقُولَ بِذُلٍّ وَخُضُوعٍ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي، وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»[1].

وَمَا أَحْلَى مُخَاطَبَتَكَ رَبَّكَ، فِي انْكِسَارٍ وَخُشُوعٍ -: أَسْأَلُكَ بِعِزِّكَ وَذُلِّي إِلَّا رَحِمْتَنِي، أَسْأَلُكَ بِقُوَّتِكَ وَضَعْفِي، وَبِغِنَاكَ عَنِّي وَفَقْرِي إِلَيْكَ، هَذِهِ نَاصِيَتِي[2] الْكَاذِبَةُ الْخَاطِئَةُ بَيْنَ يَدَيْكَ، عَبِيدُكَ سِوَايَ كَثِيرٌ، وَلَيْسَ لِي سَيِّدٌ سِوَاكَ، لَا مَلْجَأَ، وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمِسْكِينِ، وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الْخَاضِعِ الذَّلِيلِ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيرِ، وَأَسْأَلُكَ سُؤَالَ مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ، وَرَغِمَ لَكَ أَنْفُهُ، وَفَاضَتْ لَكَ عَيْنَاهُ، وَذَلَّ لَكَ قَلْبُهُ:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ

---

(١) حديث سيد الاستغفار: رواه البخارى فى صحيحه. عن شداد بن اوس رضى الله عنه، عن الرسول ﷺ، وفى عقبة قال: من قالها فى النهار وهو موقن بها، فمات قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة، ومن قالها فى الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح - فهو من أهل الجنة. ومعنى أبوء: أقر واعترف.

(٢) الناصية: شعر مقدم الرأس.

لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْماً أَنْتَ كاسِرُهُ   وَلا يَهِيضُونَ[3] عَظْماً أَنْتَ جابِرُهُ

« وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

« وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ - مِنْ أَحَدِكُمْ كانَ عَلَى راحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ ، وَعَلَيْها طَعامُهُ ، وَشَرابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْها ، فَأَتَى شَجَرَةً ، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّها . قد أَيِسَ مِنْ راحِلَتِهِ ، فَبَيْنَما هُوَ كَذَلِكَ إِذا هُوَ بِها قائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطامِها[1] ، ثُمَّ قالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنا رَبُّكَ : أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ » ، رواهُ البُخارِيُّ وَمُسْلِمٌ ، فِي صَحِيحَيْهِما ، عَنْ أَنَسِ ابْنِ مالِكٍ : رضي اللهُ عنه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ » . رواهُ الحاكِمُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ : رضي اللهُ عنه .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم : « خِيارُكُمْ كُلُّ مُفَتَّنٍ تَوّابٍ »[2] .

رواهُ البَيْهَقِيُّ ، في الشُّعَبِ ، عن عَلِيٍّ : رضي اللهُ عنه .

---

(١) بزمامها .
(٢) مفتون جداً .
(٣) يكسرون .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ سَرَّهُ أنْ يَسْبِقَ الدَّائِبَ المُجْتَهِدَ ـ فَلْيَكُفَّ عَنِ الذُّنُوبِ » .

رواهُ أبو يَعْلَى ، عن عائِشَةَ : رضى اللهُ عنها ، والدَّائِبُ هُوَ المُتْعِبُ نَفْسَهُ فى العِبادَةِ ، المجتَهِدُ فيها .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مِنْ سَعادَةِ المَرْءِ ـ أنْ يَطُولَ عُمْرُهُ ، وَيَرْزُقَهُ اللهُ الإِنابَةَ » .

رواهُ الحاكِمُ ، عنْ جابِرٍ : رضى اللهُ عنه .

١٥ – الاستقامة سر السعادة والسلامة

الحمدُ لِلهِ : يتفضَّلُ على المستقيمِ بالإكرامِ والإقبالِ ، والخيرِ والإفضالِ ، وقالَ : « فأمَّا الذينَ آمنُوا باللهِ واعتصمُوا بهِ فسيُدخِلُهُمْ في رحمةٍ منهُ وفضلٍ ويَهديهِمْ إليهِ صِراطاً مُستقيماً » .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ : جعلَ خيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ بسلوكِ الطَّريقِ القويمِ ، ولهذا أمرَ عبادَهُ – أنْ يقرءوا في كلِّ ركعةٍ من صلاتِهِمْ – سورةَ الفاتحةِ ، وفيها قولُهُ تعالى : « اهدِنا الصِّراطَ المستقيمَ » .

وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمَّداً رسولُ اللهِ ، سيِّدُ العبادِ ، وخيرُ هادٍ ، وقدْ خاطبَهُ تعالَى – مُزكِّياً ما يهدِي إليهِ – فقالَ : « وإنَّكَ لتهدِي إلى صِراطٍ مُستقيمٍ . صِراطِ اللهِ الَّذي لهُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ ألاَ إلى اللهِ تصيرُ الأمورُ » .

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّمْ على سيِّدِنا محمَّدٍ ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ، أهلِ اللهِ الأتقياءِ المستقيمينَ .

أمَّا بعدُ :

فقدْ زارَ الإمامُ الفقيهُ سُفيانُ الثَّوريُّ – العابدةَ رابعةَ العدويَّةَ ، وسألَ ربَّهُ – وهوَ جالسٌ عندَها – السَّلامةَ منَ الدُّنيا ، فبكتْ ، فسألَها عن سببِ بكائِها ، فقالتْ : نسألُ اللهَ السَّلامةَ منَ الدُّنيا ، والسَّلامةُ منها – تركُ ما فيها ، فكيفَ – إذاً – تسألُ السَّلامةَ ممَّا أنتَ مُتمسِّكٌ

به ؟ فقال : وا حزناه ، فقالت : قل : وا قلة حزناه ، فقال لها : عظيني ، فمنك الهدى ، وعندك اليقين ، فقالت : إنما أنت أيام . إذا ذهب يوم ذهب بعضك ، ويوشك أن تذهب الأيام كلها ، فيذهب كلك ، فاعمل فيه ، فإنك لا تدرى متى أجلك : استقم على الدوام ، فلا ربح إلا لمن استقام .

عباد الله :

كل إنسان منا يسعى في هذه الحياة إلى السعادة ، ويحرص عليها : ليحيا في دنياه حياة طيبة ، ويفوز في أخراه بحسن العاقبة في الدار التي بناؤها : لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وحصاها اللؤلؤ والياقوت ، وطينها المسك ، وترابها الزعفران . من دخلها ينعم ولا ييأس ، ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه .

وسر هذه السعادة الاستقامة : قال تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم » .

ومعنى قالوا : ربنا الله — آمنوا بالله حق الإيمان : عن عقيدة ثابتة ، رسخ الإيمان في قلوبهم ، فلم تشبه شائبة ، ولم يخالطه شك ، مهما تنوعت أحوالهم : من شدة أو رخاء ، أو صحة أو مرض — فهم لا يلجئون

إلاَّ لخالقِهِمْ ، مَعَ أخذِهِمْ بالأسبابِ ، فإنْ نزَلَتْ بهِمْ نِقمةٌ ، أوْ أتتهُمْ نِعمةٌ ـ قالوا : رَبُّنا اللهُ : لا نَلْجأُ لأحَدٍ سِوَاهُ ، وَلا نَعبُدُ إلاَّ إيَّاه ، وَقَدْ وَافَقَ فِعلُهُمْ قولَهُمْ ، فاستقامُوا كَمَا أمَرَهُمُ اللهُ القائلُ : « فاستَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلاَ تطْغَوْا إنَّهُ بِمَا تعمَلونَ بَصِيرٌ » .

فَلاَ يجِدُهُمُ اللهُ حيثُ نَهَاهُمْ ، وَلا يَفقِدُهُمْ حيثُ أمَرَهُمْ ، وَهُمْ وَاقِفُونَ ـ عَلَى الدَّوَامِ ـ عِندَ قوْلِهِ تعالى : « وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهاكُمْ عَنهُ فانتهُوا » ، وَهُمْ يَعلَمُونَ أنَّهُ سُبحَانَهُ لا يُخلِفُ وَعدَهُ ، وَأنَّهُ يُمِدُّهُمْ بِمَعُونَتِهِ وَهِدَايَتِهِ كما قالَ تعالى : « وَالذِينَ اهتَدَوْا زادَهُمْ هُدًى وَآتاهُمْ تقوَاهُمْ » .

وَأولئكَ المُؤمِنُونَ المستقِيمُونَ ـ يُراقِبُونَ اللهَ ، وَهُوَ مَعَهُمْ ، أينَمَا كانُوا ، فإذَا وَسوَسَ لهُمُ الشيطَانُ ـ تذَكَّرُوهُ سُبحَانَهُ ، فخَافُوهُ فإذَا هُمْ مُبصِرُونَ ، وَلَمْ يطِيعُوا الشَّيطان ، وَإذَا هَفَوْا بِعِصيانٍ ـ تابُوا بِسُرْعَةٍ إلى الدَّيَّان ، الذِي يُنزِلُ السَّكِينَةَ فى قُلوبِهِمْ ، وَيَمْلأُ بالطُّمأنينةِ نفوسَهُمْ ، فَلاَ يجزَعُونَ لِحُلولِ المَصائِبِ ، مَهْمَا بلَغَتْ ، وَلاَ تُطغِيهِمُ النِّعمَةُ مَهْمَا عَظُمَتْ ، وَلاَ يَخافونَ بَطشَ عَدُوٍّ أوْ ظالِمٍ أوْ جَبَّارٍ ، فَكيفَ يَخافونَ ، وَمَعَهُمُ الوَاحِدُ القَهَّار ، يُمِدُّهُمْ بِمَلائِكَتِهِ يُطَمْئِنُونَهُمْ ، وَيَمضُونَ بِأمْرِهِمْ : بِرِعايَةِ اللهِ ـ فى الليْلِ وَالنَّهارِ .

وَهَكَذا المؤمِنُونَ المستقِيمُونَ ـ لا يَكُونُ مِنهُمْ إلاَّ ما يُرضِى اللهَ ـ مَهْمَا عَرَضَتْ لَهُمُ العَوَارِضُ فى الحَياةِ : الإحْسَانُ غايتُهُمْ ، وَالصَّبْرُ شِعارُهُمْ ،

وَالْحَسَنَاتُ هَدَفُهُمْ ، وَاللهُ تعالى يقولُ : « إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » .

وَمِنْ هُنَا ـ لَمَّا شَتَمَ يَوْمًا بَعْضُ النَّاسِ ـ سَيِّدَنَا الْحَسَنَ بْنَ سَيِّدِنَا عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عنهما ـ وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلى مَنْزِلِهِ ـ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ ، فلمَّا قَرُبَ مِنْ مَنْزِلِهِ . وَقَدْ أَحْصَى عَلَيْهِ عَدَدَ شَتَائِمِهِ ـ قالَ لهُ : ياهَذَا شَتَمْتَنِي سَبْعِينَ شَتْمَةً ، وَقَدْ قَرُبَ الْمَنْزِلُ وَأَخْشَى أَنْ يُؤْذِيكَ أَحَدٌ مِنْ أَتْبَاعِي لأَجْلِ هَذَا ، وَلَـكِنَّكَ أَهْدَيْتَ إِلَيَّ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ شَتَائِمِكَ : لِصَبْرِي عَلَيْهَا ، وَعَفْوِي عَنْكَ ، فَانْتَظِرْ حَتَّى آتِيَكَ بِسَبْعِينَ دِرْهَمًا : مُـكَافَأَةً لَهَا ، وَشُـكْرًا عَلَيْهَا ، فَانْتَظَرَ الرَّجُلُ ، حَتَّى أَحْضَرَ لَهُ الدَّرَاهِمَ ، فَانْقَلَبَ ـ بَعْدَ الشَّتْمِ ـ مَادِحًا لَهُ وَدَاعِيًا .

فَلاَ عَجَبَ أَنْ تَتَنَزَّلَ الْمَلاَئِـكَةُ عَلَى الْمُسْتَقِيمِينَ فِى الْحَيَاةِ لإِلْهَامِهِمُ الْخَيْرَ : إِذْ هُمْ لَهُ أَهْل ـ كَذَلِكَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ عِنْدَ الْمَوْتِ : قَائِلِينَ لَهُمْ لاَتَخَافُوا سَلْبَ الإِيمَانِ ، وَلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْ عِصْيَان ، وَأَبْشِرُوا بِدُخُولِ الْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ـ فِى سَالِفِ الأَزْمَانِ ، كما يَقُولُونَ لِـكُلِّ رُوحٍ مُؤْمِنَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ عِنْدَ فِرَاقِهَا الْجَسَدَ : اخْرُجِي أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فِى الْجَسَدِ الذِى كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ ـ إِلى رَوْحٍ وَرَيْحَان ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَان ـ كَذَلِكَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ ـ عِنْدَ الْبَعْثِ . قَائِلِينَ : « نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ » .

وَقَدْ لَقِيَ أَبو هُرَيْرَةَ صَاحِبُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ـ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ ، فَقَالَ لَهُ : اسْأَلُ اللهَ ـ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِى سُوقِ الْجَنَّةِ ، سَعِيدٌ : أَوَ فِى الْجَنَّةِ سُوقٌ ؟ قالَ : نَعَمْ أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم

أنّ أهلَ الجنّةِ إذا دخلوا فيها نزلوا ـ بفضلِ أعمالِهِمْ ، فيؤذَنُ لهم في مقدارِ يومِ الجُمعةِ مِنْ أيّامِ الدُّنيا ، فيزورونَ اللهَ عزّ وجلّ ويرونَهُ ويسمعونَ خطابَهُ ، وبينما هم على ذلكَ غشيتهم سحابةٌ مِنْ فوقِهِمْ ، فأمطرتْ عليهم طيباً لمْ يجدوا مثلَ ريحِهِ شيئاً قطُّ ، ثمّ يقولُ عزّ وجلّ : قوموا إلى ما أعددتُ لكمْ مِنَ الكرامةِ ، وخذوا ما اشتهيتُمْ ، فيأتونَ سوقاً قدْ حفّتْ بها الملائكةُ : لا يباعُ ما فيها ولا يُشترى ، وفيها ما لمْ تنظرِ العيونُ مثلَهُ ، ولمْ تسمعِ الآذانُ ، ولمْ يخطرْ على القلوبِ ، ولكنْ يُحمَلُ لكلٍّ مِنْ أهلِ الجنّةِ مِنْ ذلكَ النّعيمِ ـ ما اشتهتْ نفسُهُ ، فذلكَ هوَ النُّزُلُ ، أي تحيّةُ الضّيافةِ ، والعطاءُ والإنعامُ الواردُ في قولِهِ تعالى « نُزُلاً مِنْ غفورٍ رحيمٍ » .

وما ذلكَ ـ يا عبدَ اللهِ ـ إلاّ المستقيمُ ، الّذي عوّدَ نفسَهُ مراقبةَ ربِّهِ عندَ كلِّ قولٍ يقولُهُ ، وكلِّ عملٍ يعملُهُ ، موقناً أنّهُ تعالى مُطّلعٌ عليهِ لا تخفى عليهِ خافيةٌ ، ومعتقداً أنّهُ تعالى يجازي مَنْ أطاعَهُ برضوانِهِ وإحسانِهِ ، ومَنْ عصاهُ بغضبِهِ ومقتِهِ ، فسهلَ عليهِ أنْ يفعلَ أوامرَ اللهِ ، ويجتنبَ نواهيَهُ ، ويستمسكَ بتعاليمِ الإسلامِ وأحكامِهِ على الدّوامِ .

أيها المسلمون :

لتغنموا الخيرَ وتسلموا مِنَ الشّرِّ في الدّنيا والآخرةِ ـ اتّقوا اللهَ ، واحرصوا على الاستقامةِ ، فامتثلوا أوامرَ اللهِ واجتنبوا نواهيَهُ ، وتجمّلوا بالمكارمِ ، وافعلوا الخيرَ : ابتغاءَ وجهِ المنّانِ تباركَ وتعالى : « إنّ الّذينَ قالوا ربُّنا اللهُ

ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

عن أبي عَمْرٍو ، وَقِيلَ أبي عَمْرَةَ ، سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ : رضي اللهُ عنهُ ، قالَ : قلتُ : يارَسُولَ اللهِ . قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً غَيْرَكَ . قالَ : قُلْ : آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ » .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا ـ أي وَلَنْ تَحْصُرُوا ثَوَابَ الاِسْتِقَامَةِ ـ وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ ، وَلَنْ يُحَافِظَ عَلَى الْوُضُوءِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ » .

رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ ، عَنْ ثَوْبَانَ : رضي اللهُ عنه .

١٦ — التحذير من الشيطان

الحمدُ للهِ ، الذى يسمعُ دبيبَ النملةِ السوداء ، على الصخرةِ الصمّاء ، فى الليلةِ الظلماء ، وهو العليمُ الحكيم ، مَن استعانَ بهِ ـ أعانهُ ، ومَن استعاذَ بهِ والجأ إلى حِماهُ ـ حماهُ ووقاهُ وهو العلىُّ العظيم .

وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ : يُحِبُّ مَن أقبلَ إليهِ ، وخالفَ نفسَهُ وهواه ولم يتَّبِعْ شيطانَهُ ، فأعدَّ لهُ الأجرَ العظيم .

وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمدًا رسولُ اللهِ ، القائلُ : « ما منكم مِن أحدٍ إلاَّ ولهُ شيطانٌ قالوا وأنتَ يارسولَ اللهِ . قالَ : وأنا إلاَّ أنَّ اللهَ أعانني عليهِ فأسلمَ ، فلا يأمرُ إلاَّ بخيرٍ »[1] .

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ على سيِّدِنا محمدٍ ، وعلى آلهِ وصحبهِ ، الطائعينَ ، العبادِ المُكرَمين .

أمّا بعدُ : فيأيُّها المسلمونَ :

بعدَ ثلاثٍ وثلاثينَ سنةً مضتْ على تلمذةِ حاتمٍ الأصمِّ لشقيقٍ البلخيّ سألهُ شقيقٌ عمّا تعلّمهُ منهُ فى هذهِ المدّةِ ، فقالَ : نظرتُ إلى الخلقِ ، فرأيتُ بعضَهم يبغى على بعضٍ ، ويُقاتلُ بعضُهم بعضًا ، فرجعتُ إلى قولهِ تعالى : « إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ فاتخذوهُ عدوًّا » فتركتُ عداوةَ الخلقِ وعاديتُ

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة : رضى الله عنه .

الشيطانَ وحدَه ، واجتهدتُ في أخذِ حذرِي منهُ : لأنّ اللهَ تعالى شهِدَ عليه أنّه عدوٌّ ، فقالَ له شقيقٌ : صدقتَ .

عَبدَ الله :

إذا نصحكَ من تثِقُ بهِ ، وحذَّرك من عدوٍّ لك ، ولا بائِكَ من قبلِك وهُوَ لا ينفتأ يكيدُ لكَ بالليلِ والنهارِ ، وينبِئُكَ في حركاتِكَ وسكناتِكَ فإنّكَ - من غيرِ شكٍّ - تأخذُ الحيطةَ والحذرَ منهُ بكلِّ ما أوتيتَ من قوّةٍ ، وتسدُّ عليهِ جميعَ المنافذِ : خوفاً على نفسِكَ ومالِكَ وأهلِكَ من أذاهُ وكيدِهِ ، فماذا يكونُ حالُكَ إذا كانتِ النصيحةُ صادرةً من رءوفٍ رحيمٍ عليمٍ حكيمٍ ، يُريدُ بِكَ اليسرَ ولا يُريدُ بكَ العسرَ ، وقد أنشأكَ وسوّاكَ وبنعمهِ غذّاكَ وربّاكَ ، وهُوَ أرحمُ بكَ منَ الوالدةِ بولدِهَا : قالَ جلَّ شأنُهُ « ألمْ أعهدْ إليكُمْ يا بني آدمَ ألاّ تعبُدُوا الشيطانَ إنّهُ لكمْ عدوٌّ مُبينٌ وأنِ اعبُدُونِي هذا صِراطٌ مُستقيمٌ » .

لقدْ حذّركَ سبحانَه منْ هذا العدوِّ القديمِ العداوةِ الّذي أبَى واستكبرَ أنْ يسجدَ لآدمَ ، فطُرِدَ منْ رحمةِ اللهِ ، فحملَهُ ذلكَ على إغواءِ الآدميّينَ والآدميّاتِ : « قالَ ربِّ فأنظِرْنِي إلى يومِ يُبعثُونَ قالَ فإنّكَ منَ المُنظَرِينَ إلى يومِ الوقتِ المعلومِ قالَ : فبعزّتِكَ لأُغوينّهُمْ أجمعينَ إلاّ عِبادَكَ منهُمُ المُخلَصِينَ » .

ولقد وفَّى ذلكَ العدوُّ اللدودُ بما أوعدَ بهِ من الإغواءِ ، وهُوَ دائماً

يَعْمَلُ وَلاَ يُهْمِلُ ، وَهو ماكِرٌ خَدّاعٌ ، وَاسِعُ الْحِيلَةِ ، يَحْتَالُ عَلَى كلّ إنسانٍ بِمَا يَمِيلُ إِلَيْهِ طَبْعُهُ ، حَتَّى يُوقِعَهُ في الشرِّ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُ أَوْ لاَ يَشْعُرُ ، وَفي حالِهِ مَعَ حالِكَ — أيُّها الإنسانُ — قال يَحْيى بنُ مُعاذٍ : « أنتَ فارِغٌ وَالشَّيْطانُ مَشْغُولٌ » ، وَهوَ يَرَاكَ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَاهُ ، وَهوَ لاَ يَنْسَاكَ ، وَأَنْتَ تَنْسَاه ، وَحِيلُ ذلِكَ العدوِّ — مُتَنَوِّعَة ، وَطُرُقُ إغوائِهِ — شتّى وَمَكايدُهُ كثيرة ، وَأَساليبُ وَسْوَسَتِهِ مُتَعَدِّدة ، فهُوَ دائماً يَقِفُ عَلَى أَبْوَابِ المَعاصِي فَيُزَيِّنُها ، وَعلى أَبْوَابِ الطاعاتِ فَيَصُدُّ عَنْها ، يُحَبِّبُ إِلَى النَّاسِ الخطايا ، وَيَسْتَعْجِلُهُمْ إِلَى فِعْلِها ، وَيُبَغِّضُ إِلَيْهِمُ المَكارِمَ وَجَميلَ السَّجَايا ، وَيُهَوِّنُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ التَّسْوِيف في أَدَائِها ، فَيَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَدَاء الصَّلَوَاتِ في أَوَّلِ وَقْتِها وَيَحْرِمُهُمْ قِيَامَ الليلِ لِلصَّلاَةِ وَذِكْرِ اللهِ مَعَ عِظَم فَضْلِ ذَلِكَ بِتَحْبِيبِ السَّهَرِ إِلَيْهِمْ ، وَيُوَسْوِسُ إِلَيْهِمْ — حِينَ النَّوْمِ — لِتَثْقِيلِهِمْ فِيهِ ، وَإِطَالَتِهِ وَرُبَّمَا يَكْسَلُونَ عَنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ ، وَفي الانْتِبَاهِ لِذَلِكَ وَالعَمَلِ على السَّلاَمَة مِنْه — يَقُولُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ على قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ . يَضْرِبُ على كلِّ عُقْدَةٍ : عَلَيْكَ لَيلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ تعالى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّها فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ »[1] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وتثقيل وفيه بيان الشيطان الإنسان فى النوم وإطالته — كأنه عقد عليه عقد ، فلا يستطيع القيام والانتباه من الرقاد : كمن ربط بحبل وهو ملق على الأرض فلا يستطيع القيام .

ومِنْ عملِ الشَّيْطَانِ حَمْلُهُ النَّاسَ عَلَى البُخْلِ : قال تعالى : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » .

وَمِنْ أَغراضِ الشيطانِ إيقاعُ العَدَاوَةِ وَالبغضاءِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَيَتَوَسَّلُ إِلَى ذَلِكَ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ ، فَيُزَيِّنُ شُرْبَ الخَمْرِ وَلَعِبَ المَيْسِرِ ، وَتَعَاطِي المُخَدِّرَاتِ ، وَفِي القرآنِ الكَرِيمِ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » .

وَيُوقِظُ الفِتَنَ بَيْنَ الأَفْرَادِ وَالجماعاتِ ، وَيُفْسِدُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وَبَيْنَ الإِخْوَةِ وَالأَصْدِقَاءِ لأتفهِ الأَسْبَابِ وَيُشْعِلُ نَارَ الغَضَبِ بينَهُمْ حَتَّى يَكُونَ كُلٌّ مِنْهُمْ كَالوَحْشِ الضَّارِي حَيْثُ يُسَيْطِرُ الشيطانُ عَلَى أَعْصَابِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَيَدْفَعُهُ إِلَى الشرِّ دَفْعاً ، وَلِهَذَا حَذَّرَنَا صلى اللهُ عليه وسلم مِنَ الغَضَبِ ، وَأَرْشَدَ إِلَى أَنْ يُغَيِّرَ الإِنسانُ مِنْ حَالِهِ سَرِيعاً : لإِطْفَاءِ نَارِهِ .

وَمِنْ أَيْسَرِ الأَبْوَابِ الَّتِي يَلِجُهَا الشيطانُ لِلإِضْلَالِ ـ التَّسَاهُلُ فِي الخَلْوَةِ بِالمَرْأَةِ الأَجْنَبِيَّةِ ، وَالرَّجُلِ الأَجْنَبِيِّ : ثِقَةً بِالنَّفْسِ ، وَاللهُ تعالى يَقُولُ : « إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ » ، وَقد نَهَى صلى اللهُ عليه وسلم عَنْ هَذِهِ الخَلْوَةِ فَقَالَ : « لَا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ »[1] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، عن ابن عباس : رضي الله عنهما ، وروى =

أيها المسلم :

إنّ الله تبارك وتعالى ـ لقوة دلائل وجوده ، ووضوح آياته واستحقاقه العبادة ـ ترك الشيطان أمام تلك الدلائل والآيات ـ يصدُّ عنها : حتى إذا ما تدبّرها العباد وتأمّلوا فيها ـ رأوا أنّ الشيطان ضالٌّ وأنّ المعبود حقٌّ ، جديرٌ بالعبادة وبذلك يعبدُ العبدُ مختاراً ربَّه عن إيمانٍ ثابتٍ واقتناعٍ وعلمٍ يقينٍ لا عن تقليدٍ ومحاكاةٍ ، وحينئذٍ ـ لا يقوى عليه الشيطانُ ، ولا يتمكّنُ في إغوائه من غرضه ولذلك قال تعالى : « إنّه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » .

فالإنسانُ العاقلُ المتبصّرُ المنصتُ للحقّ ، الذي يرى آثارَ صُنعِ الله ، المتجلّيةِ أمامَ عينيه وقلبه ـ لا يلتفتُ أبداً لتوجيه الشيطان ، ولا تحجبُه وساوسُه عن آياتِ الكونِ الناطقةِ بجلالِ الديّان ، ولا عن آياتِ القرآن ، وهي نورٌ مبين ، ولذلك يومَ القيامةِ ، يومَ تذهبُ الغفلةُ ، ويُكشفُ عن القلبِ غطاؤه ، وتظهرُ حقيقةُ الوعدِ والوعيد ـ لا يكونُ غيرُ الاعترافِ بأنّ الملكَ لله الواحدِ القهّار ، الذي قال : « فاعلم أنّه لا إله إلا الله » ، وأهلُ الغفلةِ في الدنيا يعترفون يومَ القيامةِ بأنّهم كانوا في الدنيا قد

= الطبراني بسند ضعيف ، عن أبي أمامة رضي الله عنه ، عنه صلى الله عليه وسلم : قال « إياك والخلوة بالنساء والذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما . ولأن يزحم رجل خنزيراً متلطخاً بطين أو حمأة خير له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لا تحل له » . والحمأة : الطين الأسود المنتن .

ألغَوْا عقولَهم : « وَقالوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فاعْتَرَفوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

وَمِنَ الغافلين ـ شياطينُ الإنسِ ، الذين مَرَدُوا عَلَى باطلٍ ، وَتَمَهَّرُوا فِي الشَّرِّ ، وَتَلَقَّوْا تَوْجِيهَ شَيَاطِينِ الجِنِّ بِقُوَّةٍ ، وَأَخْلَصُوا فِي تَبْلِيغِهِ وتنفيـــذِه .

وَإِنَّ الحَيَاةَ بالصِّنْفَيْنِ لا تَطِيب ، وَبِهِمَا تَسُوءُ العَاقِبَةُ ، فإنَّهُمَا يَأْمُرَانِ بِالفَحْشاء وَالمُنكَرِ ، وَفِي ذَلِكَ ضَيَاعُ الصِّحَّةِ وَالمَالِ ، وَخَرَابُ الدِّيَارِ وَهَدْمُ الحَيَاةِ . وَوَبَالُ ـ المـآل . وَلِذَلِكَ قالَ تعالى : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالفَحْشاء وَالمُنكَرِ » .

أيها المسلم :

احْذرْ دَاعِيَ السُّوءِ مِنْ بَنِي جِنْسِكَ الإِنْسِ فإنَّهُ شَيْطَان مُنَفِّذٌ أَمْرَ شَيْطَانِ الجِنِّ ، الَّذِي حَذَّرَنَا اللهُ مِنْهُ ، وَاسْتَعِذْ باللهِ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَخالِفْه ، وَأَكْثِرْ مِنَ الطَّاعَاتِ ، الَّتِي تَقْوَى بِهَا رُوحُكَ ، وَزِدْ بِهَا إِيمَانَكَ ، وَجَاهِدْ نَفْسَكَ وَهَوَاكَ ، لِتَفْعَلَ الخَيْرَ ، وَتَبْعُدَ عَنِ الشَّرِّ ، وَتَذَكَّرَ كَثِيراً رَبَّكَ القائِلَ : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » .

وَاتَّقِ اللهَ فِي سِرِّكَ وَجَهْرِكَ : « وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ » .

قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ »[1] .

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ .

---

(١) سبب هذا الحديث أنه صلى الله عليه وسلم أتته صفية وهو فى معتكفه فى المسجد ، فلما رجعت انطلق معها ، فمر به رجلان من الأنصار ، فتباعدا عنه ، فدعاهما ﷺ ، وقال : إنها صفية . فأقبلا عليه ، وقالا : سبحان الله : أى عجباً من قولك ذلك . لأنا نعتقد عصمتك . . وإن كانت أجنبية ، فذكر صلى الله عليه وسلم الحديث ، وما كان منه صلى الله عليه وسلم - يرشد إلى أنه ينبغى التباعد عن محل التهم ، فما يفعله بعض من ادعى التصوف من مخالطة النساء . . ويقولون : لا بأس علينا ، ولا يظن بنا أحد سوءاً - من الجهل : إذ كان رسول الله المعصوم صلى الله عليه وسلم - أولى بذلك ، ومعنى الحديث أن وسوسة الشيطان تجرى من ابن آدم جرياً كجريان الدم .

١٧ – الترغيب فى الإصلاح بين الناس

الحمدُ لله : أمرَ المؤمنينَ بالإصلاحِ بينَ المتخاصمينَ منهُم – لعزّتِهم، وطيبِ حياتِهم – بائتلافِهم، وقالَ : « فاتقُوا اللهَ وأصلحوا ذاتَ بينِكُم، وأطيعُوا اللهَ ورسولَهُ إنْ كنتمْ مؤمنينَ ».

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ : نَهى عَنِ التنازُعِ والاختلافِ . وقالَ : « ولا تنازعُوا فتفشَلوا وتذهبَ ريحُكم واصبرُوا إنَّ اللهَ مَعَ الصابرينَ ».

وأشهدُ أنّ سيّدَنا محمّدًا رسولُ اللهُ : كانَ يُسارعُ في الإصلاحِ بينَ المتخاصمينَ، ويَسْبقُ لهُ : أُخبرَ صلى اللهُ عليه وسلم أنَّ أهلَ قُباء – ضاحيةٍ منْ ضواحي المدينةِ المنورةِ – اقتتَلُوا حتّى تَرامَوْا بالحجارةِ، فقال : « اذهبُوا بِنَا نُصْلِحْ بينَهُمْ »[1].

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ على سيّدِنا محمّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أهلِ الصّلاحِ والإصلاحِ والسّعدِ والعزِّ والفلاحِ، وعلى مَنْ بِهِمُ اقتدَى .

أمَّا بعدُ : فيا عبادَ الله :

قالَ أنسُ بنُ مالكٍ رضى اللهُ عنه : بيْنَا رسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وسلم جالسٌ : بينَ أصحابِهِ – إذْ رأيناهُ ضحِكَ حتّى بدَتْ ثناياهُ، فقالَ لهُ عمرُ : ما أضحكَكَ يا رسولَ اللهِ بأبي أنتَ وأمّي ؟ قالَ : رجلانِ منْ أمّتي جثَيَا

(١) رواه البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد رضى الله عنه .

ـ بَرَكَا عَلَى رُكْبَتَيْهِمَا ـ بَيْنَ يَدَىْ رَبِّ العِزَّةِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا : يَا رَبِّ : خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي . فَقَالَ اللهُ : كَيْفَ تَصْنَعُ بِأَخِيكَ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ ؟ قَالَ : يَا رَبِّ ، فَلْيَحْمِلْ مِنْ أَوْزَارِي ، وَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ـ بِالْبُكَاءِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ ، فَقَالَ اللهُ لِلطَّالِبِ ـ ارْفَعْ بَصَرَكَ فَانْظُرْ ، فَرَفَعَ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ . أَرَى مَدَائِنَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَقُصُوراً مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ ، لِأَيِّ نَبِيٍّ هَـذَا ، أَوْ لِأَيِّ صِدِّيقٍ هَـذَا ، أَوْ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا ؟ قَالَ لِمَنْ أَعْطَى الثَّمَنَ . قَالَ : يَا رَبِّ ، وَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : أَنْتَ تَمْلِكُهُ . قَالَ : بِمَاذَا ؟ قَالَ : بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ . قَالَ : يَا رَبِّ ، فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ . قَالَ : فَخُذْ بِيَدِ أَخِيكَ ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عِنْدَ ذَلِكَ : اتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللهَ يُصْلِحُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ »[1] .

وَيَا قَوْمِ : إِنَّ عَمَلاً يَمْدَحُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِنَفْسِهِ ، وَيَصِفُ أَثَرَهُ بِقَوْلِهِ : « وَالصُّلْحُ خَيْرٌ » ـ لَا يَشُكُّ عَاقِلٌ فِي عَظَمَتِهِ .

وَلِلاهْتِمَامِ بِذَلِكَ الْعَمَلِ : لِأَهَمِّيَّتِهِ ، وَعَظِيمِ فَائِدَتِهِ ـ كَثُرَتْ أَوَامِرُ اللهِ بِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ ، وَحَسْبُنَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي .

بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ») ولقد لبى سلفنا الصالح أمر الله تعالى بالإصلاح بين المتخاصمين ، مقتدين بالرسول صلى الله عليه وسلم ، رجل الإصلاح الأعظم ، فما كان يطول بينهم خصام ، واشتهر بينهم أن التقاطع من السيئات الجسام ، وعرفوا بالوفاق والوئام ، فتوحدت كلمتهم ، وقويت شوكتهم ، وارتفع قدرهم ، بين من والاهم ومن عاداهم ، واندفعوا أبطالاً يفتحون الأقطار ـ بنور القرآن ، وتعاليم الإسلام ، ونصب أعينهم قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

ولقد وقى الله المسلمين شر اليهود والنصارى ـ بالضعف ، بوقوع العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة : قال تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين » .

وقال سبحانه : « ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » .

فلاشَكَّ أنَّ الاتحادَ قوَّةٌ ، والتفرُّقَ ضعفٌ ، ولذلكَ عُنِيَ الإسلامُ بالدعوةِ إلى مقوِّماتِ الاتحادِ ، فقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهِمْ ، وتراحُمِهِمْ ، وتعاطفِهِمْ ـ مَثَلُ الجسدِ إذا اشتكَى منهُ عضوٌ تداعَى لهُ سائرُ الجسدِ بالسهرِ والحُمَّى »(١) .

كذلكَ عُنِيَ الإسلامُ بالتحذيرِ مِنْ أسبابِ التفرُّقِ ، قالَ صلى الله عليه وسلم : « لاَ تحاسَدُوا ، ولاَ تناجَشُوا ـ أيْ لاَ يَزِدْ بعضُكم في ثمنِ السلعةِ ليغرَّ غيرَهُ ، ويثيرَ رغبتَهُ في مشترَاهَا ـ ولاَ تباغَضُوا ، ولاَ تدابَرُوا ـ أيْ لاَ تتقاطَعُوا ، ولاَ يبِعْ بعضُكم علَى بيعِ بعضٍ ، وكونُوا عبادَ اللهِ إخوانًا المسلمُ أخُو المسلمِ ، لاَ يظلِمُهُ ، ولاَ يخذُلُهُ ، ولاَ يكذِبُهُ ، ولاَ يحقِرُهُ ، التقوَى هاهُنَا ، ويشيرُ إلَى صدرِهِ ثلاثَ مرَّاتٍ ، بحسْبِ امرِىءٍ مِنَ الشرِّ أنْ يحقِرَ أخاهُ المسلمَ ، كلُّ المسلمِ علَى المسلمِ حرَامٌ : دمُهُ ، ومالُهُ ، وعِرضُهُ »(٢) .

ويا أمَّةَ الإسلامِ . أيتُهَا الأمَّةُ الواحدةُ : « إنَّ هذهِ أمتُكُمْ أمَّةً واحدةً » .. [وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ] وإنَّ أباكُمْ واحدٌ : آدمُ عليهِ السلامُ . وإنَّ عنصرَكُمْ واحدٌ : هُوَ الترابُ : « هُوَ الَّذِي خلقَكُمْ مِنْ ترابٍ » : منهُ بدؤُكُمْ وإليهِ نهايتُكُمْ ، فلماذَا ترضَوْنَ الاختلافَ بينَكُمْ ، وهكذَا وحَّدَ اللهُ أمرَكُمْ ولقدْ قدَّرَ سبحانَهُ ضعفَكُمْ

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير رضى الله عنه .
(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنهما .

أمامَ أعدائكم: الشيطانِ وأعوانِه، دُعاةِ تفرّقكم، فقال صلى اللهُ عليه وسلم: « لا يَحِلُّ لمسلمٍ أن يهجرَ أخاهُ فوقَ ثلاثِ ليالٍ: يلتقيانِ فيُعرضُ هذا ويُعرضُ هذا وخيرُهما الذي يبدأُ بالسلامِ »[1].

وإنما أُبيحَ الهجرانُ مدةَ ثلاثِ ليالٍ: ليقدِّمَ المسلمُ، ويُراجعَ نفسَه فيها، ويُقبلَ على مصافحةِ أخيه، قبلَ أن يستفحلَ الخصامُ، ويمتدَّ من الأفرادِ إلى الجماعاتِ، ويتطايرَ شررُه، وتبقى النفوسُ مفعمةً بالأذى وحبِّ الانتقامِ، ويتوارثَ ذلك الأبناءُ عن الآباءِ، فيكونَ من سوءِ أثرِ ذلك، وسيِّءِ عاقبتِه - ما لا يعلمُ مداهُ إلا اللهُ، الذي أمرَ بالصلحِ، ورغَّبَ فيه، فقال: « فمن عفا وأصلحَ فأجرُه على اللهِ ».

وقد استثنى سبحانَه من مؤامراتِ الناسِ، وجلساتِ مؤتمراتِهم المغلقةِ، والإسرارِ في تدبيرِهم - أعمالاً من الخيرِ، منها الإصلاحُ بين الناسِ فقال: « لا خيرَ في كثيرٍ من نجواهم إلا من أمرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين الناسِ، ومن يفعلْ ذلك ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ».

وبلغَ من عنايةِ الإسلامِ بالإصلاحِ بين الناسِ أن جعلَ لمن غرمَ مالاً في سبيلِ الصلحِ بين المتخاصمين - حقاً في الزكاةِ المفروضةِ، وأباحَ الكذبَ - لتحقيقِ الصلحِ بين المتخاصمين: كأن يُقالَ لكلٍّ من

---

(١) رواه مالك والبخارى ومسلم والترمذى وأبو داود عن أبى أيوب رضى الله عنه.

الْخَصْمَيْنِ عَنِ الآخَرِ : إِنَّهُ يُثْنِي عَلَيْهِ ، قال صلى اللهُ عليه وسلم : « لَيْسَ بِالْكَاذِبِ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ ، فَقَالَ خَيْراً أَوْ نَمَى خَيْراً »[1] أَيْ بَلَّغَ خَيْراً عَلَى وَجْهِ الإِصْلَاحِ .

وَقَدْ دَعَانَا صلى اللهُ عليه وسلم إِلَى أَعْمَالٍ من الْخَيْرِ : مِنْهَا الإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ : شُكْراً لِلَّهِ عَلَى سَلَامَةِ أَعْضَائِنَا ، فَقَالَ : « كُلُّ سُلَامَى - أَيْ كُلُّ عُضْوٍ - مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ ، أَيْ[2] تُصْلِحُ بَيْنَ مُتَخَاصِمَيْنِ - صَدَقَةٌ ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ - فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ ، وَبِكُلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ ، وَتُمِيطُ - أَيْ تُزِيلُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ »[3] .

وَقَدْ عُنِيَ الإِسْلَامُ بِالصُّلْحِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ : لِأَنَّهُمَا أَسَاسُ الأُسْرَةِ ، الَّتِي هِيَ أَسَاسُ الْمُجْتَمَعِ : قال تعالى : « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً » .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

إِنَّ دِينَكُمُ الْحَنِيفَ ، دِينَ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ ، وَحُسْنِ الْعَاقِبَةِ - يَحْرِصُ

---

(١) رواه أبو داود عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها .

(٢) فالعدل بين الاثنين المتحاكين أو المتخاصمين أو المتهاجرين من أعظم الصدقات .

(٣) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

عَلَى الصُّلحِ بينَ النَّاسِ كلَّ الحِرْصِ ، فليسَ من الإسْلاَمِ في شيْء استمرارُ الهَجْرِ وَالقَطِيعَةِ ، وَعِنَايَةُ كلِّ فَرْدٍ بِشَأْنِهِ وَحْدَهُ ، حَتَّى كَانَتِ الخيبَةُ ، وَكَانَ الذُّلُّ : لِسَخَطِ اللهِ : مِنْ أَجْلِ الاخْتِلاَفِ على مَتَاعِ الدُّنْيَا القَلِيلِ الفَانِي ، الَّذِي لاَ يَجِدُ مِنْهُ المَرْء بَعْدُ إلاَّ حِسَابَ اللهِ عَلَيْهِ ، قالَ جَلَّ شَأْنُهُ : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَاخَوَّلنَاكُمْ ـ أيْ ما أَعْطَيْنَاكُمْ ـ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ » :

فالمؤْمِنُ المنْتَبِهُ لمنْفَعَتِهِ ـ يُصْلِحُ بينَ المتَخَاصِمَينَ ، وَلاَ يُخَاصِمُ ؛ وَلاَ يَتَقَاتَلُ ، وَتَهُونُ في عَيْنِهِ الدُّنْيَا فِي جَانِبِ مَا عِنْدَ اللهِ مِنْ خَيرٍ بَاقٍ لاَ نِهَايَةَ لَهُ ، حَتَّى يَأْتِيَ اللهَ ـ وَكلُّ آتٍ قَرِيبٌ ـ وَسَعَادَتُهُ وَعِزَّتُهُ مُحَقَّقَتَانِ « يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » ، نَقِيٍّ من الحِقْدِ وَالحَسَدِ وَالغِلِّ وَالبَغْضَاء وَحُبِّ الإِيذَاء . . وَقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ أَصْلحَ بَيْنَ النَّاسِ أَصْلحَ اللهُ تَعالَى أَمْرَهُ وَأَعطَاهُ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا عِتْقَ رَقَبَةٍ ، وَرَجَعَ مَغْفُوراً لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[1] ، وَرَحِمَ اللهُ مَنْ قَالَ :

إِنَّ الفَضَائِلَ كُلَّهَا لَوْ جُمِّعَتْ   رَجَعَتْ بِأَجْمَعِهَا إِلَى شَيْئَيْنِ

تَعْظِيمُ أَمْرِ اللهِ جَلَّ جَلاَلُهُ   وَالسَّعْيُ فِي إِصْلاَحِ ذَاتِ البَيْنِ

فَيَا عِبَادَ اللهِ :

تَطِيبُ الحَيَاةُ ، وَيَصْفُو العَيْشُ بِالصُّلحِ وَنَبْذِ الخِصَامِ ، حَيْثُ تَحْسُنُ الأُخُوَّةُ وَالصُّحْبَةُ وَتُحْفَظُ الأَمْوَالُ وَيَتَحَقَّقُ السَّلاَمُ :

---

(١) رواه الاصبهانى عن أنس بن مالك : رضى الله عنه . . . .

وَلَيْسَ كَثِيراً أَلْفُ خِلٍّ وَصَاحِبٍ ... وَإِنَّ عَدُوًّا وَاحِداً لَكَثِيرُ

أَلاَ وَإِنَّ الإِصْلاَحَ بَيْنَ النَّاسِ من أفضلِ القُرُبَاتِ : قال صلى اللهُ عليه وسلم : « مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ شَيْئاً أَفْضَلَ مِنَ الصَّلاَةِ وَإِصْلاَحِ ذَاتِ البَيْنِ وَخُلُقٍ حَسَنٍ »[1] ، وَرَفَعَ صلى اللهُ عليه وسلم قَدْرَ الإِصْلاَحِ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى نَوَافِلِ الصَّلاَةِ ، وَهِيَ عِمَادُ الدِّينِ ، وَعَلَى تَطَوُّعِ الصَّوْمِ وَهُوَ مُهَذِّبُ النُّفُوسِ وَالأَرْوَاحِ ، وَعَلَى الصَّدَقَةِ ، وَهِيَ مَظْهَرُ الرَّحْمَةِ ، وَإِنَّهَا لَعَاطِفَةٌ كَرِيمَةٌ ، وَأَعْلَنَ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّ التَّفْرِيقَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ - يَمْحُو الدِّينَ مِنَ القُلُوبِ وَيُزِيلُ الإِيمَانَ مِنَ الصُّدُورِ قال صلى اللهُ عليه وسلم : « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ قالوا : بلى ، قال : إِصْلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ ، لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ »[2] ، فَاتَّقُوا اللهَ ، وَأَصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ، وَارْغَبُوا فِي الصُّلْحِ بَيْنَكُمْ ، وَاحْذَرُوا الإِفْسَادَ بَيْنَ المُتَحَابِّينَ : « وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً » .

قالَ صلى اللهُ عليه وسلم لأبي أيُّوبَ : « أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى تِجَارَةٍ ، قَالَ : بَلَى ، قَالَ : صِلْ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا ، وَقَرِّبْ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا » رواه البَزَّارُ عن أَنَسٍ رضى الله عنه .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم : « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ - إِصْلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ » - رواه الطَّبَرَانِيُّ وَالبَزَّارُ ، عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضى اللهُ عنهما .

---

(١) رواه البخارى فى التاريخ والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) رواه الترمذى وغيره عن أبى الدرداء رضى الله عنه .

١٨ — التحذير من المراء والجدال

الحَمْدُ لِلَّهِ : الَّذِي يُحِبُّ السَّلَامَ[١] وَالوِئَامَ[٢] . وكَانَ الرَّسُولُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْصَرِفَ مِنْ صَلَاتِهِ ـ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ ، وَمِنْكَ السَّلَامُ ، تَبَارَكْتَ يَاذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ »[٣] .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ : يَكْرَهُ الجَدَلَ وَالخِصَامَ ، وَقَالَ : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ[٤] الخِصَامِ » .

وَفِي الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ : « إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ[٥] الخَصِمُ[٦] »[٧] .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ : خَيْرُ مَنْ دَعَا إِلَى خِصَالِ الخَيْرِ ، وَحَذَّرَ مِنْ خِصَالِ الشَّرِّ ، وَقَالَ : « ذَرُوا المِرَاءَ فَإِنَّهُ لَا تُؤْمَنُ فِتْنَتُهُ »[٨] .

---

(١) السلامة . (٢) الموافقة .

(٣) رواه مسلم في صحيحه عن ثوبان .. رضي الله عنه .

(٤) شديد العداوة والجدال للمسلمين . والخصام : المخاصمة . ويجوز أن يكون جمع خصم : كصعب وصعاب بمعنى أشد الخصوم خصومة .

(٥) الشديد الخصومة :

(٦) الذي يحج من يخاصمه .

(٧) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها .

(٨) الطبراني عن أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الاسقع رضي الله عنهم .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، الَّذِينَ صَانُوا أَلْسِنَتَهُمْ عَنِ الجِدَالِ، وَكَانُوا صُرَحَاءَ وَاضِحِينَ فِي المَقَالِ: لِأَنَّ هَدَفَهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِنَّمَا كَانَ إِرْضَاءَ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ، الَّذِي يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: ومَا لَنَا: لَا نَرْضَى يَا رَبَّنَا، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[1].

أَمَّا بَعْدُ فَيَا عِبَادَ اللهِ:

دَاوُدُ الطَّائِيُّ، أَحَدُ كِبَارِ الصَّالِحِينَ فِي القَرْنِ الثَّانِي الهِجْرِيِّ - رَآهُ الإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ - قَدْ آثَرَ الانْزِوَاءَ عَنِ النَّاسِ، فَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ: لِأُجَاهِدَ نَفْسِي بِتَرْكِ الجِدَالِ، وَالوَاقِعُ أَنَّ انْزِوَاءَهُ عَنِ النَّاسِ فِيهِ تَرْكُ الجِدَالِ، وَالسَّلَامَةُ مِنْ شَرِّهِ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِيهِ مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ بِذَلِكَ، حَيْثُ الثَّوَابُ الجَزِيلُ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ لَهُ: لِيَكْسِبَ هَذَا الثَّوَابَ: احْضُرِ المَجَالِسَ، وَاسْتَمِعْ مَا يُقَالُ، وَلَا تَتَكَلَّمْ مُجَادِلًا، فَفَعَلَ دَاوُدُ، فَمَا رَأَى مُجَاهَدَةً أَشَدَّ عَلَى نَفْسِهِ مِنْهَا، وَلَا عَجَبَ: فَإِنَّ مَنْ سَمِعَ الخَطَأَ مِنْ غَيْرِهِ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى كَشْفِهِ وَتَصْحِيحِهِ - تَعَسَّرَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة ... الخ».

عِنْدَ ذَلِكَ جِدًّا ، وَلِذَلِكَ كَانَ صَبْرُهُ أَعْظَمَ أَجْرًا ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ : قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ - بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ - مَاحَوْلَهَا - وَمَنْ تَرَكَهُ وَهُوَ مُحِقٌّ - بُنِيَ لَهُ فِي وَسَطِهَا . وَمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ بُنِيَ لَهُ فِي أَعْلَاهَا »[1] ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَادِلٌ فِي جَزَائِهِ : فَإِنَّ الْمِرَاءَ وَالِاعْتِرَاضَ[2] عَلَى كَلَامِ الْغَيْرِ ، وَالطَّعْنَ فِيهِ ، وَالْجَدَلَ مَعَهُ ، وَتَزْيِيفَ رَأْيِهِ وَجِدَالَهُ ، وَقَصْدَ إِفْحَامِهِ ، وَتَعْجِيزِهِ ، وَتَنْقِيصِهِ ، وَتَجْهِيلِهِ : كُلُّ ذَلِكَ - إِثْمٌ فَظِيعٌ ، وَجُرْمٌ شَنِيعٌ : يُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَحِبَّاءِ ، وَيَغْرِسُ فِي الْقُلُوبِ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ، وَالْحَيَاةُ لَا تَطِيبُ إِلَّا بِالْوِفَاقِ وَالصَّفَاءِ .

وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُنَا صلى اللهُ عليه وسلم : « مَاضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ »[3] ، وَذَلِكَ يَاقَوْمِ مُشَاهَدٌ ، فَمَا كَانَ الْجَدَلُ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَفْسَدَهُ : إِذْ غَايَةُ ذَوِيهِ - حُبُّ انْتِصَارِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ، لَا إِظْهَارِ الْحَقِّ ، فَهُوَ غَيْرُ الْبَحْثِ النَّزِيهِ ، الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى الِاسْتِدْلَالِ الْمُوَفَّقِ ، وَيَكُونُ الْكَلَامُ بِهِ لَطِيفًا لَيِّنًا مُهَذَّبًا ، وَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ - فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ »[4]

---

(١) رواه الترمذى عن أبى أمامة رضى الله عنه .

(٢) وذلك بإظهار خلل فى اللفظ أو فى معناه أو فى قصد المتكلم به : كأن يقول له : أنت فيه صاحب غرض . وليس قصدك منه الحق .

(٣) رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٤) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

فَلْيَنْتَبِهْ لِذَلِكَ الْحَقِّ ، وَلا يُجَادِلْ ـ حَتَّى لاَ يَقُولَ شَرًّا ، وَلاَ يَنْطِقَ سَيِّئًا ـ مَنْ أُوتِيَ بَسْطَةً فِي لِسَانِهِ ، وَقُوَّةً فِي بَيَانِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْ كَلاَمِهِ وَمَجْزِيٌّ عَنْهُ : قَالَ سُبْحَانَهُ : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »(١) .

وَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ : يَارَسُولَ اللهِ . مَا النَّجَاةُ ؟ قَالَ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ »(٢) .

وقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ صَمَتَ نَجَا »(٣) .

وَإِنَّ الْجِدَالَ يَحْرِمُ صَاحِبَهُ الْكَلاَمَ الطَّيِّبَ ، الَّذِي يُعْلِي الْقَدْرَ وَيُنْجِي مِنَ النَّارِ ، وَيَكْسِبُ رِضْوَانَ اللهِ ، وَنَعِيمَهُ الْمُقِيمَ : قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « يُوجِبُ الْجَنَّةَ إِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَحُسْنُ الْكَلاَمِ »(٤) ، وَقَالَ : « الْكَلِمَةُ

---

(١) عتيد : حاضر .

(٢) رواه أبو داود الترمذى وغيرهما .

(٣) رواه الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما ـ وروى عن أبى الدرداء وأبى أمامة وواثلة بن الأسقع وأنس بن مالك رضى الله عنهم قالوا : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ونحن نتمارى فى شىء من أمر الدين . فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله . ثم انتهرنا فقال : « مهلا ياأمة محمد إنما هلك من كان قبلكم بهذا ذروا المراء لقلة خيره . ذروا المراء فإن المؤمن لايمارى . ذروا المراء فإن الممارى قد تمت خسارته ذروا المراء ، فكفى إثماً ألا تزال ممارياً . ذروا المراء فإن الممارى لا أشفع له يوم القيامة ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات فى الجنة فى رباضها ووسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق . ذروا المراء فإن أول مانهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان ـ المراء رواه الطبرانى فى الكبير .

(٤) رواه الطبرانى عن هانىء أبى شريح رضى الله عنه .

الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ »[1] وقال : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ »[2] ألاَ وَإِنَّ المُجَادِلَ ـ لاَ يَعْرِفُ لِعُمْرِهِ قِيمَةً ، إِذْ يُضَيِّعُ أَوْقَاتَهُ فِيمَا لاَ فَائِدَةَ فِيهِ ، بَلْ فِيمَا يَضُرُّهُ وَهُوَ مَسْئُولٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ . فَمَا أَضَلَّهُ ، وَمَا أَشَدَّ غَفْلَتَهُ . يُمَارِي فِي كُلِّ شَيْءٍ كَأَنَّهُ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ :

ما حَوَى العِلْمَ جَمِيعًا أَحَدٌ لاَ وَلَوْ مَارَسَهُ أَلْفَ سَنَةْ

ويُجَادِلُ ـ غَافِلاً عَنْ هَذِهِ الحَقِيقَةِ ـ العَالِمَ فِي عِلْمِهِ ، وَالقَاضِيَ فِي حُكْمِهِ والطَّبِيبَ فِي طِبِّهِ ، والمهَنْدِسَ فِي فَنِّهِ ، والتَّاجِرَ فِي تِجَارَتِهِ ، والزَّارِعَ فِي زِرَاعَتِهِ ، والصَّانِعَ فِي صِنَاعَتِهِ ، وَالمَرْأَةَ فِي خَصَائِصِهَا ، وَقَدْ جَعَلَ عَقْلَهُ وَرَاءَ لِسَانِهِ ، فَهُوَ يَقُولُ بِلاَ تَفْكِيرٍ ، وَيَنْطِقُ بِغَيْرِ تَقْدِيرٍ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (وكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً) ، فَالعَاقِلُ لا يُوَافِقُ نَفْسَهُ فِيمَا تَهْوَى مِنَ الجَدَلِ ، ويَقْتَدِي بِابْنِ أَبِي لَيْلَى ، أَحَدِ أَئِمَّةِ الإِسْلامِ حَيْثُ قَالَ : لا أُمَارِي صَاحِبِي ، فَإِمَّا أَنْ أُكَذِّبَهُ ، وإِمَّا أَنْ أُغْضِبَهُ .

وَلْنَنْتَبِهْ : يَبْعَثُ عَلَى الجَدَلِ ـ الكِبْرُ والغُرُورُ ، بِإِظْهَارِ نَقْصِ الغَيْرِ ، والتَّرَفُّعِ عَلَيْهِ بِالعِلْمِ والفَضْلِ ، والمُبَاهَاةِ بِذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ ، حِرْصًا عَلَى تَقْدِيرِهِمْ ، الذِي لا قِيمَةَ لَهُ فِي جَانِبِ تَقْدِيرِ اللهِ . الذِي كُلُّ الخَيْرِ فِيهِ .

وَقَدْ قَالَ صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَعَلَّمُوا العِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ العُلَمَاءَ ، أَوْ

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم رضي الله عنه .

لِيُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ لِيَصْرِفُوا وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي النَّارِ »[1] ، وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : لَيْسَ هَذَا الْجِدَالُ مِنَ الدِّينِ فِي شَيْءٍ ، وَقَالَ : الْمِرَاءُ يُقَسِّي الْقُلُوبَ وَيُورِثُ الضَّغَائِنَ ، وَفِي ذَلِكَ - يَاقَوْمِ - سَيِّءُ الْعَوَاقِبِ : تُجَادِلُ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا ، وَيَشْتَدُّ الْجَدَلُ بَيْنَهُمَا ، وَيَلْعَبُ الشَّيْطَانُ دَوْرَهُ ، فَيَنْتَهِي الْأَمْرُ بِالطَّلَاقِ ، وَقَدْ يَكُونُ الطَّلَاقَ الْأَخِيرَ ، فَتَتَشَرَّدُ الْأَوْلَادُ ، وَيَنْدَمُ الزَّوْجَانِ ، حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ وَيَفْرَحُ إِبْلِيسُ ، وَيَرْتَفِعُ عِنْدَهُ قَدْرُ الشَّيْطَانِ ، الَّذِي أَشْعَلَ نَارَ الْجَدَلِ بَيْنَهُمَا ، حَتَّى تَفَرَّقَا : قَالَ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ[2] عَلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ[3] فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً - أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً : يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ : فَعَلْتُ : كَذَا وَكَذَا .. فَيَقُولُ : مَاصَنَعْتَ شَيْئًا ، ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ ، فَيَقُولُ : مَاتَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ ، فَيُدْنِيهِ مِنْهُ ، فَيَقُولُ : نَعَمْ أَنْتَ »[4] ، وَيَشْتَدُّ الْجَدَلُ بَيْنَ الرَّئِيسِ وَبَيْنَ الْمَرْءُوسِ ،

---

(١) رواه ابن ماجه عن حذيفة رضى الله عنه .

(٢) أى سريره وفيه إشارة إلى بعده عن أماكن إقامة الإنس الذين يرجمونه بالحوقلة : « لاحول ولا قوة إلا بالله » ، ويتحصنون منه بالاستعاذة « طلب العوذ منه » . « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

(٣) جمع سرية وهى قطعة من الجيش .

(٤) رواه مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، ونعم : حرف إيجاب ، وأنت : مبتدأ خبره محذوف أى أنت صنعت شيئاً عظيما ، وإنما رضى اللعين هذا الرضا عمن فرق بين المرء وبين زوجه : لأن فيه فساداً كثيراً : من انقطاع النسل والوقوع فى الزنا وما إلى ذلك .

فَيَضْعُفُ إِنْتَاجُ الْعَمَلِ ، وَلاَ يَدْرِى إِلاَّ اللهُ مَدَى مَايُشْعِلُهُ الْجَدَلُ مِنْ نَارِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُمَا ، وَيَنْشَأُ الْجَدَلُ بينَ الْبَائِعِ وَبينَ الْمُشْتَرِى بِسَبَبٍ تَافِهٍ يَتَعَلَّقُ بِالسِّلْعَةِ أَوْ بِفَرْقٍ بَسِيطٍ فى تَقْدِيرِ الثَّمَنِ ، فَيُؤَدِّى إِلَى السِّبَابِ وَالطَّعْنِ ، وَرُبَّمَا أَدَّى إِلَى السِّجْنِ ، وَقَدْ يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ضَحِيَّةَ هَذَا الْجَدَلِ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، وَيُجَادِلُ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الإِسْلامِ فَيَقُولُ : إِنِّى مُجْتَنِبٌ لِلْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، اللَّذَيْنِ تثمرُ الصَّلاةُ تَرْكَهُمَا ، فَلاَ دَاعِىَ إِلَى أَنْ أُصَلِّىَ ، أَوْ يَقُولُ : أَنَا خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُصَلِّينَ لِاسْتِقَامَتِى وَاعْوِجَاجِهِمْ ، وَيُجَادِلُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ كَثِيراً من النَّاسِ يُصَلُّونَ ، وَلاَ يَنْتَهُونَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، فَكَيْفَ يَتَّفِقُ هَذَا وَقَوْلُهُ تعالى : « إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » . فَلْيَنْتَبِهْ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ غَفْلَتِهِمْ ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ الصَّلاَةَ الَّتِى تُورِثُ النَّفْسَ خَشْيَةً مِنَ اللهِ — هِىَ الَّتِى تُثْمِرُ اجْتِنَابَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، الَّذِى مِنْهُ تَرْكُ الصَّلاَةِ : قَالَ تَعَالَى : حَدِيثاً[1] قُدْسِياً : « إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلاَةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمَتِى ، وَلَمْ يَسْتَطِلْ عَلَى خَلْقِى وَلَمْ يَبِتْ مُصِراً عَلَى مَعْصِيَتِى وَقَطَعَ النَّهَارَ فِى ذِكْرِى وَرَحِمَ الْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالأَرْمَلَةَ وَرَحِمَ الْمُصَابَ ، ذَلِكَ نُورُهُ كَنُورِ الشَّمْسِ ، أَكْلَؤُهُ بِعِزَّتِى وَأَسْتَحْفِظُهُ مَلاَئِكَتِى أَجْعَلُ لَهُ فِى الظُّلْمَةِ

---

(١) الحديث القدسى : هو ماأخبر الله تعالى به نبيه بإلهام أو منام فأخبر الرسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك المعنى بعبارة من نفسه ، ونسبه إليه تعالى .

فُتُوراً وَفِى الْجَهَالَةِ حِلْماً وَمَثَلُهُ فِى خَلْقِى كَمَثَلِ الْفِرْدَوْسِ فِى الْجَنَّةِ »[١] .

وَرُوِىَ أَنَّ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ يُصَلِّى مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم الصَّلَوَاتِ ، وَلاَ يَدَعُ شَيْئاً مِنَ الفَوَاحِشِ إِلاَّ ارْتَكَبَهُ ، فَوُصِفَ لَهُ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ : إِنَّ صَلاَتَهُ سَتَنْهَاهُ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَابَ ، وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يُجَادِلُ فِى حُرْمَةِ الْحَشِيش ، وَقَدْ قَالَتِ السَّيِّدَةُ أُمُّ سَلَمَةَ زَوْجُ النَّبِىِّ صلى اللهُ عليه وسلم : « نَهَى رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرٍ »[٢] وَالْمُفَتِّرُ هُوَ الَّذِى يُورِثُ الأَعْضَاءَ فُتُوراً وَضَعْفاً ، وَلاَشَكَّ أَنَّ الْحَشِيشَ كَذَلِكَ ، وَلاَ جِدَالَ فِى أَنَّ عَذَابَ[٣] الْقَبْرِ حَقٌّ كَنَعِيمِهِ ، وَمِنَ الأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الْمُشْتَهِرَةِ : « الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ »[٤] وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ[٥] وَالْعَشِىِّ : إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ

---

(١) رواه البزار عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل .

(٢) رواه أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه بسند صحيح .

(٣) ويدل لعذاب القبر قوله تعالى : « وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » .

(٤) رواه الترمذى عن أبى سعيد رضى الله عنه ، ورواه الطبرانى عن أبى سعيد ، وعن أبى هريرة : رضى الله عنهما ـ بسند ضعيف . ولكن حجة الموضوع فى الحديث الصحيح بعده وذكر هذا الحديث هنا : لاشتهاره فقط .

(٥) بالصباح المساء .

كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ ، يُقَالُ : هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1] .

وَتَعَالِيمُ دِينِنَا - يَاقَوْمِ - وَاضِحَةٌ ، وَمَرْجِعُنَا فِيهَا رَسُولُ اللهِ ، وَأَصْحَابُهُ الأَئِمَّةُ الْهُدَاةُ : قَالَ صَلَوَاتُ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ : « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي ثَلاَثًا وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً . قِيلَ : وَمَنْ هُمْ ؟ قَالَ : الَّذِينَ هُمْ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي »[2] ، وَلَيْسَ بَعْدَ هَذَا الإِرْشَادِ الْمُحَمَّدِيِّ لِمَعْرِفَةِ أُمُورِ الدِّينِ سِوَى تَحْصِيلِهَا ، مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، عَلَى أَيْدِي الْعُلَمَاءِ بِهِمَا ، وَالْعَمَلِ بِهَا وَالاقْتِدَاءِ بِهِ صلى الله عليه وسلم : كَأَصْحَابِهِ الْغُرِّ[3] الْمَيَامِينَ ، وَمُخَالَفَةِ سَائِرِ الْفِرَقِ ، وَالآرَاءِ الْمُخَالِفَةِ لِهَذَا الْحَقِّ الْمُبِينِ ، وَلاَ مَحَلَّ - بَعْدَ ذَلِكَ - لِلْجِدَالِ فِي الدِّينِ : « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ » .

أيها المسلمون :

لَقَدْ أَرْشَدَنَا الإِسْلاَمُ إِلَى تَرْكِ الْجِدَالِ وَإِذَا اضْطُرِرْنَا إِلَيْهِ - فَلْيَكُنْ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، وَالأُسْلُوبِ الْعَفِّ الْمُنَزَّهِ عَنِ السِّبَابِ وَالطَّعْنِ الْمُبَيَّنِ فِي رِفْقٍ وَلِينٍ قَالَ تَعَالَى : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم ، ورواه غيره وفي بعض رواياته افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى كذلك وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة : كلها في النار إلا واحدة ، هي التي على ما أنا عليه وأصحابي .

(٣) الغر : السادة . الميامين : المباركين .

الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ».

ولتأدب المسلمين بقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن .. » ـ لمّا قال بعض النصارى لبعض المسلمين : كيف كان وجه عائشة زوج نبيكم ، بعد ما قيل فيها مع صفوان ما قيل[1] ـ قال ذلك المسلم : كان كوجه مريم حين قدمت تحمل عيسى بعد ولادته من غير أب ، فكلتاهما طاهرتان.

أيها المسلمون :

قال صلى الله عليه وسلم : « رحم الله عبداً قال خيراً فغنم ، أو سكت عن سوء فسلم »[2] ، فاتقوا الله ، وخاطبوا الناس على قدر عقولهم ، وقولوا لهم حسناً ، ولتكن محادثاتكم خيراً واضحا ، وأغلقوا باب الجدل بينكم ، حرصاً على رضا الله وتصافيكم ، واسألوا العلماء عما ينفعكم في دنياكم وأخراكم ، ولا تجادلوهم ، فقد قال لقمان لابنه وهو يعظه : « يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك »[3] « واعلموا أن الله سميع عليم ».

(١) حديث الإفك ، وبراءة عائشة منه ـ مشهور صحيح وآياته بسورة النور ـ بينات .

(٢) رواه ابن المبارك عن خالد بن عمران .. رضى الله عنه مرسلا والمرسل هو ماسقط منه الصحابى ، ويحتج به عند الإمامين ، أبى حنيفة ، ومالك رضى الله عنهما .

(٣) فيبغضوك أشد البغض : الناشىء عن هذا الأمر القبيح ـ الجدال .

قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « لا تُمارِ أخاكَ ، وَلا تُمازِحْهُ ، وَلا تَعِدْهُ مَوْعِداً فَتُخْلِفَهُ » رواه الترمذيُّ عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ جادَلَ فى خُصُومَةٍ[1] بِغَيْرِ عِلْمٍ لَمْ يَزَلْ فى سَخَطِ اللهِ حَتَّى يَنْزِعَ[2] » رواه ابنُ أبى الدُّنيا والأصفهانىُّ فى التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ عن أبى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَنا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فى رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ ، وَبِبَيْتٍ فى وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَهُوَ مازِحٌ ، وَبِبَيْتٍ فى أَعْلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَتْ سَرِيرَتُهُ » رواه الطَّبَرَانِىُّ فى الأَوْسَطِ عن ابنِ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهما .

عَنْ عَلِىِّ بْنِ أَبى طَالِبٍ رَضِىَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم - طَرَقَهُ وَفاطِمَةَ لَيْلاً ، فَقَالَ : أَلاَ تُصَلِّيانِ ؟ فَقُلْتُ : يارَسُولَ اللهِ ،

---

(١) الخصومة : لجاج فى الكلام : ليستوفى به مال أو حق شخصى مقصود والذم يتناول من يخاصم بالباطل ، ومن يخاصم بغير علم ، ومن يمزج بالخصومة كلمات مؤذية لاحاجة إليها فى إظهار الحق وإقامة الحجة ومن يحمله على الخصومة محض العناد ، لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر القدر من المال الذى يخاصم من أجله ، ومن اقتصر على الواجب الضرورى فى خصومته لم يكن آثماً ولا تذم خصومته ، ولكن فاته معها طيب الكلام ، الذى أقل درجاته إظهار الموافقة وهو غير حاصل مع الخصومة . فمن غلب نفسه وتركها مطلقاً فما أعلى مقامه .

(٢) أى يكف عن هذه الخصومة ويقلع عنها .

أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ تَعَالَى ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا ، فَانْصَرَفَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئاً ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ يقولُ ، وَهُوَ مُوَلٍّ ، يَضْرِبُ فَخِذَهُ بِيَدِهِ : (وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)[1] رواه البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ في صَحِيحَيْهِما .

---

(١) فالجدل يتأتى من الإنسان أكثر من غيره ، فليتنبه المسلم لذلك : ليحذره فيسلم من شره .

١٩ — من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه

الحمدُ لِلهِ : هَدَانا — بالإسْلامَ — لإفْناء أعمارِنا فى صالحِ الأعْمالِ والأقْوالِ لِيُصْلحَ غدُنا ، وَنفُوزَ بالمُنى . وَقدْ قالَ رَسُولُنا : « لَنْ تَزُولَ قَدَما عَبْدٍ يَوْمَ القِيامَةِ حَتّى يُسْألَ عَنْ أرْبَعِ خِصَالٍ : عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أفْناهُ ، وَعَنْ شَبابِهِ فِيمَ أبْلاهُ ، وَعَنْ مالِهِ : مِنْ أيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وَفِيمَ أنفقَهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ ماذَا عَمِلَ فِيهِ »[1] .

وَأشْهَدُ أنْ لاَ إِلَهَ إلاّ اللهُ : أعَدَّ لِلذّاهِلِينَ عَنْ غَدِهِمْ الغارِقِينَ فى لَذّاتِ حاضِرِهِم ، التّارِكِينَ لِمَا يُهِمُّهُمْ فى مُسْتَقْبَلِهِمْ — نارًا[2] تَزِيدُ عَلَى نارِ الدُّنْيا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا ، وقالَ جَلَّ شَأْنُهُ : « إِنَّ الَّذِينَ لاَيَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بالحياةِ الدُّنيا وَاطْمَأنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلونَ ، أولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النّارُ بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

---

(١) رواه البزار والطبرانى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه .

(٢) روى البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه . عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ناركم هذه ما يوقد بنو آدم — جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم قالوا : والله إن كانت لكافية . قال : إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً . كلهن مثل حرها » . ورواه أحمد وابن حبان فى صحيحه . والبيهقى ، فزادوا فيه : « وضربت بالبحر مرتين . ولولا ذلك ماجعل الله فيها منفعة لأحد » ، وفى رواية البيهقى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تحسبون أن نار جهنم مثل ناركم هذه : هى أشد سوادا من القار — الزفت .. » . وروى أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم » .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، بَيَّنَ أَنَّ مِنْ عَلَامَاتِ حُسْنِ الإِسْلَامِ وَكَمَالِهِ ، وَالاسْتِسْلَامِ لِتَعَالِيمِهِ ـ تَرْكَ الْمَرْءِ مَا يَعْنِيهِ ، وَاقْتِصَارَهُ عَلَى مَا يَعْنِيهِ ، وَيَشْتَدُّ اهْتِمَامُهُ بِهِ : مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ : شَرْعاً ، لَا وَفْقَ هَوَاهُ : لِخَيْرِ دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ ، فَقَالَ : « مِنْ حُسْنِ إِسْـــلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالَا يَعْنِيهِ »[1] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ عَمِلُوا لِدُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ ، وَتَرَكُوا التَّفَاهَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، وَقَالُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ « وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ » .

أَمَّا بَعْدُ ـ فَيَا عِبَادَ اللهِ :

دَخَلَ لُقْمَانُ : الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ : « وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ » عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَرَآهُ يَصْنَعُ مِنَ الْحَدِيدِ دِرْعاً . لَمْ يَكُنْ رَآهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، فَتَعَجَّبَ مِمَّا رَأَى ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْأَلْ عَنْهُ : حِرْصاً عَلَى تَرْكِ مَالَا يَعْنِيهِ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ : لِخَيْرِ دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ ، فَمَا كَانَ يَعْلَمُ فَائِدَةَ ذَلِكَ ، حَتَّى يَسْأَلَ عَنْهُ ، فَلَمَّا فَرَغَ دَاوُدُ مِنْ عَمَلِ الدِّرْعِ وَلَبِسَهَا ـ قَالَ : نِعْمَ الدِّرْعُ لِلْحَرْبِ . فَقَالَ لُقْمَانُ : الصَّمْتُ[2] حِكْمَةٌ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ ، وَقِيلَ : تَرَدَّدَ إِلَيْهِ سَنَةً : لِأَخْذِ الْعِلْمِ عَنْهُ ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ مَاذَا يَعْمَلُ مِنَ

---

(١) رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) نسبة هذا القول للقمان هو الصحيح ، ورواه البيهقى فى الشعب عن أنس رضى الله عنه عنه صلى الله عليه وسلم ـ بسند ضعيف .

غير سؤاله: حذراً من الدخول فيما لا يعني، وكذلك مرّ رجل به والناس عنده يتلقّون الحكمة: العلم النافع للعمل به، فقال له: يا لقمان، ألست عبد بني فلان؟ قال: بلى... قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، وطول السكوت عمّا لا يعنيني.

أيها المسلم:

إذا عملت عملاً مباحاً لا ضرر عليك فيه، ولا على مسلم: كأن تحدّث أحداً بما أنت مستغنٍ عنه، ولا حاجة بك إليه، فتذكر له - بلا زيادة ولا نقصان، ولا تفاخر، ولا اغتياب لأحد، ولا ذمّ لصنع الله - حادثة وقعت لك، أو نزهة لك بريئة، أو ما استحسنت من طعام أو ثياب، ونحو ذلك من مباحات - لم تكن آثماً، ولكن أنت تضيع وقتاً من عمرك في غير ذكر الله، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس يتحسّر أهل الجنة إلا على ساعة مرّت بهم لم يذكروا الله تعالى فيها»(١).

فمن ترك ذكر الله تعالى، واشتغل بمباح لا يعنيه - فإنه - وإن لم يأثم - قد خسر، حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى، وكان كمن قدر على أن يأخذ قطعة من ذهب، فأخذ حصاة، بدلاً منها، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «احرص على ما ينفعك»(٢)، وقال: «اغتنم

---

(١) رواه الطبراني، والبيهقي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

خمساً قبلَ خمسٍ : حياتَكَ قبلَ موتِكَ ، وصحّتَكَ قبلَ سُقمِكَ ، وفراغَكَ قبلَ شُغلِكَ ، وشبابَكَ قبلَ هرمِكَ ، وغِناكَ قبلَ فقرِكَ »(١) .

وما لا يعني الإنسانَ ، ولا يُهمُّهُ ، ولا يحتاجُ إليهِ : لِخيرِ دُنياهُ وأُخراهُ هُوَ اللغوُ ، الذي مدحَ اللهُ تعالى المؤمنينَ للمُعرضينَ عنهُ ، وحكمَ بِفلاحِهِمْ فقالَ : « قدْ أفلحَ المؤمنونَ ، الذينَ هُمْ في صلاتِهِمْ خاشِعُونَ ، والذينَ هُمْ عنِ اللغوِ مُعرِضُونَ » .

وبِقدرِ تنزُّهِ المسلمَ عنِ اللغوِ ، وتركِهِ ما لا يعنيهِ – يكونُ إعدادُ الجنّةِ لهُ ، ودرجتُهُ عندَ اللهِ ، قالَ أنسُ بنُ مالكٍ : تُوُفّيَ رجلٌ فقالَ رجلٌ آخرُ ، ورسولُ اللهِ يسمعُ : أبشِرْ بالجنّةِ ، فقالَ رسولُ اللهِ : « أوَ لا تدري ؟ فلعلَّهُ تكلّمَ فيما لا يعنيهِ ، أو بَخِلَ بما لا ينقصُهُ »(٢) .

وقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « أوّلُ مَنْ يدخُلُ عليكُمْ رجلٌ مِنْ أهلِ الجنّةِ ، فدخلَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ ، فقامَ إليهِ ناسٌ ، فأخبرُوهُ ، وقالوا لهُ : أخبِرْنا بأوثقِ عملِكَ في نفسِكَ . قالَ : إنّ عملي لضعيفٌ ، وأوثقُ ما أرجو بهِ . . سلامةُ الصدرِ ، وتركي ما لا يعنيني »(٣) ، فالمسلمُ الحريصُ على رِضا اللهِ ، وعلى طيبِ حياتِهِ ، وحسنِ عقباهُ – يتركُ ما لا يعنيهِ مِنْ قولٍ وعملٍ ، وينفضُ يديهِ مِمّا لا شأنَ لهُ بهِ ، ولا يدخلُ نفسَهُ فيما

(١) رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) رواه أسد بن موسى ، وابن أبي الدنيا عن محمد بن كعب رضي الله عنه .

لا يُسألُ عنه ، حتى لا يضيع عمرُه في غيرِ ما خُلِقَ له من جِدٍّ وإنتاج ، ولا يسألُ غيرَه عن دخائلِه ، وما يُخفيه أو يستحيي منه ، فلا يسألُه عن رزقِه أو عددِ أولادِه ، أو علاقتِه بأهلِه ، أو ما شجر[1] بينهم ، فيوغِرُ صدرَه ويُغضِبُه ، ولا يتوسّعُ في الدنيا ، ويشغلُ أوقاتَه بها عن فعلِ الخيرات : قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « دعُوا الدنيا لأهلِها مَن أخذَ من الدنيا فوقَ ما يكفيه - أخذَ حتفَه[2] ، وهو لا يشعرُ »[3]. وقالَ الحسنُ البصريُّ ، في وصفِ أصحابِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أولئكَ قومٌ أعرضوا عن اللغوِ وتركوا ما لا يعنيهم - لتمامِ إسلامِهم ، واستسلامِهم لأحكامِ دينِهم : أدركْنا قوماً كانوا على ساعاتِهم أشفقَ منكم على دنانيرِكم ودراهمِكم ، كما لا يُحِبُّ أحدُكم أن يخرجَ ديناراً أو درهماً إلا فيما يعودُ عليه نفعُه - كذلكَ لا يُحِبّون أن تخرجَ ساعةٌ من أعمارِهم إلا فيما يعودُ عليهم نفعُه .

واللاغي - يا قوم - الذي لا يتركُ ما لا يعنيه - قد ينجرُّ من الكلامِ المباحِ - إلى الحرامِ : مِن مثلِ الغيبةِ ، والنميمةِ ، والكذبِ ، والجدالِ ، الذي يقطعُ الصِّلاتِ ، ويملأُ القلوبَ حقداً وبغضاً ، ولذلكَ قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أكثرُ الناسِ ذنوباً أكثرُهم كلاماً فيما لا يعنيه »[4].

---

(١) اختلف واختلط .

(٢) هلاكه .

(٣) رواه ابن لال عن أنس رضي الله عنه .

(٤) رواه العقيلي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وَالْمُسْلِمُ الْكَامِلُ – فى تقرير رَأْيِهِ – يُدْلِى بِحُجَّتِهِ وَاضِحَةً ، وَإِذَا لَمْ يُعْلِنْ صَاحِبُهُ .. بعد ذلك – إقناعه – تَرَكَ مُجَادَلَتَهُ ، وَنُصْبُ عَيْنِهِ قَوْلُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ – الْجِدَالَ – وَهُوَ مُبْطِلٌ بُنِىَ لَهُ بَيْتٌ فى رَبَضِ الْجَنَّةِ – وهو ماحولها – وَمَنْ تَرَكَهُ وَهُوَ مُحِقٌّ – بُنِىَ لَهُ فى وَسَطِهَا ، وَمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ – بُنِىَ لَهُ فى أَعْلَاهَا »[1].

وَالْعَاقِلُ لا يَلْجَأُ إِلَى الْجِدَالِ أَبَداً ، وَيَجْعَلُ مِنْهَاجَهُ الَّذِى يَسِيرُ عَلَيْهِ مَارُوِىَ عن النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم أَنَّ عيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال : « إِنَّمَا الْأُمُورُ ثَلَاثَةٌ : أَمْرٌ تَبَيَّنَ لَكَ رُشْدُهُ فَاتَّبِعْهُ ، وَأَمْرٌ تَبَيَّنَ لَكَ غَيُّهُ فَاجْتَنِبْهُ ، وَأَمْرٌ اخْتُلِفَ فِيهِ فَرُدَّهُ إِلَى عَالِمٍ »[2].

لِذَلِكَ لا يُجَادِلُ الْعَاقِلُ فى تَعَالِيمِ الدِّينِ الَّتِى بَلَّغَنَا سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ . فَلَا يُجَادِلُ فى أَنَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ رُشْدٌ وَصَلَاحٌ فَيَتَّبِعُهُ ، وَيُؤَدِّيهَا إِلَى مَنْ هِىَ لَهُ « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » ، وَلَا يُجَادِلُ فى أَنَّ خَلْوَةَ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ مِنْهُ – غَىٌّ وَضَلَالٌ فَيَجْتَنِبُهُ : قال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِى مَحْرَمٍ »[3] ، وَهُوَ كُلُّ مَنْ حَرُمَ عَلَيْهِ زَوَاجُهَا عَلَى التَّأْبِيدِ : كَالْأَخِ وَابْنِهِ ، وَمَا اخْتُلِفَ فِيهِ – سُئِلَ عَنْهُ الْعَالِمُ بِهِ : كَمَا يُسْأَلُ

---

(١) رواه الترمذى وغيره عن أبى أمامة رضى الله عنه .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٣) رواه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

الطبيبُ عَنِ المَرَضِ ، وَاللهُ تعالى يقولُ : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » .

أيُّها المسلمُ :

اعلمْ أنَّ المَوتَ لاَ شَكَّ آتٍ ، وأنَّكَ مَسْئُولٌ بَعْدَهُ عَمَّا قُلْتَ فِي دُنْيَاكَ وَعَمِلْتَ ، فَمَاذَا تُجِيبُ ، حِينَ تُسأَلُ عن شُغُلِكَ بِمَا لاَ حَاجَةَ لَكَ بِهِ مِن دُنْيَاكَ عَنْ طَاعَةِ مَوْلاَكَ ، وَمَاذَا تقولُ إِذَا قِيلَ لَكَ : لِمَ قُلْتَ كَلِمَةَ كَذَا مِمَّا لاَ يَعْنِيكَ هَلْ نَفَعَكَ قَوْلُهَا ، وَهَلْ كَانَ عَلَيْكَ ضَرَرٌ فِي تَرْكِهَا ، هَلاَّ سَكَتَّ عَنْهَا فَرَبِحْتَ السَّلاَمَةَ مِنْ عَاقِبَتِهَا ، وَهَلاَّ جَعَلْتَ مَكَانَهَا ذِكْرَ اللهِ : « أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ » ، وقال صلى اللهُ عليه وسلم : إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يقولُ : « أنا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ »[1] ، فاتَّقِ اللهَ - أيُّها العاقِلُ - وَانتَبِهِ اليَوْمَ ، قَبْلَ يَوْمِ حِسَابِكَ : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالعِبَادِ » فَاسْأَلْ عَنْ تَعَالِيمِ دِينِكَ ، وَاسْعَ إِلَى مَدَارِسِهَا ، وَاعْلَمْهَا وَاعْمَلْ بِهَا ، وَلاَ تَسْأَلْ لِلتَّعَنُّتِ وَالإِحْرَاجِ وَالإِسَاءَةِ فَتَكُونَ ظَالِماً « وَالظَّالِمُونَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » كَأَهْلِ الكِتَابِ سَأَلُوا مُوسَى « فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ » .

أيُّها المسلمُ :

سُئِلَ صلى اللهُ عليه وسلم عَنِ الأَهِلَّةِ : كَيْفَ تَبْدُو صَغِيرَةً ، ثُمَّ تَأْخُذُ

---

(١) رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

فى النُمُوِّ حتّى يكُونَ الهِلَالُ بَدْراً ، ثمّ يأْخُذُ فى النقْصانِ حتّى يعودَ كما بَدَا ، فأَنزَلَ اللهُ قولَهُ : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ » أى فَلَا يَسْأَلِ النَّاسُ عَنِ أحْوَالِ الأَهِلَّةِ وَلْيسْأَلُوا عَنْ فائِدَتِها ، وَهِيَ مَعْرِفَةُ مَوَاقِيتِ النَّاسِ فى عِبَادَاتِهِمْ وَمُعامَلاتِهِمْ ، وَفى هَذا تَوْجِيهٌ لِلإنسانِ : ليَسْأَلَ عَمَّا يهمُّهُ ، وَيَحْتاجُ إِلَيْهِ ، وَلا يَسْأَلَ عَمَّا لا يَهُمُّهُ ، وَلا يَحْتاجُ إِلَيْهِ ، فالعُمُرُ مَحْدُودٌ وَثَمِينٌ – لا يَصِحُّ أنْ يَضِيعَ فى غَيْرِ نافِعٍ فَلا تَسْأَلْ – ياعَبْدَ اللهِ – وَلا تَبْحَثْ عَمّا لا حاجَةَ لَكَ بِهِ ، وَلا تَكُنْ كَمَنْ يَبْحَثُ عن غَرَائِبِ الأَدْيانِ الأُخْرَى وَهُوَ لا يَعْرِفُ الضَّرُورِيَّ مِنْ دِينِهِ : لِيُجادِلَ أهْلَها ، وَقَدْ نَهانا اللهُ تَعالَى عَنِ مُجادَلَةِ اليَهُودِ وَالنَّصارَى – بِعُنْفٍ وَإِساءَةٍ ، إلاَّ إِذا اعْتَدَى مِنْهُمْ مُعْتَدٍ عَلَيْنا – فَلابُدَّ مِنْ مَنْعِ اعْتِدائِهِ : قالَ تَعالى : « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا : آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

وَقِفْ – أيُّها المُسْلِمُ – عِنْدَ الحَدِّ الّذِي حَدَّهُ لَكَ مَوْلاكَ فِى مَعْرِفَةِ الأَشْياءِ ، فَلا فائِدَةَ وَراءَ ذَلِكَ فَلا تَبْحَثْ عَنْ حَقِيقَةِ الرُّوحِ[1] ، وَحَسْبُكَ

(١) روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : بينما أنا أمشى مع النبى ﷺ وهو يتوكأ على عسيب – وهو جريد النخل وسعفه – معه ، فمر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لاتسألوه يسمعكم ماتكرهون ، فقاموا إليه ، وفى رواية فقام=

أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ بِهَا الْحَيَاةَ وَآثَارَهَا الْعَظِيمَةَ وَتَحْرِصَ عَلَى تَقْوَى اللهِ لِتَقْوِيَتِهَا «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» ، وَآمِنْ بِسَائِرِ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي لَمْ تُبَيَّنْ كَيْفِيَّتُهَا ، وَلَا تُفَكِّرْ فِي تِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ ، وَلَا تَبْحَثْ عَنْهَا فَهِيَ مِمَّا لَا يَعْنِيكَ ، وَلَا حَاجَةَ لَكَ بِهِ ، وَقَدْ يَدْفَعُ الْبَحْثُ عَنْهَا إِلَى الْحَيْرَةِ وَالشَّكِّ ، وَيَرْتَقِي إِلَى التَّكْذِيبِ وَالْإِنْكَارِ .

وَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودَ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ : رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا»[1] ، فَلَا تَبْحَثْ عَنْ كَيْفِيَّةِ تَسْبِيحِ الْجَمَادِ الدَّالِّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا» .

وَقُلْ : قَدْ أَخْبَرَ بِهِ تَعَالَى فَيَجْعَلُهُ كَيْفَ شَاءَ كَمَا شَاءَ ، وَلَا تُفَكِّرْ فِي الْخَالِقِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ تُحِيطَ بِهِ الْعُقُولُ الْبَشَرِيَّةُ ، وَتَفَكَّرْ فِي خَلْقِهِ الْمُنْبَثِّ فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ : لِتَزْدَادَ إِيمَانًا بِعَظَمَتِهِ .

=إليه رجل منهم . فقال يا أبا القاسم : ما الروح : فسكت ، وفي رواية : فقالوا : حدثنا عن الروح . فقام ساعة ينتظر الوحي ، وعرفت أنه يوحى إليه فتأخرت حتى صعد الوحي ، قال : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فقال بعضهم لبعض : قد قلنا لكم لا تسألوه .

(١) رواه الدارقطني عن أبي ثعلبة الخشني - جرثوم بن ناشر رضي الله عنه.

روى ابنُ عبّاسٍ رضى اللهُ عنهما أنَّهُ صلى اللهُ عليهِ وسلم — خرَجَ على أصْحابِهِ ، فقَالَ : ماجَمَعَكُمْ ؟ فقالوا : اجْتَمَعْنا نَذْكُرُ رَبَّنا ، وَنَتَفَكَّرُ فى عَظَمَتِهِ ، فقالَ : تفَكَّرُوا فى خَلْقِ اللهِ ، وَلا تتَفَكَّرُوا فى اللهِ ، فإنَّكُمْ لَنْ تَقْدُرُوا(١) قَدْرَهُ »(٢).

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « يَأْتِى الشَّيْطانُ أحَدَكُمْ ، فيقولُ : مَنْ خَلَقَ كَذَا ، مَنْ خَلَقَ كَذَا ، حَتّى يقُولَ : مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ ، فإذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ باللهِ ، وَلْيَنْتَهِ »(٣) .

وقالَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ : لايَزَالُ النّاسُ يَسْأَلُونَ حَتّى يُقالَ : هَذَا خَلْقُ اللهِ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ : آمَنْتُ باللهِ »(٤) .

أيها المسلمون :

اتقُوا اللهَ ، وَاحْرِصُوا عَلَى أعْمَارِكُمْ ، فلا تُضَيِّعُوها فى اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ ، ولاَ غَيْرِ حَقٍّ وَوَاجِبٍ وَمُفِيدٍ ، وَأمْضُوهَا فى الإنْتاجِ : لِخَيْرِ دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ ، وَمَنْ أمْضَى يوْمَهُ فى غَيْرِ حَقٍّ قَضَاهُ ، أوْ فَرْضٍ أدّاهُ ، أوْ مَجْدٍ بَنَاهُ ، أوْ حَمْدٍ حَصَّلَهُ ، أوْ خَيْرٍ أسَّسَهُ ، أوْ عِلْمٍ اقْتَبَسَهُ — فَقَدْ عَقَّ

---

(١) أى لن تقدروه قدره : لن تعرفوه حق معرفته .

(٢) رواه أبو نعيم ، ومعناه روى بأسانيد كثيرة وألفاظ متعددة .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله .

(٤) رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

يومَهُ ، وحُرِمَ ثوابَ اللهِ فيه وكرمَه ، وقد قالَ الحسنُ البصريُّ رضى اللهُ عنه : « مامِنْ يومٍ ينشقُّ فجرُهُ إلاَّ نادى مُنادٍ مِنْ قِبَلِ الحقِّ : يا بْنَ آدمَ ، أنا خَلْقٌ جديدٌ ، وعلى عملِكَ شهيدٌ ، فتزوَّدْ مِنِّى بعملٍ صالحٍ ، فإنِّى لاَ أعودُ إلى يومِ القيامةِ » .

اعمُرُوا - باقَوْمِ - دقائقَ أعمارِكُمْ وثوانيها بتلاوةِ القرآنِ ومُدارستِهِ ، ومُدارسةِ العِلْمِ - وغيرِها مِنَ الصالحاتِ ، وبَرْهِنُوا على حُسْنِ إسلامِكُمْ بتركِ الجدالِ وكثرةِ السُّؤالِ عمَّا لايَعْنيكُمْ ولا يُفيدُكُمْ فى دُنياكُمْ ولا أخراكُمْ ، ولا يُرْضِى اللهَ ، الَّذِى يُعْرِضُ عمَّنْ لَمْ يَتْرُكْ مالاَ يَعْنيهِ ، وضاعَتْ فى اللَّغوِ أيامُهُ ولياليهِ : « وتوبُوا إلى اللهِ جميعاً أيُّها المؤمِنُونَ لعلَّكُمْ تُفلِحُونَ » .

قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « ذَرُونِى - أى اتركُونِى مِنَ السُّؤالِ عمَّا لايعنيكمْ - ما تركْتُكُمْ - أىْ مُدَّةَ تركِى إياكُمْ مِنَ الأمرِ والنَّهْىِ - فإنَّما هلكَ مَنْ كانَ قبلَكُمْ بكثرةِ سُؤالِهِمْ - أىْ لأنبيائِهِمْ عمَّا لايعنيهِمْ - واختلافِهِمْ على أنبيائِهِمْ ، فإذا أمرْتُكُمْ بشىْءٍ فأتُوا منْهُ ما استطعْتُمْ ، وإذا نهيتُكُمْ عنْ شىْءٍ فدَعُوهُ » . رواهُ أحمدُ ومُسلِمٌ ، والنَّسائىُّ وابنُ ماجهْ عن أبى هُريرةَ رضى اللهُ عنه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « هلكَ المُتنطِّعُونَ[1] - أىْ المُتعمِّقُونَ فى

---

(١) قال العلقمى : قال فى النهاية : هم المتعمقون . المغالون فى الكلام =

الْقَوْلِ أَوِ الْفِعْلِ، وَمِنْهُمْ ـ الْبَاحِثُ[1] عَمَّا لا يَعْنِيهِ ..» .

رواهُ أَحْمَدُ ، وَمُسْلِمٌ ، وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، رضى اللهُ عنه .

= المتكلمون بأقصى حلوقهم : مأخوذ من النطع ، وهو ما ظهر من الغار الأعلى من الفم ثم استعمل فى كل تعمق قولا وفعلا ، ونطع المذكور : كعنب .

(١) ذكر تفسير المتنطع بالباحث عما لايعنيه ـ الشيخ عبد الله البراوى فى حاشيته على الاربعين النووية ، عند الكلام على الحديث الثلاثين .

٢٠ ـ الحث على كسب الحلال وأكله
والتحذير من كسب الحرام وأكله

الحمدُ للهِ الذى أمرَ المؤمنين بما أمرَ به المرْسَلين فقال : « يا أيُّها الرُّسُلُ كُلوا مِنَ الطيِّباتِ وَاعْمَلوا صالِحًا » وقالَ : « يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُلوا مِنْ طيِّباتِ مارَزَقناكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ إنْ كُنتُمْ إيَّاهُ تَعبُدُونَ » .

وَأشْهَدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ ، الطَّيِّبُ الَّذِى لاَ يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّبًا القائِلُ : « يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلوا أمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » .

وَأشْهَدُ أنَّ سَيِّدَنا مُحمَّداً رسولُ اللهُ الَّذِى قالَ : « إذَا أدَّيْتَ زَكاةَ مالِكَ فقَدْ قَضَيْتَ ماعَلَيْكَ مَنْ جَمَعَ مالاً حَرَاماً ثمَّ تَصَدَّقَ بِهِ لَمْ يَكنْ لَهُ فِيهِ أجْرٌ وَكانَ إصْرُهُ ـ أىْ ذَنبُهُ ـ عَلَيْهِ »[1] .

وَقالَ[2] : « الدُّنيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ مَنِ اكْتَسَبَ فِيها مالاً مِنْ حِلِّهِ وَأنفقَهُ فِى حَقِّهِ أثابَهُ اللهُ عَلَيْهِ وَأوْرَدَهُ جَنَّتَهُ وَمَنِ اكْتَسَبَ فِيها مالاً مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ وَأنْفَقَهُ فى غَيْرِ حَقِّهِ أوْرَدَهُ اللهُ دَارَ الْهَوَانِ وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ ـ فى مَالِ اللهِ وَرَسُولِهِ لَهُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، يَقُولُ اللهُ : « كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً » .
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ لَمْ يأكُلوا إلاَّ حَلاَلاً ، فَفَازُوا حَالاً وَمَآلاً .

---

(١) رواه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما والحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) رواه البيهقى عن ابن عمر : رضى الله عنهما .

أمّا بعدُ :

فقدْ رُوِيَ أنّ شاةً ضاعتْ في زمنِ الإمامِ أبي حنيفةَ بالكوفةِ حيثُ كانَ يُقيمُ رضي اللهُ عنه ، فسألَ : كمْ يعيشُ الغنمُ ؟ فقيلَ : سبعَ سنين . فتركَ شراءَ لحمِ الغنمِ سبعَ سنين : خوفاً أنْ يكونَ اللحمُ الذي يشتريه مِنْ تلكَ الشاةِ التي ضاعتْ .

وهكذا كانَ أسلافُنا رضي اللهُ عنهم - لا يأكلونَ إلاّ الحلالَ الذي انقطعتِ الشبهةُ عنهُ مِنْ كلِّ جهةٍ .

وأينَ مِنْ هذا الحرص على السلامةِ مِنَ الحرامِ - ما عليهِ الناسُ اليومَ ؟ يقولونَ : « حلالٌ أكلناهُ .. حرامٌ أكلناه » : لا يتورّعونَ عنْ أخبثِ حرامٍ ، ولوْ كانَ مالَ أيتامٍ ، وفيهِ قدْ قالَ جلَّ شأنُهُ : « إنَّ الذينَ يأكلونَ أموالَ اليتامى ظلماً إنّما يأكلونَ في بطونِهمْ ناراً وسيصلونَ سعيراً » .

وقدْ أخبرَنا رسولُنا الصادقُ المصدوقُ بما عليهِ الناسُ اليومَ فقالَ : « يأتي على الناسِ زمانٌ لا يُبالي المرءُ ما أخذَ : أمِنَ الحلالِ أمْ مِنَ الحرامِ ، فإذْ ذلكَ لا تُجابُ لهمْ دعوةٌ »[1] .

فهمُّ كثيرٍ مِنَ الناسِ اليومَ هوَ الحصولُ على المالِ ، سواءٌ أكانَ مِنَ

---

(١) رواه البخاري والنسائي بدون عبارة « فإذ ذلك لا تجاب لهم دعوة » فتلك الزيادة فيه في رواية رزين ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الرِّبَا ، وَمِنْهُ أَرْبَاحُ الْبَرِيدِ ، أَمْ مِنَ الْقِمَارِ ، وَمِنْهُ أَوْرَاقُ يَانَصِيبُ ، وَمِنْهُ أَلَاعِيبُ سِبَاقِ الْخَيْلِ ، وَالتَّحْرِيشِ بَيْنَ الدُّيُوكِ وَالْكِبَاشِ ، وَصَيْدِ الْحَمَامِ وَهُوَ قَسْوَةٌ بَالِغَةٌ ، أَمْ مِنْ طَرِيقِ الْغِشِّ وَالنَّصْبِ وَالِاحْتِيَالِ وَالرِّشْوَةِ وَاحْتِكَارِ الْبَضَائِعِ لِوَقْتِ الْغَلَاءِ ، وَأَجْرِ السِّحْرِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الدَّجْلِ وَأُجْرَةِ النَّذْرِ وَالنِّيَاحَةِ وَالْمَهْرِ وَالْفُجُورِ وَثَمَنِ الْخَمْرِ وَالْحَشِيشِ وَسَائِرِ الْمُخَدِّرَاتِ ، وَالْأَجْرِ لِشَتْمِ النَّاسِ وَضَرْبِهِمْ أَوْ إِحْرَاقِ مَزَارِعِهِمْ وَإِتْلَافِهَا أَوِ الْقَتْلِ وَشَقِّ بُطُونِ الْبَهَائِمِ أَوْ سَمِّهَا .

وَالْمَالُ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنْ هَـٰذِهِ الطُّرُقِ وَأَمْثَالِهَا ، مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ أَوْ كَسْبٍ غَيْرِ مَشْرُوعٍ ، وَمَا أَكْثَرَهَا فِي زَمَانِنَا – مَالٌ خَبِيثٌ سُحْتٌ حَرَامٌ .

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ جَسَدٌ غُذِّيَ بِالْحَرَامِ »[1] .

وَلَوِ انْتَبَهْنَا يَا عِبَادَ اللَّهِ – لَوَجَدْنَا أَنَّ مُوبِقَاتٍ وَمُهْلِكَاتٍ كَثِيرَاتٍ : مِنْهَا الْغَلَاءُ وَضِيقُ الْمَعِيشَةِ وَآفَاتُ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ وَالْأَمْرَاضُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ – حَلَّتْ بِنَا مِنَ الْجُرْأَةِ عَلَى أَكْلِ الْحَرَامِ وَالتَّهَاوُنِ بِذَلِكَ ، وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ صلى اللهُ عليه وسلم : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسُ خِصَالٍ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ

(١) رواه أبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط والبيهقي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ — أي أعوام القحط التي لم تنبت الأرض فيها شيئاً سواء نزل مطر فيها أو لم ينزل — وَشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ — أي الغلاء — وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ :الْمَطَرَ — مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ »[1] — قُوَّتَهُمْ ضِدَّ بَعْضِهِمْ.

عِبَادَ اللَّهِ :

كَذَلِكَ مِنْ آثَارِ أَكْلِ الْحَرَامِ وَعَوَاقِبِهِ الْوَخِيمَةِ الشَّدِيدَةِ الإِيلاَمِ عَدَمُ قَبُولِ اللَّهِ لِلدُّعَاءِ، الَّذِي هُوَ سِلاَحُ الْمُؤْمِنِ، وَكَنْزُهُ الَّذِي لاَ يَفْنَى : قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي اللهُ عنه، يَارسولَ اللَّهِ : ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، فقالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : « يَاسَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ

---

(١) رواه ابن ماجه واللفظ له والبزار والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يامعشر المهاجرين . . إلخ، ورواه الحاكم بنحوه من حديث بريدة وقال : صحيح على شرط مسلم، وهو معاصرته لمن روى عنه .

الحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلُ أَرْبَعِينَ يَوْماً : وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ »[١] .

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم[٢] : « إِنَّ اللهَ تعالى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّباً . وَإِنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ » ، فقال تعالى : « يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً » ، وقال تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » . ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ[٣] أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ[٤] . يَارَبِّ يَارَبِّ . « وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِّيَ بِالحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ » .

فَلْيَحْرِصِ العَاقِلُ عَلَى كَسْبِ الحَلَالِ وَأَكْلِهِ ، وَلْيَحْذَرْ أَكْلَ الحَرَامِ

---

(١) رواه الطبرانى فى الصغير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : تليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً » ، فقام سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، فقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة . . إلخ .

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) أى جميع بدنه من بشر وشعر وثيابه - وسخ متغير من غير استحداد ولا تنظيف كما هو شأن المسافر سفراً طويلا .

(٤) أى يرفعهما عند الدعاء إلى السماء - قبلة الدعاء - وذلك سنة فى غير الخطبة والصلاة وفيها فى القنوت . وتكونان مضمومتين مكشوفتين . ثم إن كان الدعاء بحصول مطلوب - جعل بطونهما إلى السماء ، وإن كان برفع بلاء جعل ظهورهما إليها ، ويسن أن يبتدئه بالصلاة على النبى ويختمه بها .

وبعد فراغه يمسح بهما وجهه إلا فى القنوت .

وَكَسْبَهُ : الَّذِي مِنْهُ أَنْ يَأْخُذَ أَجْراً عَلَى عَمَلٍ لَمْ يُؤَدِّهِ ، أَوْ أَدَّاهُ مَنْقُوصاً ، أَوْ يَأْخُذَ ثَمَناً لِسِلْعَةٍ عَلَى أَنَّهَا نَفِيسَةٌ رَفِيعَةٌ ، وَهِيَ خَسِيسَةٌ وَضِيعَةٌ ، أَوْ يَشْتَرِيَ شَيْئاً يَعْلَمُ أَنَّهُ مَسْرُوقٌ ، فَيَكُونَ أَحَدَ السَّارِقِينَ ، أَوْ يَأْخُذَ مَالاً : لِيَتَسَتَّرَ بِهِ عَلَى مُنْكَرٍ أَوْ جَرِيمَةٍ ، أَوْ يَأْخُذَهُ بِمَالِهِ : مِنْ جَاهٍ أَوْ سُلْطَانٍ عَلَى مَرْءُوسِيهِ أَوْ أَتْبَاعِهِ ، وَالْحَيَاءُ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْمُطَالَبَةِ بِثَمَنِهِ أَوْ رَدِّهِ ، وَقَدْ اشْتَهَرَ مِنْ قَوَاعِدِ الأَحْكَامِ — مَا أُخِذَ بِسَيْفِ الْحَيَاءِ فَهُوَ حَرَام .

عبدَ الله :

إِنَّ خَيْرَ الطَّعَامِ وَأَطْيَبَ الرِّزْقِ — أَنْ تَأْكُلَ مِنْ كَسْبِكَ الْحَلَالِ اقْتِدَاءً بِرُسُلِ اللهِ : كَانُوا صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ — يَأْكُلُونَ مِنْ عَمَلِ أَيْدِيهِمْ وَكَسْبِهِمْ حَلَالاً : فَقَدْ كَانَ إِدْرِيسُ خَيَّاطًا ، وَزَكَرِيَّا نَجَّاراً . وَدَاوُدُ حَدَّاداً ، وَقَالَ رَسُولُنَا صلى اللهُ عليه وسلم : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ »[1] .

وَقَدْ عَمِلَ صلى اللهُ عليه وسلم تَاجِراً ، وَقَالَ : « أَيُّمَا رَجُلٍ كَسَبَ مَالاً مِنْ حَلَالٍ فَأَطْعَمَ نَفْسَهُ أَوْ كَسَاهَا فَمَنْ دُونَهُ مِنْ خَلْقِ اللهِ فَإِنَّ لَهُ بِهِ زَكَاةً »[2] .

---

(١) رواه البخاري وغيره عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وَإِنَّ الْعِبَادَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا ، وَهِيَ الَّتِي تَصِلُ الْعَبْدَ بِالْمَعْبُودِ ، وَتَجْعَلُهُ فِي ارْتِفَاعٍ وَصُعُودٍ ، وَتُبَلِّغُهُ الْعِزَّ وَالتَّمْجِيدَ ـ لَا يُرْجَى ثَوَابُهَا ، وَلَا تُثْمِرُ ثَمَرَتَهَا إِلَّا بِأَكْلِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ : قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم[1] : « أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ ؟ قالوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ[2] فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ قَبْلَ حَسَنَاتُهُ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » .

وقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنِ اشْتَرَى ثَوْبًا بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ : فِي ثَمَنِهِ دِرْهَمٌ حَرَامٌ ـ لَمْ يَتَقَبَّلِ اللهُ لَهُ صَلَاتَهُ مَا كَانَ عَلَيْهِ »[3] .

وقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِذَا خَرَجَ الْحَاجُّ حَاجًّا بِنَفَقَةٍ طَيِّبَةٍ وَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ ـ هُوَ رِكَابُ الدَّابَّةِ مِنْ جِلْدٍ ـ فَنَادَى : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ـ نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ زَادُكَ حَلَالٌ وَرَاحِلَتُكَ حَلَالٌ ، وَحَجُّكَ مَبْرُورٌ غَيْرُ مَأْزُورٍ ، وَإِذَا خَرَجَ بِالنَّفَقَةِ الْخَبِيثَةِ فَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ فَنَادَى : لَبَّيْكَ ـ نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : لَا لَبَّيْكَ وَلَا سَعْدَيْكَ زَادُكَ

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه .

(٢) كل ما ينتفع به من عروض الدنيا .

(٣) رواه أحمد عن ابن عمر رضى الله عنهما ، وفى آخره : ثم أدخل أى ابن عمر إصبعيه فى أذنيه فقال : صمتا إن لم أكن سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حَرَامٌ ، وَنَفَقَتُكَ حَرَامٌ ، وَحَجُّكَ مَأْزُورٌ غَيْرُ مَبْرُورٍ »[١] .

أيها المسلمون :

اتقُوا اللهَ ، وَأَحيُوا ضَمَائِرَكُمْ بِمُرَاقَبَةِ اللهِ الرَّقِيبِ الحَسِيبِ ، لِتَحْرِصُوا عَلَى كَسْبِ الحَلَالِ ، وَلاَ تَتَنَاوَلُوا مَاحَرَّمَ اللهُ : لِيُحْيِيَكُمُ اللهُ تَعَالَى حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلِيُحْسِنَ لَكُمُ العَاقِبَةَ : « يَوْمَ لاَيَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » ، وَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ وَالمَعْرِفَةِ إِنْ كُنتُمْ لاتَعْلَمُونَ وَاتْرُكُوا الشَّكَّ إِلَى اليَقِينِ ، وَخَافُوا اللهَ رَبَّكُمْ مُنْتَهِينَ لِقَوْلِ نَبِيِّكُمْ صلى اللهُ عليه وسلم : « البِرُّ مَااطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ ، وَالإِثْمُ مَاحَاكَ فِي النَّفْسِ ، وَتَرَدَّدَ فى الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوكَ »[٢] وَقال صلى اللهُ عليه وسلم[٣] : « دَعْ مَا يَرِيبُكَ[٤] إِلَى مَالاَ يَرِيبُكَ » .

اتقُوا اللهَ وَاقْنَعُوا بِالحَلَالِ ، وَدَعُوا الكَسْبَ الحَرَامَ ، وَاتْرُكُوا مَافِيهِ شُبْهَةٌ إِلَى مَاأَحَلَّهُ اللهُ ، قالَ رَسُولنَا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَهَادِي الأُمَّةِ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ الحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُور مُشْتَبِهَاتٌ

---

(١) رواه الطبرانى فى معجمه الأوسط عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) رواه أحمد والدارمى فى مسنديهما عن وابصة بن معبد رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : جئت تسأل عن البر ؟ قلت : نعم ، فقال : استفت قلبك : البر ما اطمأنت إليه النفس . . إلخ .

(٣) رواه الترمذى عن الحسن بن على رضى الله عنهما .

(٤) اترك ماتشك فيه وخذ مالا تشك فيه .

لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ »[1] .

وَلَمَّا وَجَدَ صلى اللهُ عليه وسلم تَمْرَةً فِي الطَّرِيقِ - قَالَ : « لَوْلاَ أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لأَكَلْتُهَا »[2] .

إِذِ الصَّدَقَةُ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَعَلَى آلِهِ ، وَكَانَ لأَبِي بَكْرٍ رضى اللهُ عنه ، غُلاَمٌ يَخْدُمُهُ فَأَتَاهُ يَوْماً بِطَعَامٍ ، فَتَنَاوَلَ مِنْهُ لُقْمَةً ، وَلَمَّا عَلِمَ مِنْهُ أَنَّ هٰذَا الطَّعَامَ كَانَ أَجْراً لَهُ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الدَّجَلِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، أَدْخَلَ رضى اللهُ عنه يَدَهُ فِي فَمِهِ ، فَقَاءَ كُلَّ مَا فِي بَطْنِهِ ، فَقِيلَ لَهُ : يَرْحَمُكَ اللهُ ، كُلُّ هَذَا مِنْ أَجْلِ هَذِهِ اللُّقْمَةِ ، فقالَ : وَاللهِ لَوْ لَمْ تَخْرُجْ تِلْكَ اللُّقْمَةُ إِلاَّ بِخُرُوجِ رُوحِي لَكَانَ هَذَا هَيِّناً عَلَيَّ .

وقالَ عُمَرُ رضى اللهُ عنه : كُنَّا نَدَعُ تِسْعَةَ أَعْشَارِ الْحَلاَلِ مَخَافَةَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ .

وقالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ رضى اللهُ عنه : لأَنْ أَرُدَّ دِرْهَماً مِنْ شُبْهَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِمِائَةِ أَلْفٍ وَمِائَةِ أَلْفٍ وَمِائَةِ أَلْفٍ .

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما وفى آخره : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أنس رضى الله عنه .

وقالَ سُفيانُ الثَّوْرِيُّ رضى اللهُ عنه : مَنْ أنفقَ الحرامَ فى الطاعةِ ـ فهُوَ كمَنْ طهَّرَ الثَّوْبَ بالبَوْلِ ، وقَدْ وَرَدَ أنَّ الشَّابَّ إذَا تعبَّدَ ـ قالَ الشَّيْطانُ لأعْوانِهِ : انظُرُوا مِنْ أيْنَ مَطعَمُهُ ، فإنْ كانَ مَطعَمُهُ مَطعَمَ سُوءٍ يقولُ : دَعُوهُ يتعَبُ وَيجْتهِدُ فقَدْ كفاكُمْ نفسَهُ ، وَقَدْ أصابَ بَنِي إسْرَائِيلَ بلاءٌ ، فخرَجُوا مِنْ بُيُوتِهِمْ لِيَدْعُوا اللهَ ، فأوْحَى اللهُ إلَى نَبِيِّهِمْ : أنْ أخْبِرْهُمْ : إنَّكُمْ تخرُجُونَ إلَى الصَّعِيدِ بأبْدَانٍ نَجِسَةٍ ، وَتَرْفَعُونَ إلَيَّ أكُفًّا قدْ سَفَكْتُمْ بِهَا الدِّمَاءَ ، وَمَلأتُمْ بِهَا بُيُوتَكُمْ مِنَ الحَرَامِ ، الآنَ اشتدَّ غضَبِي عليْكُمْ ، وَلَنْ تَزْدَادُوا مِنِّي إلاَّ بُعْدًا .

اتقُوا اللهَ ـ يا قوْمِ ـ وَلا يغُرَّنَّكُمْ كثرَةُ المَالِ الحَرَامِ بأيْدِي كاسِبِيهِ ، فهُوَ دُخَانٌ ، لا استِقْرَارَ لهُ ، وَهَبَاءٌ لا قيمَةَ لهُ : إنَّهُ يفُورُ ثمَّ يغُورُ : « قُلْ لاَ يَسْتَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ ، فاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الألْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » .

قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « إنَّ اللهَ قسَمَ بيْنَكُمْ أخلاقَكُمْ كمَا قسَمَ بيْنَكُمْ أرزاقَكُمْ ، وَإنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنيا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ وَلاَ يُعْطِي الدِّينَ إلاَّ مَنْ يُحِبُّ فمَنْ أعْطاهُ اللهُ الدِّينَ فقَدْ أحَبَّهُ ، وَالَّذِي نفْسِي بِيَدِهِ لا يَسْلَمُ أوْ لاَ يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ أوْ يُسْلِمَ قلْبُهُ وَلِسَانُهُ

وَلا يُؤْمِنُ حَتّى يَأمَنَ جارُهُ بَوَائِقَهُ ، قالوا : وَمَا بَوَائِقُهُ ؟ قالَ غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ
وَلا يَكْسِبُ عَبْدٌ مالاً حَرَاماً فَيَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ ، وَلا يُنْفِقُ مِنْهُ
فَيُبارَكَ لَهُ فِيهِ ، وَلا يَتْرُكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إلاَّ كانَ زَادَهُ إلَى النَّارِ ، إنَّ
اللهَ تَعالى لاَ يَمْحُو السَّيِّءَ بالسَّيِّءِ ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّءَ بالْحَسَنِ ، إنَّ
الْخَبِيثَ لا يَمْحُو الْخَبِيثَ » .

رواهُ أحْمَدُ وَغَيْرُهُ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضى اللهُ عنه .

٢١ — التحذير من الغدر

الْحَمْدُ لِلَّهِ : كَتَبَ(١) الْفَلَاحَ لِمَنْ وَفَى بِعَهْدِهِ ، وَأَنْجَزَ مَا وَعَدَ بِهِ مِنْ خَيْرٍ ، وَأَعَدَّ سُبْحَانَهُ لَهُ الْجَنَّةَ ، وَحَرَمَ الْغَادِرَ ، الَّذِي نَقَضَ عَهْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ — وَشَرَفِ الدِّينِ : لِيَحْذَرَهُ النَّاسُ ، وَلِذَلِكَ كَانَ نَبِيُّنَا صلى الله عليه وسلم — كُلَّمَا خَطَبَ قَالَ : « لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ »(٢)

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ : يُبْغِضُ أَهْلَ الْغَدْرِ ، وَيُعَجِّلُ لَهُمُ الْعِقَابَ فِي الدُّنْيَا ، وَيَفْضَحُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ : الرَّسُولُ صلى اللهُ عليه وسلم : « خَمْسٌ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِصَاحِبِهَا الْعُقُوبَةَ : الْبَغْيُ ، وَالْغَدْرُ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ ، وَمَعْرُوفٌ لَا يُشْكَرُ »(٣) ، وقال صلى اللهُ عليه وسلم :(٤) « لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، أي رَايَةٌ يُعْرَفُ بِهَا غَدْرُهُ « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ خَيْرُ مَنْ وَفَى بِعَهْدِهِ ، وَلَمْ يَغْدِرْ قَطُّ

---

(١) دليل ذلك في أول سورة « المؤمنون » : قال تعالى « قد أفلح المؤمنون » ثم قال « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

(٢) روى الإمام أحمد ، والبزار ، والطبراني في الأوسط عن أنس رضي الله عنه قال : « ما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال : « لا إيمان . . . » الحديث المذكور .

(٣) رواه ابن لال ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه .

(٤) رواه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم عن أنس .

وَبَلَّغَ قَوْلَ رَبِّهِ : « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ».

اللهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْأَوْفِيَاءِ .

أَمَّا بَعْدُ : فَيَا عِبَادَ اللهِ :

كَتَبَ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِيُّ ، هَارُونُ الرَّشِيدُ - عَهْداً[1] وَوَضَعَهُ فِي الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ - بِأَنْ يَكُونَ الْمَأْمُونُ وَلِيَّ عَهْدِ الْأَمِينِ - مِنْ بَعْدِهِ - فَتَوَلَّى الْأَمِينُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ أَبِيهِ ، وَأَعْلَنَ أَنَّ وَلِيَّ عَهْدِهِ - الْمَأْمُونُ ، ثُمَّ غَدَرَ بِهِ ، وَمَزَّقَ كِتَابَ عَهْدِ أَبِيهِ ، وَبَايَعَ لِابْنِهِ - مُوسَى - بِوِلَايَةِ الْعَهْدِ : إِيثَاراً لِابْنِهِ عَلَى أَخِيهِ بِالْخَيْرِ ، الَّذِي هُوَ صَاحِبُهُ ، وَبَلَغَ الْمَأْمُونَ - خَبَرُ ذَلِكَ الْغَدْرِ ، فَدَارَتِ الْمَعَارِكُ بَيْنَ جَيْشَيْهِمَا ، وَانْتَهَتْ بِنَصْرِ الْمَأْمُونِ وَتَوَلِّيهِ الْخِلَافَةَ ، وَخِذْلَانِ الْأَمِينِ ، وَقَتْلِهِ لِغَدْرِهِ .

وَهَكَذَا الْغَادِرُ - يَذُوقُ فِي الدُّنْيَا وَبَالَ أَمْرِهِ ، وَيَكُونُ الْخُسْرَانُ عَاقِبَةَ غَدْرِهِ .

وَيَوْمَ الْحِسَابِ ، يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ : مِنَ الْحَفَظَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ يَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ، وَلِلطَّائِعِينَ ، وَأَهْلِ الْوَفَاءِ - بِالطَّاعَةِ وَالْوَفَاءِ وَيَشْهَدُونَ عَلَى الْكَافِرِينَ وَالْعَاصِينَ وَالْغَادِرِينَ - بِالْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ وَالْغَدْرِ - يَبْلُغُ مِنْ فَضِيحَةِ الْغَادِرِ - أَنْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُ رَايَةً فِي مَلَإِ الْقِيَامَةِ

(١) وكان بالعهد أيضاً أن ولد الرشيد - القاسم المؤتمن - يكون ولى عهد المأمون وهكذا كان عهد الرشيد - منظماً ولاية العهد لأولاده الثلاثة : أحدهم بعد الآخر .

العامِّ لإظهارِ شناعةِ ذنبِهِ وفظاعتِهِ ، وكانتِ العربُ – تنصبُ الألويةَ في الأسواقِ الحفلةِ لغدرِ الغادرِ : ليشتهرَ بذلك .

قال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : « لِكُلِّ[1] غادرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ – أي دُبُرِهِ[2] – يومَ القيامةِ ، يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ – أي ليكونَ التشهيرُ بقدرِ الذنبِ – ألا ولا غادرَ أعظمُ غدراً مِنْ أميرِ عامَّةٍ » ، أي صاحبِ الولايةِ العامَّةِ : لأنَّ غدرَهُ – يتعدَّى ضررُه إلى خلقٍ كثيرٍ ، وما أفظعَ إهانةَ الغادرِ – بجعلِ رايةِ فضيحتِهِ – عِنْدَ دُبُرِه ، يومَ القيامةِ – كذيلِ البهيمةِ : يُجْعَلُ لها عِنْدَ مؤخَّرِها ، وتطولُ وتقصُرُ رايةُ الغادرِ – بمقدارِ غدرِهِ : يراها الناسُ علامةً على إجرامِهِ باديةً مِنْ جهةِ دُبُرِهِ ، وقد قالَ صلى الله عليه وسلم يُقالُ : « هذهِ غَدْرَةُ فُلانٍ »[3] .

والغادرُ أحدُ ثلاثةِ أصنافٍ مِنَ الناسِ خَصْمُهُمُ اللهُ يومَ القيامةِ ، ومَنْ كانَ اللهُ خصمَهُ – خصمَهُ ، وغلبَهُ في الخصومةِ – لا محالةَ – « واللهُ أشدُّ بأساً – أي قوةً – وأشدُّ تنكيلاً – أي تعذيباً – » قال النبي صلى اللهُ عليه وسلم : قالَ اللهُ تعالى : « ثلاثةٌ[4] أنا خصمُهُمْ يومَ القيامةِ : رجلٌ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، عن أبي سعيد الخدري : رضي الله عنه .

(٢) أي مؤخره المقابل لقبله ، ويسمى العجز .

(٢) رواه أحمد ، والبخاري ومسلم ، عن أنس رضي الله عنه وأحمد ومسلم عن ابن مسعود : رضي الله عنه ، ومسلم عن ابن عمر . رضي الله عنه – أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لكل غادر – لواء ، يوم القيامة : يقال : هذه غدرة فلان » .

(٤) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أعطَى بِي ثمّ غدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرّاً فأكلَ ثمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتأجَرَ أجِيراً فَاسْتَوْفَى مِنْهُ ، وَلَمْ يُعْطِهِ أجْرَهُ » ، وَلَيْسَ بِخَافٍ أنّ حَقّ اللهِ أنْ يُطَاعَ ، وَلاَ يُعْصَى أبَداً ، فَمَنْ عَصَى اللهَ بِمَعْصِيَةٍ مَا - فَقَدْ أضَاعَ حَقّاً للهِ وَاسْتَحَقّ أنْ يَكُونَ خَصْماً لَهُ تَعَالَى .

فلمَاذَا إذاً - أعلَنَ سُبْحَانَهُ أنّهُ خَصْمٌ لِهَؤُلاَءِ الثّلاَثَةِ وَجَمِيعُ الْعُصَاةِ خُصُومٌ لَهُ تَعَالَى .

ذَلِكَ - يَاقَوْمِ - لِعِظَمِ جِنَايَتِهِم وَفَظَاعَةِ الضّرَرِ الْمُتَرَتّبِ عَلَى عِصْيَانِهِمْ فَالْغَادِرُ النّاقِضُ لِلْعَهْدِ الْحَقّ الّذِى الْتَزَمَ بِهِ - فى بَيْعٍ أوْ شِرَاءٍ ، أوْ الزّوَاجِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَلَمْ يُوَفّ بِهِ ، مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ - قَدْ آلَمَ مَنْ عَاهَدَهُ - بِعَدَمِ الْوَفَاءِ - وَآذَاهُ ، وَرُبّمَا كَانَ الْعَهْدُ أصْلاً ، فَمَا أفْظَعَ أنْ يَتَبَدّلَ بِالنّقْضِ ألَماً وَإذَا كَانَ الْعَهْدُ بِحِفْظِ النّفْسِ ، وَالْعِرْضِ وَالْمَالِ ، أوْ إفَادَةِ مَنْفَعَةٍ أوْ دَفْعِ مَضَرّةٍ - فَيَالَلْهَوْلِ مِنْ شَنَاعَةِ نَقْضِ هَذَا الْعَهْدِ وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : « وَالّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإثْماً مُبِيناً » وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « الْبِرُّ لاَ يَبْلَى وَالذّنْبُ لاَ يُنْسَى وَالدّيّانُ لاَ يَمُوتُ اعْمَلْ مَاشِئْتَ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ »[1] ، وقال صلى اللهُ عليه وسلم : «مَنْ أخَذَ أمْوَالَ النّاسِ يُرِيدُ أدَاءَهَا أدّى اللهُ عَنْهُ وَمَنْ أخَذَهَا يُرِيدُ إتْلاَفَهَا أتْلَفَهُ اللهُ »[2] وَالّذِى بَاعَ حُرّاً وَأكَلَ ثَمَنَهُ - سَلَبَهُ الْحُرّيّةَ ، وَهِيَ أنْفَسُ

---

(١) رواه عبد الرزاق فى الجامع عن أبى قلابة مرسلا : إذ سقط منه الصحابى .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة : رضى الله عنه .

مافى الحياة ، وكم من عمل صالح عظيم كالجمعة ، والحج ، والجهاد فى سبيل الله — لا يملك — أن يعمله : لأنه يعارض خدمة سيده ، والذى استأجر أجيراً ، فاستوفى منه العمل ، ولم يعطه أجره أتعبه بغير مقابل وأضاع حقه الذى به يعيش ، ويمون نفسه وأهله ، ويقوم بكفايتهم .

ويا قوم :

الغادر خادع يتظاهر لمن يرتبط معه بحب الخير ، وهو يضمر له الشر فهو ماكر ، وخائن ، وغاش ، ومنافق ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من غش فليس منا »[1] وقال : « المكر والخديعة والخيانة فى النار »[2] وقال : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »[3] والله تعالى يقول : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » .

ألا وإن المسلم ، الذى قال : رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً ، وعاهد الله على طاعته ، واتباع رسوله ، فلم

---

(١) رواه الترمذى ، عن أبى هريرة : رضى الله عنه .

(٢) رواه أبو داود عن الحسن : مرسلا أى سقط منه الصحابى الراوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص : رضى الله عنه .

يَفِ بِمَا عَاهَدَ اللهَ عَلَيْهِ ـ يَكُونُ غَادِراً ، وَخَصْماً لِلْعَزِيزِ الْقَاهِرِ ، يَوْمَ الدِّينِ .

وَوَيْلٌ ، وَهَلَاكٌ ، وَعَذَابٌ لَا يُطَاقُ لِمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يومَ الأَهْوَالِ الْعَظِيمَةِ ، وَالْخُطُوبِ الْجَسِيمَةِ ، بَعْدَ أَنْ حَذَّرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فى الدُّنْيَا ، وَأَعْذَرَ لَهُ بِالتَّمْكِينِ مِنَ التَّوْبَةِ قَبْلَ الْمَوْتِ ، وَبَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ إِنْ تَابَ وَأَنَابَ ، وَأَنْذَرَهُ بِالنَّارِ ، إِنِ اسْتَمْرَأَ الْعِصْيَانَ ، وَآثَرَ الْعَذَابَ عَلَى الْمَغْفِرَةِ : « واللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ الْمُنْتَبِهُ :

بِئْسَ الشِّيمَةُ الْغَدْرُ ، وَخُلُقُ نَقْضِ الْعَهْدِ ، وَلِذَلِكَ ـ كَانَ الْعَرَبِيُّ ـ فِى الْجَاهِلِيَّةِ يَخْشَى فَضِيحَةَ التَّشْهِيرِ بَيْنَ النَّاسِ بِغَدْرِهِ ، وَإِخْلَافِ وَعْدِهِ ، وَنَقْضِ عَهْدِهِ ، وَلَوْ كَانَ فِى ذَلِكَ قَتْلُهُ .

وَلِذَلِكَ ـ وَفَّى[1] الطَّائِىُّ بِعَهْدِهِ لِلنُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ مَلِكِ الْعَرَبِ ، وَقَدْ

---

(١) كان النعمان بن المنذر الملك العربى فى الجاهلية ـ قد جعل له يومين: يوم بؤس : من صادفه فيه قتله وأرداه ، ويوم نعيم : من لقيه فيه أحسن إليه وأغناه فصادفه طائى يوم بؤسه ، فرجاه أن يأذن له فى إيصال قوت عياله الجياع ، وليوصى بهم ، ثم يعود لنفاذ أمر قتله فى يومه ، وان تتفاوت الحال فى قتله بين أول النهار وبين آخره. فقال النعمان له : لا آذن لك حتى يضمنك رجل معنا ، فإن لم ترجع ـ قتلناه ، وكان شريك بن عدى ، نديم النعمان معه ، فالتفت إليه الطائى ، وقال له :

يا شريك بن عدى ... ما من الموت انهزام
من لأطفال ضعاف ... عدموا طعم الطعام =

قَرَّرَ قَتْلَهُ بِأَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ يُوصِيَ بِأَوْلَادِهِ أَهْلَ الْمُرُوءَةِ بِحَيِّهِ ، فَعَادَ قَبْلَ الْمَسَاءِ مِنْ يَوْمِهِ : لِيُقْتَلَ ، وَقَالَ :

وَلَقَدْ دَعَتْنِي لِلْخِلَافِ عَشِيرَتِي   فَعَدَدْتُ قَوْلَهُمُو مِنَ الْإِضْلَالِ
إِنِّي امْرُؤٌ مِنِّي الْوَفَاءُ سَجِيَّةٌ   وَفِعَالُ كُلِّ مُهَذَّبٍ مِفْضَـــالِ

فَعَفَا عَنْهُ النُّعْمَانُ ، وَأَعَادَهُ مُكَرَّماً إِلَى أَهْلِهِ : تَصَوَّرْ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَنْصِتْ مَعِي فِي أَنَّهُ لَوْ جُمِعَ نَاسٌ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَقَامَ فِي حَفْلِهِمُ الْحَافِلِ مُنَادٍ ، يُشِيرُ إِلَى أَحَدِهِمْ ، يَقُولُ : هَذَا فُلَانٌ الْغَادِرُ ، الْخَائِنُ ، الْغَاشُّ ، الْمُخَادِعُ ، الْمُنَافِقُ ، الَّذِي أَكَلَ مَالَ فُلَانٍ ، وَهَتَكَ عِرْضَ فلان ، وَسَفَكَ دَمَ فلان ،

= بين جوع وانتظار   وافتقـــار وسقـــام
يا أخا كل كريم   أنت من قوم كرام
يا أخا النعمان جد لى   بضمان والــتزام
ولك الله بأنـــى   راجع قبـــل الظلام

فقال شريك : أصلح الله الملك على ضمانه ، فمر الطائى مسرعاً ، فلما قرب المساء - قال النعمان لشريك : قد جاء وقتك ، فتأهب للقتل ، فقال شريك : هذا شخص قد لاح مقبلا ، وأرجو أن يكون الطائى ، فإن لم يكن - فأمر الملك ممتثل فبينما هما كذلك - إذا بالطائى قد اشتد عدوه فى سيره مسرعاً ، حتى وصل ، فقال : خشيت أن ينقضى النهار قبل وصولى ، ثم قال : أيها الملك : مر بأمرك فأطرق النعمان ، ثم رفع رأسه ، وقال : والله مارأيت أعجب منكما : أما أنت ياطائى - فما تركت لأحد فى الوفاء مقاماً يقوم فيه ، ولا ذكراً يفتخر به ، وأما أنت ياشريك - فما تركت لكريم سماحة يذكر بها فى الكرماء فلا أكون أنا الام الثلاثة . ألا وإنى قد رفعت يوم بؤسى عن الناس ، ونقضت عادتى : كرامة لوفاء الطائى ، وكرم شريك ، فقال الطائى : ولقد دعتنى . . . إلى آخر المذكور فى الخطبة .

وَاؤْتُمِنَ عَلَى السِّرِّ فَأَفْشَاهُ، وَوَعَدَ بِنَصْرِ الْمَظْلُومِ وَإِنْصَافِهِ حَتَّى اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ، فَأَخْلَفَ وَعْدَهُ، وَخَذَلَهُ، وَأَضَاعَ عَلَيْهِ الْفُرْصَةَ، فَاحْذَرُوهُ، وَامْقُتُوهُ، وَاحْقِرُوهُ لَكَانَ هَذَا الْمُجْرِمُ - يَجْتَهِدُ مَا اسْتَطَاعَ - فِي أَنْ يَخْتَفِيَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، مُقَدِّراً شَنَاعَةَ هَذِهِ الْفَضِيحَةِ.

فَمَاذَا يَصْنَعُ هَذَا الْغَادِرُ، وَكَيْفَ يَكُونُ، إِذَا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكِ الْمُلُوكِ الْوَاحِدِ الدَّيَّانِ، الْعَلِيمِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَعَلَامَةُ غَدْرِهِ مِنْ وَرَائِهِ - فَاضِحَةٌ، يُوَجَّهُ إِلَيْهَا الْأَنْظَارُ، ثُمَّ بَعْدَ الْفَضِيحَةِ - الْقَذْفُ فِي النَّارِ، الَّتِي قَالَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: « نَارُكُمْ هَذِهِ: مَا يُوقِدُ بَنُو آدَمَ - جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، قَالُوا: وَاللهِ. إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قَالَ: إِنَّهَا فَضَلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءاً، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا »[1].

وَمَنْ غَدَرَتْ بِزَوْجِهَا: وَنَقَضَتْ عَهْدَ اللهِ فِيمَا اسْتَرْعَاهَا فِيهِ: مِنْ طَاعَةِ زَوْجِهَا، وَالْعِنَايَةِ بِوَلَدِهَا، وَصِيَانَةِ عِرْضِهَا، وَأَدَاءِ مَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى - ذَاقَتْ[2] وَبَالَ غَدْرَتِهَا، وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً، وَغَادِرٌ مَنْ عَاهَدَ غَيْرَهُ لِمَنْفَعَةٍ يَرْجُوهَا مِنْهُ، أَوْ لِيَأْمَنَ جَانِبَهُ، فَإِذَا اسْتَغْنَى عَنْهُ أَوْ قَوِيَ عَلَيْهِ - نَقَضَ عَهْدَهُ - كَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَغْدِرُ، وَتَنْقُضُ مُعَاهَدَتَهَا لِتُعَاهِدَ مَنْ هُمْ أَكْثَرُ عَدَداً وَأَعَزُّ نَفَراً مِمَّنْ تَغْدِرُ بِهِمْ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى ذَلِكَ

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) فالمرأة كالرجل إذا غدرت.

الصَّنِيعِ ، مُتَّخِذِينَ أَيْمَانَهُمْ وَسِيلَةً إِلَيْهِ ، غَيْرَ مُبَالِينَ بِأَيْمَانِ مُعَاهَدَتِهِمُ السَّابِقَةِ ، وَلاَ بِأَنَّهُمْ قَدْ جَعَلُوا اللهَ شَاهِداً ، وَرَقِيباً عَلَيْهِمْ ، وَضَامِناً : « وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » .

وَقَدْ حَذَّرَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ الْغَدْرِ ، وَنَفَّرَ مِنْهُ — بِضَرْبِ مَثَلٍ — لِنَاقِضِ الْعَهْدِ بَعْدَ تَوْثِيقِهِ يَدُلُّ عَلَى حَمَاقَتِهِ إِذْ نَهَى سُبْحَانَهُ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالْمَرْأَةِ الْحَمْقَاءِ[1] الَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا — بَعْدَ إِحْكَامِهِ : لِيُغْزَلَ ثَانِياً ، وَحَثَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : عَلَى الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى الأَيْمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ لَهُ ، قال تعالى : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً[2] إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ، وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً[3] تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً[4] بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى[5] مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » .

---

(١) قيل هى ريطة بنت سعد بن تيم القرشية : كانت بمكة ، وكانت حمقاء قليلة العقل : اتخذت مغزلا : قدر ذراع وسنارة مثل إصبع ، وفلكة عظيمة على قدرها ، فكانت تغزل هى وجواريها من الغداة إلى الظهر ، ثم تأمرهن ، فينقضن ما غزلن .

(٢) شاهداً ورقيباً أو ضامناً .

(٣) حال كون غزلها أنكاثاً : جمع نكث بكسر النون ، وهو ما نقض ليغزل ثانياً .

(٤) وسيلة للغدر والخيانة ، أو الفساد بينكم .

(٥) أزيد عدداً . وأقوى .

أيها المسلمون :

اتقُوا اللهَ ـ وَاذكُرُوا الغَدْرَ وَأنّ ضَرَرَهُ هَلاكٌ وَخُسْرَانٌ ، وَحَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ ، وَعَارٌ وَهَوَانٌ ، فِى الدُّنيَا وَالآخِرَةِ ، وَاذكُرُوا الوَفَاءَ بِالعَهْدِ ، وَأنّهُ شَرَفٌ وَزِينَةٌ فِى الدُّنيَا ، وَيُثْمِرُ وُدَّ النَّاسِ وَتَقْدِيرَهُمْ وَثِقَتَهُمْ[1] ، وَيُرْضِى اللهَ فِى دُنيَاهُ وَأُخْرَاهُ : « وَمَنْ أوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أجْراً عَظِيماً » ، فَأوْفُوا بِمَا عَاهَدْتُمُ اللهَ عَلَيْهِ ، وَمَا أَلْزَمَكُمْ اللهُ بِهِ : مِنَ العُقُودِ ـ أي العُهُودِ المُؤَكَّدَةِ ، الّتِى عَقَدَهَا عَلَيْكُمْ مِنَ التَّكَالِيفِ ، وَتَعَالِيمِ دِينِهِ ، وَمِنْهَا مَا نَذَرْتُمُوهُ لَهُ تَعَالَى : مِنْ صَوْمٍ وَصَلاةٍ وَنَفَقَةٍ فِى سَبِيلِهِ ، وَمَا إلَى ذَلِكَ مِنْ صَالِحَاتٍ ، وَمَا عَقَدْتُمُوهُ وَوَثّقْتُمُوهُ ـ بِالقَصْدِ وَالنِّيَّةِ : مِنَ الأيمَانِ فِيمَا يُرْضِيهِ تَعَالَى ، وَأوْفُوا بِمَا عَقَدْتُمُوهُ فِيمَا بَيْنَكُمْ : مِنْ عُقُودِ المُعَامَلاتِ المَشْرُوعَةِ ، وَمِنَ الأمَانَاتِ وَنَحْوِهَا : مِمّا يُطْلَبُ ـ شَرْعاً ـ الوَفَاءُ بِهِ .

فَاقْتَدُوا بِالرّسُولِ صلى اللهُ عليه وسلم : كَانَ وَعَدَ أبَا الهَيْثَمِ خَادِماً ، فَأُتِيَ بِثَلاثَةٍ مِنَ السَّبْيِ ـ أيْ الأسْرِ ـ فَأعْطَى اثْنَيْنِ مُسْتَحِقّيْنِ لَهُمَا وَبَقِيَ وَاحِد ، فَأتَتْ فَاطِمَةُ : رضى اللهُ عنها : تَطْلُبُ مِنْهُ خَادِماً ، وَقَدْ قَالَتْ : ألاَ تَرَى أثَرَ الرَّحَى بِيَدِي ، فَذَكَرَ صلى اللهُ عليه وسلم وَعْدَهُ لأبِي الهَيْثَمِ ،

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء سعادة أن يوثق به فى أمر دينه ودنياه » . رواه ابن النجار ، عن أنس رضى الله عنه .

فَجَعَلَ يَقُولُ : كَيْفَ بِمَوْعِدِي لِأَبِي الْهَيْثَمِ ؟ فَـآثَرَهُ عَلَى ابْنَتِهِ وَفِلْذَةِ كَبِدِهِ — مَعَ حَاجَتِهَا — وَأَعْطَاهُ الْخَادِمَ : لِسَابِقِ وَعْدِهِ لَهُ ، وَكُونُوا كَعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ : رضى اللهُ عنهما : لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ — قَالَ : إِنَّهُ كَانَ خَطَبَ إِلَيَّ ابْنَتِي — رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَقَدْ كَانَ مِنِّي إِلَيْهِ شِبْهُ وَعْدٍ ، فَوَاللهِ لَا أَلْقَى اللهَ بِثُلُثِ(1) النِّفَاقِ ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُهُ ابْنَتِي .

اتَّعِظُوا بِمَا وُعِظْتُمْ بِهِ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ دَائِمًا ، وَلَا تَغْدِرُوا — تُفْلِحُوا — فِي دُنْيَاكُمْ وَأُخْرَاكُمْ — وَتَسْلَمُوا : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » ، « وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَـــا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » .

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا وَزَادَ مُسْلِمٌ ، فِي رِوَايَةٍ : وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى ، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ » ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : رضى اللهُ عنه .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم : « ثَلَاثٌ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فِيهِنَّ رُخْصَةٌ : بِرُّ الْوَالِدَيْنِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا ، وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ لِمُسْلِمٍ كَانَ أَوْ كَافِرٍ ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ إِلَى مُسْلِمٍ كَانَ أَوْ كَافِرٍ » .

---

(1) يشير : رضى الله عنه — إلى أن إخلاف الوعد — ثلث النفاق : الحديث المذكور بختام الخطبة .

رواهُ البيهقيُّ ، في شُعَبِ الإيمانِ : عَنْ عَلِيٍّ ، رضي اللهُ عنه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إذَا جَمَعَ اللهُ الأوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيامَةِ — يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ ، فَقِيلَ هَـــذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ » .

رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَغَيْرُهُ ، عن ابْنِ عُمَرَ : رضي اللهُ عنهما.

٢٣ – التحذير من التبرج

الحمدُ لله : مَنْ أطاعَهُ – عزَّ وسَعِد ، وَمَنْ عَصاهُ ذَلَّ وشَقِي ، وقال تعالى : « مَنْ عَمِلَ صالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أساءَ فَعَلَيْها ، وَما رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ : هَدَى بِتَعالِيمِ الإِسْلامِ إلى حَياةِ الهُدُوءِ والاطْمِئْنانِ ، وقالَ : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ » .

وأشهدُ أنَّ سَيِّدَنا مُحمداً رسُولُ اللهِ ، خَيْرُ مَنْ دَعا إلى الفَضائِلِ ، وَنَهَى عَنِ الرَّذائِلِ وَسَيِّءِ العاداتِ ، وقالَ لابْنَتِهِ فاطِمَةَ : ما خَيْرُ لِلْمَرْأةِ ؟ فقالَتْ ألاَّ تَرَى رَجُلاً ، ولا يَرَاهَا رَجُلٌ ، فَزَكَّى قَوْلَها ، وقالَ : « ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ » .

اللهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الّذِينَ اقْتَدَوْا بِهِ ، فاسْتَمْسَكُوا بِالْهُدَى وَبَعُدُوا عَنِ الرَّدَى ، فَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ .

أمَّا بَعْدُ : فَيا عِبادَ اللهِ :

السَّيِّدَةُ عائِشَةُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ ، زَوْجُ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ – كانَتْ تَبْكِي حَتَّى يَبْتَلَّ مِنْ دُمُوعِها خِمارُها – غِطاءُ الرَّأْسِ ، الّذِي يَسْتُرُ العُنُقَ وَالصَّدْرَ ، إذا قَرَأَتْ قَوْلَهُ تعالى : « وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ

الجاهليةِ الأولى وأَقِمْنَ الصَّلاةَ وآتينَ الزكاةَ وأَطِعْنَ اللهَ ورسولَهُ إنما يُريدُ اللهُ ليُذهِبَ عنكُمُ الرِّجسَ أهلَ البيتِ ويُطهِّرَكُم تطهيراً » .

ففي هذهِ الآيةِ الكريمةِ ـ أمرَ اللهُ سبحانَهُ نساءَ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ـ بالاستقرارِ في البيوتِ ، ونهاهُنَّ عنِ التبرُّجِ ، وإظهارِ الزينةِ للرِّجالِ الأجانبِ : كتبرُّجِ النِّساءِ في الجاهليةِ الأولى ، حيثُ كانَ الكفرُ قبلَ الإسلامِ .

وقدْ أرادَ اللهُ تعالى بهذا الأمرِ وذلكَ النهيِ لأمهاتِ المؤمنينَ ، وهُنَّ العفيفاتُ المصوناتُ التقيَّاتُ دوامَ صونِ الشرفِ وطهارةِ العِرضِ وسلامتِهِ مِمَّا يُدَنِّسُهُ مِنْ قَذَرِ الخزيِ والعارِ .

وكانَ عليهِنَّ : رضيَ اللهُ عنهُنَّ : لتحقيقِ ذلكَ ـ أنْ يُحاسِبْنَ أنفُسَهُنَّ حساباً عسيراً : ومِنْ هُنا ـ بكتِ السيدةُ عائشةُ ـ مع عظيمِ تدَيُّنِها ، وكاملِ طهارتِها : خشيةَ التقصيرِ في شيءٍ لأنهُنَّ قدوةُ المسلماتِ في ذلكَ الأدبِ الذي يصونُ المجتمعَ مِنَ الدَّنَسِ : بصونِ المرأةِ منهُ ، وهيَ المدرسةُ الأولى للأطفالِ رجالِ المستقبلِ ونسائهِ ، وهيَ التي تُكوِّنُ الأجيالَ وتصونُ النَّشْءَ : طبقاً لخُلُقِها وحالِها ، وعلى الصورةِ التي يتلقَّاها الطفلُ مِنْ أُمِّهِ ـ يتوقَّفُ مصيرُ الشعبِ واتجاهُ الأمةِ .

فليكونَ الشعبُ كاملاً فاضلاً ، ولتكونَ الأمةُ أمةً كريمةً صالحةً دعا الإسلامُ إلى كمالِ المرأةِ ، وتحليتِها بالفضيلةِ ، وتخليتِها عنِ الرذيلةِ ، وقدْ جعلَ ملازمتَها البيتَ هوَ الأصلَ ، والخروجَ منهُ يكونُ للضرورةِ كخروجِها للتفقُّهِ في دينِها : بحضورِ درسِ السيداتِ بالمسجدِ : بشرطِ

ألاَّ تكونَ مُتبرِّجةً ، وذلكَ يكونُ ببُعدِها عَنْ كُلِّ مَظاهِرِ الزِّينَةِ ، وسَتْرِ جِسْمِها بالثِّيابِ المُحِيطَةِ بِهِ ، فَلاَ تَصِفُهُ ، ولاَ تَشِفُّ عَنْهُ ، فَإنَّ مِنْ كَبائِرِ الذُّنُوبِ - تبرُّجَ المَرْأةِ ، وإظْهارَها زِينَتَها لِلرِّجالِ الأَجانِبِ كَمَا تَظْهَرُ المُمَثِّلَةُ عَلَى المَسْرَحِ ، وعَلَى الشَّاشَةِ بالسِّينَما والتِّلِيفِزيُون ، فَإنَّ ذٰلِكَ مِنْها يُؤَدِّي إلَى افْتِتانِ الرِّجالِ بِها كافْتِتانِها بِهِمْ :

إنَّ الَّتِي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّها   خُلِقَتْ هَوَاكَ كَما خُلِقْتَ هَوًى لَها

ولَيْسَ يَفْتِنُ الرِّجالَ كالنِّساءِ ، فَمَنْ وَقَعَ في حَبائِلِهِنَّ - سَهُلَ عَلَيْهِ بَذْلُ المالِ لَهُنَّ ، ولَوْ حَرَمَ مِنْهُ أوْلادَهُ ، ورُبَّما اخْتَلَسَهُ ، أوْ نَصَبَ واحْتَالَ ، ولَمْ يُبالِ بِضَياعِ الكَرامَةِ وسُوءِ المَصِيرِ ، ولِذٰلِكَ - قال صلى الله عليه وسلم : « ماتَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أضَرَّ عَلَى الرِّجالِ مِنَ النِّساءِ »[1] .

ياقَوْم .

نَرَى الإشارَةَ على الطَّرِيقِ أنَّهُ لاَ يَصْلُحُ لِلمُرُورِ فيهِ ، فَنَتَحَوَّلُ إلَى غَيْرِهِ بِلاَ ارْتِيابٍ ، حَتَّى نَسِيرَ آمِنِينَ في طَرِيقٍ قَوِيمٍ فَلاَ يَلِيقُ بِنا - ونَحْنُ المُؤْمِنُونَ باللهِ القُدُّوسِ الذي هُوَ بِنَا رَءُوفٌ رَحِيمٌ - ألاَّ نَسِيرَ فِي الطَّرِيقِ القَوِيمِ الذِي دَلَّنا عَلَيْهِ ، وهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ القائِلُ : « قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أدْعُو إلَى اللهِ على بَصِيرَةٍ أنَا ومَنِ اتَّبَعَنِي وسُبْحَانَ اللهِ ومَا أنَا مِنَ المُشْرِكِينَ » وبالسَّيْرِ في ذٰلِكَ الطَّرِيقِ : إرْضاءً للهِ - الفَوْزُ والسَّلاَمَةُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما .

حَيْثُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ ، الَّتِى يَحْرِصُ الْعَاقِلُ عَلَى عِيشَتِهَا الرَّاضِيَةِ الْهَنِيئَةِ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

فَلاَ يَلِيقُ بِالْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ أَنْ تَخْرُجَ مُتَبَرِّجَةً ، كَأَنَّهَا عَرُوسٌ تُزَفُّ إِلَى زَوْجِهَا ، وَقَدْ زَادَتْ إِظْهَارَ زِينَتِهَا ، وَمَفَاتِنِهَا ، فَزَادَتْ ثَوْبَهَا تَضْيِيقاً وَتَقْصِيراً ، وَكَشَفَتْ عَنْ وَصْفِ مَا يَكُونُ مِنْ عَوْرَتِهَا مَسْتُوراً ، وَبَدَنُهَا كُلُّهُ عَوْرَةٌ إِلاَّ وَجْهَهَا[1] وَكَفَّيْهَا .

وَنَحْنُ الرِّجَالُ ـ مَعَ هَذَا الْوَبَالِ ـ لاَ يَلِيقُ بِنَا أَنْ نَسْكُتَ كَأَنَّ الأَمْرَ لاَ يَعْنِينَا ، مَعَ أَنَّنَا جَمِيعاً ـ مَسْئُولُونَ عَنِ السَّيْرِ فِى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ ، الَّذِى رَسَمَهُ لَنَا اللهُ ، وَعَنْ سَيْرِ مَنْ نَحْنُ مَسْئُولُونَ عَنْهُمْ وَعَنْهُنَّ مِنْ أَوْلاَدِنَا وَنِسَائِنَا فِيهِ :

قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِى أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »[2] .

فَلْنَنْتَبِهْ جَمِيعاً إِلَى أَنَّ مَا عَلَيْهِ الْمَرْأَةُ الآنَ مِنْ تَبَرُّجٍ ، حَيْثُ ظَهَرَتْ بِلاَ حَيَاء ـ أَبْعَدَ سَلاَمَةَ النَّوْعَيْنِ مِنْ فِتْنَتِهِمَا بِبَعْضِهِمَا ، فَلاَ يَخْنَى أَنَّ

---

(١) والمستثنى : الوجه فقط فى رأى آخر الحنابلة ، وهما مع القدمين فى رأى آخر عند الحنفية ويشترط فى هذه المستثنيات أن تكون إفهر أصباغ وزينة ، وإلا وجب سترها أيضاً ، حتى لا تكون بالزينة قاصدة التبرج .

(٢) رواه البخارى ومسلم من حديث . عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما .

فِتْنَةَ الذَّكَرِ لِلأُنثَى – كَفِتْنَةِ الأُنْثَى لِلذَّكَرِ – أَحَبُّ إِلَى النَّفْسِ، وَأَقْرَبُ إِلَى القَلْبِ.

وَفِتْنَةُ الْحُسْنِ إِنْ هَبَّتْ نَوَافِحُهَا[1] كَفِتْنَةِ الْحَرْبِ إِنْ هَبَّتْ سَوَافِيهَا[2]

وَمَا وَرَاءَ فِتْنَةِ النَّوْعَيْنِ لِبَعْضِهِمَا سِوَى انْتِشَارِ الْفَاحِشَةِ، وَذَلِكَ شَرٌّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: « إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ».

فَحِرْصًا عَلَى السَّلاَمَةِ مِنَ الشَّرِّ وَالْعَذَابِ فِي الدَّارَيْنِ – لِيَكُنْ كُلٌّ مِنَّا قُدْوَةً لِأَهْلِهِ فِي الاِسْتِمْسَاكِ بِالدِّينِ، وَلْيُرْشِدْ كُلٌّ مِنَّا نِسَاءَهُ إِلَى عَدَمِ التَّبَرُّجِ وَلْنُعَلِّمْهُنَّ أَنَّ إِظْهَارَ الْمَرْأَةِ زِينَتَهَا – لاَ يَجُوزُ لِغَيْرِ الزَّوْجِ وَالْمَحْرَمِ، وَهُوَ كُلُّ مَنْ لاَ يَحِلُّ تَزَوُّجُهُ بِالْمَرْأَةِ أَبَدًا كَأَبِيهَا وَأَخِيهَا وَأَبِي زَوْجِهَا.

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قال تعالى: « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِ[3] هِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ

---

(١) روائحها الطيبة.

(٢) جمع سافية وهى الريح التى تسفى التراب. وتطيره وتذهبه، والبيت للشاعر المصرى. حافظ إبراهيم فى العمرية.

(٣) يسدلن من ملاءاتهن على أبدانهن، حتى يسترنها من رءوسهن إلى أقدامهن

إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ[1] أَوْ مَا مَلَكَتْ[2] أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ[3] غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا[4] عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

وقال تعالى : « يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً » .

فَحَرَامٌ إِظْهَارُ الْمَرْأَةِ زِينَتَهَا : بِكَشْفِهَا الرَّأْسَ ، حَيْثُ الشَّعْرُ الْفَاتِنُ ، وَبِكَشْفِهَا الصَّدْرَ ، وَالْعُنُقَ ، وَالذِّرَاعَيْنِ ، وَالسَّاقَيْنِ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْعَوْرَةِ الَّتِي أَمَرَهَا اللهُ بِسَتْرِهَا : تَكْرِيماً وَصِيَانَةً لَهَا ، وَلِذَلِكَ يَحْرُمُ تَرْقِيقُهَا صَوْتَهَا وَكَلاَمَهَا لِلرِّجَالِ الْأَجَانِبِ ، وَاللهُ تعالى يَقُولُ : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ

---

(١) أى المختصات بهن بالصحبة والخدمة من الحرائر ، وما روى عن السلف من منع تكشف المسلمات للكافرات ـ محمول على الاستحباب .

(٢) أى من الإماء ، وأما العبيد فهم كالأجانب : لأنهم فحول ليسوا أزواجاً ولا محارم ، والشهوة متحققة فيهم .

(٣) هم الرجال الذين لا حاجة لهم بالنساء ولا يعرفون شيئاً من أمورهن بحيث لا تحدثهم أنفسهم بفاحشة . ولا يصفونهم للأجانب .

(٤) الذين لم يبلغوا حد الشهوة والقدرة على الجماع .

كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا ».

وَفِي غِنَاءِ الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ بِمَا يَفْتِنُ الرِّجَالَ الْأَجَانِبَ ـ يَقُولُ الْفُضَيْلُ ابْنُ عِيَاضٍ : « الْغِنَاءُ رُقْيَةُ الزِّنَا ».

وَحَرَامٌ ـ يَاقَوْمِ ـ تَشْجِيعُ الْمُتَبَرِّجَاتِ عَلَى إِثْمِ التَّبَرُّجِ : بِالنَّظَرِ إِلَيْهِنَّ وَالْإِعْجَابِ بِهِنَّ ، وَالْبَشَاشَةِ لَهُنَّ ، وَاحْتِرَامِهِنَّ بِمِثْلِ تَوْسِيعِ الْمَكَانِ لَهُنَّ فِي الْمَرْكَبَاتِ الْعَامَّةِ وَنَحْوِهَا ، أَوْ بِإِيثَارِهِنَّ بِالْمُعَامَلَةِ الْحَسَنَةِ فِي الْمُسْتَشْفَى أَوْ مَحَلِّ التِّجَارَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَمَنْ شَجَّعَهُنَّ ـ كَانَ شَرِيكًا لَهُنَّ فِي الْإِثْمِ ، وَمُسْتَحِقًّا لِعِقَابِ اللهِ الَّذِي قَالَ : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ». وَفِي فَائِدَةِ غَضِّ الْبَصَرِ عَنْ أَيَّةِ امْرَأَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ .

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ : « النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَنْ تَرَكَهَا مِنْ مَخَافَتِي أَبْدَلْتُهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ »[1] .

فَفِي تَرْكِ النَّظَرِ إِلَى الْمُتَبَرِّجَةِ ، مَعَ كَسْبِ الْخَيْرِ الْمُنَوَّهِ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْحَدِيثِ ـ يَتَضَاعَفُ الثَّوَابُ مِنْ أَجْلِ مُضَاعَفَةِ الْإِنْسَانِ جِهَادَ نَفْسِهِ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » وَلَيْسَ الْحَرَامُ بِهَيِّنٍ ، وَعَاقِبَتُهُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ، فَلَا يُهَوِّنُهُ ـ

---

(١) رواه الطبراني عن ابن مسعود رضى الله عنه .

الآنَ - كَثْرَةُ العُصَاةِ وَقِلَّةُ الخَائِفِينَ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ القَائِلِ : فِى أَنَّ تِلْكَ الكَثْرَةَ وَهٰذِهِ القِلَّةَ - لاَتَنفَعَانِ العَاصِىَ عُذراً يَوْمَ الدِّينِ : « وَلَنْ يَنفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » .

وَقال صلى اللهُ عليه وسلم : « إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمُ المَرْأَةَ فَقَدَرَأَنْ يَرَى مِنْهَا بَعْضَ مَايَدْعُوهُ إِلَى نِكَاحِهَا[1] فَلْيَفْعَلْ »[2] .

وَخَطَبَ المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ امْرَأَةً فقالَ له صلى الله عليه وسلم : « انظُرْ إِلَيْهَا فإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا »[3] ، أَىْ تحصُلَ بالنَّظَرِ المُوَافقةُ بَيْنَكُمَا،[4] وَكَشَفَ عمرُ بنُ الخطَّابِ عَنْ سَاقِ أُمِّ كُلْثُومِ ابْنَةِ عَلِيٍّ لخِطبَتِهَا فَلِلْمَخْطُوبَةِ أَنْ تُرِىَ خَاطِبَهَا وَجْهَهَا لِأَنَّهُ يَدُلُّ على الجَمَالِ أَوْ ضِدِّهِ ، وَكَفَّيْهَا لِأَنَّهُمَا تَدُلاَنِ على خُصُوبَةِ البَدَنِ أَوْ عَدَمِهَا ، وَأَنْ تَظْهَرَ لَهُ فِى المَلاَبِسِ الَّتِى تَظْهَرُ بِهَا لمَحَارِمِهَا ، وَأَنْ تُسْمِعَهُ حَدِيثَهَا مَعَ وُجُودِ مَحَارِمِهَا : لِيَرَى عَقْلَهَا وَذَوْقَهَا وَلَبَاقَتَهَا فى التَّصَرُّفِ فيَرْغَبَ فى زَوَاجِهَا ، وَلاَ يَجُوزُ تَكْرَارُ النَّظَرِ بَعْدَ تَمَامِ الخِطبَةِ قَبْلَ العَقْدِ ، وَتَكُونُ المَخْطُوبَةُ مُتَبَرِّجَةً إِذَا أَظْهَرَتْ مَحَاسِنَهَا لِخَاطِبِهَا بَعْدَ تَمَامِ الخِطْبَةِ ، وَقَبْلَ العَقْدِ عَلَيْهَا ، فَهُمَا أَجْنَبِيَّانِ مِنْ بَعْضِهِمَا قَبْلَ العَقْدِ ، وَإِنَّمَا أُبِيحَ مَاأُبِيحَ لِلْخِطْبَةِ : رَغْبَةً فى الوِفَاقِ فى الزَّوَاجِ

---

(١) أى زواجها .

(٢) رواه أحمد وأبو داود عن جابر رضى الله عنهما .

(٣) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٤) عن محمد بن الحنفية روى خبر ذلك الكشف عبد الرزاق وسعيد ابن منصور .

كما أُبيحَ فى الزِّفافِ الغِناءُ الَّذِى يَمُرُّ بِلاَ فِتْنَةٍ قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِعائِشَةَ بِمُناسَبَةِ زِفافِ فَتاةٍ لِزَوْجِها الأَنصارِىِّ : هَلاَّ[1] بَعَثْتُمْ مَعَها مَنْ يُغَنِّى وَيَقُولُ :

أَتَيْناكُمْ أَتَيْناكُمْ ۞ فَحَيُّونا نُحَيِّيكُمْ
وَلَوْلاَ الحَبَّةُ[2] السَّمْرَا ۞ لَمْ نَحْلُلْ بِوادِيكُمْ

وَمِنَ التَّبَرُّجِ الَّذِى يُغْضِبُ الدَّيَّانَ - تَبَرُّجُ المَرْأَةِ أَمامَ المُصَوِّرِ ، وَيَتْبَعُ ذٰلِكَ شَرُّ نَشْرِ الصُّورَةِ فى الصُّحُفِ وَالمَجَلاَّتِ وَنَحْوِها : إِشاعَةً لِلْفِتْنَةِ . وَكُلُّ مَنْ تَعاوَنَ على ذٰلِكَ النَّشْرِ آثِمٌ فَلْيَمْنَعِ الرَّجُلُ الشَّهْمُ ابْنَتَهُ أَوْ أُخْتَهُ وَمَنْ لَهُ وِلاَيَةٌ عَلَيْها مِنْ أَنْ تُصَوَّرَ لِفِتْنَةِ الرِّجالِ : « وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ » .

ويا عِبادَ اللهِ :

لاَ تَيْأَسُوا مِنْ عِلاَجِ التَّبَرُّجِ وَالشِّفاءِ مِنْهُ ، مَهْما اسْتَفْحَلَ ، وَصارَ وَباءً مُنْتَشِراً ، فالرَّسُولُ صلى اللهُ عليه وسلم الَّذِى قالَ : « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا طَغَى نِساؤُكُمْ وَفَسَقَ شَبابُكُمْ قالُوا : يا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هٰذا لَكائِنٌ ؟ قالَ : نَعَمْ »[3] .

---

(١) حكى ذلك صاحب العقد الفريد ، ورواه ابن ماجه مع اختلاف فى اللفظ ، وهذا القول مما يقوله أهل مكة لأهل المدينة .

(٢) هو القمح وهنا : كناية عن العروس .

(٣) رواه أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِذَا رَأَيْتُمُ الأَمْرَ لاَ تَسْتَطِيعُونَ تَغْيِيرَهُ فَاصْبِرُوا حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يُغَيِّرُهُ »[1] ، وَالقُلُوبُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ : يُحَرِّكُهَا كَيْفَ يَشَاء : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ » فَلْنَسْتَمِرَّ نَاصِحِينَ رَاجِينَ أَنْ يُوَفِّقَ اللهُ – لِتَرْكِ التَّبَرُّجِ الذَّمِيم .

أيها المسلمون :

اتَّقُوا اللهَ ، وَكُونُوا رِجَالاً مُؤْمِنِينَ حَقًّا : بِالقَوَامَةِ عَلَى نِسَائِكُمْ ، وَالغَيْرَةِ عَلَى أَعْرَاضِكُمْ ، وَلاَ تَسْمَحُوا لِنِسَائِكُمْ بِالتَّبَرُّجِ لِلرِّجَالِ الأَجَانِبِ ، مَعَارِفَ كَانُوا أَوْ غَيْرَ مَعَارِفَ ، فَالسَّمَاحُ بِذَلِكَ فِقْدَانٌ لِلرُّجُولَةِ ، وَهِيَ شَرَفٌ ، وَلِلْكَرَامَةِ ، وَهِيَ حَيَاةٌ طَيِّبَةٌ ، وَلِلآدَمِيَّةِ ، بَلْ مِنَ الحَيَوَانِ مَا يَغَارُ عَلَى أُنْثَاهُ .

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَغَارُ ، وَإِنَّ المُؤْمِنَ يَغَارُ ، وَغَيْرَةُ اللهِ أَنْ يَأْتِيَ المُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ »[2] . وَرَبُّوا بَنَاتِكُمْ عَلَى الاسْتِمْسَاكِ بِالدِّينِ وَالمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلاَةِ وَسَائِرِ تَعَالِيمِ الإِسْلاَمِ وَأَحْكَامِهِ ، وَأَرْشِدُوهُنَّ إِلَى طَاعَةِ اللهِ وَالبُعْدِ عَنْ مَعَاصِيهِ ، حَتَّى يَنْشَأْنَ عَلَى حُبِّ الفَضِيلَةِ ، وَكَرَاهِيَةِ الرَّذِيلَةِ ، فَلاَ يَتَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَيَخْلَعْنَ بُرْقُعَ الحَيَاء ، وَاعْلَمُوا أَنَّ عَذَابَ اللهِ وَاقِعٌ عَلَى

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى أمامة رضى الله عنه .

(٢) رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

مَنْ قَصَّرَ فى تَرْبيَتِهِنَّ وَتَهْذِيبِهِنَّ ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَى مَنْعِهِنَّ مِنَ التَّبَرُّجِ وَالفَسَادِ وَلَمْ يَفْعَلْ ، وَأَشْعِرُوا المُتَبَرِّجَاتِ بِالسُّخْطِ عَلَيْهِنَّ ، فَلَا تُكْرِمُوهُنَّ ، وَانْصَرِفُوا عَنْهُنَّ ، زَجْراً لَهُنَّ عَنِ التَّبَرُّجِ : حِرْصاً عَلَى سَلَامَتِكُمْ وَسَلَامَتِهِنَّ وَلَا تُبَالُوا بِسُخْرِيَةِ أَنْصَارِ التَّبَرُّجِ وَغَضَبِهِمْ : « أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » .

قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ وَكُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ » .

رواهُ النَّسائىُّ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ ، وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبى مُوسَى رضى اللهُ عنه .

وقالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَا مِنْ صَبَاحٍ إِلَّا وَمَلَكَانِ يُنَادِيَانِ : وَيْلٌ لِلرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ وَوَيْلٌ لِلنِّسَاءِ مِنَ الرِّجَالِ » .

رواهُ ابْنُ مَاجَهْ وَالحَاكِمُ عن أبى سَعِيدٍ رضى اللهُ عنه .

وَقالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا : قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ ، مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المَائِلَةِ

لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا ، أَىْ رَائِحَتَهَا ـ لَتُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا »[1] .

رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضى اللهُ عنه ، وَمَعْنَى كَاسِيَاتٍ عَارِيَاتٍ : أَنَّ الْمَرْأَةَ تَسْتُرُ بَعْضَ بَدَنِهَا وَتَكْشِفُ بَعْضَه ـ إِظْهَاراً لِجَمَالِهَا وَنَحْوِهِ أَوْ تَلْبَسُ ثَوْباً رَقِيقاً شَفَّافاً يَصِفُ لَوْنَ مَا تَحْتَهُ ، وَمَعْنَى مُمِيلاَتٍ : أى لأَكْتَافِهِنَّ ، مَائِلاَتٍ أَىْ يَمْشِينَ مُتَبَخْتِرَاتٍ ، وَكَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ ، وَالْبُخْتُ نَوْعٌ مِنَ الإِبِلِ أَىْ يُعَظِّمْنَ رُءُوسَهُنَّ بِلَفِّ عِصَابَةٍ وَنَحْوِهَا ، فَتُشْبِهُ سَنَامَاتِ هَذِهِ الإِبِلِ ، وَالْحَدِيثُ مِنْ عَلاَمَاتِ النبوَّةِ ، فَقَدْ وُجِدَ الصِّنْفَانِ فِى زَمَانِنَا بِالْمُشَاهَدَةِ .

وَعَنْ عَائِشَةَ رضى اللهُ عنها أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِى بَكْرٍ دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ رِقَاقٌ فَأَعْرَضَ عَنْهَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَقَالَ : يَاأَسْمَاءُ إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ الْمَحِيضَ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُرَى مِنْهَا إِلاَّ هَذَا وَهَذَا وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِهِ وَكَفَّيْهِ » .

رَوَاهُ أَبُو دَاودَ .

وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ وَضَعَتْ ثِيَابَهَا فِى غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا فَقَدْ هَتَكَتْ سِتْرَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ وَالْحَاكِمُ عَنْ عَائِشَةَ رضى اللهُ عنها .

---

(١) أى من مسيرة أربعين عاماً أو من مسيرة خمسمائة عام : كما فى روايتين أخريين .

٢٣ – إرضاء الخالق وإن غضب الخلق

الحَمْدُ لِلّهِ القَدِيرِ على كلِّ شيءٍ الخَبِيرِ بِكلِّ شيءٍ : « لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى » .

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ الَّذِي لاَ خَيْرَ إِلاَّ مِنْهُ ، وَلاَ شَرَّ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، وَكُلُّ شيءٍ في قَبْضَتِهِ : فَضَلَّ مَنْ طَلَبَ رِضَا غَيْرِهِ بِسَخَطِهِ ، وَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : « وَقُلِ الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً » .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، خَيْرُ مَنْ أَرْضَى مَوْلاَهُ ، وَقَالَ فِي تَضَرُّعِهِ لَهُ تَعَالَى : « وَلَكَ العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ »[1] .

أَمَّا بَعْدُ :

فَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ النَّاصِرُ ، مَلِكُ الأَنْدَلُسِ[2] ، حِينَ كَانَتْ مَمْلَكَةً إِسْلاَمِيَّةً ، الَّذِي خَافَهُ أَعْدَاؤُهُ ، وَمُعَاصِرُوهُ مِنَ المُلُوكِ – أَرَادَ أَنْ يُوَسِّعَ قَصْرَ حَظِيَّةٍ مِنْ نِسَائِهِ – بِشِرَاءِ دَارٍ مُجَاوِرَةٍ لَهُ ، كَانَتْ مَمْلُوكَةً لِأَيْتَامٍ ،

---

(١) رواه الطبراني عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما من دعاء له ﷺ مشهور : سماه بعضهم دعاء الطائف ، والعتبى : العمل المرضي .

(٢) بلاد الأندلس : إقليم عظيم في القسم الجنوبي من بلاد أسبانيا .

فقالَ الوَصيُّ عليهم : لا ينفذُ البيعُ إلاّ بإذنِ القاضي ، وكانَ القاضي - حينئذٍ - المُنذرَ بنَ سعيدٍ البلوطيّ ، فأرسلَ المَلِكُ إليهِ : لإنفاذِ البيعِ ، فقالَ لرسولِ المَلِكِ : إنّ البيعَ لدارِ الأيتامِ - لا يصحُّ إلاّ لمنفعتِهم ، ولا حاجةَ بهم للمالِ ، ولا بالدارِ ضعفٌ فتزال ، فأمّا إذا أعطاهم أميرُ المؤمنينَ ثمناً عظيماً مُجزياً - أنفذتُ البيعَ ، وإلاّ فلا ، فأظهرَ المَلِكُ زهداً في الشِّراء ، ولكنّ القاضيَ خشيَ أن يُصمّمَ المَلِكُ على الشِّراء ، كما أرادَهُ فأمرَ بهدمِ الدّارِ ، وباعَ الأنقاضَ وحدَها بأكثرَ منَ الثّمنِ الّذي عرضَهُ المَلِكُ ، فعزّ الأمرُ على المَلِكِ ، فأحضرَ القاضيَ وناقشَهُ ، فقالَ غيرَ مُبالٍ بسخطِ المَلِكِ ، حيثُ كانَ مُرضياً للهِ :

لقدْ أخذتُ في هدمِ الدّارِ : لمنفعةِ الأيتامِ بقولِهِ تعالى : « أمّا السّفينةُ فكانتْ لمساكينَ يعملونَ في البحرِ فأردتُ أنْ أعيبَها ، وكانَ وراءَهُم مَلِكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصباً » ، فقدْ قبضتُ في الأنقاضِ وحدَها أكثرَ منَ الثّمنِ الّذي عرضَ ، وبقيتِ الأرضُ للأيتامِ ، فظهرَ للمَلِكِ أنّ القاضيَ مُخلصٌ في اتّباعِ الحقّ ، فقالَ : نحنُ أولى بذلكَ ، ودعا لهُ بخيرٍ .

ولقيَ القاضي في حياتِهِ - معَ سلامتِهِ - ما لقيَ منْ ثناءٍ وتعظيمٍ - بعدَ وفاتِهِ .

ويا قومِ :

« لمثلِ هذا فليعملِ العاملونَ » ، « وفي ذلكَ فليتنافسِ المتنافسونَ » .

أيها المسلمون :

رَبُّنَا القَرِيبُ مِنَّا ، المُحِيطُ بِنَا ، المَالِكُ لَنَا ، المُدَبِّرُ ، العَلِيمُ ، الحَكِيمُ - بِيَدِهِ وَحْدَهُ - المُلْكُ وَالسُّلْطَانُ ، وَالعِزُّ ، وَالإِسْعَادُ ، وَكُلُّ مَخْلُوقٍ فِي ظِلِّ رَحْمَتِهِ ، وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

ذَلِكُمُ اللهُ ، الَّذِي بِيَدِهِ - قُلُوبُنَا : يُصَرِّفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ - هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ الخَيْرَ كُلَّهُ ، فَهَلْ يَلِيقُ أَنْ نُسَوِّيَ بِهِ النَّاسَ ، فَضْلاً عَنْ أَنْ نُرْضِيَهُمْ ، وَنُسْخِطَهُ ، فَمَهْمَا كَثُرَ مَالُهُمْ ، وَعَظُمَ جَاهُهُمْ ، وَاشْتَدَّتْ قُوَاهُمْ فَمَا هُمْ - إِلاَّ - عَبِيدٌ أَذِلاَّءُ : كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ - إِنْ لَمْ يَقُلْ بِلِسَانِ المَقَالِ - يَقُولُ بِلِسَانِ الحَالِ - قَوْلَ الرَّسُولِ صلى اللهُ عليه وسلم : « اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ ، وَابْنُ أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ »[1] .

---

(١) روى الإمام أحمد فى مسنده ، وابن حبان فى صحيحه ، عن عبد الله ابن مسعود : رضى الله عنه - أنه صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما أصاب عبداً هم ولا حزن ، فقال : « اللهم إنى عبدك وابن عبدك ، وابن أمتك ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور بصرى وجلاء حزنى وذهاب همى إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرجاً » .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : « وَلَهُ أَسْلَمَ - أَيِ انْقَادَ وَخَضَعَ - مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » .

فَمَنْ أَحَقُّ بِالسَّعْيِ لِمَرْضَاتِهِ ، وَرَجَاءِ الْخَيْرَاتِ مِنْهُ ، الَّذِي يَمْلِكُهَا وَيُعْطِيهَا ، أَمِ الَّذِي يُمَلَّكُهَا وَيُعْطَاهَا : امْتِحَاناً لَهُ ، فَإِنْ شَكَرَ - أُثِيبَ ، وَإِنْ جَحَدَ - عُذِّبَ ، وَلَوْ شَاءَ الْمَالِكُ الْمُعْطِي - لَسَلَبَ مَا مَلَّكَ وَأَعْطَى : « أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

وَمِنْ هُنَا - الْمُؤْمِنُ حَقًّا - لاَ يَقُولُ وَلاَ يَفْعَلُ شَيْئاً إِلاَّ مَا يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ رَاضٍ عَنْهُ ، فَلاَ يَرَاهُ اللهُ حَيْثُ نَهَاهُ ، وَلاَ يَفْقِدُهُ حَيْثُ أَمَرَهُ : كُلُّ تَصَرُّفَاتِهِ لِلّٰهِ : وَفْقَ شَرْعِهِ تَعَالَى : رَضِيَ النَّاسُ أَمْ سَخِطُوا ، وَنُصْبُ عَيْنَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

وَفِي الاسْتِجَابَةِ لِهَذَا النِّدَاءِ - الْخَيْرُ كُلُّهُ : بِإِرْضَاءِ اللهِ - بِطَاعَتِهِ تَعَالَى وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ : مِنْ عَدْلٍ وَإِحْسَانٍ وَكُلِّ مَا يَنْفَعُ ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ : كَالظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ وَكُلِّ مَا يَضُرُّ ، وَبِاتِّبَاعِهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَالاقْتِدَاءِ بِهِ ، وَقَدْ اسْتَجَابَ لِهَذَا النِّدَاءِ الإِمَامُ مَالِكٌ ، فَلَمْ يَغُرَّهُ الْعَطَاءُ ، وَلَمْ تُخِفْهُ السُّلْطَةُ ، حِينَ أَمَرَهُ الْخَلِيفَةُ هَارُونُ الرَّشِيدُ ، وَقْتَ زِيَارَتِهِ لِلْمَدِينَةِ - بِالانْتِقَالِ مَعَهُ إِلَى بَغْدَادَ ، بَعْدَ أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ كِيساً بِهِ خَمْسُمِائَةِ دِينَارٍ ، وَقَالَ الإِمَامُ لِرَسُولِ الْخَلِيفَةِ : قُلْ لِلْخَلِيفَةِ إِنَّ الْكِيسَ بِخَاتَمِهِ ، وَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه

وسلم : « لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ زَمَانٌ يَنْطَلِقُ النَّاسُ مِنْهَا إِلَى الْأَرْيَافِ[١] يَلْتَمِسُونَ الرَّخَاءَ فَيَجِدُونَ رَخَاءً، ثُمَّ يَأْتُونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ إِلَى الرَّخَاءِ ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »[٢] .

وَكَانَ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ الَّذِي اشْتَهَرَ بِالظُّلْمِ وَالْقَتْلِ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَرَأَى رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ يَطُوفُ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَتَعْرِفُ مُحَمَّدَ بْنَ يُوسُفَ ، وَهُوَ أَخُو الْحَجَّاجِ ، وَكَانَ وَالِيًا عَلَى الْيَمَنِ ؟ فَقَالَ الْيَمَنِيُّ : نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ : مَاتَقُولُ فِيهِ ؟ فَقَالَ الْيَمَنِيُّ مُرْضِيًا لِرَبِّهِ ، وَإِنْ أَسْخَطَ الْحَجَّاجَ : إِنَّهُ أَعْدَى الْعُدَاةِ عَلَى اللهِ ، وَأَحْكَامِهِ ، فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ أَخِي ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ - وَالْإِيمَانُ مِلْءُ قَلْبِهِ - نَعَمْ ، أَعْلَمُ أَنَّهُ أَخُوكَ ، وَلَكِنْ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ رَبِّي - أَقْدَرُ عَلَى مَنْعِ شَرِّكَ عَنِّي : لانْتِقَامِكَ لِأَخِيكَ ، فَأَكْبَرَ اللهُ ذَلِكَ الْيَمَنِيَّ فِي عَيْنِ الْحَجَّاجِ ، فَقَالَ لَهُ : صَدَقْتَ ، وَتَرَكَه ، يَنْصَرِفُ : يَطُوفُ حَوْلَ بَيْتِ اللهِ ، وَلِسَانُ حَالِهِ - يُخَاطِبُ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ - بِأُنْشُودَةِ قُلُوبِ الصَّالِحِينَ :

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ ... وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ ... وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ

---

(١) جمع ريف : بكسر الراء ، وهو ماقارب المياه فى أرض العرب ، وقيل هو الأرض التى فيها الزرع والخصب

(٢) رواه البزار ، عن جابر رضى الله عنه .

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الوُدُّ فَالكُلُّ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذِى فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

فيا عِبادَ اللهِ :

اللهَ اللهَ : اعْرِفُوهُ ، وَاتَّقُوهُ ، وَأَرْضُوهُ ، وَلاَ تَرْجُوا الخَيْرَ إِلاَّ مِنْهُ ، وَاخْشَوْهُ وَحْدَهُ وَلاَ تَخْشَوْا خَلْقَهُ : لِتَكُونُوا مَعَ الحَقِّ دَائِمًا : « أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

أَلاَ وَإِنَّ فِي إِرْضَاءِ المَخْلُوقِ بِمَا يُغْضِبُ الخَالِقَ - اتِّبَاعاً لِلْهَوَى الَّذِى يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ الرَّشَادِ ، وَيُصْلِي جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ : أَلَيْسَ مِنْ آثَارِهِ - مُجَارَاةُ الجُلَسَاءِ وَالأَصْدِقَاءِ فِي الغِيبَةِ وَالنِّفَاقِ ، وَمَدْحِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الذَّمَّ ، وَذَمِّ مَنْ يَسْتَحِقُّ المَدْحَ ، وَإِعْطَاءِ الحُقُوقِ لِغَيْرِ أَهْلِهَا ، وَإِسْنَادُ المَنَاصِبِ لِمَنْ لاَ يَسْتَحِقُّهَا فَتَكْثُرُ المَظَالِمُ ، وَتَعُمُّ الفَوْضَى ، وَتَفْسُدُ الأَخْــلاَقُ ، وَيَتَحَقَّقُ الدَّمَارُ وَالخَرَابُ ، وَلِذَلِكَ ، قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ »[1] .

---

(١) روى البخارى فى صحيحه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم ، لجاء أعرابى ، فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث ، فقال بعض القوم : سمع ماقال ، فكره ماقال ، وقال بعضهم : لم يسمع حتى إذا قضى حديثه - قال : أين السائل عن الساعة ؟ قال : هأنا يارسول الله . قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال : كيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله - فانتظر الساعــة .

وَكَسْبُ رِضَاهُ تَعَالَى يَكُونُ بِإِتْيَانِ جَمِيعِ طَاعَاتِهِ، وَتَتَحَقَّقُ الْوِقَايَةُ مِنْ غَضَبِهِ بِاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: «مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ[1] مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

فَيَا طَالِبًا لِرِضَا اللهِ، خَائِفًا مِنْ غَضَبِهِ — لَا تَدَعْ بَابًا لِلطَّاعَةِ إِلَّا قَرَعْتَهُ وَدَخَلْتَهُ، وَلَا بَابًا لِلْمَعْصِيَةِ إِلَّا تَرَكْتَهُ وَأَغْلَقْتَهُ، وَلَا تَخْشَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَسَوَاءٌ — بَعْدَ تَأْدِيَتِكَ هَذَا الْوَاجِبَ — رِضَا الْخَلْقِ وَغَضَبُهُمْ، فَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لَكَ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلّم: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[2].

أيها المسلمون:

الحياةُ الدنيا محدودة، وَالْحَيَاةُ الآخرةُ ممدودة، فَأَرْضُوا مَنْ بِيَدِهِ خَيْرُ

---

(١) أي يمنعكم.

(٢) رواه الترمذي، عن أبي العباس، عبدالله بن عباس: رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: «ياغلام إني أعلمك كلمات احفظ الله ... إلى آخر الحديث المذكور».

الحياتين ، والسعادة فيهما ، واجعلوا أقوالكم وأعمالكم ونواهيه أول ما تجتنبون ، ودعوته أول ما تسمعون ، فإذا جاء وقت الصلاة — فاتركوا مجالسكم وأحباءكم ، ولبوا نداء الله ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، التي بها تكسبون مراقبة الله ، وطيب الحياة وحسن العاقبة — في تلك المراقبة ، وإذا دعيتم إلى شهادة فأدوها لله : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا ، فالله أولى بهما ولا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا[1] أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » .

وما عليكم — أن تصلوا وتصوموا وتزكوا وتحجوا وتقرءوا القرآن وتذكروا الله ، وتقفوا عند حدود الإسلام — مستمسكين بجميع تعاليمه . فيقول لكم بعض المحرومين : إنكم رجعيون ، ومتمشيخون ، وغير متمدينين ، ومتزمتون أو نحو ذلك ، وماذا يضر التقية ، التي تسير في الطرقات عليها ثيابها الساترة ، غير متبرجة ، فيقال عنها : متأخرة غير متحضرة ، وقد سلمت من عاقبة النساء الكاسيات العاريات ، ذوات الثياب الشفافة الضيقة القصيرة اللاتي أخبر[2] عنهن النبي صلى الله عليه وسلم أنهن لا يدخلن الجنة ولا يجدن رائحتها .

ألا إن المتدين المرضي لربه — في عين الله — كبير ، وإن من يذمه —

---

(١) تلتفتوا . (٢) روى مسلم في صحيحه هذا الخبر . . .

فِي عَيْنِ اللهِ - صَغِيرٌ وَحَقِيرٌ ، وَاللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُقَاسَ بِهِ سِوَاهُ ، وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا : وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا .

وَقَدْ بَيَّنَ صلى اللهُ عليه وسلم مَنْزِلَةَ عُمَرَ رضى اللهُ عنه : لِيَقْتَدِيَ بِهِ - فِي إِرْضَاءِ الْخَالِقِ، وَإِنْ غَضِبَ الْخَلْقُ ، فَقَالَ[1] : «يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَيْنَ الْفَارُوقُ ؟ فَيُؤْتَى بِهِ ، فَيَقُولُ اللهُ : مَرْحَبًا بِكَ يَا أَبَا حَفْصٍ . هَكَذَا كِتَابُكَ ، إِنْ شِئْتَ فَاقْرَأْهُ وَإِنْ شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ ، وَيَقُولُ الْإِسْلَامُ : يَارَبِّ . هَذَا عُمَرُ أَعَزَّنِي فِي دَارِ الدُّنْيَا - فَأَعِزَّهُ فِي عَرَصَاتِ[2] الْقِيَامَةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُحْمَلُ عَلَى نَاقَةٍ مِنْ نُورٍ ، ثُمَّ يُكْسَى حُلَّتَيْنِ ، لَوْ نُشِرَتْ إِحْدَاهُمَا - لَغَطَّتِ الْخَلَائِقَ ، ثُمَّ يَسِيرُ بَيْنَ يَدَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ لِوَاءٍ ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ : يَاأَهْلَ الْمَوْقِفِ ، هَذَا عُمَرُ فَاعْرِفُوهُ » .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ :

اتَّقِ اللهَ وَانْتَبِهْ : « سَرَقَتْ مَخْزُومِيَّةٌ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم بِقَطْعِ يَدِهَا ، فَأَتَى أَهْلُهَا أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ فَكَلَّمُوهُ ، فَكَلَّمَ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم فِيهَا ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : «يَاأُسَامَةُ لَا أَرَاكَ تَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم خَطِيبًا ، فَقَالَ :

---

(١) ذكره الحافظ المحب الطبرى فى كتابه الرياض النضرة .

(٢) جمع عرصة بوزن ضربة : هى - فى الأصل - كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء .

إنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ قَطَعُوهُ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا ، فَقَطَعَ يَدَ الْمَخْزُومِيَّةِ »[1] ، وَهَكَذَا كَانَ صلى اللهُ عليه وسلم يُرْضِي رَبَّهُ وَلاَ يُبَالِي بِسَخَطِ النَّاسِ .

وَقَدْ أَسْخَطَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ : عَبَدَةَ الْأَصْنَامِ بِإِرْضَائِهِ اللهَ رَبَّهُ : بِتَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ تَعَالَى ، وَتَكْسِيرِ الْأَصْنَامِ ، وَلَمْ يُبَالِ بِالنَّارِ الَّتِي أَوْقَدُوهَا لَهُ ، فَجَعَلَهَا اللهُ بَرْداً وَسَلاَماً عَلَيْهِ ، وَيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ - رَاوَدَتْهُ امْرَأَةُ عَزِيزِ مِصْرَ - وَهِيَ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ - وَهُوَ مَمْلُوكٌ لَهَا ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَفَرَّ مِنْهَا ، فَأَغْضَبَهَا ، وَأَرْضَى رَبَّهُ ، فَمَكَّنَ اللهُ لَهُ فِي أَرْضِ مِصْرَ ، وَرَفَعَ قَدْرَهُ .

« أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ » ، وَأَرْضِ رَبَّكَ وَحْدَهُ - يُرْضِ عَنْكَ خَلْقَهُ ، وَيُصْلِحْ لَكَ حَالَكَ ، وَلاَ تَكُنْ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُ - كَمَنْ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى الرُّؤَسَاءِ وَالْعُظَمَاءِ - بِفِعْلِ مَا يَشْتَهُونَ وَيُحِبُّونَ ، وَإِنْ أَغْضَبُوا بِذَلِكَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يَرْجُونَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ - وَظِيفَةً أَوْ مَالاً أَوْ جَاهاً ، وَغَفَلُوا عَنْ أَنَّ اللهَ - وَهُوَ الْمُعْطِي وَحْدَهُ - قَدْ يَحْرِمُهُمْ مَا أَرَادُوا ، مَعَ حِرْمَانِهِمْ مِنْ رِضَاهُ وَفَضْلِهِ فَلاَ دُنْيَا يُصِيبُونَ ، وَلاَ آخِرَةً يَكْسِبُونَ .

---

(١) روى ذلك أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجه والحاكم وغيرهم واسم المخزومية المذكورة : فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد وهي بنت أخي أبي سلمة ابن عبد الأسد الصحابي المشهور .

« وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ » .

قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ أَسْخَطَ اللهَ فِي رِضَا النَّاسِ — سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ مَنْ أَرْضَاهُ فِي سَخَطِهِ ، وَمَنْ أَرْضَى اللهَ فِي سَخَطِ النَّاسِ — رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَأَرْضَى عَنْهُ مَنْ أَسْخَطَهُ فِي رِضَاهُ ، حَتَّى يُزَيِّنَهُ ، وَيُزَيِّنَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ فِي عَيْنِهِ » .

رواهُ الطَّبَرَانِيُّ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : رضى الله عنهما .

وقالَ صلى اللهُ عليـه وسلم : « مَنْ طَلَبَ مَحَامِدَ النَّاسِ بِمَعَاصِي اللهِ عادَ حَامِدُهُ لَهُ ذَامًّا » .

رواهُ البَزَّارُ ، عن عائِشَةَ : رضى الله عَنْهَا .

٢٤ ـ الحث على حسن الخلق

الْحَمْدُ لِلّٰهِ : يَرْفَعُ دَرَجَةَ عَبْدِهِ ـ بِحُسْنِ خُلُقِهِ ، وَقَدْ قَالَ نَبِيُّهُ : « كَرَمُ الْمَرْءِ دِينُهُ ، وَمُرُوءَتُهُ عَقْلُهُ ، وَحَسَبُهُ خُلُقُهُ »[١] .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ : جَعَلَ مِنْ عِبَادَتِهِ ـ حُسْنَ الْخُلُقِ وَفِى الْحَدِيثِ النَّبَوِىِّ الشَّرِيف : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَيْسَرِ الْعِبَادَةِ وَأَهْوَنِهَا عَلَى الْبَدَنِ : الصَّمْتُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ »[٢] .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا رَسُولُ اللّٰهِ ، أَرْشَدَ أُمَّتَهُ إِلَى مَا بِهِ الْفَوْزُ وَالْفَلَاحُ فَقَالَ[٣] : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ ، وَجَعَلَ قَلْبَهُ سَلِيمًا ، وَلِسَانَهُ صَادِقًا وَنَفْسَهُ مُطْمَئِنَّةً ، وَخَلِيقَتَهُ مُسْتَقِيمَةً » وَكَانَ[٤] ، صلى اللّٰهُ عليه وسلم يدعو يقولُ : « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ الشِّقَاقِ وَالنِّفَاقِ وَسُوءِ الْخُلُقِ » .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِى كَانَ يَدْعُو بِقَوْلِهِ : « اللَّهُمَّ كَمَا

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم والبيهقى عن مسلم بن خالد الزنجى رضى الله عنه .

(٢) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت عن صفوان بن سليم مرسلا .

(٣) رواه الإمام أحمد والبيهقى عن أبى ذر رضى الله عنه ، وفيه بعد كل مستقيمة : « وجعل أذنه مستمعة وعينه ناظرة فأما الأذن فقمع والعين مقرة بما يوعى القلب وقد أفلح من جعل قلبه واعياً .

(٤) رواه أبو داود والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

أحسنت خلقي فأحسن خُلُقي »[1] . وعلى آله وصحبه الكرام ، ذوي الخلق العظيم لاقتدائهم برسولهم الكريم .

أما بعدُ : فيا عباد الله :

أتى رجلٌ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم من قِبَلِ وجهِه ، فقال : يارسول الله أيُّ العملِ أفضلُ ؟ قال : « حُسْنُ الخُلُقِ ، ثم أتاه عن يمينه ، فقال : أيُّ العمل أفضلُ ؟ قال : حُسْنُ الخُلُقِ ثم أتاه عن شِمالِه ، فقال : يا رسولَ الله أيُّ العملِ أفضلُ ؟ قال : حُسْنُ الخُلُقِ ، ثم أتاه مِنْ خلفِه ، فقال : يارسولَ اللهِ أيُّ العملِ أفضلُ ؟ فالتفتَ إليه رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقال : مالكَ لاتفقهُ ؟ حُسْنُ الخُلُقِ : هوَ ألاَّ تغضبَ إنِ استطعتَ »[2] ، وذلكَ كما كانَ مِنْ إبراهيمَ بنِ أدهمَ الوليِّ المشهورِ : خرجَ يوماً إلى بعضِ البراري ، فاستقبلهُ جُنديٌّ ، فسألهُ : أنتَ عبدٌ ؟ قال : نعمْ ، فقالَ لهُ : أينَ العمرانُ ؟ فأشارَ إلى المقبرةِ ، فقالَ الجنديُّ : إنما أردتُ العمرانَ ، فقالَ هوَ المقبرةُ ، فغاظهُ ذلكَ فضربَ رأسهُ بالسوطِ فشجّهُ وردّهُ إلى البلدِ : ظنَّا أنهُ عبدٌ هاربٌ مِنْ سيدِه ، فاستقبلهُ أصحابهُ ، فقالوا : ما الخبرُ ؟ فأخبرهم الجنديُّ ماقال له . فقالوا : هذا إبراهيمُ بنُ أدهم فنزل الجنديُّ منْ فرسه ، وقبّل يديهِ ورجليهِ . وجعل يعتذرُ إليهِ ، فقيل ابنُ أدهم عذرهُ ، وسألَ اللهَ له الجنّة فقيل له : كيف وقدْ ظلمك ؟ فقالَ : علمتُ أنني أُوجرُ على مانالني

---

(١) رواه أحمد عن عائشة رضي الله عنها . (٢) رواه - عن العلاء بن الشخير - محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة : مرسلا .

منه، فلم أرد أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق»[1]، ولا عجب أن يكون حسن الخلق أفضل عمل، فإنه هو الأمر الذي لا يستطيع الناس أن يعيشوا بدونه، فبه ـ قضاء المصالح، وتحقيق الرغبات، والأمن والهدوء والاطمئنان في الحياة.

ولذلك كان شريعة العالم، التي لا يختلف فيها أحد، فكل أصحاب الملل يقولون بحسن الخلق، ويثنون على صاحبه:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد أرشدنا رسولنا الكريم إلى أن حسن الخلق هو العمل بالدين كله.

قال صلى الله عليه وسلم: «البر حسن الخلق»[2]، فإن البر ـ معاملة الخلق بالإحسان، ومن ذلك بر الوالدين، قال تعالى: «وبالوالدين إحسانا» وفعل جميع طاعات الله الظاهرة: كإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والطاعات الباطنة: كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله.

---

(١) رواه أبو يعلى والبزار عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) روى مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم قال: «البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس». وحاك في نفسك أي حرجا وضيقا ونفورا وكراهة.

عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ الأَحْنَفُ أَحَدُ مَشَاهِيرِ الْحُلَمَاءِ فِي الإِسْلاَمِ : عَجِبْتُ لِمَنْ جَرَى فِي مَجْرَى الْبَوْلِ مَرَّتَيْنِ كَيْفَ يَتَكَبَّرُ .

وَالْكَفُّ عَنِ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ بِالنَّفْسِ — هُوَ الْجَدِيرُ بِكُلِّ عَاقِلٍ حَرِيصٍ عَلَى خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ :

وَأَحْسَنُ أَخْلاَقِ الْفَتَى وَأَتَمُّهَا ... تَوَاضُعُهُ لِلنَّاسِ وَهْوَ رَفِيعُ
وَأَقْبَحُ شَيْءٍ أَنْ يَرَى الْمَرْءُ نَفْسَهُ ... رَفِيعاً وَعِنْدَ الْعَالَمِينَ وَضِيعُ

أَلاَ إِنَّ الْمُتَكَبِّرَ لاَ يَزِنُ الدُّودَ وَهُوَ يَجُودُ بِالْحَرِيرِ يُتَّخَذُ مِنْهُ فَاخِرُ الثِّيَابِ، وَلاَ يُسَاوِي النَّحْلَ : « يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » أَلاَ وَإِنَّهُ — أَضْعَفُ مِنَ الذُّبَابَةِ : أَلَمْ تَسْلُبْهُ قُوَّتَهُ ، وَأَقَلُّ مِنَ النَّمْلَةِ أَلَمْ تُؤْلِمْهُ وَتُقْلِقْ رَاحَتَهُ ، وَهُوَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْزُقَ فَأْرَهُ ، أَوْ يَخْلُقَ شَمَرَةً ، وَهُوَ دَائِماً فَقِيرٌ إِلَى رَحْمَةِ اللهِ ، الْقَائِلِ : « إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » ، وَالْكِبْرُ إِسَاءَةٌ لاَ إِحْسَان .

أَيُّهَا الْعَاقِلُ :

اتَّقِ اللهَ ، وَاحْذَرِ الْكِبْرَ ، فَلاَ تَرُدَّ حَقّاً ، وَلاَ تَحْقِرْ أَحَداً ، وَانْظُرْ إِلَى مَاضِيكَ وَحَالِكَ ، وَفَكِّرْ فِي مُسْتَقْبَلِكَ ، فَإِنَّكَ سَتَرْجِعُ إِلَى التُّرَابِ الَّذِي مِنْهُ خُلِقْتَ ، وَتُوضَعُ فِي حُفْرَةٍ مَمْلُوءَةٍ بِالْحَشَرَاتِ وَالدُّودِ بَعْدَ أَنْ تَلْفِظَ أَنْفَاسَكَ الأَخِيرَةَ ، فَيَبْكِي الْحَبِيبُ ، وَيَشْمَتُ الْحَسُودُ ، وَأَيْنَ تَكُونُ حِينَئِذٍ عَظَمَتُكَ وَكِبْرِيَاؤُكَ وَأَنْتَ رَهِينٌ بِعَمَلِكَ ، وَاللهُ وَالْمَلاَئِكَةُ عَلَيْكَ شُهُودٌ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لاَ يَنْظُرُ إِلَى ذُلِّكَ وَعَجْزِكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الرَّهِيبِ .

فَطَهِّرْ قَلْبَكَ - يَاعَبْدَ اللهِ - مِنَ الْكِبْرِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى مِنْ بَاطِنِكَ مَا يَرَى مِنْ ظَاهِرِكَ ، وَأَحَبُّ خَلْقِ اللهِ إِلَى اللهِ - أَنْفَعُهُمْ لِعِبَادِهِ ، وَلاَ يَكُونُ الْمَرْءُ عَظِيمَ النَّفْعِ لِعِبَادِ اللهِ إِلاَّ بِالتَّوَاضُعِ ، فَالْكِبْرُ مُقَطِّعٌ لِلصِّلاَتِ بَيْنَ النَّاسِ ،مَانِعٌ لِتَعَاطُفِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْكِبْرِ أَنْ تَتَرَفَّعَ عَنِ الدَّنَايَا ، وَمُخَالَطَةِ الأَدْنِيَاءِ ، أَوْ أَنْ تَعْتَزَّ بِكَرَامَتِكَ ، وَتَبْعُدَ عَنْ مَوَاطِنِ الشُّبُهَاتِ ، وَمَوَاقِفِ التُّهَمِ : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » .

عَبْدَ اللهِ :

اتَّقِ اللهَ ، وَلاَ تَتَعَالَ عَلَى مَنْ هُوَ دُونَكَ عِلْماً أَوْ صِحَّةً أَوْ قُوَّةً شُكْراً لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَبْتَلِكَ بِالْفَقْرِ وَالْجَهْلِ وَالْمَرَضِ ، وَلاَ تَسْتَنْكِفْ مِنْ مُجَالَسَةِ الْفُقَرَاءِ ، وَلاَ تَأْنَفْ مِنْ سَمَاعِ النُّصْحِ مِمَّنْ هُوَ دُونَكَ ، وَلاَ تَسْخَرْ مِنْ ضَعِيفٍ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْراً مِنْكَ بِإِيمَانِهِ بِاللهِ ، وَطَاعَتِهِ لَهُ جَلَّ عُلاَهُ « وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ »[1] .

تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لاَحَ لِنَاظِرٍ ... عَلَى صَفَحَاتِ الْمَاءِ وَهْوَ رَفِيعُ
وَلاَتَكُ كَالدُّخَانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ ... عَلَى طَبَقَاتِ الْجَوِّ وَهْوَ وَضِيعُ

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ

---

(١) روى مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » .

عِنْدَ اللهِ ، وَجَزَاءُ ضِدِّهِ ـ الدَّرْكَ الأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ : قَالَ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ عَظِيمَ دَرَجَاتِ الآخِرَةِ وَأَشْرَفَ الْمَنَازِلِ ، وَإِنَّهُ لَضَعِيفُ الْعِبَادَةِ ، وَإِنَّهُ لَيَبْلُغُ بِسُوءِ خُلُقِهِ أَسْفَلَ دَرَجَةٍ فِي جَهَنَّمَ »[1].

وَمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ مَعَ الْخَلْقِ ، وَحَسَّنَهُ مَعَ الْخَالِقِ ، فَلَمْ يَفْتَقِدْهُ حَيْثُ أَمَرَهُ ، وَلَمْ يَجِدْهُ حَيْثُ نَهَاهُ ـ سَلِمَ مِنَ الأَهْوَالِ الْعَظِيمَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ».

وَكَانَ أَقْرَبَ مِنْ غَيْرِهِ مَجْلِساً لِرَسُولِ اللهِ ، فِي الْجَنَّةِ ، وَفِيهَا يَسْعَدُ بِخَيْرِ جِوَارٍ ، جِوَارِ اللهِ ذِي الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ .

قَالَ صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَأَعَادَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثاً : قَالُوا نَعَمْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : (أَحْسَنُكُمْ خُلُقاً) »[2].

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : « أَوْحَى اللهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا خَلِيلِي حَسِّنْ خُلُقَكَ وَلَوْ مَعَ الْكُفَّارِ ـ تَدْخُلْ مُدْخَلَ الأَبْرَارِ ، وَإِنَّ كَلِمَتِي سَبَقَتْ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ أَنْ أُظِلَّهُ تَحْتَ عَرْشِي ، وَأَنْ أَسْقِيَهُ مِنْ حَظِيرَةِ قُدْسِي ، مِنْ جَنَّتِي ـ وَأَنْ أُدْنِيَهُ مِنْ جِوَارِي » .

---

(١) رواه الطبراني عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٢) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .
(٢) رواه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أيها المسلم :

جاءَ رَجُلٌ إلى عِيسَى بنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ فقالَ : يا مُعَلِّمَ الخيرِ ، كَيْفَ أكونُ تقِيًّا لِلهِ عزَّ وجلَّ كما ينبغي لهُ ؟ قالَ : بِيَسِيرٍ مِنَ الأمرِ : تُحِبُّ اللهَ بِقَلْبِكَ كُلِّهِ ، وتَعمَلُ بِكَدْحِكَ - بِجُهْدِ نفسِكَ وتَعَبِكَ - وقُوَّتِكَ مَااستَطَعْتَ ، وتَرْحَمُ ابنَ جِنْسِكَ كما تَرْحَمُ نَفْسَكَ . قالَ : مَنِ ابنُ جِنسِي يامُعَلِّمَ الخيرِ ؟ قالَ : وَلَدُ آدمَ كُلُّهُمْ ، ومالا تُحِبُّ أنْ يُؤْتَى إليكَ فلا تَأْتِهِ لأحَدٍ ، وأنتَ تَقِيٌّ لِلهِ عزَّ وجلَّ كما ينبغي لهُ ، فاتَّقِ اللهَ ، واعْمَلْ بِهذِهِ النَّصِيحَةِ - تَكُنْ حَسَنَ الخُلُقِ مع اللهِ والنَّاسِ ، وكُنْ حلِيمًا ، فالحِلْمُ سَيِّدُ الأخلاقِ ، واعدِلْ ، وكُنْ أمينًا صادِقًا ، واقتَدِ بِرَسُولِكَ المُخاطَبِ بِقَولِ رَبِّهِ : « وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » . وانتَبِهْ :

صَلاحُ أمْرِكَ لِلأخلاقِ مَرْجِعُهُ نَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالأخلاقِ تَستَقِمِ

قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « ألا أدُلُّكُمْ عَلَى أكْرَمِ أخلاقِ أهلِ الدُّنيا والآخرةِ : أنْ تَصِلَ مَنْ قطَعَكَ ، وتُعطِيَ مَنْ حرَمَكَ ، وتَعفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » . رواهُ الطَّبَرانِيُّ عن عَلِيٍّ رضى اللهُ عنه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إنَّ المُؤمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القائِمِ » رواهُ أبو داوُدَ وابنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ عن عائِشَةَ رضي اللهُ عنها .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « ما مِنْ شَيْءٍ أثقَلُ في المِيزانِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ » . رواهُ أبو داوُدَ عن أبي الدَّرْداءِ رضي اللهُ عنه .

وقالَ أسامةُ بنُ شَريكٍ رضى اللهُ عنه : « كُنَّا جُلوساً عِندَ النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم كأنَّما عَلى رُءوسِنا الطَّيرُ مَايَتكلَّمُ مِنَّا مُتكلِّمٌ إذ جاءَهُ أناسٌ فقالُوا : مَنْ أحبُّ عِبادِ اللهِ إلى اللهِ تعالَى ؟ قالَ : أحسَنُهُمْ خُلُقاً » .

رواهُ الطَّبرانيُّ ، وابنُ حِبّانَ في صَحيحِه ، وفى رِوايةٍ لابنِ حِبّانَ : « قالُوا : يارَسولَ اللهِ ، فَما خَيرُ ماأُعطِيَ الإنْسانُ ؟ قالَ : خُلُقٌ حَسَنٌ » .

وسُئِلَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عَنْ أكثَرِ مايُدخِلُ النّاسَ الجَنَّةَ ، فقالَ : « تقوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ وسُئِلَ عَنْ أكثَرِ مايُدخِلُ النّاسَ النّارَ ، فقالَ : الفَمُ والفَرْجُ » .

رواهُ التِّرمذيُّ وابنُ حِبّانَ في صَحيحِه ، والبَيهَقيُّ في الزُّهدِ وغَيرِه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أكمَلُ المُؤمِنينَ إيماناً أحسَنُهُمْ خُلُقاً » . رواهُ أبو يَعلَى عَنْ أنَسِ بنِ مالِكٍ رضى اللهُ عنه ، وَعن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرِو ابنِ العاصِ رضى اللهُ عنهما ـ أنَّ مُعاذَ بنَ جَبَلٍ رضى اللهُ عنه ـ أرادَ سَفَراً فقالَ : يانَبيَّ اللهِ أوصِنِي ، قالَ : اعْبُدِ اللهَ لاَ تُشرِكْ بِهِ شَيئاً قالَ : يا نَبيَّ اللهِ زِدْني ، قالَ : إذَا أسَأتَ فَأحسِنْ ، قالَ : يانَبيَّ اللهِ زِدْني ، قالَ : استَقِمْ وَلْيَحْسُنْ خُلُقُكَ » .

رواهُ ابنُ حِبّانَ في صَحيحِه ، والحاكِمُ ، وقالَ مُعاذٌ رضى اللهُ عنه : « كانَ آخِرُ ماأوصَاني بِهِ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حِينَ وَضَعتُ رِجلِي فى الغَرْزِ ـ الرِّكابِ ـ أنْ قالَ يامُعاذُ أحسِنْ خُلُقَكَ لِلنّاسِ » .

رواهُ مالكٌ .

وقالَ رَجُلٌ : يا رَسُولَ اللهِ ، أيُّ الصَّلاةِ أفضلُ ؟ قالَ : طُولُ القُنُوتِ – القِيامِ – قالَ : فأيُّ الصَّدَقَةِ أفضلُ ؟ قالَ : جُهْدُ المُقِلِّ . قالَ : أيُّ المُؤمِنِينَ أكْمَلُ إيمانًا ؟ قالَ : أحْسَنُهُمْ خُلُقًا .

رواهُ الطبرانيُّ في الأوسطِ ، عن عُمَيْرِ بنِ قَتادةَ رضي اللهُ عنه .

---

٢٥ ـ التحذير من الكبر والحث على التواضع

الحَمْدُ لِلَّهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ، صَاحِبِ العَظَمَةِ وَالجَلَالِ: «وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ».

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، القَائِلُ: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ»[1].

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، أَفْضَلُ مَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ ذِلَّةٍ، وَعَزَّ فِي غَيْرِ كِبْرِيَاءٍ، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»[2].

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ المُتَوَاضِعِينَ الأَعِزَّاءِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَفِي يَوْمٍ ـ أَمَرَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يُنَادَى بِجَمْعِ النَّاسِ فِي المَسْجِدِ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا ـ صَعِدَ المِنْبَرَ وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ عُمَرَ الَّذِي هُوَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ اليَوْمَ ـ كَانَ يَرْعَى الغَنَمَ لِلْخَطَّابِ، وَيَأْكُلُ القَدِيدَ، وَيَتَسَتَّرُ بِالجُلُودِ، فَأَصْبَحَ اليَوْمَ لَيْسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ إِلَّا الفَرْدَ الصَّمَدَ، ثُمَّ نَزَلَ، فَقَالَ قَائِلٌ: أَلِهَذَا ـ جَمَعْتَنَا؟ قَالَ: نَعَمْ أَرَدْتُ أَنْ أُهَذِّبَ نَفْسِي، وَأُنَحِّيَ عَنْهَا الكِبْرَ،

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه. وأبو داود وابن ماجه، واللفظ له عن ابن عباس رضى الله عنهما عنه: صلى الله عليه وسلم، عن الله عز وجل (٢) رواه مسلم فى صحيحه، وأبو داود، وابن ماجه عن عياض بن حماد رضي الله عنه،

عِبَادَ اللهِ :

الكِبْرُ صِفَةٌ تَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ الْمُتَّصِفُ بِهَا مُتَعَالِيًا عَلَى مَا سِوَاهُ ، وَمَنْ فِي الْوُجُودِ مُتَعَالٍ عَلَى مَا سِوَاهُ ، سِوَى مَنِ انْفَرَدَ بِالعِزَّةِ فَلَا مَثِيلَ لَهُ ، وَبِالْوَحْدَانِيَّةِ ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِالْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَبِالْغِنَى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ شَيْءٌ : « ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » . فَلَا يَلِيقُ الكِبْرُ إِلَّا بِهِ تَعَالَى ، وَمَنْ تَكَبَّرَ مِنْ خَلْقِهِ - فَقَدْ نَازَعَ اللهَ حَقَّهُ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : « فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ » .

فَالكِبْرُ إِذًا بِالنِّسْبَةِ لِلإِنْسَانِ صِفَةُ نَقْصٍ ، لِأَنَّهُ تَعَاطَى مَا لَيْسَ لَهُ ، وَمَا لَا يَلِيقُ بِهِ ، فَهُوَ مَخْلُوقٌ ضَعِيفٌ ، مَبْدَؤُهُ الْعَدَمُ ، وَمُنْتَهَاهُ الْعَدَمُ ، وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ مُدَّةَ حَيَاتِهِ - مُحْتَاجٌ إِلَى سِوَاهُ ، لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِ ، ثم هُوَ يَجُوعُ كَرْهًا ، وَيَظْمَأُ كَرْهًا ، وَيَمُوتُ كَرْهًا ، وَيُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ الشَّيْءَ فَيَجْهَلَهُ ، وَيُرِيدُ أَنْ يَذْكُرَ الشَّيْءَ فَيَنْسَاهُ ، وَلَا يَأْمَنُ فِي لَحْظَةٍ مِنْ لَيْلِهِ أَوْ نَهَارِهِ أَنْ يُسْلَبَ سَمْعَهُ أَوْ بَصَرَهُ أَوْ يَذْهَبَ عَقْلُهُ وَجَاهُهُ وَمِلْكُهُ .

وَكُلُّ مَوَاهِبِهِ - نِعْمَةٌ مِنْ خَالِقِهِ ، الَّذِي خَلَقَهُ فَسَوَّاهُ ، وَفِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَهُ ، وَرَعَاهُ فِي كُلِّ أَطْوَارِ حَيَاتِهِ ، وَقَالَ :

« وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ » .

وَلاَشَكَّ أَنَّ الْكِبْرَ مَنْشَؤُهُ الْجَهلُ وَالْغُرُورُ ، يُعْجَبُ صَاحِبُهُ بِمَا وَهَبَهُ اللهُ فَيَغْفُلُ عَنْ وَاهِبِهِ ، وَهُوَ مُمْتَلِىءٌ بِحُبِّ الظُّهُورِ ، فَيَمْشِي فِي الْأَرْضِ مَرَحًا[1] وَهُوَ أَعْمَى عَنْ قَوْلِ خَالِقِهِ الْقَدِيرِ : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً » .

وَالْمُتَكَبِّرُ مُنْعَدِمُ الْمُرُوءَةِ وَكُلُّ صِفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ قَدِ انْمَحَتْ فِي كِبْرِيَائِهِ الْفَضَائِلُ : « وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ » .

وَكَفَى الْمُتَكَبِّرَ عَمًى بَصِيرَتِهِ بِمُنَازَعَةِ الْجَبَّارِ الْأَعْظَمِ فِي أَخَصِّ صِفَاتِهِ ، حَيْثُ يَرَى غَيْرَهُ دُونَهُ ، وَلاَ يَقْبَلُ مِنْهُ إِلا غَايَةَ التَّذَلُّلِ وَالْخُضُوعِ لَهُ فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنِ التَّحْقِيرِ وَالْغَضَبِ إِلَيْهِ إِذَا لَمْ يَبْدَأْهُ بِالسَّلَامِ أَوْ قَصَّرَ فِي حَوَائِجِهِ أَوْ تَعْظِيمِهِ ، وَيَتَرَفَّعُ فِي الْمَجَالِسِ ، وَيَتَقَدَّمُ فِي الطَّرِيقِ عَلَيْهِ ، وَيَثُورُ إِذَا تَكَلَّمَ ، وَلَمْ يَرَ مِنْهُ كُلَّ الْإِنْصَاتِ إِلَيْهِ ، وَلاَ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ إِلاَّ مُنْتَفِخًا وَإِحَاجَتِهِ ، وَالْمُتَكَبِّرُ يَجْحَدُ الْحَقَّ إِذَا نَاظَرَ ، وَيُعَنِّفُ إِذَا وَعَظَ وَعَلَّمَ ، وَيَنْظُرُ إِلَى الْعَامَّةِ كَنَظَرِهِ إِلَى الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ ، وَلِذَلِكَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي غَايَةِ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ : يَوَطْؤُه أَقْدَامُ النَّاسِ لَهُ : جَزَاءً وِفَاقًا : لِادِّعَائِهِ فِي الْحَيَاةِ أَنَّهُ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ .

---

(١) المرح فى الأصل : شدة الفرح والتوسع فيه ، والمفهوم منه أن يكون متلبساً بكبر وخيلاء وتجاوز القدر .

قال رسولنا صلى الله عليه وسلم[1] : « يُحشر المتكبرون يوم القيامةِ بأمثالِ الذرِّ[2] في صُورِ الرجالِ ، يغشاهم الذلُّ من كلِّ مكانٍ ، يُساقون إلى سِجنٍ في جهنم يُقال له : بُولَس ، تعلوهم نارُ الأنيارِ ، يُسقون من عُصارةِ أهلِ النارِ : طِينةِ الخَبالِ » .

عِنْدَ اللهِ :

تكبّرَ إبليسُ فلم يمتثلْ أمرَ اللهِ بالسجودِ لآدمَ فطُرِدَ من رحمةِ اللهِ ، وتكبّرَ فرعونُ ، حتى قال لقومِه : أنا ربُّكمُ الأعلى ، فأغرقَه اللهُ في دُنياه ، وكتبَ عليه الإحراقَ في أُخراه .

وما الذي يدعو إلى التكبرِ ويدفعُ إليه : إن كان المالَ - فلينظرِ المتكبرُ إلى مَن أعطاه بفضلِه ، وحرمَ منه غيرَه بعدلِه ، وإن كان هو الجاهَ والسلطانَ والقوةَ - فليعلمْ أنّ القوةَ للهِ جميعاً ، ولو شاء لسلبَه ما تكبّرَ به ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير .

فليتنبهِ المتكبرُ : إنه يغدو ويروح كبعضِ أولادِ المهلّبِ الذي مرَّ - وهو يتبختر في مِشيتِه - بمالكِ بنِ دينارٍ - أحدِ سلفِنا الصالحِ - فقال له : يا بُنيَّ لو تركتَ هذه الخُيلاءَ - لكانَ أجمل ؛ فقال المهلّبيُّ : أوَما تعرفني ؟ قال مالكٌ : أعرفُك معرفةً جيدةً ، أوّلُك نطفةٌ مَذِرةٌ ، وآخِرُك جيفةٌ قَذِرةٌ ، وأنت بين ذلك تحملُ العَذِرةَ ، فأرخى الفتى المهلّبيُّ يأسه وكفّ ...

---

(١) رواه النسائي والترمذي واللفظ له ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم . (٢) والذر جمع ذرة ، وهي النملة الحمراء الصغيرة جداً ، أو الهباءة التي ترى في شعاع الشمس الداخل من النافذة .

قالَ تعالى : « وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » .

فمِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ - الرِّفْقُ فِي الْمُعَامَلَةِ وَالْبَذْلُ وَالْعَطْفُ وَكَفُّ الْأَذَى ، وَالْبَشَاشَةُ ، وَلِينُ الْجَانِبِ ، وَقَدْ كَانَ ابْنُ عُمَرَ رضى اللهُ عنهما يقولُ :

الْبِرُّ شَيْءٌ هَيِّنٌ : وَجْهٌ طَلْقٌ وَكَلَامٌ لَيِّنٌ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ السِّحْرُ الْحَلَالُ الَّذِي بِهِ تُمْلَكُ قُلُوبُ النَّاسِ ، وَلِذَلِكَ وَجَّهَ اللهُ رَسُولَنَا إِلَيْهِ فَقَالَ : « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » .

وَقَدْ أَخْرَجَ بِهِ رَسُولُ اللهِ النَّاسَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ إِلَى نُورِ الْإِسْلَامِ ، وَتَوْحِيدِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، الَّذِي خَاطَبَهُ فَقَالَ : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » .

وَإِنَّ مَنْ كَانَ مُوَطَّأَ الْأَكْنَافِ ، لَيِّنَ الْجَانِبِ ، فَكَانَ سَمْحًا فِي مُعَامَلَتِهِ مُتَوَاضِعًا ، غَيْرَ مُتَكَبِّرٍ ، وَلَا مُتَعَاظِمٍ عَلَى مَنْ دُونَهُ ، وَاسِعَ الصَّدْرِ لِأَصْحَابِ الْحَوَائِجِ - اسْتَحَقَّ السَّلَامَةَ مِنَ النَّارِ ، وَدُخُولَ الْجَنَّةِ .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ غَدًا :

عَلَى كُلِّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ قَرِيبٍ سَهْلٍ »[1] . وَمِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ - أَنْ يُحِبَّ الإِنْسَانُ غَيْرَهُ لِلَّهِ لِيَدُومَ حُبُّهُ بَيْنَهُمَا ، لاَ لِعِلَّةٍ أَوْ غَرَضٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ : يَدُومُ الْحُبُّ بِدَوَامِهَا ، وَيَنْقَطِعُ بِانْقِطَاعِهَا .

قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَجِدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ فَلْيُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ »[2] .

وَمِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ - تَحَبُّبُ الْمَرْءِ إِلَى النَّاسِ : لِيُحِبُّوهُ - بِقَضَاءِ مَصَالِحِهِمْ وَتَحْقِيقِ مَآرِبِهِمْ ، الَّتِي لاَ ضَرَرَ فِيهَا لِأَحَدٍ ، فَفِي ذَلِكَ كَسْبُ حُبِّ رَسُولِ اللهِ ، الَّذِي قَالَ : « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا ، الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافًا الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ الْمُلْتَمِسُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَيْبَ »[3] .

وَمَنْ أَحَبَّهُ الرَّسُولُ فَقَدْ أَحَبَّهُ اللهُ ، الَّذِي قَالَ : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ » .

وَالْقَوْمُ :

لِأَنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ مَعَ الْخَلْقِ - يُثْمِرُ رَاحَةَ الْبَالِ ، وَوِقَايَةَ الْمُجْتَمَعِ مِنْ نَارِ الْخِصَامِ وَالْقِتَالِ ، حَيْثُ الْخَرَابُ وَالْهَلاَكُ - كَانَ جَزَاؤُهُ عَظِيمَ الْقَدْرِ

---

(١) رواه أبو يعلى فى مسنده عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما ، ورواه الترمذى والطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود رضى الله عنه .

(٢) رواه الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط عن أبى هريرة رضى الله عنه .

فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ : فِيَّ ضُعَفَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَمَسَاكِينُهُمْ ، فَقَضَى اللهُ بَيْنَهُمَا : إِنَّكِ الْجَنَّةُ : رَحْمَتِي : أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ ، وَإِنَّكِ النَّارُ : عَذَابِي ، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ . وَلِكِلَيْكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا » رَوَاهُ مُسْلِمٌ فى صحيحه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنه .

وَقال صلى اللهُ عليه وسلم : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ : « إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صحيحه وَالتِّرْمِذِيُّ فى سُنَنِهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضى الله عنه ، وَبَطَرُ الْحَقِّ : دفعه ورده عَلَى قائله ، وَغَمْطُ النَّاسِ احتقارهم .

---

٢٩ — أثر التحلي بالتواضع والتخلي عن الكبر

الحمدُ لله ذي الجلال والإكرام: يعزُّ المتواضعَ ويرحمه، ويذلُّ المتكبرَ ويعذِّبه، وقال: «أليسَ في جهنَّمَ مثوًى للمتكبِّرين»، وقال رسولُه: «وما تواضعَ أحدٌ لله إلاّ رفعه الله».

وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ القائلُ: «الكبرياء ردائي والعظمةُ إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفتُه في النار»(1).

وأشهدُ أنَّ سيِّدنا محمداً رسولُ الله، القائلُ: «ألا أخبرُكم بشرِّ عبادِ الله: الفظُّ المستكبر، ألا أخبرُكم بخيرِ عبادِ الله: الضعيفُ المستضعَفُ ذو الطمرين لا يُؤبَهُ له لو أقسمَ على الله لأبرَّه»(2).

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ على سيِّدنا محمدٍ، سيِّدِ المتواضعين، وعلى آلِه وصحبِه، الذين تواضعوا في غير ذِلّة، وعزُّوا في غير كبرياء، فعاشوا أعزّاء سعداء أحبّاء أصفياء.

---

(1) رواه مسلم ولفظه: «عذبته» بدل: «قذفته في النار» الذي هو لفظ أبي داود وسبق لفظ ابن ماجه.

(2) رواه الإمام أحمد، عن حذيفة رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة قال: «ألا أخبركم ... إلخ» والضعيف المستضعف الضعيف في نفسه: لتواضعه وضعف حاله في الدنيا، ومستضعف، أي يستضعفه الناس.

أَمَّا بَعْدُ فَيَاعِبَادَ اللهِ :

أَكَلَ[1] بُسْرُ بْنُ رَاعِي الْعَيْرِ[2] الْأَشْجَعِيُّ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم بِشِمَالِهِ ، فَقَالَ لَهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « كُلْ بِيَمِينِكَ » ، فَأَخَذَتْهُ نَفْسُهُ ، فَلَمْ يَنْقَدْ لِلْحَقِّ ، وَاعْتَذَرَ بِمَا لَيْسَ كَذَلِكَ فِي الْوَاقِعِ ، إِذْ قَالَ : لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ آكُلَ بِيَمِينِي : مَامَنَعَهُ إِلاَّ الْكِبْرُ ، فَدَعَا عَلَيْهِ صلى اللهُ عليه وسلم : بِتَحَقُّقِ مَاادَّعَى : لِمُخَالَفَتِهِ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ بِلاَ عُذْرٍ : قَالَ : لاَاسْتَطَعْتَ : قَالَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ رضى اللهُ عنه ـ رَاوِي هَذَا الْحَدِيثِ ـ فَمَا رَفَعَهَا ـ أَيْ فَمَا رَفَعَ بُسْرٌ يَمِينَهُ إِلَى فِيهِ اسْتِجَابَةً لِدَعْوَةِ النَّبِيِّ مُجَازَاةً لَهُ عَلَى كِبْرِهِ وَهَكَذَا الْكِبْرُ يَعُودُ على صَاحِبِهِ بِالضَّرِّ وَالْبَلاَءِ ، فَإِنَّهُ بِهِ ـ يُعَادِي قَيُّومَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، الَّذِي لَهُ وَحْدَهُ الْكِبْرُ صِفَةُ كَمَالٍ وَجَمَالٍ وَجَلاَلٍ ، فَإِنَّ الْكِبْرَ صِفَةٌ تَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ الْمُتَّصِفُ بِهَا مُتَعَالِيًا على كُلِّ مَاعَدَاهُ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي يَكُونُ كَذَلِكَ بِحَقٍّ ، سِوَى الْمَلِكِ الْحَقِّ ، الَّذِي انْفَرَدَ بِالْعِزَّةِ فَلاَ مَثِيلَ لَهُ ، وَبِالْوَحْدَانِيَّةِ فَلاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِالْقُدْرَةِ على كُلِّ شَيْءٍ فَلاَ يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ، وَبِالْغِنَى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مَعَ احْتِيَاجِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهِ : « ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » ، « وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه .

(٢) بالعين والتحتية والراء ، وضبطه الحافظ في التبصير بالعين والنون والزاي اهـ شارح القاموس .

وإذا كان الكبرياء لا يليق إلا به تعالى ، وكان من يتصف به من الناس معاديا له سبحانه – فلا عجب أن يرى شرا في حياته ويذوق العذاب في الدنيا : « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

فياقوم :

أما يكفي معاداة الله – في التنفير والإبعاد عن رذيلة الكبر والتحلي بفضيلة التواضع فرارا من الهلاك بالكبر ، وحرصا على الحياة بالتواضع في إكرام ، ألا وإن الإنسان ذليل لمولاه ، محتاج إليه على الدوام ، فلا يليق به إلا التذلل والتواضع ، ويكفيه أن يتدبر قوله تعالى : « قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره » .

فمن تدبر هذا الحق المبين ونظر إلى مبدئه وحاضره ومصيره – عرف أنه – بعد التراب – مخلوق من أقذر الأشياء : من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، ثم جعل عظما ، ثم كسي العظم لحما ، وهو في هذه الأطوار والأحوال – كالجماد لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق ولا يحس ولا يتحرك ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم ، ثم نفخ فيه الروح ، وتعهده تبارك وتعالى بنعمه ، وربّاه على موائد كرمه ، وقواه بعد الضعف ، وعلمه بعد الجهل ، ويسر له مقومات حياته ، ولا بد في وقت معلوم أن ينزع روحه من جسده ، حيث لا يستطيع أحد مد بقائه لحظة ، ولا نفسا ، وصار مفقودا بعد أن كان موجودا ، ثم يوضع في التراب ، فيصير جيفة منتنة قذرة

كَمَا كَانَ نُطْفَةً مذِرَةً، وَيأْكُلُ الدُّودُ أجْزَاءهُ ، وَلاَ بُدَّ – بَعْدُ – مِنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ ، بَيْنَ يَدَى اللهِ ، وَبَعْدَهُ إِمَّا جَنَّةٌ عَالِيةٌ ، وَإِمَّا نَارٌ حَامِيةٌ : فِيهَا لِلْمُتَكَبِّرِ عَذابٌ أَلِيم : « وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ » .

فَكَيْفَ يَتَكَبَّرُ مَنْ تيَقَّنَ ذَلِكَ ، أَغَرَّتْهُ قُوَّتُه ، وَالبَغْلُ أَقْوَى مِنْهُ ، أَمْ غَرَّهُ غِنَاهُ ، وَأَيْنَ هُوَ مِنْ قَارُونَ فى غِنَاهُ ، أَوَ لَمْ يَعْتَبِرْ بِهِ : قَالَ تعالى : فى مَصِيرِهِ وَالاعْتِبَارِ بِهِ : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ ، وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ[1] اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ، وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فى الأَرْضِ ، وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » ، وَفِيهِ أَوْ فى مِثْلِهِ – قال صلى اللهُ عليه وسلم : « بَيْنَمَا[2] رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فى بُرْدَيْهِ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الأَرْضَ ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ[3] فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وَمَنْ تَكَبَّرَ بِجَمَالِهِ – فَأَيْنَ هُوَ مِنْ جَمَالِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلاَم ، بَلْ

---

(١) وى : اسم فعل بمعنى أعجب ، ويكون : للتحسر والتندم وقد يدخل على كأن : المشددة النون كما فى الآية ! والمخففة والقياس كتابتها منفصلة ، وكتبت متصلة بالكاف لكثرة الاستعمال وقيل ويكأن : كلمة واحدة : بمعنى ألم تر .

(٢) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) يسوخ .

أَيْنَ هُوَ مِنْ جَمَالِ رَسُولِنَا صلى اللهُ عليه وسلم الَّذِى صَدَقَ مُخَاطِبُهُ إِذْ قَالَ :

وَأَجْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنٌ ... وَأَحْسَنَ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ... كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

وَلِمَاذَا يَتَكَبَّرُ امْرُؤٌ بِالْجَمَالِ ، وَأَجْمَلُ مِنْهُ مُومِسَةٌ وَأَنْضَرَ ، وَقُولُوا لِمَنْ تَكَبَّرَ بِالْجَاهِ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى - أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ بِالْغَرَقِ ، وَكَانَ أَعْظَمَ مِنْكَ جَاهًا بِمُلْكِ مِصْرَ وَنَعِيمِهَا .

وَقُولُوا لِمَنْ تَكَبَّرَ بِالْعِلْمِ : أَعْلَمُ مِنْكَ إِبْلِيسُ وَأَشْهَرَ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ بِالتَّقْوَى ، فَحَمَلَ مَا يُصِيبُ مَنْ عَادَاهُ - عَلَى أَنَّهُ كَرَامَةٌ لَهُ ، فَيَقُولُ : لِكَرَامَتِي عِنْدَ اللهِ - مَرِضَ ، وَلِكَرَامَتِي - أَصَابَهُ هَمٌّ كَذَا ، وَلِكَرَامَتِي - مَاتَ ، مَعَ أَنَّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ - مَنْ أُوذُوا وَضُرِبُوا وَقُتِلُوا ، وَمُتِّعَ مُؤْذِيهِمْ فِي الْحَيَاةِ ، وَلَمْ يُنْتَقَمْ مِنْهُ ، وَرُبَّمَا أَسْلَمَ بَعْضُ مَنْ آذَاهُمْ ، فَسَعِدُوا فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ - قُولُوا لَهُ : هَلْ أَنْتَ أَجَلُّ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ ، أَوْ مَنْ عَادَاكَ - أَخَسُّ مِمَّنْ آذَى الأَنْبِيَاءَ ، وَهَلِ الْكِبْرُ مِنْ تَقْوَى اللهِ ، وَقَدْ قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ وَاخْتَالَ فِي مَشْيِهِ - لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ »[1] ، وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ »[2] .

---

(١) رواه أحمد والطبرانى والحاكم والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر رضى الله عنهما .

(٤) رواه البزار عن أنس رضى الله عنه .

أيُّها المُسلمُونَ :

اتقُوا اللهَ وتوَاضعُوا للهِ ، ولاَ تتَكبَّرُوا ، واقبَلُوا الحَقَّ ، ولاَ تحتقرُوا النَّاسَ - يُحبِبكُمُ اللهُ : « إنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُستَكبِرِينَ » .

قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ تَوَاضَعَ للهِ دَرَجَةً يرفَعْهُ اللهُ دَرَجَةً حتَّى يجعَلَهُ في أعْلَى عِلِّيِّينَ وَمَنْ تَكبَّرَ عَلَى اللهِ دَرَجَةً - يَضَعْهُ اللهُ دَرَجَةً حتَّى يجعَلَهُ في أسْفَلِ سَافِلِينَ وَلَوْ أنَّ أحَدَكُمْ يعمَلُ في صَخْرَةٍ صَمَّاء لَيْسَ عَلَيْهَا بَابٌ وَلاَ كُوَّةٌ[1] لَخَرَجَ مَاغَيَّبَهُ لِلنَّاسِ كَائِناً مَا كَانَ » رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ في صَحِيحِه عَنْ أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِي اللهُ عنه .

وقالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « ألاَ أُخبِرُكُمْ بِأهْلِ الجَنَّةِ ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أقسَمَ عَلَى اللهِ لأبَرَّهُ ، ألاَ أُخبِرُكُمْ بِأهْلِ النَّارِ ؟ كُلُّ عُتُلٍّ[2] جَوَّاظٍ[3] مُسْتَكبِرٍ » رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ في صحيحَيْهِمَا ، عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ رضي اللهُ عنه .

---

(١) الكوة بفتح الكاف والضم لغة : ثقب البيت .

(٢) العتل : الغليظ الجافي .

(٣) الجواظ : الجموع المنوع ، وقيل : الضخم المختال في مشيته ، وقيل : القصير البطين .

٢٧ – الحث على الشكر والصبر عند الابتلاء

الحَمْدُ للهِ : جَعَلَ الإِنْسَانَ – بالإِيمَانِ – صَبُوراً شَكُوراً ، وَالصَّبْرُ يُبَلِّغُ الأَمَلَ ، وَالشُّكْرُ حِصْنُ النِّعْمَةِ وَالفَضْلِ ، وَأَوْحَى اللهُ إِلَى دَاوُدَ فَقَالَ : « أَسْرَعُ النَّاسِ مُرُوراً عَلَى الصِّرَاطِ – الَّذِينَ يَرْضَوْنَ بِحُكْمِي وَأَلْسِنَتُهُمْ رَطْبَةٌ بِذِكْرِي » .

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ : يَبْتَلِي عِبَادَهُ بِالمِنَحِ لِيَشْكُرُوا لَه فَيَزِيدَهُمْ مِنْهَا وَيَأْجُرَهُمْ ، وَ بِالمِحَنِ لِيَصْبِرُوا فَيَسْتَخْرِجُوا وَ يُثِيبَهُمْ ، وَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، أَكْمَلُ النَّاسِ إِيمَاناً ، وَأَعْظَمُهُمْ إِحْسَاناً ، وَقَالَ : « الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ – بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ »[1] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ ابْتُلُوا بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، فَتَجَلَّى صِدْقُ إِيمَانِهِمْ ، فَمَا أَبْطَرَتْهُمُ النِّعْمَةُ ، وَلاَ زَلْزَلَتْهُمُ النِّقْمَةُ وَصَبَرُوا عِنْدَ البَلِيَّةِ ، وَشَكَرُوا عِنْدَ العَطِيَّةِ : « وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ » « وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

أَمَّا بَعْدُ :

فَقَدْ قَالَ رَجُلٌ لِسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ، أَحَدِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ وَهُوَ مُتَحَسِّرٌ

---

(١) رواه الترمذى وغيره عن أبي هريرة رضى الله عنه .

متألم : إن اللص دخل داري وأخذ متاعي . فقال له : اشكر الله تعالى ، لو دخل اللص قلبك — وهو الشيطان — فأخذ التوحيد ، وسلبك الإيمان ، ماذا كنت تصنع ؟ فكل مصيبة تهون ، إذا سلم لمن أصيب بها الإيمان ، ورضا رب العالمين ، و تمنى الصبر سلامة ذلك ، ولذلك كان الصبر نعمة يجب شكرها : بالصبر على طاعة الله ، وعن عصيانه سبحانه ، وعلى ماقضاه جل شأنه . وكان[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى مايكرهه قال : « الحمد لله على كل حال » ، ورحم الله من قال :

يجرى القضاء وفيه الخير نافلة ... لمؤمن واثق بالله لا لاهي
إن مسه فرح أو مسه ترح ... في الحالتين يقول : الحمد لله

ولقد أنعم الله على الإنسان — مع نعمة الصبر — بنعم لا عدد لها ولا حصر : منها الظاهرة المحسة ، والباطنة التي يدركها العقل : كنعمة الهداية إلى الخير (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .

ومن نعمه تعالى — معاملته المحسن بكرمه ، والمسيء بعطفه ولطفه ، وقال جل شأنه : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون) . وقال[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) روى ابن ماجه وابن السنى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى مايحب قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وإذا رأى ما يكره قال : الحمد لله على كل حال .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما .

فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبت سيئة واحدة » .

ومن نعمه – قبوله تعالى للتوبة : (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون) .

ومن نعمه – إمهاله للعصاة ، وإن لم يهملهم ، ولا يفوته شيء ، ولا يعجزه شيء ، وهو على كل شيء قدير ، قال تعالى : (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . وقال جل شأنه : ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا) ، ولا منعم سواه سبحانه : (وما بكم من نعمة فمن الله) .

عبد الله :

إذا كان الله وحده هو المنعم المتفضل ، العفو الرءوف الرحمن الرحيم الغني الكريم – كان حقا على الإنسان أن يذكره تعالى ولا ينساه ، في جميع أحواله : في عسره ويسره ، وغناه وفقره ، ونفعه وضره ، وشدته ورخائه ، وسروره وحزنه ، وصحته ومرضه ، وضيقه وفرجه ، ولا يكون

الإنسان الذى قال الله فيه : (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) . ولا يكون كمن يعبد الله على طرف من الدين : لا ثبات له ولا استقرار ، مزعزع الإيمان ، ليس ذا يقين ، يطغى ويبخل عند الرخاء والعافية والغنى (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) ويهجر الطاعة ، ويضل ضلالاً بعيداً ، أو ينفجر عند الابتلاء بالشرور والآلام فى النفس أو الأهل أو المال والثمرات . وفى هذا الصنف من الناس قال تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين) .

يا قوم :

إن شكر الله — عند الخير — يقيد النعم فتقر ولا تفر ، وتنمو وتكثر ، والله تعالى يقول : (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) .

وإن شكره تعالى — عند الشر — بامتثال المرء أمره تعالى واجتناب نهيه بقدر استطاعته — يدفع الشر ، ويبدد الهم ، ويبدلهما خيراً أو فرجاً ، والله تعالى يقول : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) .

وحسب الشاكرين المطيعين — فضل الله وإنعامه يوم الدين ، يوم

الفداء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] : « إذا كان يومُ القيامة دفع الله إلى كلِّ مُسْلِمٍ يهوديًّا أو نصرانيًّا فيقول : هذا فداؤك من النار » .

فلا يَفْتِنَنَّكَ يا عبدَ الله ما ترى من الدنيا العريضة بجاهها ومالها ومتاعها بيد الكفار أو الفجار، المحرومين من الإسلام الكامل، الذي به النجاة ورضا الله في أخراه، وقد قال جلَّ علاه : (لا يَغُرَّنَّكَ تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد متاعٌ قليلٌ ثمَّ مأواهم جهنمُ وبئس المهاد) . وقال سبحانه : (قُلْ متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لمن اتَّقى ولا تُظلمون فتيلاً) .

أيها المسلمون :

نحنُ في الدنيا مُمْتَحَنُونَ بالعوارض فيها من خيرٍ وشرّ

ثمانيةٌ تجري على الناس كلهم فكلُّ امرئ تجري عليه الثمانيةْ

حياةٌ وموتٌ واجتماعٌ وفرقةٌ وعسرٌ ويسرٌ ثمَّ سقمٌ وعافيةْ

وقد قال تعالى : (أحسب الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتنون . ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمنَّ اللهُ الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين) .

فاتقوا الله وبرهنوا على صدق إيمانكم بالشكر للعافية واليسر وسائر الخيرات والنعم، وبالصبر عند الشدائد والآلام، لتكسبوا الأجر العظيم والنعيم المقيم (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ[1] مِنْهُ » رَوَاهُ مَالِكٌ وَالْبُخَارِيُّ عن أبي هُرَيْرَةَ رضي اللهُ عنه .

وقالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ عن صُهَيْبٍ الرُّومِيِّ رضي اللهُ عنه .

وعن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عن أبيهِ رضي اللهُ عنهما قالَ : « قُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ قالَ : الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتَلَاهُ اللهُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ » رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَالتِّرْمِذِيُّ .

وقالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ » رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَالتِّرْمِذِيُّ .

---

(١) أي يوجه إليه مصيبة ويصبه ببلاء .

٢٨ — الحث على الصبر

الحَمْدُ لِلهِ : يُحِبُّ مَنْ صَبَرَ ، وَيُجْزِلُ لَهُ الأَجْرَ ، وَيَقُولُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ لِلصَّابِرِينَ : (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ اليَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الفَائِزُونَ)

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ : وَجَّهَنَا إِلَى عِظَمِ قَدْرِ الصَّبْرِ ، فَذَكَرَهُ فِي القُرْآنِ فِي أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَوْضِعاً ، وَجَعَلَ ثَمَرَتَهُ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ، وَكَرِيمَ الخَيْرَاتِ بِغَيْرِ تَقْدِيرٍ وَعَدٍّ . قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، خَيْرُ مَنْ صَبَرَ ، وَدَعَا إِلَى الصَّبْرِ ، وقَالَ[1] : « مَا رَزَقَ اللهُ عَبْداً خَيْراً لَهُ وَلا أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ اسْتَعَانُوا بِالصَّبْرِ فِي سَيْرِهِمْ فِي الحَيَاةِ ، فَفَازُوا ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

أَمَّا بَعْدُ . فَيَا عِبَادَ اللهِ :

أَرَادَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَنْ يُعْلِنَ فَضْلَ الأَنْصَارِ ـ أَهْلِ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ ـ وَيُوَجِّهَ النُّفُوسَ إِلَى الاقْتِدَاءِ بِهِمْ فَقَالَ[2] : « أَمُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ ؟ فَسَكَتُوا ـ وَهُمْ يُفَكِّرُونَ فِي سَبَبِ هٰذَا السُّؤَالِ : لِأَنَّ إِيمَانَهُمْ ـ

---

(١) رواه الحاكم عن أبي هريرة رضى الله عنه .

(٢) روى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أنه صلى الله عليه وسلم دخل على الأنصار ، فقال : أمؤمنون ... الخ

لا يخفى ، فقال عمر : نعم يا رسول الله . قال : وما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء . فقال صلى الله عليه وسلم : مؤمنون ورب الكعبة » .

ألا وإن الصبر — كما هو وقاية عند البلاء من الجزع وإغضاب الله — هو عدة في الحياة : لنيل المطالب ، والسلامة من الضر والنوائب ، ولذلك قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « أفضل العدة — الصبر عند الشدة » . وصدق من قال :

ما يحسم العقل والدنيا تساس به ... ما يحسم الصبر في الأحداث والنوب

ومن هنا كانت كثرة الإنتاج للصابرين — وما انقادت الآمال إلا لصابر — وقال حكيم العرب أكثم بن صيفي : من صبر ظفر .

وليس ذلك يا قوم — كل مزايا الصبر ، بل اسمعوا وعوا . قال الرسول صلى الله عليه وسلم[1] : « يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض » ، ويحيا الصابرون بالسلام في الجنة دار السلام . قال تعالى : (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) .

ويا عباد الله :

ليس الصبر ، الذي يجزل الله ثوابه ، وينيل به خيري الدنيا والآخرة

---

(١) رواه الترمذى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما .

أنْ يَكُونَ الإنسانُ قَوِىَّ الجَسَدِ ـ عَلَى التَّعَبِ وَالكَدِّ ؛ لِأَنَّ هٰذَا يُشَارِكُهُ فِيهِ الحَيَوَانُ الأَعْجَمُ ، وَلا أنْ يَسْتَسْلِمَ لِلمَكْرُوهِ وَالأذَى وَالظُّلْمِ . فَذَلِكَ ضَعْفٌ لا يَلِيقُ بِمُسْلِمٍ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

وَلَكِنَّ هٰذَا الصَّبْرَ ، الَّذِى يُحِبُّهُ اللهُ ، وَيُكْرِمُ بِهِ أهْلَهُ ـ هُوَ أنْ يَكُونَ الإنسانُ غَالِباً لِنَفْسِهِ عِنْدَ الشَّهْوَةِ ، فَلَا يَعْصِىَ اللهَ ، وَأنْ يَكُونَ مَالِكاً لِنَفْسِهِ عِنْدَ الغَضَبِ ، فَلَا يُؤْذِىَ أحَداً مِنْ خَلْقِ اللهِ ، وَأنْ يَكُونَ حَمُولاً لِلخُطُوبِ وَالمَكَارِهِ ، فَلَا يَضْجَرَ ، وَأنْ يَكُونَ حَرِيصاً عَلَى طَاعَةِ اللهِ ، وَيَنْتَظِرَ النَّتَائِجَ السَّارَّةَ مَهْمَا بَعُدَتْ ، وَيُوَاجِهَ المَشَاقَّ مَهْمَا ثَقُلَتْ ، وَلا يَجْزَعَ عِنْدَ المُصِيبَةِ مَهْمَا عَظُمَتْ .

وإنَّمَا يَتَخَلَّقُ الإنسانُ بِالصَّبْرِ ، وَيَفُوزُ بِهٰذَا الكَمَالِ ، الذى هُوَ عُنْوَانُ الرُّجُولَةِ النَّاضِجَةِ ، والبُطُولَةِ السَّامِيَةِ ـ بِالتَّصَبُّرِ وَمُجَاهَدَةِ الإنسانِ نَفْسَهُ : لِمُلَازَمَةِ طَاعَةِ اللهِ ، واجْتِنَابِ عِصْيَانِهِ ، وعَدَمِ الجَزَعِ عِنْدَ امْتِحَانِهِ بِإيلَامِهِ بِالشَّرِّ ، أوْ حِرْمَانِهِ مِنَ الخَيْرِ . قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ »[1] .

---

(١) جزء من حديث . رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده . فقال لهم حين أنفق كل شىء بيده « ما يكن من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر .

ولا يُنافِي الصّبْرَ - الاجْتِهادُ في دَفْعِ البَلايا بالوَسائِلِ المَشْرُوعَةِ المُمْكِنَةِ. وَمِنْها عِلاجُ الأَمْراضِ ، فَكما قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « وَصَبُ المُؤْمِنِ - أَيْ مَرَضُه - كَفّارَةٌ لِخَطاياهُ »[1] قالَ : « لِكُلِّ داءٍ دَواءٌ فإذا أُصِيبَ دَواءُ الدّاءِ بَرِئَ بِإِذْنِ اللهِ »[2] .

ومِنْها الدُّعاءُ وشَكْوَى الحالِ لِلهِ لا لِسِواه ، فَقَدْ دَعا أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلامُ رَبَّهُ أَنْ يَكْشِفَ لَهُ عَنْهُ ضُرَّهُ ، فَكَشَفَهُ سُبْحانَهُ وقالَ (وأَيُّوبَ إِذْ نادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأَنْتَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ ، فاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ) ، ومع ذلِكَ قالَ تَعالَى مادِحاً لِأَيُّوبَ : (إِنّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوّابٌ » .

فَما يُمَجِّدُ الإِسْلامُ الآلامَ لِذاتِها ، وإِنّما يَحْمَدُ لِلمُبْتَلِينَ بِها رَباطَةَ جَأْشِهِمْ ، وحُسْنَ يَقِينِهِمْ بِرَبِّهِمْ ، المُقَدِّر ، المُعَدِّ لِكُلِّ ما يُتَوَقَّعُ ، المُرَجَّى لِدَفْعِ كُلِّ شِدَّةٍ ونازِلة ، الّذِي إِلَيْهِ المُشْتَكَى والمَفْزَع ، وهُوَ المَقْصُودُ بالدُّعاءِ لِدَفْعِ البَلاءِ ، وأُولئِكَ المُبْتَلَوْنَ المَحْمُودُ حالُهُمْ - هُمُ الذِينَ هُمْ - عِنْدَ البَلاءِ - يَنْظُرُونَ إِلَى عِظَمِ الجَزاءِ ، ويُؤْثِرُونَ حُسْنَ حالِهِمْ فِي الآخِرَةِ الباقِيَةِ عَلَى حُسْنِ الحالِ فِي الدُّنْيا الفانِيَةِ ، ونُصْبُ أَعْيُنِهِمْ قَوْلُهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ عِظَمَ الجَزاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ ، وإِنَّ اللهَ تَعالَى إِذا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

أحبَّ قوماً ابتلاهُم ، فمَنْ رَضِيَ فلَهُ الرِّضا ، ومَنْ سَخِطَ فلَهُ السَّخط »[1] ، وقولُهُ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدِهِ الخيرَ عجَّلَ لهُ العُقوبةَ في الدُّنيا ، وإذا أرادَ اللهُ بعبدِهِ الشرَّ أمسَكَ عنهُ بذنبِهِ حتّى يُوافِيَ بهِ يومَ القيامَةِ »[2] . وقولُهُ صلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عليْهِ : « ما يَزالُ البَلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في نفسِهِ وولَدِهِ ومالِهِ حتّى يلقَى اللهَ تعالَى وما عليْهِ خطيئةٌ »[3] .

والإنسانُ – في الحياةِ – عُرضَةٌ لِما يُؤلِمُ ويُغضِبُ : في بيتِهِ وفي طريقِهِ وفي محلِّ عملِهِ ، بلْ في معبَدِهِ . ولَولا الاعتِصامُ بالصَّبرِ – لمَا فرَغَ لهُ وقتٌ مِن أذًى ونِزاعٍ معَ غيرِهِ ، ولذلِكَ قالَ اللهُ تعالَى : (وجعَلْنا بعضَكُم لِبعضٍ فِتنةً[4] أتصبِرُونَ وكانَ ربُّكَ بصيراً) .

ومِن هُنا كانَتِ الحياةُ جِهاداً ، وكانَ الحيُّ المُخالِطُ لِغيرِهِ – مُجاهِداً فيها : لاستِهدافِهِ لمشاكِلِها ، وما أكثرَها ، وإنَّهُ لخيرٌ مِنَ العاجِزِ الهاربِ مِن ميدانِها ، الفارِّ ممّا يُصيبُ فيها . قالَ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « المؤمنُ الذي يُخالِطُ النّاسَ ويصبِرُ على أذاهُم أفضلُ مِنَ المؤمنِ الذي لا يُخالِطُ النّاسَ ولا يصبِرُ على أذاهُم »[5] . وقالَ صلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عليْهِ : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بهِ خيراً يُصِبْ مِنْهُ »[6] .

---

(١) رواه الترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) رواه الترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٣) رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٤) امتحاناً .   (٥) رواه الإمام أحمد فى مسنده والبخارى فى الأدب والترمذى وابن ماجه عن ابن عمر : رضى الله عنهما .

(٦) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

فيا عبدَ الله :

وطِّنْ نفسكَ على الصَّبرِ ، واحتمالِ ما تكرهُ ، لتفوزَ بما تحبُّ ، ألمْ تتناولِ الدَّواءَ على شدَّةِ مرارتِهِ ، رغبةً في نفعِهِ وفائدتِهِ . فالصَّبرُ أحقُّ منْ دواءِ بدنِكَ بالتَّناولِ ، لأنَّهُ الدَّواءُ لكلِّ داءٍ يصيبُ بدنَكَ ، ويفسدُ روحَكَ : بهِ - تتحمَّلُ المشقَّةَ في سبيلِ المداومةِ على الطَّاعةِ . ألمْ تسمعْ قولَهُ تعالَى في الحثِّ على الصَّبرِ على الصَّلاةِ ، وهيَ فريضةٌ متكرِّرةٌ قالَ جلَّ شأنُهُ : (وأمُرْ أهلَكَ بالصَّلاةِ واصطبِرْ عليْها) .

وبالصَّبرِ - تقاومُ المغرياتِ الَّتي انتشرَتْ في طرُقِ الحياةِ ، وزيَّنَتْ للنَّاسِ اقترافَ المآثمِ المحظورةِ ، حتَّى تعيشَ عفيفًا في نجْوَى منْ أقذارِ الدَّنايا ، ودنَسِ السَّيِّئاتِ ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكارهِ وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهواتِ »[1] .

وعِشْرةُ المؤمنينَ ، والإبقاءُ على مودَّتِهِمْ ، والإغضاءُ عنْ هفواتِهِمْ - خِصالٌ تعتمدُ على الصَّبرِ ، قالَ تعالَى : (واصبرْ نفسَكَ معَ الَّذينَ يدعُونَ ربَّهُمْ بالغداةِ والعشيِّ يريدُونَ وجهَهُ) .

والتَّواصِي بالصَّبرِ ، كالتَّواصِي بالحقِّ - أساسٌ في فلاحِ النَّاسِ ، ونجاتِهِمْ منَ الخسرانِ ، وعلى ذلكَ أقسمَ اللهُ بالعصرِ ، والزَّمانِ الَّذي فيهِ منَ الحوادثِ ما يشهدُ بذلكَ ، فقالَ : « والعصرِ إنَّ الإنسانَ لَفي خُسْرٍ إلا الَّذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصَّبرِ) .

---

(1) رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما . ومسلم والترمذي عن أنس رضي الله عنه .

وَرَوَى مَالِكٌ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ : « هَلَكَتِ امْرَأَةٌ لِي ، فَأَتَانِي مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ يُعَزِّينِي بِهَا ، فَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ فَقِيهٌ عَالِمٌ عَابِدٌ مُجْتَهِدٌ ، وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ ، وَكَانَ بِهَا مُعْجَبًا فَمَاتَتْ ، فَوَجَدَ عَلَيْهَا وَجْدًا شَدِيدًا ، حَتَّى خَلَا فِي بَيْتٍ وَأَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَاحْتَجَبَ فَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ أَحَدٌ ، فَسَمِعَتْ بِهِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَجَاءَتْهُ فَقَالَتْ : إِنَّ لِي إِلَيْهِ حَاجَةً أَسْتَفْتِيهِ فِيهَا ، لَيْسَ يُجْزِينِي إِلَّا أَنْ أُشَافِهَهُ بِهَا ، وَلَزِمَتْ بَابَهُ . فَأُخْبِرَ بِهَا . فَأَذِنَ لَهَا . فَقَالَتْ : أَسْتَفْتِيكَ فِي أَمْرٍ . قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَتْ : إِنِّي اسْتَعَرْتُ مِنْ جَارَةٍ لِي حُلِيًّا ، فَكُنْتُ أَلْبَسُهُ زَمَانًا ، ثُمَّ إِنَّهَا أَرْسَلَتْ تَطْلُبُهُ ، أَفَأَرُدُّهُ إِلَيْهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ وَاللهِ . قَالَتْ : إِنَّهُ قَدْ مَكَثَ عِنْدِي زَمَانًا . فَقَالَ : ذَاكِ أَحَقُّ لِرَدِّكِ إِيَّاهُ . فَقَالَتْ لَهُ : يَرْحَمُكَ اللهُ ، أَفَتَأْسَفُ عَلَى مَا أَعَارَكَ اللهُ ، ثُمَّ أَخَذَهُ مِنْكَ ، وَهُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْكَ ؟ فَأَبْصَرَ مَا كَانَ فِيهِ ، وَنَفَعَهُ اللهُ بِقَوْلِهَا » .

فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ، وَاعْلَمُوا وَأَعْلِمُوا غَيْرَكُمْ أَنَّ كُلَّ مَحْبُوبٍ لَنَا فِي الْحَيَاةِ قَدْ نَلْقَاهُ - هُوَ مِلْكٌ لِلهِ وَحَقٌّ لَهُ يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَمَا يَشَاءُ ، وَلَيْسَ لَنَا نَحْوَهُ إِلَّا الشُّكْرُ عِنْدَ الْعَطَاءِ ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ سَلْبِهِ . وَفِي الْحَالَيْنِ أَجْرُهُ تَعَالَى لِمَنْ شَكَرَ وَصَبَرَ . قَالَ رَسُولُنَا صلى اللهُ عليه وسلم : « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ[1] شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ[2] صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »[3] .

---

(١) ما يسره (٢) ما يضره .

(٣) رواه مسلم في صحيحه عن صهيب بن سنان رضي الله عنه .

وَلِانَّ الْبَلِيَّةَ يَطُولُ أَلَمُهَا بِطُولِ الزَّمَنِ - كَانَ أَجْرُ الصَّبْرِ عَلَيْهَا فِي أَوَّلِ نُزُولِهَا : مَرَّ[1] النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم عَلَى امْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ ، وفى رِوَايَةٍ[2] : تَبْكِي على صَبِيٍّ لَهَا ، فقالَ : « اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي » ، فقالَتْ : إِلَيْكَ عَنِّي ، فإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي ، وَلَمْ تَعْرِفْهُ ، فَقِيلَ لَهَا : إِنَّهُ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم . فأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ فقالَتْ : لَمْ أَعْرِفْكَ . فقالَ : « إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى » .

أَيُّهَا المُسْلِمُون :

اتَّقُوا اللهَ ، وَآمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ امْتِحَانٍ ، فاعْمَلُوا عَلَى النَّجَاحِ فِي امْتِحَانِهَا - بِصَبْرِكُمْ عَلَى الطَّاعَةِ ، وَعَنِ المَعْصِيَةِ . وَاحْذَرُوا أَنْ يَرَاكُمُ اللهُ حَيْثُ نَهَاكُمْ ، أَوْ يَفْقِدَكُمْ حَيْثُ أَمَرَكُمْ ، وَالْقَوُا الأَحْدَاثَ فِي الدُّنْيَا بِصَبْرٍ يُعْقِبُ خَيْرَ عَوْنٍ ، وَجَزِيلَ الأَجْرِ (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ[3] مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ) .

قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللهِ المَنْزِلَةُ فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ فَمَا يَزَالُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا » رَوَاهُ

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) لمسلم .

(٣) الصلاة من الله الرحمة ، والمناسب هنا : للتغاير ، إذ عطف على الصلوات لفظ رحمة - أنها ثناؤه الجميل على الصابرين وذكرت الصلاة بالجمع ، لتكرير ثنائه تعالى عليهم ، أو هى مغفرته ، والجمع فى مقابلة الذنوب ، فلكل ذنب مغفرة . والله أعلم

أبو يَعْلَى وابنُ حِبَّانَ في صحيحِهِ عن أبي هُرَيْرَةَ رضي اللهُ عنه .

وقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ بِمَالِهِ أَوْ في نَفْسِهِ فَكَتَمَهَا وَلَمْ يَشْكُهَا إِلَى النَّاسِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ » رَوَاهُ الطَّبَرانِيُّ عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « الصَّبْرُ مُعَوَّلُ[1] المُسْلِمِ » رَوَاهُ رَزِينٌ العَبْدَرِيُّ عن جَعْفَرِ بنِ أَبِي طالِبٍ رضي اللهُ عنه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ العَبْدِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ما يُكَفِّرُها ـ ابْتَلاهُ اللهُ بِالحُزْنِ لِيُكَفِّرَها عَنْهُ » رَوَاهُ أَحْمَدُ عن عائِشَةَ رضي اللهُ عنها .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « الصَّبْرُ ثَلاثَةٌ ، فَصَبْرٌ عَلَى المُصِيبَةِ ، وَصَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ ، وَصَبْرٌ عَنِ المَعْصِيَةِ . فَمَنْ صَبَرَ عَلَى المُصِيبَةِ حَتَّى يَرُدَّها بِحُسْنِ عَزَائِها كَتَبَ اللهُ لَهُ ثَلاثَمِائَةِ دَرَجَةٍ : ما بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَما بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ كَتَبَ اللهُ لَهُ سِتَّمِائَةِ دَرَجَةٍ : ما بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَما بَيْنَ تُخُومِ الأَرَضِينَ إِلَى مُنْتَهَى الأَرَضِينَ ، وَمَنْ صَبَرَ عَنِ المَعْصِيَةِ كَتَبَ اللهُ لَهُ تِسْعَمِائَةِ دَرَجَةٍ : ما بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَما بَيْنَ تُخُومِ الأَرَضِينَ إِلَى مُنْتَهَى العَرْشِ مَرَّتَيْنِ » رَوَاهُ ابنُ أَبِي الدُّنْيا في الصَّبْرِ ، وَأَبُو الشَّيْخِ في الثَّوابِ عن عَلِيٍّ رضي اللهُ عنه .

---

(١) الأمر الذي يستعين به المسلم ، كما أمره الله تعالى إذ قال (واستعينوا بالصبر والصلاة) .

٢٩ — الحث على الحياء

الحَمْدُ لِلهِ ، مَنِ اسْتَحْيَا مِنْهُ ، فَأَقْبَلَ عَلَى خِدْمَتِهِ بِطَاعَتِهِ ، وَنَهَى نَفْسَهُ عَنْ مَعْصِيَتِهِ — أَرَاهُ سُبْحَانَهُ لَطَائِفَ إِحْسَانِهِ وَنِعْمَتِهِ ، وفى أثرٍ إلهِيّ — قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (مَا أَقَلَّ حَيَاءَ مَنْ يَطْمَعُ فى جَنَّتِي بِغَيْرِ عَمَلٍ ، كَيْفَ أَجُودُ بِرَحْمَتِي عَلَى مَنْ بَخِلَ بِطَاعَتِي) .

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الكَبِيرُ المُتَعَال ، الَّذِى حَيَاؤُهُ تعالَى كَرَمٌ وَبِرٌّ وَجُودٌ وَجلاَل ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً ، فَارِغَتَيْنِ ، وَأَنْ يُعَذِّبَ ذَا الشَّيْبَةِ المُسْلِم .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ ، فَلَمْ يَعْصِهِ أَبَداً ، وَلَمْ يَجْعَلْ لِطَاعَتِهِ أَمَداً[1] ، وَاسْتَحْيَا مِنْ خَلْقِ اللهِ ، فَلَمْ يُوَاجِهْ بِمَكْرُوهٍ أَحَداً ، وقال : « إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقاً ، وَخُلُقُ الإِسْلاَمِ الحَيَاءُ »[2].

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الذى عَاشُوا بالحَيَاء أَتْقِيَاء ، فَكَانُوا فى الدُّنْيَا أَعِزَّاء ، وإِنَّهُمْ فى الآخِرَةِ لَسُعَدَاء (وَأَمَّا الذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ

---

(١) بل كانت طاعته صلى الله عليه وسلم دائمة .

(٢) رواه مالك عن زيد بن طلحة بن ركانة رضى الله عنه ، ورواه ابن ماجه عن أنس رضى الله عنه ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)[1].

أَمَّا بَعْدُ . فَيَاعِبَادَ اللهِ :

السَّمَاءُ : الْجِهَةُ الَّتِي تَرْمُزُ لِعُلُوِّ مَكَانَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَفِيهَا اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ الْمَكْتُوبُ بِهِ مَا يُوعَدُ النَّاسُ مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ ، وَخَيْرٍ وَشَرٍّ (وفى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) وَمِنْ هُنَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يُقَلِّبُ وَجْهَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ فى الدُّعَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى - أَنْ يُحَوِّلَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ ، قِبْلَةِ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَذَلِكَ أَدْعَى لِلْعَرَبِ إِلى الإِيمَانِ ، وَقِيَامِ وَحْدَتِهِمْ ، فَاسْتَجَابَ اللهُ لَهُ ، وَحَوَّلَهُ إِلى الْكَعْبَةِ - بَدَلاً مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، كما قَالَ تَعَالَى : (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فى السَّمَاءِ

---

(١) غير مقطوع عنهم ، وفى هذا الاستثناء : (إلا ما شاء ربك) - نقل ابن عطية أنه على طريق الاستثناء ، الذى ندب إليه الشرع فى كل كلام ، فهو على حد : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) ، وهذا الاستثناء فى معنى الشرط ، كأنه قيل : إن شاء ربك ، فلا يوصف بمتصل أو منقطع . والنكتة فيه إرشاد العباد إلى تفويض جميع الامور إليه جل شأنه ، وإعلامهم بأنها منوطة بمشيئته : يفعل مايشاء ويحكم مايريد ، لا حق لاحد عليه ، ولايجب عليه شيء ، كما قال تعالى : (إن ربك فعال لما يريد) . وقيل : (إلا) حرف عطف بمعنى الواو ، والمعنى : وماشاء ربك زائداً على ذلك . والمراد : إفادة التأبيد والدوام ، وهو تعالى لايشاء ذلك . أو المراد بالاستثناء الإشارة إلى الوقت من الخروج من القبور إلى دخول الجنة أو النار ، الذى فيه الحساب ، بناء على أن القبر أول منازل الآخرة ، أو إلى الوقت الذى يكون فيه فى النار عصاة المؤمنين ، الذين يخرجون من النار إلى الجنة ، ويكون الاستثناء من الخلود فى النار فى الآية الواردة فى ذلك ، قبل هذه إشارة إلى وجودهم فى الجنة .

فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) .

وَمَعَ ذَلِكَ ظَلَّ أَبُو عُبَيْدٍ الْخَوَّاصُ ، أَحَدُ سَلَفِنَا الصَّالِحِ ، سَبْعِينَ سَنَةً ، لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ رَفَعَ وَجْهَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، فَقِيلَ لَهُ فِى ذَلِكَ ، فَقَالَ : إِنِّى لَأَسْتَحِى أَنْ أَرْفَعَ إِلَى الْمُحْسِنِ وَجْهًا مُسِيئًا .

يَقُولُ رضى اللهُ عنه ـ ذَلِكَ الْقَوْلَ ـ وَهُوَ الْمُطِيعُ الْمُحْسِنُ ، الَّذِى لَمْ يُشَاهِدْ عَلَيْهِ أَحَدٌ ـ مَا يُنْزِلُهُ عَنْ دَرَجَةِ كِبَارِ الصَّالِحِينَ ، نَظَرًا مِنْهُ إِلَى تَقْصِيرِ نَفْسِهِ فِى الطَّاعَةِ ، بِالنِّسْبَةِ لِمَقَامِ رَبِّهِ ، الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ ، الَّذِى لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ (فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) ، وَاهِبِ كُلِّ نِعْمَةٍ لِكُلِّ ذِى نِعْمَةٍ (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ) (وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَهٌ[1] وَفِى الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) .

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ كَانَ كَأَبِى عُبَيْدٍ : فِى اسْتِحْيَائِهِ مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ ، لَا يَجْرُؤُ عَلَى عِصْيَانِ اللهِ ، وَلَا عَلَى تَرْكِ طَاعَةٍ وَاجِبَةٍ أَوْ مُسْتَحَبَّةٍ لِلَّهِ ، وَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ . قَالَ سَامِعُوهُ حِينَئِذٍ : يَا نَبِىَّ اللهِ ، إِنَّا لَنَسْتَحْيِى وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . قَالَ : لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ »[2] .

---

(١) أى معبود بحق (٢) رواه الترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه ورواه الطبرانى عن عائشة رضى الله عنها .

فيا قوم :

المُسْتَحْيِي مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ – مُؤْمِنٌ باللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، بَرْهَنَ على صِدْقِ إيمانِهِ ، بِتَقْوَى اللهِ سِرًّا وَجَهْرًا ، فَنَقَّى قَلْبَهُ مِنَ الغِلِّ وَالحَسَدِ ، وَسُوءِ القَصْدِ ، وَطَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ السَّيِّئَاتِ ، وصانَ عَيْنَهُ وَأُذُنَهُ وَلِسانَهُ وَفَرْجَهُ وَبَطْنَهُ عَنِ الحَرام ، وَاستَعْمَلَ هٰذِهِ الأَعْضاءَ فيما يُرْضِيهِ تَعالَى . وَلَمْ يَرَهُ جَلَّ شَأْنُهُ – فى لَيْلٍ وَنهارٍ – حَيْثُ نهاهُ ، وَلَمْ يَفْقِدْهُ حَيْثُ أَمَرَه ، وَزَهِدَ فى الدُّنْيا ، فَلَمْ يَتَهالَكْ عَلَيْها ، وَلَمْ يَشْتَغِلْ بِها عَنْ طاعَةِ اللهِ ، وَاهْتَمَّ فيها بِما يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَيَعُودُ على المُجْتَمَعِ بِالخَيْرِ وَالسَّعادَةِ .

وَمِنْ ذٰلِكَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الحَياءَ عَظِيمُ الأَثَرِ فيما بينَ العَبْدِ وبينَ رَبِّهِ ، وفيما بَيْنَهُ وبينَ غَيْرِهِ ، وَلِذٰلِكَ قال رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « الحَياءُ لا يأتِي إلاَّ بِخَيْرٍ »[1] . وفى رِوايَةٍ عَنْهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « الحَياءُ خَيْرٌ كُلُّهُ »[2] . وَكَفَى الحَياءَ شَرَفًا أَنَّ كَرَمَ اللهِ بِعَدَمِ التَّعْذِيبِ يُسَمَّى حَياءً . قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ لَيَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ وَأَمَتِهِ يَشِيبانِ فى الإسلامِ أَنْ يُعَذِّبَهُما »[3] .

وَالحَياءُ مِنْ صِفاتِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، الَّتِى هِىَ أَشْرَفُ الصِّفاتِ وَأَفْضَلُها . قال أَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ رضى اللهُ عنه : « كانَ رسولُ اللهِ

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن عمران بن حصين رضى الله عنه .
(٢) رواه مسلم (٣) رواه ابن النجار .

صلى اللهُ عليه وسلم أشَدَّ حيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فى خِدْرِهَا[1] ، فإذَا رأى شيْئاً يَكْرَهُهُ — عَرَفْنَاهُ فى وَجْهِهِ » .

وَقَدْ كَانَ أصحابُهُ صلى اللهُ عليه وسلم أهْلَ حيَاءٍ : اقْتِدَاءً بِهِ ، فَحَرَصُوا عَلَى التَّخَلِّى وَالامْتِنَاعِ عَنْ كلِّ قَبِيحٍ ، وَالتَّحَلِّى وَالاسْتِمْسَاكِ بِكُلِّ حَسَنٍ جَمِيلٍ ، وَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « يَا عَائِشَةُ ، لَوْ كَانَ الحَيَاءُ رَجُلاً لَكَانَ رَجُلاً صَالِحاً ، وَلَوْ كَانَ الفُحْشُ رَجُلاً لَكَانَ رَجُلاً سُوءاً »[2] .

أيُّهَا المُسْلِمُ :

إنَّكَ تَسْتَحِى مِنَ النَّاسِ أنْ يَرَوْكَ بِغَيْرِ هَيْئَتِكَ العَادِيَّةِ ، أوْ بِغَيْرِ زِيِّكَ الَّذِى اعْتَدْتَ أنْ تَلْبَسَهُ بيْنَهُمْ ، فَتَحْرِصُ عَلَى هَيْئَتِكَ وَزِيِّكَ ، المَألُوفَيْنِ لَهُمْ : صَوْناً لِكَرَامَتِكَ عِنْدَهُمْ ، وَفِرَاراً مِنَ ازْدِرَائِهِمْ ، مَعَ أنَّهُمْ لا يَمْلِكُونَ لَكَ وَلا لأنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً ، وَلا مَوْتاً وَلا حَيَاةً ، وَلا بَعْثاً وَنُشُوراً .

أفَلاَ تَسْتَحِى مِمَّنْ يَمْلِكُ لَكَ وَلَهُمْ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَقُلُوبُهُمْ الَّتِى تُقَدِّرُكَ أوْلاَ تُقَدِّرُكَ كَقَلْبِكَ — بِيَدِهِ تَعَالَى : يُحَرِّكُهَا كَيْفَ يَشَاءُ .

وَبِحَيَائِكَ مِنْهُ تَعَالَى : بِذَلِكَ الخُلُقِ الكَرِيمِ ، الَّذِى يَبْعَثُ عَلَى تَرْكِ القَبِيحِ ، وَيَمْنَعُ مِنَ التَّقْصِيرِ فى حَقِّ ذِى الحَقِّ — تَعِيشُ فى دُنْيَاكَ فى عِزَّةٍ

---

(١) الخدر بكسر الخاء : ستر تجعله البكر فى جانب البيت ، والمراد أشد حياء من البكر حال استحيائها عند اختلاء زوجها بها لأول مرة .

(١) رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط عن عائشة رضى الله عنها .

وكرامة ، وأمن وسلامة ، حيث لا تخاف إلا الله (والله غالب على أمره) ، فتستحيي أن تقول غير الحق ، أو تشهد زوراً ، وبلغ من الرسوخ والثبات فى هذا المقام أن بعض السلف رأى رجلا نائما وبجواره فرسه عند رأسه ، فى مكان خال ، والظلام حالك ، فخشى عليه وأيقظه وقال له : تنام فى هذا المكان ، أما تخشى أحداً . فقال : إن الضار والنافع هو الله ، الذى لا يكون إلا ما قضاه ، وكل شىء بيده لا يتحرك إلا بإذنه وتحريكه ، ومن تحصن به حصنه ووقاه . لذلك أستحيي أن أخاف غير الله (لا إله إلا هو خالق كل شىء) ، وبعد الحياة الدنيا تجىء ربك بالصالحات ، ثمرة حياتك ، فيجزيك سبحانه جنة نعيم ، ويقيك عذاب الجحيم .

أيها المسلم :

يستحيي الإنسان ممن صنع معه معروفاً أو أفاده خيراً ، حتى قيل : أطعم الفم تستحي العين ، ومن لم يستحي كذلك ـ كان متجرداً من الإحساس ، فاقد الشعور ، ومن كان كذلك مع ربه ، المنعم ، الذى أفاده كل خير : لا يحس بحقه وواجبه ـ فعل ما بدا له من غير حياء ولا خجل ، وسعى وراء شهوته غير مبال بما يصيبه فى نفسه أو ماله أو عرضه ، فيعيش طريد المجتمع عدوا لبنى جنسه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبداً نزع

مِنْهُ الْحَيَاءَ ، فَإِذَا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ مَقِيتاً[1] مُمَقَّتاً[2] ، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ مَقِيتاً مُمَقَّتاً نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ ، فَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ خَائِناً مُخَوَّناً[3] ، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ خَائِناً مُخَوَّناً نُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ فَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ رَجِيماً[4] مُلَعَّناً[5] ، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ رَجِيماً مُلَعَّناً نُزِعَتْ مِنْهُ رِبْقَةُ[6] الْإِسْلاَمِ[7] » .

فَاتَّقِ اللهَ ـ يَاعَبْدَ اللهِ ، وَاسْتَحْيِ مِنْ رَبِّكَ ، الذى لا تُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ لِكَثْرَةِ نِعَمِهِ عَلَيْكَ ، وَاشْكُرْهُ تَعَالَى بِفِعْلِ الْخَيْرِ وَتَرْكِ الشَّرِّ عَلَى الدَّوَامِ ، مُعْتَقِداً وَاسِعَ عِلْمِهِ تَعَالَى ، وَعَظِيمَ قُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَشَدِيدَ بَطْشِهِ ، مَعَ ضَعْفِكَ وَفَقْرِكَ وَعَجْزِكَ وَحَاجَتِكَ إِلَيْهِ جلَّ شَأْنُهُ ، لِيَقْوَى إِيمَانُكَ وَيَرْسَخَ فِي قَلْبِكَ ، فَتَخَافَ اللهَ ، وَتَحْرِصَ بِدَوَامِ طَاعَتِهِ على رِضَاه . وَاعْلَمْ أَنَّهُ

---

(١) فعيل بمعنى فاعل ، ويرجح هذا قوله بعده ممقتاً بالبناء للمجهول ، أى ماقتاً غيره : أى مبغضاً له أشد البغض أو بمعنى مفعول ، أى ممقوتاً ، أى مبغضاً من غيره كذلك ، أو من المقت وهو أشد الغضب . وجاء فى شرح العزيزى على الجامع الصغير ضبطه بكسر الميم وتشديد القاف مكسورة ، وهو أيضاً يرجح أن فعليها هنا بمعنى فاعل .

(٢) أى ممقوتاً بين الناس ، أى مبغضاً أو مغضوباً عليه منهم .

(٣) أى منسوباً إلى الخيانة ، محكوماً عليه بذلك .

(٤) أى مرجوماً ، أى مطروداً من رحمة الله .

(٥) يلعنه الناس كثيراً .

(٦) الربقة : عروة فى حبل تجعل فى عنق البهيمة أو فى يدها تمسكها ، فاستعيرت للإسلام ـ يعنى مايشد به نفسه من عرى الإسلام ، أى حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه .

(٧) رواه ابن ماجه عن ابن عمر رضى الله عنهما .

لَيْسَ مِنَ الحَيَاءِ شَرْعاً تَرْكُ سُؤَالِكَ عَنْ أَمْرِ دِينِكَ خَجَلاً طَبْعاً ، وَمِنْ قالَتْ هُنَا أُمُّ سُلَيْم : يارسولَ اللهِ ، إنَّ اللهَ لايَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ فَهَلْ على المَرْأَةِ الغُسْلُ إذَا احْتَلَمَتْ ؟ قالَ : نَعَمْ إذَا رَأَتِ المَاءَ »[1].

وفى أثرٍ إلهىٍّ يقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ : (ابْنَ آدَمَ إنَّكَ ما اسْتَحْيَيْتَ أنسيْتُ النَّاسَ عيُوبَكَ ، وَأنْسَيْتُ بِقَاعَ الأرْضِ ذُنُوبَكَ ، وَمَحَوْتُ مِنْ أُمِّ الكِتَابِ زَلاَّتِكَ ، وَإلاَّ نَاقَشْتُكَ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ » .

قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : «الحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمَانِ ، وَلا إيمَانَ لِمَنْ لا حَيَاءَ لَهُ » رواه أبو الشَّيْخِ بنُ حِبَّانَ فى الثَّوَابِ عن أُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ رضى اللهُ عنه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : «مَا كَانَ الفُحْشُ فى شَيْءٍ إلاَّ شَانَهُ ، وَمَا كَانَ الحَيَاءُ فى شَيْءٍ إلاَّ زَانَهُ» رواه ابنُ ماجَهْ والتِّرمذِيُّ عن أَنَسٍ رضى اللهُ عنه .

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى ومسلم عن أم سلمة رضى الله عنها .

٣٠ – الأمانة سر سعادة الدارين

الحَمْدُ لِلَّهِ : اختارَ بَنِي آدَمَ لِعِبَادَتِهِ وَجَعَلَهُمْ أُمَنَاءَ عَلَى شَرِيعَتِهِ ، وَوَعَدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ حُسْنَ الحَالِ فِي الحَالِ وَالْمَآلِ ، وَقَالَ : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ : أَمَرَ بِحِفْظِ الْأَمَانَةِ ، وَجَعَلَهَا مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا جَعَلَهَا مِنْ صِفَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَنَهَى عَنِ الْخِيَانَةِ ، وَجَعَلَهَا مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ ، وَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْ ضَيَاعِ الدُّنْيَا وَشَقَاءِ الْعَيْشِ فِيهَا : بِالْجُوعِ ، وَمِنْ ضَيَاعِ الدِّينِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْأُخْرَى بِالْخِيَانَةِ الَّتِي هِيَ أَخْبَثُ شَرٍّ يُضْمِرُهُ الْإِنْسَانُ ، فَقَالَ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ ، فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ »[1] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ بَرْهَنُوا على الأَمَانَةِ بِالْإِيمَانِ ، فَعَاشُوا أَحِبَّاءَ أَعِزَّاءَ : فِي سَعَادَةٍ وَأَمَانٍ (وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ

(١) رواه أبو داود عن أبي هريرة رضى الله عنه.

خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) .

أَمَّا بَعْدُ :

فَيَاعِبَادَ اللهِ : لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مَكَّةَ ـ أَغْلَقَ خَادِمُ الْكَعْبَةِ ، عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ ـ بَابَهَا ، وَأَبَى أَنْ يَفْتَحَهُ : لِيَدْخُلَهَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَقَالَ : لَوْ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ لَمْ أَمْنَعْهُ ، فَلَوَى عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ـ يَدَهُ ، وَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ ، وَفَتَحَهَا ، فَدَخَلَهَا رَسُولُ اللهِ ، وَصَلَّى فِيهَا رَكْعَتَيْنِ ، فَلَمَّا خَرَجَ صلى اللهُ عليه وسلم ـ طَلَبَ عَمُّهُ العَبَّاسُ أَنْ يُعْطِيَهُ مِفْتَاحَ الكعبةِ ، ويجعلَهُ خَادِمًا لَهَا ، فَنَزَلَ قَولُهُ تَعَالَى : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » . فَأَمَرَ صلى اللهُ عليه وسلم عَلِيًّا بِرَدِّ المِفْتَاحِ إِلَى عُثْمَانَ ، وَاعْتِذَارِهِ لَهُ : لِلَيِّهِ لِيَدِهِ ـ عِنْدَ أَخْذِهِ المِفْتَاحَ مِنْهُ ، فَأَسْلَمَ عثمانُ لِذَلِكَ ، وَتَشَرَّفَ بِاعْتِنَاقِ دِينِ الأَمَانَةِ ، الَّتِي بِهَا يَشْرُفُ الْإِنْسَانُ ، وَيَنَالُ خَيْرَ مَنْزِلَةٍ وَمَكَانٍ ، وَيَتَحَقَّقُ الْخَيْرُ لِلْخَلْقِ جَمِيعًا ، وَلِذَلِكَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَالْمُسْلِمُونَ مُجْتَمِعُونَ : لاخْتِيَارِ خَلِيفَةٍ له ـ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي عُبَيْدَةَ هَلُمَّ ـ قَرِّبْ نَفْسَكَ إِلَيَّ ـ أُبَايِعْكَ لِتَكُونَ إِمَامَ المسلمين ـ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ : إِنَّكَ أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ ، فَرَدَّ عليهِ أبو عبيدةَ الأمينُ عَلَى الحَقِّ لافِتًا النَّظَرَ إِلَى الرَّجُلِ الذي هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ ، وَأَحَقُّ بِالْمُبَايَعَةِ عَلَى الإِمَامَةِ ـ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ـ فقالَ : كَيْفَ أُصَلِّي إِمَامًا وَخَلْفِي رَجُلٌ أَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ـ أَنْ يَؤُمَّنَا يَوْمَ قُبِضَ .

فالأَمَانَةُ ـ يَاعِبَادَ اللهِ ـ دَلِيلٌ عَلَى يَقَظَةِ ضَمِيرِ الْمُتَّصِفِ بِهَا ، حَيْثُ

يشعرُ بتبعتِهِ فى كلِّ أمرٍ يُوكَلُ إليهِ وَيُدرِكُ إدراكاً جازماً أنَّهُ مسئولٌ أمامَ ربِّهِ عنه .

وهِيَ الفريضةُ التى نتواصى نحنُ المسلمينَ برعايتِها ، ونستعينُ باللهِ عَلَى حِفظِها ، حَتَّى يقولَ أحدُنا لأخيهِ ، فى وداعِهِ ما كانَ رسولُنا صلى اللهُ عليه وسلم - يُودِّعُ بهِ أصحابَهُ عندَ السَّفرِ : « أستودِعُ اللهَ دِينَكَ وأمانتَكَ وخواتيمَ عملِكَ »[1] ، وقدْ قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إنَّ اللهَ إذا استُودِعَ شيئاً حفِظه »[2] .

وقدْ اشتهرَ صلى الله عليه وسلم بلقبِ الأمينِ ، قبلَ بعثتِهِ ، فكانَ يستودِعُه قومُه أماناتِهم ، وفى ليلةِ الهجرةِ - أمرَ عليًّا أنْ يبيتَ فى مكانِهِ ليَرُدَّ فى الصَّباحِ تلكَ الأماناتِ لأصحابِها ، مَعَ أنَّهُمْ ممَّنْ اضطرَّهُ صلى اللهُ عليه وسلم إلى تركِ وطنِهِ ، فى سبيلِ عقيدتِهِ ، ولكنْ مِنْ تعاليمِ دينِهِ صلى الله عليه وسلم - ماقالَ أحدُ سلفِنا الصالحِ ميمونُ بنُ مهرانَ : ثلاثةٌ يُؤدَّيْنَ إلى البرِّ والفاجرِ : الأمانةُ ، والعهدُ ، وصلةُ الرَّحِمِ .

وكذلكَ شُوهِدتْ أماراتُ الأمانةِ عَلَى موسى قبلَ أنْ يُرسَلَ ، حينَ سَقَى لابنتَيِ الشيخِ الكبيرِ - الغنمَ ، بعدَ أنْ خرجَ مِنْ مصرَ ، طالباً النَّجاةَ مِنْ فِرْعونَ وقومِهِ ، ووردَ ماءَ مدينَ ، وقدْ رَقَّ عليهِ السلامُ

---

(١) رواه الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عمر رضى الله عنه .

بالابنتين ، واحترم أنوثتهما ، وكان معهما عفيفاً شريفاً ، وفي ذلك قال تعالى : « فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ، فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ، قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين » .

فالأمانة – يا عباد الله – من أجل الصفات التي بها يطمئن الناس إلى من اتصف بها ، ويثقون به ، ويحبونه ، فيعيش سعيداً ، ويمشي بينهم مرفوع الرأس ، موفور الكرامة ، ويحبه الله ، ويرضى عنه ، ويحفظ إيمانه ، ويحسن إليه في دنياه ، ويكرم نزله في أخراه ، وينظمه في سلك عباده أهل الفلاح ، الذين قال تبارك وتعالى فيهم : « قد أفلح المؤمنون » .

فقد قال سبحانه – بعد – في بعض صفاتهم : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

والأمانة – يا عبد الله – هي صيانتك لحقوق الله وحقوق خلقه ، وحفظك للأعمال من دواعي التفريط والإهمال ، فليست الأمانة خاصة بحفظ دائع الناس وأموالهم ثم ردها عند طلبها إليهم ، وإنما هي تشمل كل ما أنعم الله به عليك ، وكل ما كلفك الله به : من الأوامر والنواهي .

فالمالُ في يدِك ـ أمانةٌ ، فأنفقهُ فيما يُرضِي اللهَ ، الذي ائتمنكَ عليهِ .
والسمعُ والبصرَ والقلبُ ـ أمانة ، فلاَ تستَمِعْ ولاَ تُبصِرْ ، ولا تقصِدْ إلاّ ما أباحَ اللهُ استماعَه ، وإبصارَهُ ، وقصدَه : « إنَّ السَّمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنهُ مسئولاً » .

واللِّسانُ أمانةٌ ، والفرْجُ أمانة ، فلاَ تنطِقْ إلاّ بخيرٍ ، وليَكُنْ لِسانُكَ رطْباً بذِكرِ اللهِ ، ولاَ تستَهِنْ بِعثَراتِ اللِّسانِ ، فقدْ قالَ صلى الله عليه وسلم « وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إلاّ حصَائِدُ ألسنَتِهِمْ »[1] .
واحفَظْ فرْجَكَ عَنِ الحَرَام ، وقدْ قالَ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ[2] لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ[3] رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ »[4] .

والعقلُ أمانة : بِهِ ـ تقِفُ غضبَكَ عِنْدَ حـدِّهِ ، الّذي حدَّدَهُ الدِّينُ ، وهوَ الدِّفاعُ عن حُقُوقِكَ ، فلاَ تتعدَّاهُ بِظُلْمِ أحدٍ ، ومِنَ الظُّلمِ أنْ تستغِلَّ منصِبَكَ الّذي عُيِّنْتَ بهِ : لِجَرِّ منفعةٍ إلَى شَخصِك أوْ قرابَتِكَ ، وقدْ قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « من استعمَلْناهُ عَلَى عَمَلٍ فرزَقْناهُ رِزْقاً فما أخذَ بعْدَ ذلِكَ فهُوَ غلولٌ[5] »[6] .

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، والمراد بحصائد الألسنة : ماتلفظه الألسنة من قبيح الكلام : كالكفر والكذب والشتم والغيبة والنميمة ونحو ذلك .

(٢) هو اللسان . (٣) هو الفرج .

(٤) رواه البخارى ومسلم عن سهل بن سعد رضى الله عنه .

(٥) اختلاس من مال الجماعة الذى ينفق عليهم .

(٦) رواه أبو داود .

وَبالعقلِ ـ تقفُ شهوتكَ عِندَ حدِّها الذي رسمهُ الدِّينُ ، وهُوَ التزوُّجُ فلا تتعدَّاهُ بالجهلِ ، وطلبِ أنثى غيرِكَ وفي ذلك يقول تعالى : « إنَّا عرضنا الأمانةَ على السموَاتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أن يحمِلنها وأشفقنَ منها ، وحملها الإنسانُ إنهُ كانَ ظلوماً جهولاً »[1] ، أي إنهُ تحقَّقَ كونهُ ظلوماً جهولاً بِدُونِ العقلِ ، فليصُنِ المسلمُ عقلهُ عمَّا يضرُّ بهِ : من تناوُلِ الخمرِ والمخدِّراتِ ، وليفكِّرْ بهِ في الخيرِ ، وليعملْ على زيادةِ نورِهِ بالإكثارِ من طاعةِ اللهِ ، وتدبُّرِ القرآنِ ، والتفقُّهِ في الدِّين حتَّى لا يكونَ ظلوماً جهولاً ، ويكونَ عادِلاً طاهِراً : قالَ صلى الله عليه وسلم : « ازددْ عقلاً تزددْ من ربِّكَ قُرباً »[2] .

والاستشارةُ أمانة : قال صلى الله عليه وسلم : « المُستشارُ مؤتمنٌ ، فإذا استُشيرَ فليُشِرْ بما هُوَ صانِعٌ لِنفسِهِ »[3] .

والعِلمُ أمانة ، قال صلَّى الله عليه وسلم : « تناصَحُوا في العِلمِ ، فإنَّ خيانةَ أحدِكُمْ في عِلمِهِ ـ أشدُّ مِنْ خيانتِهِ في مالِهِ وإنَّ اللهَ مُسائِلُكُمْ »[4] .

وإسنادُ العَمَلِ إلى مَنْ هُوَ أهلٌ لِحُسْنِ أدائِهِ ـ أمانة بهِ ـ صلاحُ

---

(١) راجع كتابنا حديث الإسلام ، فقد أشبعنا فيه الكلام على هذه الآية الكريمة .

(٢) رواه الترمذي الحكيم في النوادر ، وداود بن المحبر في كتاب العقل عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٣) رواه الطبراني عن علي رضي الله عنه .

(٤) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما .

الأمورِ ، وَلِذلِكَ كَانَ العكسُ مِنْ مَظَاهِرِ الفَسَادِ ، الذي يقعُ في آخِرِ الزَّمَانِ : قالَ أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : بينما النبي صلى اللهُ عليه وسلم في مجلسٍ ـ يُحَدِّثُ القومَ جاءهُ أعرابيٌّ فقالَ : مَتَى السَّاعةُ ؟ فمضى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يُحَدِّثُ ، فقالَ بعضُ القوم : سَمِعَ ماقال فكرِهَ ماقالَ . وقالَ بعضُهم : بل لم يَسْمَعْ حتَّى إذَا قضَى حَدِيثَهُ ـ قالَ : أينَ السَّائلُ عَنِ السَّاعةِ ؟ قالَ : هَا أنَا يَارَسُولَ اللهِ قال : إذَا ضُيِّعَتِ الأمانَةُ ـ فانتظِرِ السَّاعةَ . قال : كَيفَ إضاعتُها ؟ قالَ : إذَا وُسِّدَ الأمرُ إلَى غيرِ أهلِهِ ـ فانتظِرِ السَّاعَةَ »[1] .

وَحِفظُ السِّرِّ أمانةٌ وَلِذَلِكَ قالَ عَمْرُو بنُ عُبَيْدٍ لِمَنْ قالَ له : إنَّ صاحِبَكَ الأسْوَارِيَّ ـ يذكُرُكَ بِسُوءٍ : ياهذا مارَاعيتَ حقَّ صاحبي حيثُ ائتمنَكَ عَلَى سِرِّهِ ، فأفشيتَهُ ، وَمارَاعيتَ حقِّي : إذْ بلَّغتَنِي عَنْ صَاحِبِي مَا أكرَهُ وَلَكِنْ بلِّغْهُ أن الموتَ يعمُّنا وَالقبرَ يضُمُّنا ، وَالقِيامةَ تجمعُنا ، وَاللهُ يَحكُم بيننا وَهُوَ خيرُ الحاكِمِينَ .

ومايقعُ بين الرجل وبينَ زوجتِه مِنْ شُئونِ المباشرةِ الخاصَّةِ ـ أمانةٌ ، فعَنْ أسْماءَ بنتِ يَزِيدَ أنها كانَتْ عِندَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَالرجالُ والنساءُ قُعُودٌ عندَه : مِنْ غيرِ اختلاطٍ : كلُّ فَرِيقٍ في جانِبٍ مِنَ المكان . فقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : (« لَعَلَّ رَجُلاً يقولُ : مافَعَلَ بِأهْلِهِ »

---

(١) رواه البخاري .

وَلعلّ امرأةً تُخبِرُ بِما فعَلتْ معَ زَوْجِها » فأَرَمَّ القَوْمُ — سَكتُوا خائفِينَ — فقُلْتُ : إى وَاللهِ . يارسولَ اللهِ : إنَّهُمْ ليَفعَلُونَ ، وَإنَّهُنَّ ليَفْعَلنَ ، قالَ : « فَلاَ تفعَلُوا ، فإنَّما مَثَلُ ذلِكَ مَثَلُ شَيطَانٍ لَقِيَ شَيطَانَةً فغَشِيَها وَالنَّاسُ يَنظُرُونَ »)[١] .

وَحِفظُ أَسْرَارِ المَجَالِسِ الَّتِي شَهِدْتَهَ — أَمَانَةٌ ، مالَمْ تَكُنِ الأَسرارُ — مُغْضِبَةً للهِ العَزِيزِ القَهَّارِ : لإلحاقِ أذى بعِبَادِهِ ، فعَلَى المسلِمِ حِينَئِذٍ — أنْ يُسَارِعَ بالحِكْمَةِ إلى الحَيلُولةِ دونَ الأَذى ، دَفعاً لَهُ بقَدْرِ استطاعتِه قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « المَجالِسُ بالأَمانةِ إلاَّ ثلاثَةَ مَجالِسَ : مَجْلِسَ سَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ ، أوْ فَرْجٍ حَرَامٍ ، أوْ اقتِطَاعِ مَالٍ بِغَيرِ حَقٍّ »[٢] .

وَإذَا كَانَ لاَ يَطمَئِنُّ أحَدٌ إلَى أحَدٍ فى المُعامَلةِ إلاَّ إذَا وَثِقَ مِنْ أمَانَتِهِ كَانَتِ الأَمَانَةُ لاَزِمَةً لِكُلِّ مَنْ يتَعامَلُ معَ غَيرِهِ : رَئيساً كانَ أوْ مَرْءُوساً خادِماً أوْ مَخدُوماً بائِعاً أوْ مُشتَرِياً . عامِلاً لَدَى الحُكُومَةِ أو غيرِهَا : إذاً الأَمَانةُ لاَزِمَةٌ لِكُلِّ الأُمَّةِ ، فلاَ يَستَغنِي أحدٌ عَنْ مُعامَلَةِ أحَد ، وَعَمَلٍ مِنهُ لِفائدَتِهِ ، وَفى العامِلِ الأَمِينِ الَّذِي يَحرِصُ عَلَى أداءِ وَاجِبِهِ كَامِلاً فِى العَمَلِ الذِي يُناطُ بِهِ — قال صلى اللهُ عليه وسلم : « العامِلُ إذَا استُعْمِلَ ، فأَخَذَ الحَقَّ وَأعطَى الحَقَّ لَمْ يَزَلْ كالمُجاهِدِ فى سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ إلَى بَيتِهِ »[٣] ،

---

(١) رواه الإمام أحمد .
(٢) رواه أبو داود والعسكرى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما .
(٣) رواه الطبرانى .

وَاللهُ تعالى يقول : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) .

وَالْغَدْرُ — بِأَقْوَامٍ — وَعَدَمُ الوفاءِ بالعهدِ خِيَانَةٌ ، وَمِنْ أَقْبَحِ أَنْوَاعِهِ الْعَمَلُ عَلَى الْفُرْقَةِ ، وَالصُّفُوفُ مُجْتَمِعَةٌ ، وَقَدْ قال صلى اللهُ عليه وسلم : « لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ[1] يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ : هٰذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ »[2] .

وفي عِظَمِ الْأَمَانَةِ ، وَفَظَاعَةِ جَزَاءِ الْخِيَانَةِ وَالتَّوْجِيهِ إِلَى أَنَّ التَّكَالِيفَ الشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا أَمَانَةٌ — قالَ صَاحِبُ رسولِ اللهِ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : « الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا إِلَّا الْأَمَانَةَ . قالَ : يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ — وَإِنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ — فَيُقَالُ : أَدِّ أَمَانَتَكَ ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ، كَيْفَ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا ؟ فَيُقَالُ : انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى الْهَاوِيَةِ ، وَتُمَثَّلُ لَهُ أَمَانَتُهُ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ دُفِعَتْ إِلَيْهِ ، فَيَرَاهَا فَيَعْرِفُهَا ، فَيَهْوِي فِي أَثَرِهَا حَتَّى يُدْرِكَهَا ، فَيَحْمِلُهَا عَلَى مَنْكِبَيْهِ حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ خَارِجٌ زَلَّتْ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، فَهُوَ يَهْوِي فِي أَثَرِهَا أَبَدَ الْآبِدِينَ . ثم قال : الصَّلَاةُ أَمَانَةٌ ، وَالْوُضُوءُ أَمَانَةٌ ، وَالْوَزْنُ أَمَانَةٌ ، وَالْكَيْلُ أَمَانَةٌ ، وَأَشْيَاءُ عَدَّدَهَا .. وَأَشَدُّ ذٰلِكَ الْوَدَائِعُ ... » .

---

(١) اللواء : الراية العظيمة لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب أو صاحب دعوة الجيش . ويكون الناس تبعاً له ، ومعنى لكل غادر لواء أي علامة يشتهر بها في الناس وكانت العرب تنصب الألوية في الأسواق : لغدر الغادر : ليشتهر .

(٢) رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود وابن عمر وأنس رضي الله عنهم .

أيها المسلمون :

مَنْ عُمِرَ قَلْبُهُ بِمَخَافَةِ اللهِ كَانَ أَمِينًا ، وَمَنْ خَلاَ قَلْبُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ أَضَاعَ الأَمَانَة ، وَسُهلَتْ عليه الخِيَانة ، فاتقوا الله وَاعْمُرُوا قُلُوبَكُمْ بِالخَوفِ مِنَ اللهِ ، وَأَحْيُوا ضَمَائِرَكُمْ بِمُرَاقَبَةِ الله : لِتَكُونوا أُمَنَاءَ في الحَيَاة ، سُعَدَاءَ في الدَّارَيْنِ بِرِضَا اللهِ القَائِلِ : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

قالَ أَنَسٌ رضى الله عنهُ : ماخَطَبَنَا رسول الله صلى عليه وسلم إلاَّ قالَ : « لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَأَمَانَةَ لَهُ وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَعَهْدَ لَهُ » رواه الإمامُ أحمد .

٣١ – الترغيب فى الصدق والترهيب من الكذب

الحَمْدُ لِلهِ : أَصْدَقِ القَائِلِينَ ، وَقَدْ جَعَلَ الصدق فَضِيلَةً ، وَالْكَذِبَ رَذِيلَةً ، وَقَالَ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ : وَعَدَ مَنْ صَدَقَ الْجَنَّةَ : مَنْ يَدْخُلُهَا – يَنْعَمْ وَلَا يَبْأَس لَا تَبْلَى ثِيَابَهُ ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ ، وَأَوْعَدَ مَنْ كَذَبَ النَّارَ : (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ الَّذِى مَاقَالَ إِلَّا حَقًّا ، وَلَا حَدَّثَ إِلَّا وَصِدْقًا قال: « أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِى وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ . وَإِنْ كَانَ مَازِحاً »[1] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ ، وَصَحْبِهِ الَّذِينَ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَفَازُوا فَوْزاً عَظِيماً .

أَمَّا بَعْدُ :

فَيَا عِبَادَ اللهِ : قَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ يَزِيدَ : رضى الله عنها : « كُنْتُ صَاحِبَةَ عَائِشَةَ رضى اللهُ عنها فى اللَّيْلَةِ الَّتِى هَيَّأْتُهَا ، وَأَدْخَلْتُهَا عَلَى رسول الله صلى

---

(١) رواه البيهقى ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه عن أبى أمامة رضى الله عنه .

الله عليه وسلم ، وَمَعِى نِسْوةٌ . قالتْ : فَوَاللهِ ماوَجَدْنا عِنْدَهُ قِرًى إلاَّ قَدَحاً مِنَ اللَّبَنِ ، ثمَّ نَاوَلَ عَائِشَةَ رضِى الله عنها قالتْ : فَاسْتَحْيَتِ الْجَارِيةُ ، قالتْ : فَقُلْتُ : لاَ تَرُدِّى يَدَ رَسول الله صلى الله عليهِ وسلم خُذِى مِنْهُ قالَتْ : فأَخَذَتْهُ مِنْهُ على حَياء فَشَرِبَتْ مِنْهُ ، ثمَّ قالَ : نَاوِلِى صَوَاحِبَكَ « أىْ مَنْ مَعَكَ : مِنَ النِّسْوةِ » ، فَقُلْنَ : لاَ نَشْتَهِيهِ ، فَقَالَ صلى الله عليهِ وسلم : « لاتَجْمَعْنَ جُوعاً وَكَذِباً » ، قالَتْ : فَقُلْتُ : يارَسُولَ اللهِ . إنْ قالَتْ إحْدَانا لِشَىْء ، تَشْتَهِيهِ : لاَ أَشْتَهِيهِ ، أيُعَدُّ ذلِكَ كَذِباً ؟ فقالَ : « إنَّ الْكَذِبَ لَيُكْتَبُ حَتَّى تُكْتَبَ الكُذَيْبَةُ كُذَيْبَةً »)[1] .

فَياحَرِيصاً على سَلاَمَتِهِ وَكَرَامَتِهِ ، هَلِ انْتَبَهْتَ لِذلِكَ الْحَقِّ الذى بَيَّنَهُ حَبِيبُ اللهِ وَمُصْطَفَاهُ ، رُسُولُنَا صلى الله عليهِ وسلم فَالْكَذِبُ مُسَجَّلٌ على صَاحِبِهِ : صَغُرَ أثَرُهُ أوْ كَبُرَ ، وَكَذلِكَ الصِّدْقُ ، وَاللهُ تعالَى يَقُولُ : (مايَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) .

وَالصِّدْقُ ـ هُوَ إخْبَارُكَ بِالشَّىْء على مَاهُوَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ زِيادَةٍ ، أوْ نقصَان ، أوْ مُبَالَغَةٍ ، أوْ تهْوِيلٍ ، أوْ تَحْرِيفٍ ، يُخْرِجُ الْخَبَرَ عنْ حقِيقَتِهِ ، فَيُنْتِجُ شَرّاً أوْ سُوءا ، وَالْكَذِبُ عَكْسُ ذلِكَ .

فَالصِّدْقُ أسَاسُ العُمْرَانِ ، وَحُسْنِ الْحَالِ ، وَالْكَذِبُ مِعْوَلُ هَدْمٍ وَخَرَابٍ .

---

(١) رواه الطبرانى فى معجمه الكبير ، وابن أبى الدنيا .

لِذَلِكَ - رَغَّبَ الإِسْلَامُ ، الَّذِى ارْتَضَاهُ اللهُ لِلنَّاسِ دِيناً - فِى الصِّدْقِ ، وَرَهَّبَ مِنَ الْكَذِبِ .

تَأَمَّلْ : تَتَكَلَّمُ - مَعَ الْكَاذِبِ - فِى شَىْءٍ ، تُرِيدُ تَحْصِيلَهُ ، فَيُهَوِّنُهُ عَلَيْكَ ، كَأَنَّهُ لا يَحْتَاجُ إِلَى أَدْنَى مَجْهُودٍ : لِلْحُصُولِ عَلَيْهِ ، فَلَا تُعْطِيهِ مِنَ الْعِنَايَةِ مَا يَسْتَحِقُّ ، وَقَدْ يُصَعِّبُهُ عَلَيْكَ فَتَهَابُ السَّعْىَ إِلَيْهِ ، فَتَكُونُ النَّتِيجَةُ فِى الحَالَيْنِ حِرْمَانَكَ مِنْهُ .

وَقَدْ يُخْبِرُكَ الْكَاذِبُ - بِحُبِّ فُلَانٍ لَكَ ، فَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ ، وَتَنْفَتِحُ لَهُ قَلْبُكَ ، ثُمَّ تَكْشِفُ الأَيَّامُ أَنَّهُ لَكَ عَدُوٌّ - بِمَا يُنْزِلُهُ بِكَ : مِنَ الأَضْرَارِ وَقَدْ يُخْبِرُكَ عَنْ آخَرَ أَنَّهُ مِنْ أَلَدِّ أَعْدَائِكَ ، وَأَنَّهُ يَنْوِى لَكَ الضَّرَرَ ، فَتُعَامِلُهُ بِمَا يُنَاسِبُهُ ، فَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ أَنَّكَ تُسِىءُ بَرِيئاً ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً[1] وَإِثْماً مُبِيناً » .

وَالْمُسْلِمُ : حَقًّا ، الَّذِى عَرَّفَهُ النَّبِىُّ صلى اللهُ عليه وسلم - بِأَنَّهُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ - لا يَكُونُ إِلَّا صَادِقاً ، فَلَا يَكْذِبُ فِى تِجَارَةٍ وَلا صِنَاعَةٍ ، فَلَا يَغُشُّ وَلَا يَخْدَعُ فِيهِمَا ، وَيَصْدُقُ فِى مِيعَادِهِ ، وَلَا يَكْذِبُ بِإِنْكَارِ الحَقِيقَةِ - عِنْدَ الْمَسْئُولِيَّةِ : فِرَاراً مِنَ الْعُقُوبَةِ .

فَالصِّدْقُ مَنْجَاةٌ ، وَالْكَذِبُ مَهْوَاةٌ ، وَالْمُجَازِى فِى الحَقِيقَةِ - هُوَ اللهُ

---

(١) كذباً .

الذي يعلمُ السِّرَّ وأخفى : « تبارَكَ الَّذي بيدِهِ المُلكُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ » .

وماذا جرى - ياقومِ - ألسنا مسلمينَ ؟ .

لقدْ انتشرَ الكذبُ ، اليومَ ، بيننا ، في صُوَرٍ شتّى ، وألوانٍ متعددةٍ كأنَّهُ خُلُقٌ حسَنٌ ، لارذيلةٌ : تُسْقِطُ الكرامةَ ، وتجرُّ المِحَنَ .

فاليومَ كثُرَ الكذبُ بمدحِ الظالمينَ بالمداهنةِ : ابتغاءَ عرَضِ الدُّنيا الزائلِ ، وإنَّ اللهَ يغضبُ إذا مُدِحَ الفاسقُ .

وقدْ قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إذا قالَ الرَّجُلُ للمُنافقِ : ياسيِّدُ - فقدْ أغضبَ ربَّهُ »[1] .

وذاعتْ ، وشاعتِ الوُعودُ الكاذبةُ - معَ التأكيدِ - بقضاءِ الحاجاتِ معَ عدمِ القُدْرةِ على قضائها ، أوْ معَ نيَّةِ عدمِ قضائها - معَ القُدرةِ على ذلكَ ، وقدْ غرَّ إبليسُ النَّاسَ بأنَّ في ذلكَ الوَعْدِ - جبْرَ الخاطرِ - وإحياءَ الأملِ في النُّفوسِ ، كما غرَّهُمْ ثناءُ الموْعُودينَ - بقضاءِ حاجاتِهِمْ - عليهمْ ، عندَ وُعودِهِمْ لهُمْ .

وأينَ هؤلاءِ الكاذبُونَ في وُعُودِهِمْ ، المَغْرُورُونَ مِنْ سُوءِ حالِهِمْ وعاقِبتِهِمْ ؟ فهُمْ - بوُعُودِهِمُ الكاذبةِ - مُنافقُونَ .

قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « آيةُ المُنافقِ ثلاثٌ : إذا حدَّثَ كذَبَ ،

---

(١) رواه الحاكم ، وغيره ، عن بريدة رضي الله عنه .

وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ »[1] . وَفِى رِوَايَةٍ : « وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ » ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً » .

وَإِنَّ جَبْرَ الْخَاطِرِ وَإِحْيَاءَ الْأَمَلِ ـ مُمْكِنٌ بِالْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ ، فِى بَشَاشَةٍ مَعَ الْمَشِيئَةِ[2] ، وَمَعَ الصِّدْقِ ، الَّذِى يَسْلَمُ بِهِ صَاحِبُ الْحَاجَةِ مِنَ النَّدَمِ ، وَهُوَ يَقُولُ مُتَحَسِّراً : لَوْلَا الْوَعْدُ الْكَاذِبُ ـ لَقَضَيْتُ حَاجَتِى .

فَلْيَخَفِ الْمُسْلِمُ رَبَّهُ ، الَّذِى يُعَامِلُهُ بِمَا يُعَامِلُ النَّاسَ بِهِ ـ بِمُصَارَحَتِهِ رَاجِيَهُ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ بِالْحَقِيقَةِ ، وَلَا يَقُلْ لَهُ : « يُسَهِّلُ رَبَّنَا أَوْ رَبُّنَا ، يُسَهِّلُ ـ كَمَا يَقُولُهَا النَّاسُ : لِلِاسْتِهْلَاكِ الْمَحَلِّى ، لَا بِقَصْدِ مَعْنَاهَا الْحَقِيقِىِّ ، وَإِسْنَادِ التَّسْهِيلِ إِلَى اللهِ الْقَادِرِ ، حَتَّى لَا يُشْعِرَهُ بِأَنَّهُ قَاضٍ حَاجَتَهُ ، وَهُوَ يُضْمِرُ غَيْرَ ذَٰلِكَ ، فَبِذَٰلِكَ يَسْلَمُ مِنْ شَرِّ الْكَذِبِ وَالنِّفَاقِ .

وَقَدْ أَثْنَى اللهُ عَلَى إِسْمَاعِيلَ : عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : « وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا » .

قِيلَ : إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَعَدَ إِنْسَاناً فِى مَوْضِعٍ ، فَلَمْ يَحْضُرْهُ ، فَبَقِىَ يَنْتَظِرُهُ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْماً حَتَّى حَضَرَ ، وَمِنْ أَلْوَانِ الْكَذِبِ ـ الْحَلِفُ بِاللهِ كَذِباً ، وَالْإِخْبَارُ بِالْكَذِبِ ، وَالتَّحَدُّثُ كَذِباً : وَلَوْ مُزَاحاً . وَتَفَكُّهاً : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « كَبُرَتْ خِيَانَةً أَنْ تُحَدِّثَ *

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما . عن أبى هريرة : رضى الله عنه .

(٢) أى قول إن شاء الله .

أَخَاكَ حَدِيثًا ، هُوَ لَكَ بِهِ مُصَدِّقٌ ، وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كَاذِبٌ »[١] . وقال : « وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ بِالْحَدِيثِ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ ، فَيَكْذِبُ ، وَيْلٌ لَهُ ، وَيْلٌ لَهُ »[٢] ، وَمِنَ الْكَذِبِ ـ الْكَذِبُ عَلَى اللهِ : بِتَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللهُ كَالبِيرَةِ وَالْحَشِيشِ وَالْأَفْيُون ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ : مِمَّا حَرَّمَ الله :

قال تعالى : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ » . وقال : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

وَمِنَ الْكَذِبِ ـ الْكَذِبُ فِي الْمَنَامِ . قال صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ ـ كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ »[٣] .

وَمَنْ لَمْ يَتَثَبَّتْ فِيمَا يَقُولُ ، وَيَحْكِي ، وَيَرْوِي ، وَبِخَاصَّةٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ـ فَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ الآثِمِينَ . قالَ صلى اللهُ

---

(١) رواه أحمد والطبراني عن النواس بن سمعان رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنهم .

(٣) روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من تحلم بحلم لم يره كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل ، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة ، ومن صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيه الروح وليس بنافخ) وتحلم : أي قال إنه حلم ورأى في نومه كذا وكذا وهو كاذب ، والآنك هو الرصاص المذاب .

عليه وسلم : « كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ »[1]. وقال صلوات اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : « مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ »[2]. وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »[3].

وَلَمْ يُرَخِّصْ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِالْكَذِبِ إِلَّا فِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ ، وفي الْحُرُوبِ : لِخَيْرِ الْمُسْلِمِينَ ، وفي دَفْعِ الظُّلْمِ عَنِ الْمَظْلُومِ بِسَلَامَةِ نَفْسِهِ ، أَوْ عِرْضِهِ ، أَوْ مَالِهِ ، وفي الزَّوْجِ لِزَوْجَتِهِ ، وَالزَّوْجَةِ لِزَوْجِهَا ، لِصَلَاحِ حَالِهِمَا .

وَقَدْ عُنِيَ الْإِسْلَامُ بِتَنْشِئَةِ الطِّفْلِ عَلَى الصِّدْقِ ، فَمَنْ شَبَّ عَلَى شَيْءٍ شَابَ عَلَيْهِ ، حَتَّى قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ قَالَ لِصَبِيٍّ : تَعَالَ ، هَاكَ - أَيْ خُذْ - ثُمَّ لَمْ يُعْطِهِ - فَهِيَ كَذْبَةٌ »[4].

وَهَلْ يَلِيقُ بِالْمُؤْمِنِ - وَهُوَ الْكَيِّسُ الْفَطِنُ الْحَذِرُ - أَنْ يَكُونَ كَذَّاباً كَرَاعِي الْغَنَمِ ، الذي اسْتَغَاثَ بِالْكَذِبِ يَوْماً مِنَ الذِّئْبِ ، فَأَسْرَعَ النَّاسُ لِيُغِيثُوهُ ، فَلَمَّا رَآهُمْ أَخَذَ يَضْحَكُ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا أَخَذَ الذِّئْبُ يَوْماً يَفْتِكُ بِغَنَمِهِ ، وَأَخَذَ هُوَ يَسْتَغِيثُ بِالصِّدْقِ - لَا كَالْمَرَّةِ الْأُولَى - لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه مسلم في صحيحه عن سمرة رضي الله عنه .
(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وغيرهما عن أنس رضي الله عنه .
(٤) رواه أحمد وابن أبي الدنيا عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أَحَدٌ ، وَخَسِرَ فِي غَنَمِهِ خُسْرَانًا مُبِينًا . وَهَكَذَا عَاقِبَةُ الْكَذِبِ .

وَمَنْ وَلَوْ بِكَذْبَةٍ يَوْمًا نَطَقْ   عُدَّ كَذُوبًا عُمْرَهُ وَلَوْ صَدَقْ

عِبَادَ اللهِ :

الصَّادِقُ رَفِيعُ الْقَدْرِ ، عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ ، وَهُوَ مَوْضِعُ ثِقَتِهِمْ .

وَالْكَاذِبُ لَا يُوثَقُ فِي أَيْمَانِهِ ، وَهُوَ مَشْكُوكٌ فِي أَخْبَارِهِ ، مَطْعُونٌ فِي دِينِهِ . وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ الْمَلَكُ عَنْهُ مِيلًا مِنْ نَتْنِ مَا جَاءَ بِهِ »[1] . وَقَالَ صَفْوَانُ بْنُ سُلَيْمٍ : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا ؟ قَالَ : نَعَمْ . قِيلَ لَهُ : أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا ؟ قَالَ : نَعَمْ . قِيلَ لَهُ : أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا ؟ قَالَ : لَا »[2] . وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ) .

وَكَفَى بِالصِّدْقِ فَضْلًا وَحُسْنًا أَنَّهُ مِنْ صِفَاتِ اللهِ ، وَصِفَاتِ رُسُلِ اللهِ وَأَنْبِيَائِهِ ، وَبِهِ يَحْيَا الْفَرْدُ وَالْجَمَاعَةُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَيَكُونُ لَهُمَا حُسْنُ الْعَاقِبَةِ .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ : اتَّقُوا اللهَ ، وَتَمَسَّكُوا بِالصِّدْقِ ، وَاحْذَرُوا الْكَذِبَ تَلْقَوُا الْخَيْرَ فِي الْحَيَاتَيْنِ .

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ،

---

(١) رواه الترمذي وابن أبي الدنيا عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٢) رواه مالك .

وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا » رواه البخاريُّ وَمُسلمٌ فى صَحِيحَيْهِمَا من عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضى اللهُ عنه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَلاَ إِنَّ الْكَذِبَ يُسَوِّدُ الْوَجْهَ ، وَالنَّمِيمَةُ عَذَابُ الْقَبْرِ » رواه أبو يَعْلَى والطبرانى وابنُ حِبَّانَ فى صَحِيحِهِ ، وَالْبَيْهَقِيُّ عن أبى بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيِّ رضى اللهُ عنه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي ، قالاَ لِي : الذى رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ – فَكَذَّابٌ يَكْذِبُ الْكَذْبَةَ ، فَتُحْمَلُ عَنْهُ ، حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ ، فَيُصْنَعُ بِهِ هَكَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » رَوَاهُ البخاريُّ فى الأَدَبِ : مِنْ صَحِيحِهِ ، عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضى اللهُ عنه .

٣٢ – الترهيب من الحسد

الحَمْدُ لِلَّهِ : فَضَّلَ مَنْ شَاءَ . عَلَى مَنْ شَاءَ . بِمَا شَاءَ ، وَنَهَى عَنْ تَمَنِّي مَا أَعْطَى بَعْضَ عِبَادِهِ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاهُ : كَالْمَالِ وَالْجَاهِ : وِقَايَةً مِنَ الْحَسَدِ ، الْمُؤَدِّي إِلَى الْمُعَادَاةِ :

قال تعالى : « وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً .

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ : أَمَرَ بِالاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الْحَاسِدِ ، كَمَا أَمَرَ بِالاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ .

وقال تعالى : فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَى زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلاَمَ : « الْحَاسِدُ عَدُوٌّ لِنِعْمَتِي مُتَسَخِّطٌ لِقَضَائِي غَيْرُ رَاضٍ بِقِسْمَتِي الَّتِي قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادِي »[1] .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ – بَيَّنَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ – كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ ، صَدُوقِ اللِّسَانِ ، وَأَنَّ مَخْمُومَ الْقَلْبِ – هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ ، لاَ إِثْمَ فِيهِ ، وَلاَ بَغْيَ ، وَلاَ غِلَّ وَلاَ حَسَدَ »[2] .

---

(١) ذكر ذلك الإمام الغزالى فى كتابه الإحياء .

(٢) روى ابن ماجه ، عن عبد الله بن عمرو : رضى الله عنهما . قال : قيل : يارسول الله . أى الناس أفضل ؟ قال : « كل مخموم القلب . صدوق اللسان قالوا : صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب ؟ قال : هو التقى ، النقى لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، الذين كانت صدورهم سليمة وقلوبهم نقية طاهرة ، فعاشوا أحباء ، وفارقوا الحياة سعداء : « وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » .

أما بعد :

فقد كان رجل صالح يجالس المعتصم الخليفة العباسي ، ويدخل عليه من غير استئذان . وينصحه ، فغار منه الوزير ، فحسده ، وقال في نفسه : إن لم أقتل هذا الرجل — أخذ بقلب أمير المؤمنين ، وأبعدني عنه ، فاحتال لذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين : إن هذا الرجل — يقول للناس : إنك أبخر — أي منتن الفم ، وإذا قرب منك — وضع يده على أنفه : لئلا يشم الرائحة كما يقول ، فقال المعتصم : سأنظر في ذلك ، ودعا الوزير الرجل إلى طعام أكثر فيه من الثوم ، فلما أكل الرجل منه — قال له الوزير : احذر أن تقرب من أمير المؤمنين ، فيشم منك رائحة الثوم ، فيتأذى بذلك ، وخرج الرجل من عند الوزير ، وذهب إلى الخليفة كعادته ، فقال له : ادن مني ، فدنا منه ، ووضع يده على فمه : مخافة أن يشم منه رائحة الثوم ، فاعتقد — حينئذ — صدق ما قاله الوزير عنه ، وكتب له إلى بعض عماله — كتابا بخطه : يقول فيه : إذا أتاك صاحب كتابي هذا فاذبحه ، فلقي الوزير الرجل ، ومعه الكتاب إلى العامل المرسل إليه ، وما عرف أن الخليفة المعتصم يكتب كتابا بخطه إلا لمكافأة ، فظن

الوَزِيرُ أَنَّ الرَّجُلَ - يَحْصُلُ عَلَى مالٍ كَثِيرٍ بِذَلِكَ . فَقَالَ لَهُ : أَرِيحُكَ مِنْ عَنَاءِ السَّفَرِ لِلعَامِلِ خُذْ مِنِّى أَلْفَىْ دِينارٍ ، وَأَعْطِنِى الكِتَابَ ، فَوَافَقَهُ ، فَذَهَبَ الوَزِيرُ إِلَى العَامِلِ ، وَسَلَّمَهُ كِتَابَ الخَلِيفَةِ ، فَقَرَأَهُ العَامِلُ ، وَقَالَ لِلوَزِيرِ : إِنَّ فِى هَذَا الكِتَابِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ، فَقَالَ الوَزِيرُ : إِنْ الكِتَابَ لَيْسَ لِى ، اللهَ اللهَ فِى أَمْرِى ، حَتَّى أُرَاجِعَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ : لا مُرَاجَعَةَ لِكِتَابِهِ ، وَذَبَحَهُ .

وَلَمَّا حَضَرَ الرَّجُلُ عِنْدَ الخَلِيفَةِ ، فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ ، فَأَخْبَرَهُ بِالقِصَّةِ الَّتِى اتَّفَقَتْ لَهُ مَعَ الوَزِيرِ : بِشَأْنِ الكِتَابِ - قَالَ لَهُ : إِنَّهُ ذَكَرَ لِى أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنِّى أَبْخَرُ ، فَقَالَ الرَّجُلُ مَعَاذَ اللهِ ، يَاأَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَنْ أَقُولَ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ : فَلِمَ وَضَعْتَ يَدَكَ عَلَى فَمِكَ ، حِينَ طَلَبْتُ مِنْكَ الدُّنُوَّ مِنِّى ؟ قَالَ : مَخَافَةَ أَنْ تَشَمَّ فَمِى ، وَحَكَى لَهُ مَا حَصَلَ مِنْ إِطْعَامِ الوَزِيرِ لَهُ الطَّعَامَ بِالثُّومِ ، وَمَا قَالَهُ لَهُ : مِمَّا أَسْفَرَتِ النَّتِيجَةُ عَنْ أَنَّهُ كَانَ مَكْراً مِنَ الوَزِيرِ بِهِ ، وَحَسَداً مِنْهُ لَهُ ، وَالحَسَدُ هُوَ تَمَنِّى المَرْءِ زَوَالَ نِعْمَةِ غَيْرِهِ ، فَقَالَ الخَلِيفَةُ : صَدَقْتَ . قَاتَلَ اللهُ الحَسَدَ ، مَاأَعْدَلَهُ : بَدَأَ بِصَاحِبِهِ فَقَتَلَهُ .

عِبَادَ اللهِ :

هَكَذَا الحَسَدُ يَضُرُّ بِصَاحِبِهِ ، وَمَا يَزَالُ يُحْرِقُ دَمَهُ حَتَّى يَقْضِىَ عَلَيْهِ وَمِنَ الحِكَمِ البَالِغَةِ : « الحَسَدُ حَسَكٌ - أَىْ شَوْكٌ .. مَنْ تَعَلَّقَ بِهِ هَلَكَ » .

وَلِذَلِكَ كَانَتِ السَّلَامَةُ فِى تَرْكِهِ : رَأَى الأَصْمَعِىُّ أَعْرَابِيًّا ، قَدْ

بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ عِشْرِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ ، فَقَالَ لَهُ : مَا الَّذِى أَطَالَ عُمْرَكَ ؟
فَقَالَ : تَرَكْتُ الْحَسَدَ ، فَبَقِيتُ .

وَقَدْ حَسَدَ إِبْلِيسُ آدَمَ عَلَى رُتْبَتِهِ ، فَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لَهُ ، فَطُرِدَ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ ، وَحَسَدَ قَابِيلُ بْنُ آدَمَ أَخَاهُ هَابِيلَ : لِتَقَبُّلِ اللهِ لِقُرْبَانِهِ دُونَهُ فَقَتَلَهُ ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

وقَالَ الرَّسُولُ صلى اللهُ عليه وسلم :[1] « لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ[2] مِنْ دَمِهَا : لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ » .

وَحَسَدَ أَوْلاَدُ يَعْقُوبَ أَخَاهُمْ يُوسُفَ عَلَى أَنَّهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِيهِمْ مِنْهُمْ ، فَأَلْقَوْهُ فِى الْبِئْرِ ، فَأَعْقَبَ ذَلِكَ - رَفْعَ قَدْرِهِ ، وَقَدْ رَأَوْهُ بِأَعْيُنِهِمْ ، وَأَعْلَنُوا لَهُ خُضُوعَهُمْ وَلَوْلاَ تَوْبَتُهُمْ وَاسْتِغْفَارُ أَبِيهِمْ لَهُمْ ، وَعَفْوُ يُوسُفَ عَنْهُمْ - لَكَانَ الْخُسْرَانُ حَلِيفَهُمْ عَلَى الدَّوَامِ ، وَحَسَدَ الْكُفَّارُ رَسُولَنَا صلى اللهُ عليه وسلم : « وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » : أىْ على رَجُلٍ عَظِيمٍ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَتَيْنِ : مَكَّةَ أو الطَّائِفِ .

قال تعالى : « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، عن ابن مسعود : رضى الله عنه .
(٢) أى نصيب .

وَلَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُ - صلى اللهُ عليه وسلم - هُوَ الْعَظِيمُ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَتَيْنِ ، وَمِنَ الدُّنيا جَمِيعِها وَالآخِرَةِ ، وَكَمْ قَاسَى الْكُفَّارُ مِنْ آلامٍ - بِحَسَدِهِمْ لَهُ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَلِصَحابَتِهِ كِرامِ الأَنامِ ، وَلَقَدْ سَعِدَ النَّبِيُّ وَصَحْبُهُ الْمَحْسُودُونَ - بِخَيْرَيِ الدُّنيا وَالآخِرَةِ .

وَهَكَذا عُقْبَى كُلِّ حاسِدٍ ، وَهَكَذا عُقْبَى كُلِّ مَحْسُودٍ : « وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

وَالْحَسَدُ يَأْكُلُ حَسَناتِ الْحاسِدِ فِي مُقابِلِ سَيِّئاتِهِ ، الَّتِي آذَى بِها الْمَحْسُودَ : كَغِيبَتِهِ ، وَالطَّعْنِ فِيهِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَناتِ كَما تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ »[1] .

عِبادَ اللهِ :

الْحاسِدُ أَساءَ الأَدَبَ مَعَ اللهِ : لِأَنَّهُ لَمْ يَرْضَ تَوْزِيعَهُ لِنِعَمِهِ كَما يَشاءُ : ابْتِلاءً لِعِبادِهِ ، لِيَأْجُرَ مَنْ شَكَرَ عِنْدَ الْعَطاءِ ، وَصَبَرَ عِنْدَ الْحِرْمانِ ، وَيُعَذِّبَ مَنْ جَحَدَ عِنْدَ الْعَطاءِ ، وَلَمْ يُنْفِقْ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ ، أَوْ جَزِعَ مِنْ أَجْلِ الْحِرْمانِ .

فالْحاسِدُ كَما يُحِبُّ لِلنَّاسِ الشَّرَّ وَالأَذَى - يَكْرَهُ الْخَيْرَ لَهُمْ ، وَيَتَأَلَّمُ إِذا أَعْطاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ : كَأَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ ذَلِكَ مِنْهُ وَيَحْرِمُونَهُ ، وَلِذَلِكَ -

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

تبرّأ صلى اللهُ عليه وسلم مِنَ الحَاسِدِ ، كما تبرّأ مِنَ النمّامِ ، وَالكَاهِنِ ، وَالدَّجّالِ ، الّذِى يدّعِى مَعْرِفَةَ الغَيْبِ الّذِى اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهِ ، فقَالَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ : « لَيْسَ مِنِّى ذُو حَسَدٍ وَلاَ نَمِيمَةٍ وَلاَ كَهَانَةٍ وَلاَ أنَا مِنْهُ »(١) .

ثمّ تلاَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « وَالّذِينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ ما اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا » .

وَمَا نَشَأَ الحَسَدُ بَيْنَ قَوْمٍ إلاّ تَعَادَوْا ، وَتَشَاغَلُوا بالإضْرَارِ بِبَعْضِهِمْ - عَنْ وَفْرَةِ الإنتَاجِ فِى عَمَلِهِمْ .

وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُنَا صلى اللهُ عليه وسلم : « لاَ يَزَالُ النّاسُ بِخَيْرٍ مَالَمْ يَتَحَاسَدُوا »(٢) .

وَلَيْسَ مِنَ الحَسَدِ الغِبْطَةُ - وَهِىَ تَمَنّى الإنْسَانِ مِثْلَ مَا لِغَيْرِهِ : مِنْ نِعَمٍ : كَعِبَادَةٍ ، وَشَجَاعَةٍ ، وَعِلْمٍ ، وَخُلُقٍ كَرِيمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ : لِأَنّ ذَلِكَ التّمَنّى - يَبْعَثُ عَلَى التّنَافُسِ فِى الخَيْرِ .

وَلِذَلِكَ - قال تعالى - فِى مَقَامِ الحثّ عَلَى الطّاعَةِ الّتِى هِىَ سَبَبُ الوُصُولِ إلَى النّعِيمِ : « وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ » وَقد قَالَ الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ : « المُؤْمِنُ يَغْبِطُ وَالمُنَافِقُ يَحْسُدُ » .

---

(١) رواه الطبرانى ، عن عبد الله بن بسر : رضى الله عنه .

(٢) رواه الطبرانى ، عن ضمرة بن ثعلبة : رضى الله عنه

وقال صلى الله عليه وسلم[1]: «لا حسدَ - أى لا غبطةَ - إلا فى اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ مالاً فسلّطه على هلكته فى الحق، ورجلٌ آتاه اللهُ علماً فهو يعملُ به ويُعلِّمُه الناسَ».

وكفى الحاسدَ، المتمنى زوالَ نعمةِ غيره - أنّه لا ينالُ من المجالسِ إلا مذمّةً وذلاً، ولا ينالُ من الملائكةِ إلا لعنةً وبغضاً، ولا ينالُ من الخلقِ إلا جزعاً وغمّاً، ولا ينالُ عند الموقفِ العظيم، بين يدى الجبّار إلا فضيحةً ونكالاً. فلا شكّ أنّ الحاسدَ يضرُّ نفسَه ضرراً كبيراً.

وبينما هو يعملُ على الحطّ من شأنِ محسودِه، وزوالِ نعمته - إذا بنعمِ اللهِ على المحسودِ تتوالى، ويُباركُ اللهُ فيها، رغمَ أنفِه، وينشرُ اللهُ فضلَه.

وإذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ   طُويتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ   ما كانَ يُعرفُ طيبُ عرْفِ[2] العُودِ

فياعبدَ الله:

وقد اقتنعتَ بضررِ الحسدِ: إنْ وجدتَه فى قلبك - فتبْ فوراً منه، ولا تعملْ به، واستغفرِ اللهَ تعالى، حتى لا تكونَ باغياً ظالماً: بالعزمِ عليه، أو العملِ به، فإنّ مجرّدَ خطورِ الحسدِ بالقلبِ - لا حرجَ فيه:

---

(١) رواه البخارى ومسلم: عن ابن عمر: رضى الله عنهما.
(٢) رائحته.

لِأَنَّهُ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي غَالِبِ النُّفُوسِ : لِحُبِّهَا الامْتِيَازَ عَلَى غَيْرِهَا فِي النِّعَمِ وَالخَيْرَاتِ ، وَإِنَّمَا الحَرَجُ ، وَالإِثْمُ فِي التَّصْمِيمِ القَلْبِيِّ عَلَى الحَسَدِ ، وَالسَّعْيِ إِلَى إِزَالَةِ نِعْمَةِ المَحْسُودِ ، وَلِذَلِكَ فِي الحَثِّ عَلَى الاسْتِعَاذَةِ بِاللهِ وَالتَّحَصُّنِ بِهِ مِنَ الحَاسِدِ ـ قال تعالى : «إِذَا حَسَدَ» بعد قوله : «وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ» .

وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : «ثَلَاثٌ لَازِمَاتٌ لِأُمَّتِي[1] : سُوءُ الظَّنِّ . وَالحَسَدُ . وَالطِّيَرَةُ ـ أي التَّشَاؤُمُ ـ فَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ ـ «أي إِذَا ظَنَنْتَ سُوءاً بِشَخْصٍ : كَخِيَانَةٍ مَثَلاً ـ فَلَا تَذْهَبْ تَتَجَسَّسُ عَلَيْهِ : لِتُحَقِّقَ ظَنَّكَ ، وَكَفَى أَنْ تَحْذَرَهُ وَتَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ» ـ ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ تَعَالَى ، وَإِذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ ـ «أي لِقَصْدِكَ ، وَلَا تَرْجِعْ عَنْهُ : فَإِنَّهُ لَا أَثَرَ لِلتَّشَاؤُمِ فِي جَلْبِ نَفْعٍ وَلَا دَفْعِ ضَرَرٍ» .

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : «ثَلَاثٌ لَمْ تَسْلَمْ مِنْهَا هَـذِهِ الأُمَّةُ : الحَسَدُ . وَالظَّنُّ . وَالطِّيَرَةُ . أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِالمَخْرَجِ مِنْهَا ، إِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ ، وَإِذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ»[2] .

وَمَا أَحْوَجَ الأَقْرِبَاءَ وَأَصْحَابَ العَمَلِ الوَاحِدِ ـ لِلانْتِبَاهِ لِذَلِكَ ، مَعَ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ لِتَرْضَى عَنِ اللهِ ، إِذَا تَفَضَّلَ على قَرِيبِهَا أَوْ نَظِيرِهَا بِنِعْمَةٍ ،

---

(١) رواه أبو الشيخ فى التوبيخ ، والطبرانى فى معجمه الكبير عن حارثة ابن النعمان : رضى الله عنه .

(٢) رواه رستة فى الإيمان عن الحسن مرسلا ، والحديث المرسل : ماسقط من سنده الصحابى .

حتى لا يحسد قريبٌ قريباً ، ولا زارعٌ زارعاً ، ولا تاجرٌ تاجراً ، ولا صانعٌ صانعاً ، ولا موظفٌ موظفاً ، عند نيل درجة بحق أو غير ذلك .

وأما الحسد المعروف عند العامة ، الذي هو عبارة عن نظرة العين ـ فهو من الأسباب العادية التي قد يترتب عليها آثارها ؛ من إصابة المعيون بنظرة العين ، فإن الله تعالى ـ يخلق عند نظر العائن إليه ، وإعجابه به إذا شاء ـ ما شاء : من ألم أو هلاك ، أو ضرر ما ، وقد يصرفه الله عز وجل عنه ، قبل وقوعه ـ بالرقية المشروعة ، لا بالعزائم المخترعة ، ولا بالودع والتمائم والخرز والحروز المجهولة المعنى التي لا تعرف من طريق الشرع الشريف .

قال صلى الله عليه وسلم : « العين حق »[1] ، أي الإصابة بها ثابتة موجودة لا تنكر .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من علق تميمة فلا أتم الله له ، ومن علق ودعة فلا أودع الله له »[2] .

وقالت عائشة رضي الله عنها : « أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمر أن نسترقي من العين »[3] .

---

(١) رواه البخاري ، عن أبي هريرة : رضي الله عنه ، وزاد مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين » .

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو يعلى ، عن عقبة بن عامر : رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري .

وَرَأَى صلى اللهُ عليه وسلم فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ : رضى اللهُ عنها - جَارِيَةً فى وَجْهِهَا سَفْعَةٌ - أَىْ سَوَادٌ أَوْ حُمْرَةٌ يَعْلُوهَا سَوَادٌ أَوْ صُفْرَةٌ ، فقالَ : « اسْتَرْقُوا لَهَا : أَىْ اطْلُبُوا مَنْ يَرْقِيهَا : فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ - أَىْ إِصَابَةَ الْعَيْنِ »(1) .

وقالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : جَاءَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يَعُودُنِي ، فقالَ : « أَلاَ أَرْقِيكَ بِرُقْيَةٍ رَقَانِي بِهَا جِبْرِيلُ فَقُلْتُ : بَلَى بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي »(2) . قالَ : « بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ ، وَاللهُ يَشْفِيكَ ، مِنْ كُلِّ دَاءٍ فِيكَ : مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ(3) فِي الْعُقَدِ ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ، فَرَقَى بِهَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ » .

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم(4) : يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ يَقُولُ : « أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ : مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ ، وَهَامَّةٍ(5) ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ - أَىْ تُصِيبُ بِسُوءٍ ، وَيَقُولُ : « هَكَذَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يُعَوِّذُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ عليهما السلام » .

« وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم(6) : إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ - جَمَعَ

---

(1) رواه البخارى .

(2) رواه ابن ماجه والحاكم وابن مردويه .

(3) النفوس السواحر اللاتى يعقدن عقدا فى خيوط ، وينفثن عليها ويرقين ، والنفث . شبيه بالنفخ . أو هو النفخ مع ريق قليل .

(4) رواه ابن السنى والترمذى ، وأبو داود ، عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(5) الهامة : كل ذات سم يقتل ، وقد تطلق على مايدب من الحيوان وإن لم يقتل كالبق .

(6) رواه البخارى . ومسلم ، عن عائشة رضى الله عنها .

كفيهِ ثم نفثَ فيهما ، فقرأ فيهما قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ . وقُلْ أعوذُ بِرَبِّ الفلقِ . وقُلْ أعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » ثمَّ يَمْسَحُ بهما ما استطاعَ مِنْ جَسَدِهِ : يَبْدَأُ بهما عَلَى رأسِهِ ، وَوَجْهِهِ ، وَمَا أقبلَ مِنْ جَسَدِهِ يفعلُ ذلكَ ثلاثَ مرَّاتٍ » ، فالمعوَّذتانِ ـ كالرُّقَى[1] المَرْوِيَّةِ عَنْهُ صلى اللهُ عليه وسلم ـ تَقِيانِ نَظْرَةَ العَيْنِ .

أيها المُسْلِمُ :

اصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الحَسُو ... دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
كَالنَّارِ تَأْكُلُ بَعْضَهَا ... إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

وَاتَّقِ اللهَ ، وَاحْذَرِ الحَسَدَ ، وَلا تَخْشَ سُوءاً مِنْ أحدٍ ، مَادُمْتَ مُطِيعاً ، مُسْتَعِيناً مُتَحَصِّناً بِرَبِّكَ الفَرْدِ الصَّمَدِ : « فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ : الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ ، وَالبَغْضَاءُ هِيَ الحَالِقَةُ ، أَمَا إِنِّي لاَ أَقُولُ : تَحْلِقُ الشَّعَرَ ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ » .

رواهُ البَزَّارُ وَالبَيْهَقِيُّ ، وَغَيْرُهُمَا ، عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ : رضي اللهُ عنه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « لا يَجْتَمِعُ فِي جَوْفِ عَبْدٍ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ

(١) والحجاب من القرآن ومن كلام النبي : ليس من التمائم الممنوعة ، وصلاح الكاتب شرط النفع به ، فهذه القاعدة وأين هو .

اللهِ وَفَيْحُ جَهَنَّمَ ، وَلاَ يَجْتَمِعُ فِي جَوْفِ عَبْدٍ الإِيمَانُ وَالْحَسَدُ » . رواهُ ابْنُ حِبَّانَ ، عن أبي هُرَيْرَةَ رضى اللهُ عنه .

وَمن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، رضى اللهُ عنه قال : قال لِي رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « يَا بُنَيَّ إِنْ قَدَرْتَ عَلَى أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ . لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ - فَافْعَلْ » رواهُ التِّرْمِذِيُّ .

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ : رضى اللهُ عنه . قالَ : « كُنَّا جُلُوساً[1] مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقالَ : « يَطْلُعُ الآنَ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ : (مِنْ أَنْصَارِهِ صلى اللهُ عليه وسلم : رُوِيَ أَنَّهُ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ : سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ »[2] تَنْطُفُ[3] لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ ، قَدْ عَلَّقَ نَعْلَيْهِ بِيَدِهِ الشِّمَالِ : فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ - قَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : مِثْلَ ذَلِكَ ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الأُولَى ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ - قَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم مِثْلَ مَقَالَتِهِ

---

(١) في رواية البيهقي ، عن سالم بن عبد الله عن أبيه : قال : « كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فقال : « ليطلعن عليكم رجل من هذا الباب من أهل الجنة . فجاءه سعد بن مالك . فدخل منه » .

(٢) روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما - أن الرجل المبهم في الحديث هو سعد بن أبي وقاص ، ويقال له : سعد بن مالك أيضاً : رضى الله عنه ، فالمراد بالأنصار هنا من نصروه صلى الله عليه وسلم مطلقاً . لاخصوص أهل المدينة الأصليين .

(٣) هو بضم الطاء وكسرها أي تقطر ، وتسيل قطرة . قطرة .

أيضاً ، فَطَلَعَ ذلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الأَوَّلِ ، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم - تَبِعَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو ، فَقَالَ إِنِّى لاَحَيْتُ[1] أبى ، فأَقْسَمْتُ أَنِّى لا أَدْخُلُ عَلَيْهِ ثلاَثاً ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِى إِلَيْكَ ، حَتَّى تَمْضِيَ - فَعَلْتَ . . ؟ قالَ : نَعَمْ . قالَ أَنَسٌ : فَكَانَ عَبْدُ اللهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ الثَّلاَثَ اللَّيَالِي ، فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئاً غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ[2] - تَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ : ذَكَرَ[3] اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ حَتَّى .. لِصَلاَةِ الْفَجْرِ . قالَ عَبْدُ اللهِ : غَيْرَ أَنِّى لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلاَّ خَيْراً ، فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلاَثُ اللَّيَالِي ، وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ - قُلْتُ : يَاعَبْدَ اللهِ ، لَمْ يَكُنْ بَيْنِى وَبَيْنَ أَبِى غَضَبٌ وَلاَ هِجْرَةٌ ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ لَكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَطَلَعْتَ

---

(١) خاصمت .

(٢) استيقظ .

(٣) فى رواية البيهق عن ابن عمر أنه قال : « ما أنا بالذى أنتهى حتى أبايت هذا الرجل فأنظر عمله » . قال: فذكر الحديث فى دخوله عليه قال : « فناولنى عباءة فاضطجعت عليها قريباً منه ، وجعلت أرمقه بعينى ليله . كلما تعار سبح وكبر وهلل وحمد الله ، حتى إذا كان فى وجه السحر - قام فتوضأ ، ثم دخل المسجد فصلى اثنتى عشرة ركعة باثنتى عشرة سورة من المفصل : ليس من طواله ولا من قصاره ، ويدعو فى كل ركعتين ، بعد التشهد - بثلاث دعوات : (« اللهم آتنا فى الدنيا حسنة . وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » ، « اللهم اكفنا ما أهمنا من أمر آخرتنا ودنيانا » ، « اللهم إنا نسألك من الخير كله . وأعوذ بك من الشر كله ») .

أَنتَ الآنَ الثَّلاثَ المَرَّاتِ ، فأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ ، فَأَنظُرَ مَا عَمَلُكَ ، فَأَقْتَدِيَ بِكَ ، فَلَمْ أَرَكَ عَمِلْتَ كَبِيرَ عَمَلٍ ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ؟ قالَ : مَا هُوَ إِلاَّ مَارَأَيْتَ ، فلَمَّا وَلَّيْتُ ـ دَعَانِي ، فقَالَ : « مَاهُوَ إِلاَّ مَارَأَيْتَ ، غَيْرَ أَنِّي لاَ أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ غِشًّا ، وَلاَ أَحْسُدُ أَحَداً عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ »[1].

فقَالَ عَبْدُ اللهِ : « هَـذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ »[2] . رواهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ ، وَأَبُو يَعْلَى ، وَالبَزَّارُ ـ بِنَحْـوِهِ ، وَسَمَّى الرَّجُلَ المُبْهَمَ سَـعْداً ، وقالَ فِي آخِرِهِ ، فقَالَ سَعْدٌ : « مَاهُوَ إِلاَّ مَا رَأَيْتَ يَابْنَ أَخِي إِلاَّ أَنِّي لَمْ أَبِتْ ضَاغِناً[3] عَلَى مُسْلِمٍ . أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا » .

---

(١) فى رواية البيهق : فقال : « آخذ مضجعى ، وليس فى قلبى غمر ـ أى حقد ـ على أحد » .

(٢) فى رواية النسائى . والبيهق . والأصبهانى : « فقال عبد الله : هذه التى بلغت بك . وهى التى لا نطيق » .

(٣) حاقداً .

٣٣ — جهاد النفس[1] أفضل الجهاد

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى كُلُّ الْخَيْرِ فِى رِضَاهُ . وَرِضَاهُ عَمَّنْ خَالَفَ هَوَاه ، وَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : (وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) .

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ : جَعَلَ دَاءَ النَّفْسِ الَّذِى يُهْلِكُهَا ـ اتِّبَاعَ هَوَاهَا ، وَدَوَاءَهَا الشَّافِىَ مِنْهُ هُوَ مُخَالَفَةَ ذَلِكَ الْهَوَى . وَقَالَ : فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ[2] الْكُبْرَى يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى وَبُرِّزَتِ[3] الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِىَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ[4] رَبِّهِ وَنَهَى[5] النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَى) .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، أَزْكَى الْخَلْقِ نَفْساً ، وَقَالَ : هَادِياً

---

(١) النفس هى الطيفة الربانية ، التى قبل تعلقها بالجسد ـ تسمى روحاً ، وبعد تعلقها به ـ تسمى نفساً ، وهى جوهر مشرق على البدن ، فإن أشرق على ظاهر البدن وباطنه ـ حصلت اليقظة ، وإن أشرق على باطن البدن دون ظاهره ـ حصل النوم ، وإن انقطع إشراقه بالكلية ـ حصل الموت ، والجوهر : ماقام بنفسه ، بخلاف العرض ، فهو ماقام بغيره : كلون الحمرة أو الصفرة

(٢) الداهية التى تغلب وتعلو على ماسواها من الدواهى .

(٣) أظهرت إظهاراً لايخفى على أحد .

(٤) جلاله وعظمته أو قيامه بين يدى ربه عز وجل : للحساب يوم القيامة : يوم الطامة الكبرى .

(٥) زجرها وكفها عن الميل إلى الشهوات المردية ، وسمى الميل هوى ، لأنه يهوى بصاحبه فى الدنيا إلى كل داهية وفى الآخرة إلى الهاوية .

إلى تزكيةِ النفوسِ : « المجاهدُ مَنْ جاهدَ نفسَهُ في طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ »[1] .

اللهمَّ صلِّ وسلِّمْ على سيدِنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبِهِ الذينَ أصلحوا نفوسَهُمْ بالصالحاتِ ، وطهَّروها مِنَ المعاصي ، ففازوا بالمطلوبِ ، ونجَوْا مِنَ المكروهِ واللهُ تعالى يقولُ : (قَدْ أفلحَ مَنْ زكَّاها) .

أمَّا بعدُ : فيا عبادَ اللهِ :

قال أبو ترابٍ النخشبيُّ ، أحدُ سلفِنا الصالحِ رضي اللهُ عنه : ما تمنَّتْ نفسي شيئًا مِنَ الشهواتِ إلاَّ مرَّةً واحدةً : تمنَّتْ نفسي خبزًا وبيضًا ، وأنا في سفرٍ ، فعدلْتُ إلى قريةٍ ، فقامَ واحدٌ ، وتعلَّقَ بي ، وقال : لأصحابِهِ : هذا كانَ معَ اللصوصِ فضربوني سبعينَ درَّةً - عصًا - ثمَّ عرفَني رجلٌ منهمْ فقالَ : هذا أبو ترابٍ النخشبيُّ ، فاعتذروا إليَّ ، وحملَني رجلٌ إلى منزلِهِ ، وقدَّمَ لي خبزًا وبيضًا فقلْتُ لنفسي : كُلِي - بعدَ سبعينَ درَّةً - يعلنُ أبو ترابٍ - بذلكَ - أنَّ هوى النفسِ - يثمرُ العناءَ والألمَ ، ولوْ كانَ مباحًا : يوجِّهُ بذلكَ إلى التدرُّبِ على مخالفتِهِ - بتركِ المباحِ ، حتَّى يصبحَ المرءُ غالبًا لهواهُ ، فيسلمَ مِنْ شرِّهِ ، وما أكثرَهُ ، وقيلَ :

إذا المرءُ لمْ يغلبْ هواهُ أقامَهُ ... بمنزلةٍ فيها العزيزُ ذليلُ

فيا قومِ :

في موافقةِ هوى النفسِ غيرِ المباحِ - شرٌّ مستطيرٌ وعذابُ اللهِ القديرِ

---

(1) رواه الترمذي وابن ماجه عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه .

(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ يَوْمَ تَمُورُ[1] السَّمَاءُ مَوْراً ، وَتَسِيرُ[2] الْجِبَالُ سَيْراً . فَوَيْلٌ[3] يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) .

فَمَا أَجْدَرَ الْعَاقِلَ - أَنْ يَأْخُذَ بِنُصْحِ الْقَائِلِ :

إِذَا طَالَبَتْكَ النَّفْسُ يَوْماً بِشَهْوَةٍ وَكَانَ عَلَيْهَا لِلْخِلَافِ طَرِيقُ

فَخَالِفْ هَوَاهَا مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا هَوَاهَا عَدُوٌّ وَالْخِلَافُ صَدِيقُ

وَلَقَدْ خَلَقَ اللهُ النُّفُوسَ - مَعَ اسْتِعْدَادِهَا لِلْفُجُورِ وَالتَّقْوَى - تَهْوَى شَهَوَاتِ الدُّنْيَا ، وَتَمِيلُ إِلَى لَذَّاتِهَا بِطَبِيعَتِهَا ، وَكَمَا أَرْسَلَ سُبْحَانَهُ رُسُلَهُ بِتَعَالِيمِ الْهُدَى ، مُبَشِّرِينَ بِالثَّوَابِ وَمُنْذِرِينَ بِالْعِقَابِ - أَجَّلَ مَوْتَ إِبْلِيسَ ، الَّذِي أَقْسَمَ عَلَى إِغْوَاءِ بَنِي آدَمَ - إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ[4] الْمَعْلُومِ ، فَالْإِنْسَانُ - إِذاً - لِيُخَالِفَ هَوَى نَفْسِهِ ، الَّذِي يُسْخِطُ اللهَ ، وَيَتَّبِعَ الْهُدَى لِنَيْلِ الثَّوَابِ ، وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْعِقَابِ ، وَتَأْبَى نَفْسُهُ التَّقْوَى ، وَتَمِيلُ إِلَى الْخَيْرِ ، وَتَتْرُكَ الْفُجُورَ وَالشَّرَّ ، وَتَبْعُدَ عَنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا الَّتِي تُغْضِبُ

---

(١) تضطرب وتدور كالرحى ، وتتداخل وتختلف أجزاؤها ، وتتكفأ بأهلها ، وذلك عند خراب العالم ، وانقضاء الدنيا .

(٢) تزول عن أماكنها وتطير كالسحاب ثم تتفتت كالرمل ثم تصير كالعهن المنفوش : كالصوف الذى ينفش ويفرق باليد ونحوها ، ثم تطيرها الرياح ، فتكون هباء منثوراً .

(٣) هلاك ، وحسرة .

(٤) هو وقت النفخة الأولى - التى بها يفنى كل حى حينئذ كتب الله عليه الموت : كإبليس .

الله - يقف وحده سليماً كان أم سقيماً - مجاهداً أمام عدو، ملازم له في كل مكان وزمان: هو نفسه(١) التي تهوى شهوات الدنيا بطبعها، ويزيدها إبليس الذي يرانا ولا نراه، وتجري وسوسته من ابن آدم مجرى الدم في العروق ميلاً إلى تلك الشهوات، حتى لا تبالي بحرمتها، وغضب الله عليها بها فتكون النفس الأمارة بالسوء، التي هي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق السيئة، وفيها يقول الله تعالى: «إن النفس لأمارة بالسوء».

ولذلك قال رسولنا صلى الله عليه وسلم: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»(٢).

ومن هنا - وصف الرسول صلى الله عليه وسلم جهاد النفس بأنه الجهاد الأكبر، مع وصفه جهاد الكفار بأنه الجهاد الأصغر: لأنه محدود المكان والزمان، ومعنا فيه أعوان على العدو المشاهد، الذي ليس ملازماً لنا، ولا يجب إلا على القادر السليم.

قال صلى الله عليه وسلم لقوم قدموا من الجهاد: «مرحباً بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قيل يا رسول الله. وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس»(٣).

---

(١) وما أحسن ماقيل:

إني بليت بأربع ماسلطوا إلا لأجل شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي

(٢) رواه البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه البيهقي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وَإِنَّ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم - يَلْفِتُنَا بِذَلِكَ إِلَى أَنْ نَهْتَمَّ أَعْظَمَ اهْتِمَامٍ بِجِهَادِ النَّفْسِ، وَهُوَ حَمْلُهَا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي، وَالْتِزَامِ حُدُودِ اللهِ، الْقَائِلِ: « وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ».

وَلْنَتَأَمَّلْ قِصَّةَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ مَعَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهَا - ذَلَّتْ وَهَانَتْ وَذَاقَتْ عَذَابَ الْخِزْيِ وَالْعَارِ - بِعَدَمِ جِهَادِهَا لِنَفْسِهَا وَاتِّبَاعِهَا لِهَوَاهَا، وَيُوسُفَ بِجِهَادِهِ لِنَفْسِهِ، وَمُخَالَفَتِهِ لِهَوَاهَا - مَكَّنَ اللهُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، وَعَاشَ مُكَرَّمًا عَزِيزًا، وَجِهَادُ النَّفْسِ - يَرْفَعُهَا مِنْ مَرْتَبَةِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ - إِلَى مَرْتَبَةِ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ، الَّتِي اطْمَأَنَّتْ بِطَاعَةِ اللهِ - إِلَى حُسْنِ الْمَآلِ بِرِضَاهُ تَعَالَى فِي أُخْرَاهُ، وَكَانَتْ أَهْلًا لِلْمُخَاطَبَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ:

اتَّقُوا اللهَ، وَجَاهِدُوا أَنْفُسَكُمْ - بِمُدَاوَمَتِكُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ هَوَاهَا الَّذِي لَا يُرْضِي اللهَ: لِرَاحَةِ بَالِكُمْ وَأَمْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ، وَمَا ضَلَّ إِبْلِيسُ وَخَسِرَ إِلَّا بِاتِّبَاعِ هَوَى نَفْسِهِ، فَلَمْ يَمْتَثِلْ أَمْرَ رَبِّهِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ: « أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ».

وَاعْلَمُوا أَنَّ الصَّوْمَ يُعَوِّدُ نُفُوسَكُمْ - بِالْإِمْسَاكِ عَنِ الْمُفْطِرَاتِ مِنَ الْفَجْرِ

إلى المَغرِبِ – على تَرْكِ الهَوَى ، وعلى الرَّغْبَةِ فِيمَا فِيهِ رِضاهُ تَعالَى ، فاحْرِصُوا على صَوْمِ بَعْضِ الأيَّامِ ، مَعَ صَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَإِنَّكُمْ تَكُونُونَ مُقْتَدِينَ بِرَسُولِكُمْ إِذَا صُمْتُمْ يَوْمَى الاثْنَيْنِ وَالخَمِيسِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ ، وَالأيَّامَ البِيضَ مِنَ الشَّهْرِ العَرَبِيِّ ، وَهِيَ الثالثَ عَشَرَ ، وَالرَّابِعَ عَشَرَ ، وَالخَامِسَ عَشَرَ ، وَاعْمَلُوا لِغَدِكُمْ – بِإِرْضاءِ رَبِّكُمْ بالطَّاعاتِ ، وَفِعْلِ الخَيْرَاتِ ، فِي جَمِيعِ الأوْقَاتِ : « وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

قالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم : « أَفْضَلُ الجِهادِ أَنْ يُجَاهِدَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ » .

رواهُ ابْنُ النَّجَّارِ فِي تارِيخِهِ عن أبي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ رضي اللهُ عنه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ » .

رواهُ الإمامُ النَّوَوِيُّ فِي كِتابِ الحُجَّةِ عن عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رضي اللهُ عنهما .

٣٤ — عبرة فى غزوة أحد

بها يعز المسلم ويسعد

الحمدُ لله : شَرَعَ الجهادَ فى الإسلامِ : لحمايةِ السلامِ ، وقال : « وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ » .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ : جَعَلَ خَيْرَيِ الدُّنيا وَالآخِرَةِ فى طَاعَتِهِ ، وَوَجَّهَ لِيُطِيعَهُ الحَاضِرُونَ — إلى الاعْتِبَارِ بِمُعَامَلَتِهِ لِلمَاضِينَ ، فَقَالَ لِرَسُولِهِ مُوسَى : « وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ » .

وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمداً رسولُ اللهِ ، قَادَ جُنُودَ الحَقِّ : لِيُبْطِلَ البَاطِلَ ، وَحَذَّرَ قَبْلَ مَوْتِهِ — بِزَمَنٍ قَلِيلٍ — مِنَ التَّنَافُسِ فِى الدُّنيا الَّتِى تَشْغَلُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَنُصْرَةِ الحَقِّ ، فَقَدْ صلَّى عليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ ، بَعْدَ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ : كَالمُوَدِّعِ لِلأَمْوَاتِ ، ثُمَّ صَعِدَ المِنْبَرَ مُوَدِّعاً لِلأَحْيَاءِ فقالَ : « إِنِّى لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا ، وَلَكِنِّى أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنيا أَنْ تَنَافَسُوهَا » .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، غُيُوثِ النَّدَى ، وَلُيُوثِ الرَّدَى ، وَمَصَابِيحِ الهُدَى .

أمَّا بَعْدُ :

فَقَدْ قَالَ زَيْنُ العَابِدِينَ بنُ الحُسَيْنِ بنِ عَلِيٍّ : رضى اللهُ عنهم : « كُنَّا نُعَلَّمُ مَغَازِىَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كَمَا نُعَلَّمُ السُّورَ مِنَ القُرْآنِ » .

وَذَلِكَ لِمَا حَوَتْ مِنَ المَوَاعِظِ الغالية، فانتبهوا : إِنَّ الْمُشْرِكِينَ - لَمْ يَهْدَأْ لَهُمْ بَالٌ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ بِغَزْوَةِ بَدْرٍ الَّتِي كَانَتْ بِرَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهجرة فَخَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ لِلانْتِقَامِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي شَهْرِ شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ - فِي جَيْشٍ عَرَمْرَمٍ ، يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثَةِ آلافِ مُقَاتِلٍ ، وَمَعَهُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ : لِيَحْمِلْهُمْ وُجُودُهُنَّ عَلَى الاسْتِمَاتَةِ فِي القِتَالِ : حِرْصاً عَلَى سَلَامَةِ حُرُمَاتِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَسَارُوا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى جَبَلِ أُحُدٍ : بِجِوَارِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .

فَخَرَجَ إِلَيْهِم رَسُولُ اللهِ بِجُنُودِ الإِسْلَامِ ، وَكَانَ عددُهم ربع عدَدِ الْمُشْرِكِينَ فَأَخَذَ صلى الله عليه وسلم يَعْمَلَ عَلَى تَعْوِيضِ هذا التفاوتِ بِحِكْمَتِهِ ، فاختارَ فِي مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ خِيارَ أَبطالِ الإِسلامِ ، الَّذِينَ هُمْ - بالإِيمانِ - دُونَهُمُ الْأُسُودُ فِي الْجُرْأَةِ وَالإِقْدَام .

ووزَّع صلى اللهُ عليه وسلم خمسين رامياً عَلَى أَمَاكِنَ فِي جَبَلِ أُحُدٍ : لِحِمايَةِ مُؤَخِّرَةِ الْجَيْشِ وَظُهُورِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَمَّر عليهم عبدَ الله بنَ جُبَيْرٍ ، وَأَمَرَهُمْ أَمْراً مُشَدَّداً بِالْتِزَامِ أَمَاكِنِهِمْ ، وَعَدَمِ مُبَارَحَتِهَا أَبَداً إِلاَّ بِإِذْنِ رَسُولِ اللهِ ، وَفِي ذَلِكَ - يقول تعالى : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

وَبَعْدُ - أَخَذَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم - يُحَرِّضُ المؤمنينَ على الْقِتَالِ ، وَيُذَكِّرُهُمْ بِمَدَدِ السَّمَاءِ وَنَصْرِ اللهِ ، إِذَا صَبَرُوا : « إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » . فَبَدَأَ القتالُ بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ ، وَالْمُسْلِمُونَ : فِي أَعْلَى صُوَرِ الشَّجَاعَةِ

بالطاعةِ وَالإيمانِ وَاليقينِ — كأنهُم أضعافُ المُشركينَ — انظُروا : لمّا دعا طلحةُ العبدريُّ ، حاملُ لِواء المُشركينَ — إلى المُبارزةِ ، مُتحدِّيًا المُسلمينَ — وَثَبَ إليهِ على جَملِهِ الزُّبيرُ بنُ العوّامِ ، ثمَّ ألقاهُ على الأرضِ ، وَذَبحَهُ بالسَّيفِ ، وَقاتَلَ حمزةُ عمُّ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم — قِتالَ اللُّيوثِ المائجةِ ، وَتَبدَّتَ لحلَقِ لِواء المشركين مِنْ بَنى عبدِ الدّارِ ، وَاصطادَهُم وَاحِداً وَاحِداً ، وَقَتَلَهُمْ أجمعينَ ، حتّى قذَفَهُ وَحشيٌّ قذفَ الحَبشةِ بالحَربَةِ ، فاستُشهِدَ رضى اللهُ عنه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم مُنوِّهًا بِفضلِهِ : « سيِّدُ الشُّهداءِ حَمزةُ » ، وَمعَ الخسارةِ الفادحةِ بِقتلِ حَمزةَ — رضى اللهُ عنه — ظلَّ جيشُ المُسلِمينَ على قِلّتِهِ مُسيطِراً على الموقفِ كلِّهِ .

وبالرّغمِ مِنْ بذلِ المشركين غايةَ جُهدِهِمْ فى القِتال — انكسرَتْ هِمّتُهُمْ أمامَ ثَباتِ المسلمين وَبسالتِهِمْ ، وَوَلّوا الأدبارَ ، وَلاذُوا بالفِرارِ ، وَشُوهِدَ نِساؤُهُم كَواشِفَ عَنْ سُوقِهِنَّ هَوارِبَ ، أَسْرُهُنَّ يَسيرٌ .

فَكانَتْ هزيمةُ المشركين مُحقّقةً لاشكَّ فيها ، وَكيفَ لا يكونُ كذلكَ وَالمُسلِمُ المُقاتِلُ لا يَرى النّعيمَ حقًّا إلاّ بعدَ الموتِ فى مَيدانِ الشّرفِ وَالجِهادِ فى سَبيلِ اللهِ .

وَمِنْ هُنا — اندفَعَ النُّعمانُ بنُ نَوفَلٍ ، معَ أنّهُ أعرَجُ : لَيسَ عليهِ جِهادٌ — يُقاتِلُ بعزمٍ صادِقٍ ، وَيقولُ : أقسمتُ عليكَ رَبَّ العِزّةِ لا تَغيبُ الشّمسُ حتّى أطأَ بِعرجتى هذهِ خضراءَ الجنّةِ ، فاستُشهِدَ رضى اللهُ عنه ،

وَكَشَفَ اللهُ مَصِيرَهُ لِلنَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم ، فقالَ : إِنَّ النُّعْمَانَ ظَنَّ باللهِ عزَّ وَجَلَّ خَيْرًا ، فَوَجَدَهُ عِنْدَ ظَنِّهِ ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَطَأُ خَضْرَاءَهَا مَا بِهِ عَرَجٌ .

وَكَانَ حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ حَدِيثَ عَهْدٍ بِالزَّوَاجِ ، وَقَدْ سَمِعَ دَاعِيَ الْجِهَادِ ، فانطَلَقَ إِلَى الْمَيْدَانِ ، مُسْرِعًا خَشْيَةَ فَوَاتِ فُرْصَتِهِ حَتَّى لَمْ يَغْتَسِلْ مِنَ الْجَنَابَةِ ، هَاجِرًا لَذَّةَ الْوِصَالِ — إِلَى لَذَّةِ رِضَا الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ، وَمَازَالَ يُجَاهِدُ وَيُقَاتِلُ حَتَّى قُتِلَ ، وَفَازَ بِرُتْبَةِ الشَّهَادَةِ .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « رَأَيْتُ الْمَلَائِكَةَ تُغَسِّلُ حَنْظَلَةَ بِمَاءِ الْمُزْنِ فِي صِحَافِ الْفِضَّةِ ، بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » ، وَقَدِ الْتُمِسَ حَنْظَلَةُ فِي الْقَتْلَى ، فَوُجِدَ رَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً ، وَلَيْسَ بِقُرْبِهِ مَاءٌ .

وَمِنْ هُنَا — قَالَ الْحَنَابِلَةُ — بِوُجُوبِ غُسْلِ الشَّهِيدِ الْجُنُبِ ، وقال غيرهم لَا يَجِبُ غُسْلُهُ : كَسَائِرِ الشُّهَدَاءِ ، وَغَسْلُ الْمَلَائِكَةِ لحنظلة — خُصُوصِيَّةٌ لَهُ : أَكْرَمَهُ اللهُ بِهَا ، وَهَكَذَا يَاقَوْمِ كَانَتِ الرُّوحُ الْمُسَيْطِرَةُ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ .

وَهَكَذَا بَلَغَ مِنْ عِنَايَتِهِ تَعَالَى بِهِمْ . وَمِمَّا يُذْكَرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ الْأَنْصَارِيَّ — كَانَ يَقِي بِوَجْهِهِ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم — سِهَامَ الْكُفَّارِ ، فَأَصَابَ سَهْمٌ إِحْدَى عَيْنَيْهِ ، فَأَخْرَجَ حَدَقَتَهَا عَلَى خَدِّهِ ، فقالَ لَهُ صلى اللهُ عليه وسلم : إِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ وَلَكَ الْجَنَّةُ ، وَإِنْ شِئْتَ رَدَدْتُهَا ، وَدَعَوْتُ اللهَ لَكَ ، فقالَ : يارسولَ اللهِ . إِنَّ الْجَنَّةَ — لجزاء جميل ، وَعطاء

جليل ، ولكن لي زوجة ، أحبها ، وأخشى إن رأتني - كذلك - تقذرني ، فتتركها ، وتسأل الله لي الجنة . قال صلى الله عليه وسلم : أفعل ، ياقتادة ، فأخذ صلى الله عليه وسلم الحدقة بيده ، وردها إلى موضعها ، فكانت أحسن عينيه ، وأحدهما نظراً : ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فياقوم :

أسباب نصر المسلمين وهزيمة المشركين قائمة : أرواح المسلمين قوية ، والله مؤيدهم ، وأعداؤهم يفرون ، فكيف ينهزمون ؟

برزت الدنيا بزينتها الفاتنة . . فما رأى أكثر رماة النبل ، حماة ظهور المسلمين - الغنائم التي خلفها المشركون الفارون - تزحم الوادي ، حتى غادروا مواقعهم ، ولم يبالوا بتذكير أميرهم لهم - بأمر رسول الله : بعدم مبارحتها أبداً ، وهبطوا إلى الميدان ، يأخذون من الغنائم ، فانكشفت مؤخرة المسلمين - لفرسان المشركين ، فأقبلوا عليهم ، ورجع من فر من المشركين ، وبذلك - أحيط بالمسلمين من الأمام والخلف ، فتبدل نصرهم هزيمة ، وقتل المشركون سبعين منهم ، وكسروا رباعية رسول الله - سنه بين الثنيتين وبين الناب ، وأسالوا الدم من وجهه ، ومع ذلك بسعة حلمه - دعا لهم لا عليهم ، فقال : « اللهم اهد قومي : فإنهم لا يعلمون » .

« ولكن الله العفو الكريم ، بعد أن رأى المسلمون رأي العين سوء عاقبة مخالفة رسول الله وندم العصاة ، وقدر سبحانه صبرهم وثباتهم مع

رسولِ اللهِ ، وَقدْ أرادَ سُبْحانَهُ وتعالى للإنسانيةِ خيرًا – بالإسلامِ كاملًا مُنتشرًا – زادَ جلَّ شأنُه المسلمين قوةً واستبسالًا ، واستماتةً في قتالِ المشركين حتى لم يأسِرُوا منهم أحدًا ، وحتى ضعُفتْ قوتُهم وتعبوا جدًّا ، فقرَّروا الانسحابَ ، والعودةَ إلى مكةَ : خوفًا مِنْ أنْ تتبدَّلَ الحال ، وينالَ المسلمون منهم ما نالوهُ ببدرٍ ، وذلك تحقيقُ قولِهِ تعالى : « سَنُلْقِي في قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ » .

وكانَ فضلُ اللهِ على المؤمنينَ عظيمًا – بخوفِ المشركين .

وَفي تلكَ الوقائعِ – يقولُ تعالى : « وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ » أي تقتلونهم : « بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ » . أي مِنْ نصرِكُمْ أولًا : « مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا » أيْ كالرُّماةِ ، الذينَ تركوا أماكِنَهُمْ : طلبًا للغنيمةِ « وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ » . أي كَمَنْ لمْ يتركْ مِنَ الرُّماةِ مكانَهُ : « ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » . أي ردَّكُمْ عنهم بالهزيمةِ : « لِيَبْتَلِيَكُمْ » . أي ليمتحنَكُمْ ، فيظهرَ المخلصُ مِنْ غيرِهِ ، والمؤمنُ الصادقُ من المنافقِ ، وقويُّ الإيمانِ من ضعيفِهِ : كما كانَ عندَ إشاعةِ المشركين قتلَ رسولِ اللهِ ، فعملَ المنافقونَ على إضعافِ الروحِ المعنويةِ بينَ المحاربين ، ففرَّ مَنْ فرَّ وثبتَ مَنْ ثبتَ : « وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » .

وَمِنْ فضلِهِ تعالى عليهمْ – ما أنزلَ مِنْ آياتٍ تُقوِّي عزائمَهُمْ وتُنهِضُ

الهِمَمَ ، وتدفعُ إلى أسمى الغاياتِ . قال تعالى : « وَلاَ تَهِنُوا[1] وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ[2] فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا[3] بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ[4] الْكَافِرِينَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ . وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ[5] عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً[6] وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ . وَكَأَيِّنْ[7] مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[8] كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا[9] وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » .

---

(١) ولا تضعفوا . (٢) ألم .

(٣) نصرفها ونقلبها بين نصر وهزيمة .

(٤) ويهلك .

(٥) وليتم منهزمين .

(٦) مؤقتاً بوقت محدود لا تعجله الحرب ولا يؤخره السلم .

(٧) وكثير من الأنبياء .

(٨) أتباع عملوا على نصرة الرب .

(٩) وما خضعوا لعدوهم وما ذلوا له : لما أصابهم .

أيها المسلمون :

اتقوا اللهَ ، وجاهدوا في سبيلِهِ ، وأطيعوا أمرَ رسولِ اللهِ على الدوامِ ، ولا تفتننكمُ الدنيا بجاهِها ومالِها ، فقد رأيتم عن ذلكَ - في غزوةِ أحدٍ - أنّ النصرَ في أولِ الأمرِ كانَ للمسلمينَ ، حيثُ كانَ الرماةُ حماةُ ظهورِهِم : لأمرِهِ صلى اللهُ عليه وسلم مُمتثلينَ ، فلما خالفَهُ أكثرُهُم : افتتانًا بالدنيا وحِرصًا عليها - تحولَ النصرُ لعدوِّهِم ، وذاقوا عــذابَ الهزيمةِ وفتنتَها وامتحانَها الشــديدَ (فليحذرِ الذينَ يخالفونَ عن أمرِهِ أن تُصيبَهُم فتنةٌ أو يُصيبَهُم عذابٌ أليمٌ) (وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرورِ) (فلا تغرنَّكمُ الحياةُ الدنيا ولا يغرنَّكم باللهِ الغرورُ) .

روى أبو داودَ عن ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ لأصحابِهِ : « إنَّهُ لما أُصيبَ إخوانُكم بأحُــدٍ - جعلَ اللهُ أرواحَهُم في جوفِ طــيرٍ خُضرٍ تردُ أنهارَ الجنةِ ، وتأكلُ من ثمارِها ، وتأوي إلى قناديلَ من ذهبٍ مُعلقةٍ في ظلِّ العرشِ ، فلما وجــدوا طيبَ مأكلِهِم ومشربِهِم ومقيلِهِم - قالوا : من يُبلِّغُ إخوانَنا عنا أنّا أحياءٌ في الجنةِ لئلا يزهدوا في الجنةِ ، ولا ينكلُوا عن الحربِ ؟ فقالَ اللهُ تعالى : أنا أُبلِّغُهُم عنكم ، فأنزلَ اللهُ : (ولا تحسَــبنَّ الذينَ قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتًا بل أحياءٌ عندَ ربِّهِم يُرزقونَ) .

وروى البخاريُّ عن سهلِ بنِ سعدٍ رضي اللهُ عنه أنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ

عليه وسلم قالَ - مُوَجِّهًا لِغَزْوَةِ أُحُدٍ وَذِكْرَيَاتِهَا وَعِبَرِهَا وَفَضْلِ شُهَدَائِهَا :
« أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عن أبي هُرَيْرَةَ رضي اللهُ عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ : « كلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى . قالُوا : وَمَنْ يَأْبَى يارَسُولَ اللهِ ؟ قال : مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى » .

---

٣٥ — أثر قصر الأمل فى الدنيا

الحمدُ للهِ يُحِبُّ مَنْ لَمْ تَشْغَلْهُ دُنياهُ عَنْ أُخراهُ ، وَسَعَى إلى عِيشَةِ الدُّنيا وَلَمْ يَكُنْ عالَةً عَلَى سِواه ، وَنُصْبُ عَيْنَيْهِ قَوْلُهُ صلى اللهُ عليه وسلم فى أزهَدِ النّاسِ : « مَنْ لَمْ يَنْسَ القَبْرَ والبِلَى وتَرَكَ زِينَةَ الدُّنيا ، وآثَرَ مايَبْقَى عَلَى مايَفْنَى ، ولم يَعُدَّ غداً مِنْ أيّامِهِ ، وعَدَّ نَفْسَهُ مِنَ المَوْتَى »[1].

وأشهَدُ أنْ لا إلَهَ إلاّ اللهُ : يَحْفَظُ المُؤْمِنَ التَّقِيَّ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنيا ؛ فَلَا مَالُهَا يُطْغِيهِ ، ولا جَاهُهَا يُمْلِيهِ ، ولا نِسَاؤُها تُغْوِيه . وقال رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « إنَّ اللهَ تَعالَى لَيَحْمِي عَبْدَهُ المُؤْمِنَ مِنَ الدُّنيا وهُوَ يُحِبُّهُ كما تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعامَ والشَّرابَ : تَخافُونَ عَلَيْهِ »[2].

وأشهَدُ أنَّ سَيِّدَنا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، خَيْرُ قُدْوَةٍ لِمَنْ لَمْ يَشْغَلْهُ حاضِرُهُ عَنْ مُسْتَقْبَلِهِ ، وقال : « مَنِ اشْتاقَ إلى الجَنَّةِ سارَعَ إلى الخَيْراتِ ، ومَنْ أشْفَقَ مِنَ النّارِ لَهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ ، ومَنْ تَرَقَّبَ المَوْتَ هانَتْ عَلَيْهِ اللَّذّاتُ ، ومَنْ زَهِدَ فى الدُّنيا هانَتْ عَلَيْهِ المُصِيباتُ »[3].

اللّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ على سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ ، الّذِينَ لَمْ تَشْغَلْهُمْ دُنياهُمْ عَنْ أُخراهُمْ ، وكانُوا يَقُولُونَ : (رَبَّنا آتِنا فى الدُّنيا حَسَنَةً وفى الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنا عَذابَ النّارِ) .

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا ، عن الضحاك بن مزاحم رضى الله عنه قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله من أزهد الناس ؟ فقال : « من لم ينس القبر .. الخ » (٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن محمود بن لبيد رضى الله عنه (٣) رواه البيهقى فى الشعب عن على رضى الله عنه .

أمَّا بعدُ فياعِبادَ اللهِ :

ذُو القرنَيْنِ ، الرجلُ الصالحُ ، الذي طافَ بِمَعْمورِ الأرضِ في زَمَنِهِ ، وقد قالَ تعالى في كتابِهِ الكريم : « إنَّا مَكَّنَّا لَهُ في الأرضِ » - مَرَّ بِمَدِينةٍ كانَ يَمْلِكُها سَبْعةُ مُلوكٍ : ماتُوا جميعاً ، ولَمْ يَبْقَ مِنْ نَسْلِهِمْ سِوَى رجلٍ واحدٍ ، كانَ موجُوداً بجهةِ المقابرِ ، فدعاهُ ذُو القرنيْنِ وَسَألَهُ عن سببِ وُجُودِهِ بالمقابرِ ، فقالَ : أرَدْتُ أنْ أعْزِلَ عِظَامَ الملوكِ عن عِظامِ عبيدِهِمْ : لأعْرِفَ هَلْ بينهما فَرْقٌ كما كانا في الدُّنْيا ، فوَجَدْتُها مُتشابِهَةً .

كما قالَ حكيمٌ :

لَعَمْرُكَ لَوْ كَشَفْتَ التُّرْبَ عَنهم ... لَمَا عُرِفَ الغَنِيُّ مِنَ الفَقِيرِ

وَلا مَنْ كَانَ يَلْبَسُ ثَوْبَ صُوفٍ ... وَلا المَلِكُ المُنَعَّمُ بالحَرِيرِ

فعرَضَ عليهِ ذُو القرنَيْنِ اتِّباعَهُ : لِيُوَلِّيَهُ وِلايَةً ، لِيُعِيدَ مَجْدَ آبائِهِ ، فقالَ الرَّجلُ : أُوافِقُكَ إذا أَعْطَيْتَني طَلَبِي . قالَ : ماهُوَ ؟ قالَ : حياةٌ لامَوْتَ فِيها ، وشَبَابٌ لاهرَمَ فيهِ . وغِنًى لايَتْبَعُهُ فقرٌ ، وسرورٌ لايعتريهِ مكروهٌ فقالَ ذُو القرنينِ : لا أقدِرُ عَلَى ذلِكَ . فقالَ : دَعْني أطْلُبُ طلبِي مِمَّنْ يقدِرُ عَلَيْهِ .

يا قومِ :

هَذَا الطَّلَبُ الذي لم يَقْدِرْ عليهِ ذُو القرنينِ ، الذي مَكَّنَ اللهُ لهُ في الأرضِ - لايقدرُ عليهِ سِوَى العَلِيِّ الأكْبَرِ ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ سُبْحَانَهُ لِطالبِهِ

فى دُنْيَاهُ ، وَإِنَّمَا يَجْعَلُهُ فى أُخْرَاهُ — لِمَنْ سَلَكَ فى الدُّنْيَا الطَّرِيقَ الموَصِّلَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ العملُ بِوَصِيَّةِ رسولِ اللهِ : قَالَ ابنُ عُمَرَ رضى اللهُ عنهما : « أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِمَنْكِبِى فقالَ : « كُنْ فى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ »[1] .

وكَانَ ابنُ عُمَرَ يقولُ : « إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ » .

ولاشكَّ — ياقوم — أنَّ الغَرِيبَ فى بَلَدٍ ، مَهْمَا سَكَنَ فِيهِ — فإِنَّهُ لايزالُ مُشْتَاقًا إِلى وَطَنِهِ . الذى هُوَ بِهِ مَشْغُولٌ ، وَفى عَزْمِهِ السَّفَرُ إِلَيْهِ مَهْمَا بَعُدَ عَنْهُ ، وعابرُ السَّبِيلِ ، المَارُّ بالطريقِ — غيرُ مُقِيمٍ فى بَلَدٍ ، بَلْ هُوَ — فى كلِّ وَقْتٍ — سائرٌ إِلى مَحَلِّ إِقَامَتِهِ ، فَهُمَا لادَوَامَ لَهُمَا بِمَكَانٍ ، وَلا إِقَامَة ، وَالوَطَنُ وَمَحَلُّ الإِقَامَةِ حَقًّا ، حَيْثُ لاموتَ — هُوَ الدَّارُ الآخِرَةُ : « وَمَاهَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ . وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

أيها المسلمون :

دَعَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم — المسلمَ — بِهَذِهِ الوَصِيَّةِ — إِلى قِصَرِ الأَمَلِ فى الدُّنْيَا ، حَتَّى لايَرْكَنَ إِلَيْهَا ، وَلا يَطْمَئِنَّ لِمَا فِيهَا ، فَلَا يُقَصِّرُ فى طاعةٍ وَلا يَتَهَاوَنُ بارْتِكَابِ مَعْصِيَةٍ ، وَبِذَلِكَ يَسْعَدُ فى أُخْرَاهُ ، وَتَكُونُ

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

الجنّةُ مأواهُ : قال تعالى : حاكياً قولَ مؤمنِ آلِ فرعونَ : « وَقالَ الّذِي آمَنَ . ياقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ . ياقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الحَياةُ الدُّنيا مَتاعٌ ، وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دارُ القَرارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إلاَّ مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى فَأُولَئِكَ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسابٍ » .

وَقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلونَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ أَبَى : مَنْ أَطاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصانِي فَقَدْ أَبَى » .

فيأيها المسلم :

لا يَغُرَّنَّكَ مالٌ ولا جاهٌ وَلا شَبابٌ وَلا عافِيَةٌ حَتّى لا تَمِيلَ إلَى الدُّنيا وَتَنْحَرِفَ عَنِ الطَّرِيقِ السَّوِيِّ ، وَلا يَفْتِنَنَّ رَجُلاً امْرَأَةٌ وَسِيمَةٌ ، وَلا يَفْتِنَنَّ امْرَأَةً رجلٌ وَجِيهٌ ، وَكُنْ مِنْ عِبادِ اللهِ الّذِينَ قِيلَ فيهم :

إنَّ للهِ عِبـاداً فُطَنـا ... طَلَّقُوا الدُّنيا وخافُوا الفِتَنا
نَظَرُوا فيهـا فلمّا عَرَفُوا ... أَنَّها لَيْسَتْ لِحَيٍّ وطَنـا
جَعَلوها لُجَّـةً واتَّخَذُوا ... صالِحَ الأعمالِ فيهـا سُفُنا

أَلاَ وَإِنَّ مَنْ لم يَتَّخِذِ الدُّنيا دارَ إقامَةٍ ـ هانَ عَلَيْهِ كُلُّ ما فِيها ، وأَراحَ نَفْسَهُ مِنْ هُمُومِها ، ولم يَنْهَمِكْ في طَلَبِها ، واكْتَفَى مِنْ سَعْيِهِ فِيها بِما يَكْفِيهِ ويُغْنِيهِ عَنْ سِواهُ ، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ ، وما يَجْمَعُهُ مِمّا زادَ من حاجَتِهِ ـ لاشَكَّ يَتْرُكُهُ لِغَيْرِهِ : مِنْ عدوٍّ أَوْ حبيبٍ ، وهُوَ

عَنْهُ مَسْئُولٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ .. وَهَلْ أَدَّى مَاعَلَيْهِ لِلَّهِ فِيهِ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ .

وَمَنْ لَمْ يَتَّخِذِ الدُّنْيَا دَارَ إِقَامَةٍ - لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْهَا مِنْ عَرَضٍ زَائِلٍ ، وَلَمْ يَجْزَعْ حَتَّى يُسْخِطَ اللهَ ، وَلَمْ يَفْرَحْ بِنَعِيمِهَا فَرَحَ الْمُتَجَبِّرِينَ الطُّغَاةِ ، وَلَمْ يَيْأَسْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، وَلَمْ يَحْسُدْ ، وَلَمْ يَحْقِدْ ، وَلَمْ يَبْخَلْ ، وَلَمْ يَتَشَاحَنْ مَعَ طُلَّابِهَا ، الْمُتَهَالِكِينَ عَلَيْهَا ، وَلَمْ يَتَهَالَكْ عَلَى الْمَنَاصِبِ وَالسُّلْطَانِ فِيهَا ، وَانْتَبَهَ لِصَاحِبِ السُّلْطَانِ حَقًّا ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ فَأَرْضَاهُ بِامْتِثَالِ مَا أَمَرَ ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى ، وَنُصْبُ عَيْنَيْهِ قَوْلُهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ، وَاعْدُدْ نَفْسَكَ فِي الْمَوْتَى ، وَإِيَّاكَ وَدَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا تُسْتَجَابُ »[1] .

وَمَنْ لَمْ يَتَّخِذِ الدُّنْيَا دَارَ إِقَامَةٍ ، وَوَضَعَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ أَنَّهُ عَنْ قَرِيبٍ رَاحِلٌ إِلَى دَارٍ ، لَا رَاحَةَ فِيهَا إِلَّا بِصَالِحِ الْعَمَلِ - فَإِنَّهُ تَحْلُو لَهُ الْعِبَادَةُ ، وَيُؤَدِّيهَا بِإِتْقَانٍ ، وَتَتَلَذَّذُ نَفْسُهُ بِفِعْلِ الْمَعْرُوفِ ، وَيَفْرَحُ إِذَا سَلِمَ مِنَ الْمُنْكَرِ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ :

مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ الْمُقْتَدَى بِهِ - دَاوُدُ الطَّائِيُّ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ :

---

(١) رواه الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

« إِنَّمَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَرَاحِلُ ، يَنْزِلُهَا النَّاسُ مَرْحَلَةً مَرْحَلَةً ، حَتَّى يَنْتَهِيَ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى آخِرِ سَفَرِهِمْ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُقَدِّمَ فِى كُلِّ مَرْحَلَةٍ - زَاداً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا - فَافْعَلْ ، فَإِنَّ انْقِطَاعَ السَّفَرِ عَنْ قَرِيبٍ . مَا هُوَ وَالْأَمْرُ أَعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ . فَتَزَوَّدْ لِسَفَرِكَ وَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ مِنْ أَمْرِكَ . فَكَأَنَّكَ بِالْأَمْرِ قَدْ بَغَتَكَ » .

وَكَيْفَ يَرْكَنُ إِلَى الدُّنْيَا مَنْ يَوْمُهُ يَهْدِمُ شَهْرَهُ ، وَشَهْرُهُ يَهْدِمُ سَنَتَهُ ، وَسَنَتُهُ تَهْدِمُ عُمْرَهُ :

أَيَا مَنْ لَهُ فِى بَاطِنِ الْأَرْضِ حُفْرَةٌ ... أَتَأْنَسُ بِالدُّنْيَا وَأَنْتَ غَرِيبُ

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا كَرُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ... وَمَا الْمَوْتُ إِلَّا نَازِلٌ وَقَرِيبُ

فَاتَّقِ اللهَ - يَاعَبْدَ اللهِ - وَاسْعَ لِمَعَاشِكَ فِى الدُّنْيَا ، وَاحْذَرْ حُبَّهَا ، فَالرَّسُولُ صلى اللهُ عليه وسلم قال : « حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ »(١) . إِنَّهُ يُنْسِي الْمَوْتَ ، وَمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ لَمْ يُبَالِ بِالذَّنْبِ ، وَأَخَّرَ التَّوْبَةَ ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِمَا نَالَ مِنْ دُنْيَاهُ ، وَتَكَاسَلَ فِى الطَّاعَةِ .

وَاعْلَمْ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُ - أَنَّكَ لَوْ مَلَكْتَ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا فِى يَدِكَ ، وَلَمْ يُحِبَّهَا قَلْبُكَ - لَمْ تَضُرَّكَ ، وَلَمْ تَشْغَلْكَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ ، وَقُلْ كَمَا قَالَ نَبِيُّكَ : « اَللَّهُمَّ أَعِنِّى عَلَى دِينِي بِدُنْيَايَ ، وَعَلَى آخِرَتِي بِتَقْوَايَ »(٢) .

---

(١) رواه البيهقى فى الشعب .

(٢) رواه الطبرانى والديلمى عن على وعن جابر رضى الله عنهما .

وَقَدْ سَمِعَ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ ، أَحَدُ سَلَفِنَا الصَّالِحِ - عَنْ جَارِيَةٍ أَتَاهَا اللهُ الْحِكْمَةَ ، فَلَمَّا وَصَلَ لَهَا - قَالَتْ لَهُ : بِمَا الَّذِى جَاءَ بِكَ ؟ قَالَ لَهَا : جِئْتُ لِتَعِظِينِى . فَقَالَتْ : وَاعَجَبًا لِوَاعِظٍ يُوعَظُ . ثُمَّ قَالَتْ : يَاعَبْدَ الْوَاحِدِ ، اعْلَمْ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ فِى كِفَايَةٍ فِى مَعِيشَتِهِ ، ثُمَّ مَالَ إِلَى الدُّنْيَا - سَلَبَهُ اللهُ حَلَاوَةَ الزُّهْدِ فِيهَا ، فَيَظَلُّ حَيْرَانَ وَالِهًا ، يَرْكُضُ فِيهَا رَكْضَ الْوَحْشِ فِى الْبَرِّيَّةِ ، وَيَنْهَمِكُ فِى طَلَبِهَا حَتَّى لَا يَجِدَ وَقْتًا لِفِعْلِ خَيْرٍ » .

وَالْعَاقِلُ هُوَ الَّذِى يَنْتَبِهُ وَيُفَكِّرُ فِيمَا هُوَ فِيهِ ، وَلَا يَتَمَادَى فِى غَفْلَتِهِ حَتَّى إِذَا فَجَأَهُ الْمَوْتُ كَانَ عَلَى حَالٍ تَصْلُحُ لِلْعَرْضِ عَلَى اللهِ ، فَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ رِضَاهُ ، وَلِذَلِكَ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « التُّؤَدَةُ فِى كُلِّ شَىْءٍ خَيْرٌ إِلَّا فِى عَمَلِ الْآخِرَةِ »[1] .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ :

اتَّقِ اللهَ ، وَجَاهِدْ نَفْسَكَ ، حَتَّى لَا تَمِيلَ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَفِتْنَتِهَا .

وَانْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا ... هَلْ رَاحَ عَنْهَا بِغَيْرِ الْقُطْنِ وَالْكَفَنِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضى اللهُ عنهما قالَ : أَتَيْتُ النَّبِىَّ صلى اللهُ عليه وسلم عَاشِرَ عَشَرَةٍ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : يَانَبِىَّ اللهِ ، مَنْ أَكْيَسُ النَّاسِ ، وَأَحْزَمُ النَّاسِ ؟ قال : أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ ، وَأَكْثَرُهُمْ اسْتِعْدَادًا لِلْمَوْتِ ، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ ، ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الْآخِرَةِ » رواه ابنُ أَبِى الدُّنْيَا وَالطَّبَرَانِىُّ فى الصَّغِير .

---

(١) رواه أبو داود والحاكم والبيهقى عن سعد رضى الله عنه .

وَعَنِ الْبَرَاءِ رضى اللهُ عنه قالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فى جنازَةٍ فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِ[٢] الْقَبْرِ ، فَبَكَى ، حَتَّى بَلَّ الثَّرَى . ثُمَّ قالَ : يَا إِخْوَانِى ، لِمِثْلِ هٰذَا فأَعِدُّوا » رواه ابن ماجَهْ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذٰلِكَ » رواه البخارىُّ عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضى الله عنه .

---

(١) حرفه .

٣٦ — قصر الأمل فى الدنيا

يبعث على التقوى لحسن الحال فى الآخرة

الْحَمْدُ لِلَّهِ : جَعَلَ الدُّنْيَا طَرِيقًا إِلَى الآخِرَةِ ، وَلَمْ يَجْعَلْهَا دَارَ اسْتِقْرَارٍ ، وَقَالَ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ : (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ » .

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ : يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ الْمَرْءُ فِى دُنْيَاهُ لِأُخْرَاه ، وَمِنْ ذٰلِكَ سَعْيُهُ إِلَى أَنْ يَعِيشَ فِى الدُّنْيَا مُكَرَّمًا لاَ عَالَةً عَلَى سِوَاه ، وقالَ تَعَالَى : (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَيُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، الْقَائِلُ : « نِعْمَتِ الدَّارُ الدُّنْيَا لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا لِآخِرَتِهِ ، حَتَّى يُرْضِيَ رَبَّهُ . وَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ صَدَّتْهُ عَنْ آخِرَتِهِ ، وَقَصُرَتْ بِهِ عَنْ رِضَا رَبِّهِ ، وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : قَبَّحَ اللهُ الدُّنْيَا ـ قَالَتِ الدُّنْيَا : قَبَّحَ اللهُ أَعْصَانَا لِرَبِّهِ »[1] .

اللّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ أَمْضَوْا أَعْمَارَهُمْ فِى طَاعَةِ رَبِّهِمْ : حِرْصًا عَلَى النَّعِيمِ الدَّائِمِ فِى دَارِ الْخُلُود .

---

(١) رواه الحاكم عن طارق رضى الله عنه .

أَمَّا بَعْدُ :

فَقَدْ وَجَدَ الْوَاسِطِىُّ[1] رضى اللهُ عنه ـ أَعْرَابِيًّا جَالِساً فى الصَّحْرَاءِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، وَلَمَّا أَرَادَ التَّحَدُّثَ مَعَهُ قَالَ لَهُ : اشْتَغِلْ بِذِكْرِ اللهِ ، فَإِنَّ ذِكْرَهُ شِفَاءُ الْقُلُوبِ ، وَكَيْفَ يَفْتُرُ ـ وَيَنْقَطِعُ ـ ابْنُ آدَمَ عَنْ ذِكْرِهِ تَعَالَى ، وَخِدْمَتِهِ : بِطَاعَتِهِ ، وَالْمَوْتُ فى أَثَرِهِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ نَاظِرٌ إِلَيْهِ ، ثُمَّ بَكَى أَسَفاً عَلَى التَّقْصِيرِ فى ذَلِكَ ، فَبَكَى الْوَاسِطِىُّ مَعَهُ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : مَالِى أَرَاكَ وَحِيداً ؟ قالَ الْأَعْرَابِىُّ : مَا أَنَا بِوَحِيدٍ ، وَاللهُ مَعِى ، وَمَا أَنَا بِفَرِيدٍ ، وَهُوَ أَنِيسِى ، ثُمَّ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ وَمَضَى مُسْرِعاً ، وقالَ يُنَادِيهِ تَعَالَى وَيُخَاطِبُهُ : يَاسَيِّدِى ، أَكْثَرُ خَلْقِكَ مَشْغُولٌ عَنْكَ بِغَيْرِكَ ، وَأَنْتَ عِوَضٌ عَنْ جَمِيعِ مَا فَاتَ . يَا صَاحِبَ كُلِّ غَرِيبٍ ، وَيَا مُؤْنِسَ كُلِّ وَحِيدٍ ، وَيَامَأْوَى كُلِّ فَرِيدٍ . ثُمَّ قالَ لِلْوَاسِطِىِّ وَهُوَ يَمْشِى خَلْفَهُ : ارْجِعْ عَافَاكَ اللهُ إِلَى مَنْ هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنِّى ، وَلا تَشْغَلْنِى عَمَّنْ هُوَ خَيْرٌ لِى مِنْكَ . فَرَجَعَ الْوَاسِطِىُّ وَهُوَ عَازِمٌ عَلَى الشُّغْلِ بِاللهِ وَتَقْوَاه عَنْ كُلِّ مَا سِوَاه ، وكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ :

وَمَنْ يَكُنْ هَمُّهُ الدُّنْيَا لِيَجْمَعَهَا	فَسَوْفَ يَوْماً عَلَى رَغْمٍ يُخَلِّيهَا
لا تَتْبَعُ النَّفْسُ مِنْ دُنْيَا تُجَمِّعُهَا	وَبُلْغَةٌ مِنْ قِوَامِ الْعَيْشِ تَكْفِيهَا
لا دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُهَا	إِلاَّ الَّتِى كَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ يَبْنِيهَا
فَمَنْ بَنَاهَا بِخَيْرٍ طَابَ مَسْكَنُهَا	وَمَنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيهَا
فَاغْرِسْ أُصُولَ التُّقَى مَاعِشْتَ مُجْتَهِداً	وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَجْنِيهَا

(١) من مشاهير الأولياء .

فيَاذوِى الْعُقُولِ ، يَامَنْ كلَّفَكُمُ اللهُ بِطَاعَتِهِ ، وَسَيُحَاسِبُكُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ الدِّينِ ، يَوْمَ الجْزَاءِ عَلَى الأَعْمَالِ ، يَوْمَ يَقُولُ : (لِمَنِ المُلْكُ الْيَوْمَ . لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

انْتَبِهُوا — حتّى لا تَشْغَلَكُمْ دُنْيَاكُمْ عَنِ الْعَمَلِ — لِحُسْنِ الحَالِ يَوْمَ الْمَآبِ . إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى — بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ حَالَ الدُّنْيَا ، وَأَنَّهَا لَعِبٌ : لا ثَمَرَةَ لَهُ سِوَى التَّعَبِ ، وَلَهْوٌ شَاغِلٌ عَمَّا يَعْنِي وَيُهِمّ ، وَزِينَةٌ لا يَحْصُلُ مِنْهَا شَرَفٌ لِذَاتِ الإِنْسَانِ ، فَهِيَ كَالْمَلْبَسِ الْجَمِيلِ : لا يَلْبَثُ أَنْ يَبْلَى وَيَزُولَ ، وَتَفَاخُرٌ بِالْجَاهِ وَالأَنْسَابِ وَالآبَاءِ ، وَتَكَاثُرٌ بِالمَالِ وَالأَبْنَاءِ — مَثَّلَ سُبْحَانَهُ — سُرْعَةَ زَوَالِ الدُّنْيَا ، حتّى لا يَطْمَئِنَّ إِلَيْهَا الْعُقَلاَءُ ، وَلا يُشْغَلُوا فِيهَا عَنْ طَاعَتِهِ تَعَالَى — بِشَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ — بِنَبَاتٍ نَبَتَ بِالمَطَرِ ، وَأُعْجِبَ بِهِ الزُّرَّاعُ ، ثُمَّ بعدَ بُلُوغِهِ أَقْصَى حَدِّ النُّمُوِّ وَالنَّضْرَةِ — اصْفَرَّ بعدَ الْخُضْرَةِ ، ثُمَّ صَارَ حُطَاماً : مُتَكَسِّراً — بعدَ الْيُبْسِ ، ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُلاَحِظَهَا الإِنْسَانُ فِى الدُّنْيَا : لِيَسْلَمَ مِنْ فِتْنَتِهَا ، وَيَعْمَلَ فِيهَا لِسَعَادَةِ أُخْرَاهُ ، وَهِيَ أَنَّ الدُّنْيَا الْفَانِيَةَ — تَعْقُبُهَا الآخِرَةُ الْبَاقِيَةُ ، وَفِيهَا النَّارُ الحَامِيَةُ : لِمَنْ لَمْ يُطِعْهُ تَعَالَى فِى دُنْيَاهُ ، وَالْجَنَّةُ الْعَالِيَةُ : لِمَنْ أَطَاعَهُ تَعَالَى فِى الدُّنْيَا وَاتَّقَاهُ . قال تعالَى : (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ) .

وَيُلَاحِظُ الْإِنْسَانُ فِى سَيْرِهِ فِى الْحَيَاةِ - حَقِيقَةَ دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ، لِخَيْرِهِ فِيهِمَا. إِذَا أَخَذَ بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: «كُنْ فِى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»(1). وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ:

فَيَا قَوْمِ:

مَنِ اعْتَبَرَ نَفْسَهُ فِى الدُّنْيَا كَأَنَّهُ غَرِيبٌ لَمْ يَتَعَلَّقْ قَلْبُهُ بِهَا، كَالْغَرِيبِ فِى بَلَدٍ، لَا هَمَّ لَهُ مُدَّةَ إِقَامَتِهِ فِيهِ إِلَّا التَّزَوُّدُ بِمَا يَنْفَعُهُ، عِنْدَ الْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِهِ.

وَالْوَطَنُ لِلْمُقِيمِ فِى الدُّنْيَا إِقَامَةَ الْغَرِيبِ - هُوَ الْجَنَّةُ (حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)، وَطَرِيقُهَا تَقْوَى اللهِ، الْقَائِلِ: (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا).

وَمَنِ اعْتَبَرَ نَفْسَهُ فِى الدُّنْيَا كَأَنَّهُ مُسَافِرٌ، مَارٌّ بِالطَّرِيقِ - كَانَ اهْتِمَامُهُ بِتَحْصِيلِ الزَّادِ لِلسَّفَرِ، فَلَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْفَانِى. وَفِى ذَلِكَ رَاحَةُ بَدَنِهِ وَقَلْبِهِ مِنْ هَمِّ جَمْعِ الدُّنْيَا، وَمُزَاحَمَةِ طُلَّابِهَا. قالَ صلى اللهُ عليه وسلم: «الزُّهْدُ فِى الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ، وَالرَّغْبَةُ فِيهَا تُكْثِرُ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ، وَالْبَطَالَةُ تُقَسِّى الْقَلْبَ»(2)

---

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه القضاعى عن ابن عمر رضى الله عنهما.

وَلِذٰلِكَ ـ قَصُرَ أَمَلُ سَلَفِنَا الصَّالِحِ فِى الدُّنْيَا ، فَطَلَبُوا مِنْ مَتَاعِهَا كَسْبَ الْعَيْشِ حَلاَلاً ، حَتَّى لاَيَكُونُوا عَالَةً عَلَى غَيْرِهِمْ ، وَأَعَانُوا بِمَا زَادَ عَنْ حَاجَتِهِمْ ـ تَخْفِيفاً لِحِمْلِهِمْ فِى سَفَرِهِمْ ـ أَقَارِبَهُمْ وَالْمُحْتَاجِينَ حَوْلَهُمْ ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْمَشَارِيعِ الْخَيْرِيَّةِ ، وَشَغَلُوا وَقْتَ يَقَظَتِهِمْ بِمَا يُرْضِى رَبَّهُمْ ، وَتِلْكَ الصَّالِحَاتُ كُلُّهَا زَادُ الآخِرَةِ ، الَّذِى حَثَّ اللهُ عَلَيْهِ فَقَالَ (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) .

وَهٰكَذَا قِصَرُ الْأَمَلِ فِى الدُّنْيَا ـ يُثْمِرُ الْجُودَ بِخَيْرِهَا ، وَيَقِى الْمَرْءَ الْبُخْلَ فِيهَا ، وَيَبْعَثُ عَلَى الصَّلاَحِ وَالطَّاعَةِ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ قِصَرِ أَمَلِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ سَلَفِنَا أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ : « مَا نِمْتُ نَوْماً قَطُّ فَحَدَّثْتُ نَفْسِى أَنِّى أَسْتَيْقِظُ مِنْهُ » ، وَهَلْ يُتَصَوَّرُ أَنَّ هٰذَا الْقَائِلَ يَنَامُ مُصِرًّا عَلَى مَعْصِيَةٍ أَوْ تَارِكاً لِطَاعَةٍ .

فَيَا قَوْمِ :

مَنْ قَصُرَ أَمَلُهُ فِى الدُّنْيَا وَلَمْ يَرْكَنْ إِلَيْهَا ، وَلَمْ يَطْمَئِنَّ لِمَا فِيهَا : أَخْذاً بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ، وَنُصْحِ ابْنِ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا فَلاَ يَنْتَظِرُ الصَّبَاحَ إِذَا أَمْسَى ، وَلاَ يَنْتَظِرُ الْمَسَاءَ إِذَا أَصْبَحَ ، وَاغْتَنَمَ وَقْتَ صِحَّتِهِ وَحَالَ حَيَاتِهِ ، فَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ـ الْمَرَضُ أَوِ الْمَوْتُ ـ فَإِنَّهُ لاَشَكَّ ـ لاَيُؤَخِّرُ التَّوْبَةَ مِنْ ذَنْبٍ ، وَلاَ يُقَصِّرُ فِى طَاعَةٍ ، وَتَحْلُو لَهُ الْعِبَادَةُ فَلاَ يُؤَجِّلُ عَمَلاً صَالِحًا قَدَرَ عَلَيْهِ لِمَا بَعْدَ وَقْتِهِ ، وَلاَ يَتَهَاوَنُ بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِى ، فَلاَ يُؤَخِّرُ صَلاَةً عَنْ وَقْتِهَا : (إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً) ، بَلْ يُحْسِنُ الصَّلاَةَ إِذَا أَدَّاهَا ، وَهُوَ مُنْتَبِهٌ لِقَوْلِهِ صلى اللهُ

عليه وسلم : « صَلِّ صَـلاَةَ مُوَدِّعٍ »[1] ، وَلِذَلِكَ – قالَ بَـكْرٌ الْمُزَنِيُّ : مِنْ سَلَفِنا الصَّالِحِ : « إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنفَعَكَ صَلاَتُكَ – فَقُلْ : لَعَلِّي لاَ أُصَلِّي غَـيْرَهَا » .

وَمَنْ قَصُرَ أَمَـلُهُ فِي الدُّنْيا – لَمْ يَغُرَّهُ مَالٌ ، وَلاَ جَاه ، وَلاَ شَبابٌ ، وَلاَ عَافِيَةٌ ، وَلاَ قُوَّةٌ ، فَلَمْ يَستطِلْ ، وَلَمْ يَتَجَبَّرْ عَلَى سِوَاه ، وَفِي ذَلِكَ السلاَمَةُ مِنْ عَاقِبَةِ الْمُتَجَبِّرِينَ ، وَقَدْ قالَ صلى اللهُ عليـه وسلم : « إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِياً يُقالُ لَهُ : هَبْهَبُ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُسكِنَهُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ »[2] .

أَيُّهَا الْمُسلِمُ :

اتَّقِ اللهَ ، وَلاَ تَتَّخِذِ الدُّنْيَا وَطَناً وَمَسكَناً ، حَتَّى لاَ تَطْمَئِنَّ فِيهَا وَتَرْكَنَ إِلَيْهَا ، فَتُقَصِّرَ فِي طَاعَةِ اللهِ ، وَالاستِعْدَادِ لِمَا بَعْـدَ الْمَوْتِ ، وَفِي ذَلِكَ خُسْرَانٌ مُبِينٌ .

اذْكُرْ عَلَى الدَّوَامِ أَنَّكَ فِي دَارِ فَنَاء لاَ بَقَاء ، وَأَنَّكَ مُحَاسَبٌ بَعْدَ الْمَوْتَ عَلَى مَا تَعمَلُ فِي الحَيَاةِ ، حتَّى لاَ تَعْمَلَ إِلاَّ صَالِحًا ، وَتَجْتَنِبَ جَمِيعَ السيِّئَاتِ :

اعْمَـلْ وَأَنْتَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى وَجَـلٍ ۔۔۔ وَاعْـلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَبْعُوثُ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَاقَدَّمْتَ مِنْ عَمَـلٍ ۔۔۔ يُحْصَى عَلَيْكَ وَمَا خَلَفْتَ مُورِثُ

---

(١) رواه أبو محمد الإبراهيمى فى كتاب الصلاة . وابن النجار عن ابن عمر رضى الله عنهما . ولفظه بتمامه « صل صلاة مودع كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك وايأس مما فى أيدى الناس تعش غنياً وإياك وما يعتذر منه » .

(٢) رواه أبو يعلى والطبرانى والحاكم ، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « الكَيِّسُ مَنْ دَانَ[1] نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ » رَوَاهُ ابنُ مَاجَهْ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وَقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا ، وَيُمْسِي كَافِرًا ، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا ، وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا » رواه مُسلمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وَقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ . قِيلَ : كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ ؟ قالَ : يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ المَوْتِ » رَوَاهُ الحَاكِمُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وَقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَكُلُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ ؟ » قَالُوا : نَعَمْ ، قالَ : « قَصِّرُوا آمَالَكُمْ ، وَاجْعَلُوا آجَالَكُمْ بَيْنَ أَبْصَارِكُمْ وَاسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ » رَوَاهُ ابنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنِ الحسن مُرْسَلاً ، وَالحَدِيثُ المُرْسَلُ مَاسَقَطَ مِنْهُ الصَّحَابِيُّ .

---

(١) ساسها وقهرها .

٣٧ – بني الإسلام على خمس

لحسن المعاملة وكسب خيري الدنيا والآخرة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَرِيمِ ، يُحْسِنُ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ ، وَيَعْفُو عَمَّنْ أَسَاءَ ، وَيَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ : يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ فِي الْجَزَاءِ ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ ، الْقَائِلُ : « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقاً »[1] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ حَسُنَتْ مُعَامَلَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ ، فَعَظُمَ أَجْرُهُمْ يَوْمَ لِقَاءِ اللَّهِ .

أَمَّا بَعْدُ : فَيَا عِبَادَ اللَّهِ :

شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ سَيِّدِنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالصَّلَاحِ لِآخَرَ فَقَالَ سَيِّدُنَا عُمَرُ لِلشَّاهِدِ : هَلْ أَنْتَ جَارُهُ الَّذِي يَعْرِفُ مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ ؟ قَالَ لَا ، فَقَالَ : هَلْ أَنْتَ رَفِيقُ سَفَرِهِ ، فَعَرَفْتَ أَخْلَاقَهُ فِي غُرْبَتِهِ ؟ قَالَ : لَا ، فَقَالَ : هَلْ عَامَلْتَهُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ : الْأَمْرُ الَّذِي يُعْرَفُ بِهِ الْوَرَعُ : قَالَ : لَا . فَقَالَ سَيِّدُنَا عُمَرُ : أَظُنُّكَ رَأَيْتَهُ فِي الْمَسْجِدِ يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ . قَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَ سَيِّدُنَا عمر : اذْهَبْ فَلَسْتَ تَعْرِفُهُ : فَلِلَّهِ دَرُّ سَيِّدِنَا عُمَرَ ، مَا أَبْعَدَ نَظَرَهُ ،

---

(١) رواه الترمذي عن جابر رضي الله عنه .

وَمَا أَعْظَمَ يَقَظَتَهُ وَانْتِبَاهَهُ ، لِإِدْرَاكِ الْأُمُورِ ، وَعَلَى ضَوْءِ مُنَاقَشَتِهِ لِلشَّاهِدِ - يَتَجَلَّى - أَنَّ الْمُعَامَلَةَ مِيزَانُ النُّفُوسِ - حَقًّا ، وَبِهَا الْحُكْمُ عَلَى دِينِ الْمَرْءِ ، فَمَنْ أَحْسَنَ مُعَامَلَةَ الْخَلْقِ وَالْخَالِقِ - كَانَ مُتَدَيِّنًا ، وَكَانَ إِسْلَامُهُ صَحِيحًا ، وَإِيمَانُهُ صَادِقًا .

عِبَادَ اللهِ :

كُلٌّ مِنَّا - مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ - لَا يَخْفَى عَلَيْهِ قَوْلُ رَسُولِنَا الصَّادِقِ الْأَمِينِ «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ »[1] .

فَكَمَا يُبْنَى الْبَيْتُ سِتْرًا ، وَمَأْمَنًا ، وَوِقَايَةً مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ مِنْ عَنَاصِرَ أَوَّلِيَّةٍ : مِنْ حَدِيدٍ وَخَشَبٍ وَأَحْجَارٍ وَرَمْلٍ وَأَسْمَنْتٍ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ مَوَادَّ بُنِيَ الْإِسْلَامُ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ الْخَمْسَةِ الَّتِي بَيَّنَهَا رَسُولُنَا صلى اللهُ عليه وسلم لِيَعِيشَ الْإِنْسَانُ بِهَا فِي سِتْرٍ وَأَمَانٍ ، وَرَاحَةٍ ، وَاطْمِئْنَانٍ ، وَيَفُوزَ بِالْخَيْرِ ، وَيُوقَى الشَّرَّ فِي أُخْرَاهُ .

وَكُلُّ أَصْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ الْخَمْسَةِ : الشَّهَادَتَيْنِ ، وَالصَّلَاةِ ، وَالصِّيَامِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ كَشَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ، تُثْمِرُ أَطْيَبَ الثَّمَرَاتِ .

انْتَبِهُوا - عِبَادَ اللهِ :

قَالَ اللهُ تَعَالَى : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) ، وَقَالَ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ

(١) رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما .

مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ، وَفِي إِعْطَاءِ الْغَنِيِّ الزَّكَاةَ لِلْفَقِيرِ ـ تَطْهِيرُ قَلْبِ الْفَقِيرِ مِنَ الْحِقْدِ عَلَى الْغَنِيِّ ، وَإِحْلَالُ الْمَحَبَّةِ فِيهِ ، وَبِذَلِكَ يَسُودُ الْأَمْنُ وَتَكُونُ الْمَوَدَّةُ وَالْإِخَاءُ بَيْنَهُمَا . وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) وَالنَّاسُ فِي الْحَجِّ ـ أَشْبَهُ بِالْمَوْتَى يُفَارِقُونَ أَمْوَالَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ، وَيَنْتَقِلُونَ إِلَى غَيْرِ دِيَارِهِمْ ، وَيَكُونُونَ فِي لِبَاسِ الْإِحْرَامِ : كَالْمَيِّتِ فِي كَفَنِهِ لَيْسَ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ إِلَّا إِزَارٌ وَرِدَاءٌ ، وَالْكُلُّ خَاضِعٌ لِعَظَمَةِ اللَّهِ ، خَاشِعٌ لِجَلَالِهِ . لَا فَرْقَ بَيْنَ غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ ، وَعَظِيمٍ وَحَقِيرٍ : هُنَالِكَ تَتَطَامَنُ النُّفُوسُ وَتَتَوَاضَعُ ، وَتَعْلَمُ أَنَّ زُخْرُفَ الدُّنْيَا بَاطِلٌ ، وَتَشْعُرُ بِالْمُسَاوَاةِ ، وَأَنَّهُ لَا يَلِيقُ الِاسْتِكْبَارُ وَالِاسْتِعْلَاءُ بِمَالٍ أَوْ جَاهٍ ، وَأَنَّ الَّذِي يَلِيقُ هُوَ إِرْضَاءُ خَالِقِنَا بِتَقْوَاهُ ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ عُلَاهُ : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) ، وَمَنْ شَهِدَ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ لِلَّهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ ، وَلِسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ ـ أَطَاعَهُمَا ، فَكَانَ عَمَلُهُ صَالِحًا ، وَسُلُوكُهُ حَسَنًا ، وَخُلُقُهُ كَرِيمًا : (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

بِهَذَا الْبَيَانِ لِثِمَارِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَأُصُولِهِ ـ تَجَلَّى لَنَا عِظَمُ الْإِسْلَامِ وَفَوَائِدِهِ . وَتَظْهَرُ هَذِهِ الثِّمَارُ فِي مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِ لِلنَّاسِ ، وَمِنْ هُنَا اشْتَهَرَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْفَاضِلَةِ ـ الدِّينُ الْمُعَامَلَةُ .

عِبَادَ اللَّهِ :

رَسُولُنَا الْكَرِيمُ ، وَهَادِينَا الْحَكِيمُ ـ قَدْ بَيَّنَ لَنَا كُلَّ مَا نَكُونُ بِهِ

مُعَامَلاتنا طَيِّبَة ؛ وَقال : لاَ يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ(١) .

فَمَنِ اهتدَى بِهَدْيِهِ صلى الله عليه وسلم ، وَاقْتَدَى بِسُنَّتِهِ - لَمْ يَرَ النَّاسُ مِنْهُ إلاَّ قَوْلاً مَعْرُوفاً ، وَذَوْقاً فِى المُعَامَلَةِ وَلُطْفاً ، وَذَلِكَ هُوَ اللاَّئِقُ بِالمُصَلِّى الصَّائِمِ الوَاقِفِ عِندَ حُدُودِ الإِسلاَمِ ، المُستَمسِكِ بِأُصُولِهِ .

وَأَىُّ فَائِدَةٍ لِلنَّاسِ - يَاعَبْدَ اللهِ - مِنْ صَلاتِكَ وَصِيامِكَ . وَزَكاتِكَ وَحَجِّكَ ، إِذَا لَمْ يَسلَمِ المُسلِمُونَ مِنَ لِسَانِكَ وَيَدِك ، وَقَدْ صَدَقَ مَنْ قالَ :

إِذَا حَجَجْتَ بِمَالٍ أصلُهُ سُحُتٌ(٢) فَمَا حَجَجْتَ وَلَكِنْ حَجَّتِ العِيرُ(٣)
لاَ يَقْبَلُ اللهُ إلاَّ كُلَّ طَيِّبَةٍ مَا كُلُّ حَجِّ لِبَيْتِ اللهِ مَبرور(٤)

عَبْدَ اللهِ :

إِنَّ أَدَاءَ العِبَادَاتِ ، بِدُونِ إِخْلاَصٍ لِلمَعْبُودِ قَيُّومِ الأَرضِ وَالسَّمَوَاتِ الَّذِى شَرَعَهَا لإِصلاَحِ النُّفُوسِ وَتَهْذِيبِهَا - لاَ يَكْسِبُ الإِنسَانَ فَوَائِدَهَا ، وَلاَ تُحَسِّنُ مُعامَلَتَهُ ، وَبِذَلِكَ - لاَ تَكُونُ أُصُولاً ثَابِتَةً لإِسلاَمِهِ وَلاَعَيْبَ فِيهَا ، وَإِنَّمَا العَيْبُ فِيهِ وَحْدَهُ : لأَنَّهُ أَدَّاهَا بِلاَ رُوحٍ ، وَرُوحُهَا هُوَ إِخْلاَصُهُ فِيهَا لِمَالِكِ الأَجْسَادِ وَالأَرْوَاحِ ، الَّذِى قالَ رَسُولُهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ »(٥) .

(١) رواه فى كتاب الحجة على تارك سلوك طريق المحجة للشيخ المقدسى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .
(٢) حرام (٣) الإبل .
(٤) مقبول .
(٥) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

فانْتَبِاهاً ـ انْتِبَاهاً ـ أَيُّهَا الْمُسْلِمِ ـ لِتَكُنْ أُصُولُ الْإِسْلَامِ فِي نَفْسِكَ ثَابِتَةً ، فَأَشْهَدْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ ، وَبَرْهِنْ عَلَى ذَلِكَ ـ بِصَلَاحِ أَقْوَالِكَ وَأَعْمَالِكَ ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِقَامَةً تَتَّصِلُ بِهَا بِاللَّهِ ، مُسْتَشْعِراً بِهَا عَظَمَةَ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ، وَحِينَ تَرْكَعُ وَتَسْجُدُ ، وَفِي سَائِرِ حَرَكَاتِكَ وَسَكَنَاتِكَ ، وَهُوَ ـ عَلَيْكَ ـ قَدِيرٌ ، وَبِسَائِرِ شُئُونِكَ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ، وَصُمْ ، وَأَنْتَ ذَاكِرٌ مَنْ تَصُومُ لَهُ ، الَّذِي قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً » ، حَتَّى تَكُونَ نَقِيًّا فِي سَيْرِكَ وَسُلُوكِكَ ، وَأَخْرِجْ ابْتِغَاءَ رِضَا رَبِّكَ ـ زَكَاةَ مَالِكَ ـ سَوَاءٌ أَكَانَ مَالَ تِجَارَةٍ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ بِقَالَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، أَمْ كَانَ مَالاً مُودَعاً فِي خِزَانَتِكَ ، أَوِ الْبَرِيدِ أَوْ بَنْكٍ مِنَ الْبُنُوكِ ، وَحُجَّ بِمَالٍ حَلَالٍ ، وَبَرْهِنْ عَلَى أَنَّ حَجَّكَ مَبْرُورٌ ـ بِبُعْدِكَ عَنِ الذُّنُوبِ ، وَحُسْنِ مُعَامَلَتِكَ لِلْخَلْقِ وَالْخَالِقِ .

وَقد قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الْجَنَّةَ . قِيلَ : وَمَا بِرُّهُ ؟ قَالَ : إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَطِيبُ الْكَلَامِ »[1] .

أَيهَا المسلِم :

إِذَا كُنْتَ مُسْلِماً حَقًّا ، أُصُولُ الْإِسْلَامِ وَأُسُسُهُ عِنْدَكَ صَحِيحَةٌ قَوِيَّةٌ ـ كُنْتَ حَسَنَ الْمُعَامَلَةِ لِصَدِيقِكَ وَلِجَارِكَ ، وَلِزَمِيلِكَ فِي الْعَمَلِ ، وَلِإِخْوَتِكَ ، وَأَوْلَادِكَ وَزَوْجَتِكَ ، وَعَمِلْتَ بِوَصِيَّةِ سَيِّدِنَا عَلِيٍّ لِوَلَدِهِ الْحَسَنِ . قَالَ لَهُ : « اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ ، فَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ

---

(١) رواه أحمد والطبرانى فى معجمه الأوسط بإسناد حسن ، وغيرهما .

لِنفسِكَ ، وَاكْرَهْ لهُمْ مَاتَكْرَهُ لَهَا ، وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَتُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ مَاتَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْكَ » .

أَيهَا المسلمون :

اتَّقُوا اللهَ ، وَبَرْهِنُوا عَلَى صِحَّةِ إِسْلاَمِكُمْ ، وَصِدْقِ إِيمَانِكُمْ ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكُمْ لِرَبِّكُمْ - بِحُسْنِ مُعَامَلَتِكُمْ للهِ وَلِلنَّاسِ ، وَبِذَلِكَ تَكُونُونَ عَامِلِينَ بِكُلِّ تَعَالِيمِ الإِسْلاَمِ ، وَتَفُوزُونَ فِي الدَّارَيْنِ بِرِضَا مَنْ بِيَدِهِ خَيْرُهُمَا ، وَالسَّلاَمَةُ مِنْ شَرِّهِمَا : اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلاَّمِ : « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « اتَّقِ[1] الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ[2] النَّاسِ ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى[3] النَّاسِ ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِناً ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِماً ، وَلاَ تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ - تُمِيتُ[4] الْقَلْبَ » . رواهُ التِّرمِذِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه .

---

(١) احذر الوقوع فى جميع ماحرم الله عليك .

(٢) أى من أعظمهم عبادة .

(٣) فإن من قنع بما أعطاه الله ولو يسيراً - استغنى عن غيره ، وكم من إنسان - مع كثرة المال - لم يقنع ، فلم يستغن عن غيره ، فليس الغنى بكثرة المال ولكن الغنى غنى النفس بقناعتها .

(٤) أى تصيره مغموراً فى الظلمات ، وللقلب حياة موت . لحياته بدوام الطاعة ، وموته بإجابة غير الله من النفس ، والهوى ، والشيطان : وذلك إذا كان مغموراً فى الظلمات .

٣٨ — ذكرى الهجرة النبوية

وبيانُ أنها ثورةٌ على الباطل : لنصرةِ الحقّ

الحمدُ للهِ . لايذلُّ مَنْ والاهُ ، ولا يعزُّ مَنْ عاداهُ . وقالَ سُبْحانَهُ : « إنَّا لننصُرُ رُسُلَنَا والذينَ آمنُوا فِي الحياةِ الدُّنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ » .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ : يُحِبُّ مَنْ هاجرَ إليهِ ، فهجرَ المعاصِي ، ودَاوَمَ على طاعتِهِ ، وقالَ جلَّ شأنُهُ : « إنَّ الذينَ آمنُوا والذينَ هاجرُوا وجاهدُوا فى سبيلِ اللهِ أولئكَ يرجُونَ رحمةَ اللهِ واللهُ غفورٌ رحيمٌ » .

وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا مُحمَّداً رسُولُ اللهِ ، خيرُ مَنْ هاجرَ إلَى اللهِ ، وأحسنَ المُعامَلَةَ : مُتوكِّلاً عليهِ تعالَى ، فكفاهُ ، وقدْ قالَ عزَّ وجلَّ : « والذينَ جاهدُوا فينَا لنهدِينَّهُمْ سُبُلَنَا وإنَّ اللهَ لمعَ المُحْسِنِينَ » .

اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على سيِّدِنا مُحمَّدٍ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ المُهاجرِينَ والأنصارِ ، ومَنْ تبعَهُمْ بإحسانٍ : حِرْصاً على رِضا الواحدِ القهَّارِ .

أمَّا بعدُ :

فقدْ شاءَ اللهُ لخيرِ عبادِهِ ونفعِهِمْ — أنْ ينصُرَ دينَهُ ، ويُمكِّنَهُ لمعتنقِيهِ ، ذوِي الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ ، بعدَ أنِ امتحنَهُمْ — سُبْحانَهُ — بالشَّدائدِ ، ومسَّتْهُمُ البأساءُ والضَّرَّاءُ ، وأُوذُوا فى سبيلِهِ ، وظُلِمُوا ، فصبرُوا صبْراً جميلاً ، وهانَ عليهِمْ هجرةُ الوطنِ ، وتركُ مالهُمْ فيهِ : مِنْ متاعٍ ومالٍ ، وكانُوا أهْلاً لحُسْنِ الحالِ فى الدُّنيا والآخرةِ : كما قالَ تعالَى : « والذينَ هاجرُوا فى اللهِ مِنْ بعدِ ما ظُلِمُوا لنُبوِّئنَّهُمْ فى الدُّنيا حسنةً ولأجرُ

الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » -

لَقَدْ هَاجَرَ رُسُلُ اللهِ : حِرْصاً عَلَى نَشْرِ دِينِهِ تَعَالَى وَكَسْبِ رِضَاهُ الَّذِى بِهِ عِزُّ الدَّارَيْنِ وَسَعْدُهُمَا .

فَكَمَا هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ ، وَلُوطٌ ، وَمُوسَى ، وَعِيسَى : عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - هَاجَرَ رَسُــولُنَا صلى الله عليه وسلم ، وَهَاجَرَ أَصْحَابُهُ ، الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ، وَاسْتَجَابُوا لِدَعْوَتِهِ : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ » .

فَقَدْ أَخَذَ صلى اللهُ عليه وسلم - يَدْعُو - بِمَكَّةَ - إِلَى دِينِ اللهِ ، الَّذِى بِهِ الْأَمْنُ وَطِيبُ الْحَيَاةِ ، فَظَنَّ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ ، وَذَوُو الْجَاهِ وَالْمَالِ فِيهِمْ أَنَّهُ يُرِيدُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ الْمَالَ حَتَّى يُثْرِىَ ، أَوْ يَبْسُطُ نُفُوذَهُ عَلَى النَّاسِ ، فَغَايَةُ الْمَجْدِ وَالشَّرَفِ فِى الدُّنْيَا ، عِندَ أَهْلِهَا ، فِى كُلِّ زَمَانٍ - الْحُصُولُ عَلَى مَالٍ وَفِيرٍ ، أَوْ نُفُوذٍ وَجَاهٍ كَبِيرٍ : وَمِنْ هُنَا - عَرَضُوا عَلَيْهِ : صلى الله عليه وسلم الْمُلْكَ وَالْمَالَ ، فَقَالَ لَهُ بِلِسَانِهِمْ عُتْبَةُ بن رَبِيعَةَ : إِنْ كُنتَ تُرِيدُ بِهَذَا الدِّينِ أَنْ تَكُونَ صَاحِبَ مَالٍ - جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالاً ، وَإِنْ كُنتَ تُرِيدُ مُلْكاً - جَعَلْنَاكَ مَلِكاً عَلَيْنَا ، فَلَا يَكُونُ سُلْطَانٌ لِأَحَدٍ فَوْقَ سُلْطَانِكَ ، فَأَجَابَهُ صلى الله عليه وسلم بِمَا أَرْعَبَهُ : تَلَا عَلَيْهِ سُورَةَ فُصِّلَتْ ، وَفِيهَا ذِكْرُ أَمْثَالِ قُرَيْشٍ : مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ : فِى الِاسْتِكْبَارِ - بِعَدَمِ قَبُولِ دَعْوَةِ اللهِ ، وَإِيذَاءِ الدَّاعِى ، وَأَنَّ اللهَ - أَخْزَاهُمْ فِى الدُّنْيَا وَعَذَّبَهُمْ : « وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ » ، فَانْصَرَفَ عُتْبَةُ ، وَهُوَ لَمْ يُؤْمِنْ - يُعْلِنُ - لِقَوْمِهِ - إِصْرَارَهُ : صلى اللهُ عليه وسلم - عَلَى دَعْوَتِهِ ، فَهُوَ لَا يُرِيدُ بِهَا مُلْكاً ، وَلَا مَالاً ، وَلَا جَاهاً ،

وَرِياسَةً : إِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يُؤْمِنَ النَّاسُ جَمِيعاً بِاللهِ ، وَيَهْتَدُوا بِهُدَاهُ : لِيَسْعَدُوا فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ ، وَلَمْ يُبَالِ صلى الله عليه وسلم بِمَا لَقِيَ مِنْ صُدُودِ قُرَيْشٍ وَأَذَاهُمْ ، وَكَانَ يَسْتَقْبِلُ الْوَافِدِينَ عَلَى مَكَّةَ : مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، فَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ ، فَكَانَ مِنْهُمْ الْمُسْتَمِعُ الْمُسْتَجِيبُ ، وَالْمُعْرِضُ الْمُكَذِّبُ ، وَكَانَتْ وُفُودُ الْمَدِينَةِ أَكْثَرَ تَصْدِيقاً لَهُ : أَسْلَمَ مِنْهُ لِأَوَّلِ لِقَاءٍ سِتَّةُ نَفَرٍ ، وَفِي الْمَوْسِمِ التَّالِي ـ اثْنَا عَشَرَ ، وَبَعَثَ مَعَهُمْ : صلى الله عليه وسلم مُصْعَبَ[1] ابْنَ عُمَيْرٍ : إِمَاماً لِلصَّلَاةِ ، وَمُعَلِّماً لِلْقُرْآنِ ، وَدَاعِياً إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَاتَّبَعَهُ كَثِيرُونَ ، وَجَاءَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ ، وَبَايَعَهُمْ صلى اللهُ عليه وسلم عَلَى أَنْ يَنْصُرُوهُ وَيَنْصُرَهُمْ ، وَانْتَشَرَ ـ بَعْدُ ـ الْإِسْلَامُ بِالْمَدِينَةِ ، فَهَاجَرَ إِلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ مَكَّةَ ، وَعَلِمَ بِذَلِكَ كُفَّارُ مَكَّةَ ، فَعَزَمُوا عَلَى قَتْلِهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَقَدْ كَانُوا غَافِلِينَ عَنْ وِقَايَةِ اللهِ لَهُ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

وَفِي اللَّيْلَةِ الَّتِي اجْتَمَعَ فِيهَا فِتْيَانُ قُرَيْشٍ حَوْلَ بَيْتِهِ صلى اللهُ عليه وسلم استعداداً لِقَتْلِهِ ـ أَمَرَهُ تَعَالَى بِالْهِجْرَةِ إِلَى المدينة ، فَخَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ ، وَلَمْ يَرَوْهُ ، وَلَمَّا تَجَاوَزَ صلى اللهُ عليه وسلم مَسَاكِنَ مَكَّةَ ـ وَقَفَ عَلَى رَبْوَةٍ عَالِيَةٍ ، وَنَظَرَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَهُوَ يُوَدِّعُ مَكَّةَ ـ وَدَاعَ الْمُحِبِّ الْمُكْرَهِ عَلَى الْفِرَاقِ ، مُتَأَثِّراً جِدًّا لِمُفَارَقَةِ وَطَنِهِ ، قَائِلاً :

---

(١) كان يسمى القارئ أو المقرئ ، ولعله أول من سمي بذلك من جملة كتاب الله تعالى .

« وَاللهِ إِنَّكِ لَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَيَّ ، وَإِنَّكِ لَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهلَكِ أَخْرَجُونِي مَا خَرَجْتُ مِنْكِ »(١) .

وَقد سَارَ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَمَعَهُ صَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ ، وَعِنَايَةُ اللهِ لَهُمَا مُلَازِمَةٌ ، حتَّى دَخَلَا المَدِينَةَ ، وَأَهْلُهَا فِي فَرَحٍ عَظِيمٍ ، وَصَعِدَ النِّسَاءُ إِلَى المَنَازِلِ ، يُشَاهِدْنَ الرَّسُولَ الكَرِيمَ ، فِي مَوْكِبِهِ العَظِيمِ ، يُغَنِّينَ ، وَيُغَنِّي مَعَهُنَّ الصِّبْيَانُ وَالوَلَائِدُ(٢) :

طَلَعَ البــدرُ علينـــا مِنْ ثَنِيَّاتِ(٣) الوَدَاع

وجبَ الشكرُ علينـــا مَا دَعَا لِلهِ داع

أيُّهــا المبعوثُ فينـــا جِئْتَ بالأمــــرِ المطاع

وَهُنَا لِكَ ـ أَقامَ صلى اللهُ عليه وسلم مِنَ الأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرِينَ دَوْلَةَ الإِسْلَامِ ، الَّتِي بِهَا فَتَحَ اللهُ مَكَّةَ ، وَنَشَرَ تَعَالِيمَ الحَقِّ بَيْنَ الأَنَامِ ، حتَّى أَنْزَلَ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً » .

لِذَلِكَ كَانَ كُلُّ خَيْرٍ أَصَابَهُ المُسْلِمُونَ ، مُنْذُ انْتَقَلَتِ الدَّعْوَةُ الإِسْلَامِيَّةُ

---

(١) رواه الإمام أحمد ، والترمذى .

(٢) جمع وليدة وهى الصبية والأمة .

(٣) الثنية فى الأصل : اسم للمرتفع الناشز من الأرض، وثنية الوداع هى اسم للموضع الذى فى طرف المدينة ، وهو الذى يودع الناس فيه عادة من يريد السفر منها ، ويستقبلون فيه القادم إليها ، وللمدينة ثنيتا وداع إحداهما شمالية : من جهة الشمال: قبل الشام والأخرى جنوبية فى مدخلها من جهة الجنوب : يدخل القادم من مكة إلى المدينة ـ منه .

مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، وكلُّ عِزٍّ أَدْرَكُوهُ ، وَسَعْدٍ نَالُوهُ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ ـ ثَمَرَةً طَيِّبَةً لِهِجْرَتِهِ صلى الله عليه وسلم ـ الْمُبَارَكَة .

وكما تَكُونُ الْهِجْرَةُ الَّتِي تُرْضِي اللهَ بِالِانْتِقَالِ مِنْ مَكَانِ الضَّلَالَةِ إلى مكانِ الْهِدَايَةِ تَكُونُ بالانْتِقَالِ مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى الْهِدَايَةِ ، وَالْمَرْءُ بِمَكَانِه ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قال الرَّسُولُ صلى اللهُ عليه وسلم : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَانَهَى اللهُ عَنْهُ »[1].

فَاعْلَمُوا ـ يَا قَوْمِ ـ أَنَّ الاحْتِفَالَ بِذِكْرَى الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، فى أَوَّلِ كلِّ عام هِجْرِيٍّ ـ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِتَجْدِيدِ الْعَهْدِ عَلَى الاقْتِدَاءِ بِهِ صلى اللهُ عليه وسلم فى هِجْرَتِهِ إِلَى اللهِ ، وَتَقْدِيمِ أَمْرِهِ تعالَى عَلَى أَمْرِ سِوَاه ، وَالاتِّعَاظِ بِعِظَاتِ هِجْرَتِهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِلهِ ، وَفى سَبِيلِ رِضَاهُ جَلَّ عُلاهُ ، حَيْثُ كانَ مَعَهُ فى كلِّ خُطَاه ، وَاللهُ تعالَى يَقُولُ : (إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) .

وَلِتَذَكُّرِ تِلْكَ الْهِجْرَةِ الشَّرِيفَةِ : لِلانْتِفَاعِ بِعِظَاتِهَا عَلَى الدَّوَامِ ـ قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضى اللهُ عنه ، حِينَ جَمَعَ النَّاسَ لِلتَّشَاوُرِ فِيمَا بِهِ يُؤَرِّخُونَ : « الْهِجْرَةُ فَرَّقَتْ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَأَرِّخُوا بِهَا »[2] ، فَاتَّفَقُوا عَلَى ذَلِكَ .

---

(١) رواه البخاري وأبو داود والنسائى عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما

(٢) روى أبو نعيم والحاكم عن الشعبى أن أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته ـ أنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ ؛ أى فلا نعرف السابق من اللاحق . فجمع عمر الناس فقال : الهجرة فرقت ... الخ .

أيُّهَا المُسْلِمُون :

اتَّقُوا اللهَ ، وَاذْكُرُوا هِجْرَةَ نَبِيِّكُمْ مُتَّعِظِينَ ، وَأَرِّخُوا بِهَا لِتَذْكُرُوا عِبَرَهَا عَلَى الدَّوَام ، وَهَاجِرُوا إِلَى اللهِ بِعِبَادَتِهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَهَاجِرُوا إِلَى رَسُولِهِ : بِمَحَبَّتِهِ ، وَاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ ، وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ ، وَقَدِّمُوا دَائِمًا طَاعَةَ اللهِ وَرَسُولِهِ عَلَى طَاعَةِ سِوَاهُمَا ، وَحَافِظُوا عَلَى تَعَالِيمِ دِينِكُمْ الَّتِي وَرِثْتُمُوهَا بِلا تَعَبٍ وَعَنَاء ، وَفِيهَا كُلُّ الْخَيْرِ وَجَمِيعُ الْهَنَاء ، وَجَاهِدُوا أَنْفُسَكُمْ وَهَوَاكُمْ ، وَانْوُوا فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، وَاهْجُرُوا ظُلْمَ أَنْفُسِكُمْ وَغَيْرِكُمْ ، وَاحْذَرُوا غَضَبَ اللهِ ، وَاتْرُكُوا جَمِيعَ الْمَعَاصِي ، وَلاَ تُضِيعُوا حَقَّ أَحَدٍ ، وَكُونُوا كَأَسْلاَفِكُمُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، الَّذِينَ بَرْهَنُوا عَلَى أُخُوَّتِهِمْ : بِالعِنَايَةِ بِمَصَالِحِ بَعْضِهِمْ ، وكَانُوا أَعِزَّاءَ أَقْوِيَاء (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

قال رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ[1] فَانْفِرُوا » رواه البخاريُّ ومُسلم عن عائشةَ رضى الله عنها .

---

(١) أى طلبتم الخروج للجهاد ونحوه .

٣٩ ـ خطبة أخرى فى ذكرى الهجرة

وبيانُ أنَّها انتقالٌ بنورِ الإيمانِ مِنَ الدنايا ـ إلى شريفِ السجايا

الحمدُ للهِ : يُحِبُّ مَنْ هاجَرَ إليْهِ ، فَهَجَرَ المَعاصِى ، وَداوَمَ عَلَى طاعتِهِ ، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فى سَبيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » .

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ ، لا يُعْطِى الخَيْرَ ، وَيَصْرِفُ الشَّرَّ سِوَاهُ ، وَقَدْ سَعِدَ وَعَزَّ مَنْ وَالاَهُ وَاتَّقاه ، وَشَقِىَ وَذَلَّ مَنْ عَادَاهُ . وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، وَقالَ : « إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، خَيْرُ مَنْ هاجَرَ فى سَبيلِ اللهِ ، وَلَمْ يَعْمَلْ سِوَى مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضاهُ ، فَنَصَرَهُ اللهُ جَلَّ عُلاَهُ ، وَقالَ : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فى الحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ » .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ هاجَرُوا للهِ ، وَنَصَرُوا دِينَ اللهِ ، فَكانُوا هُمُ الفائِزِينَ .

أَمَّا بَعْدُ : فَيَاعِبادَ اللهِ :

الَّذِى خَلَقَنا فَهَدَانا ، وَالَّذِى يُطْعِمُنا وَيَسْقِينا ، وَالَّذِى يَكْسُونا ، وَيَقِينا الضَّرَّ وَالحَرَّ وَالبَرْدَ ، وَيُمَتِّعُنا ، وَالَّذِى يَشْفِينا إِذا مَرِضْنا ، وَنَلْجَأُ إِلَيْهِ : لِيَنْصُرَنا ، وَالَّذِى يُمِيتُنا ثُمَّ يُحْيِينا : لِيُحاسِبَنا وَيَجْزِيَنا ـ هُوَ الَّذِى قَصَرَ المُؤْمِنُونَ ـ قَبْلَنا ـ أَعْمالَهُمْ ـ عَلَى إِرْضائِهِ : اتِّباعاً لإِيمانِهِمْ بِهِ ، فَوَجَدُوا المَشَقَّةَ لِطاعَةٍ راحَةً : « كَذلِكَ يَجْزِى اللهُ المُتَّقِينَ » .

وَلَقَدِ انطَلَقَ حُذَيْفَةُ بنُ الْيَمَانِ ، يَتَعَرَّفُ أَحْوَالَ الْمُشْرِكِينَ ، فى غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ ، فى لَيْلَةٍ شَدِيدَةِ الْبُرُودَةِ ، وَهُوَ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ : كأنَّمَا أَسِيرُ فى حَمَّام — وَالْحَمَّامُ يُدْفِئُ بِحَرَارَتِهِ — أَلَا إِنَّ هٰذِهِ الْحَرَارَةَ الَّتِى أَحَسَّهَا حُذَيْفَةُ — حَرَارَةُ الإيمَانِ باللهِ تَعَالَى : غَمَرَتْهُ — بِدِفْئِهَا ، وَجَعَلَتْهُ : لِنَفْعِ الإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ — يَسِيرُ فى وَسَطِ اللَّيْلِ الْبَارِدِ ، كَأَنَّهُ سَهْمٌ مُسَدَّدٌ .

وَهٰذَا الإِيمَانُ — يَاقَوْمِ — هُوَ الَّذِى جَعَلَ الصَّحَابَةَ يَفْتَدُونَ — عَقِيدَتَهُمْ بِالنَّفْسِ وَالأَهْلِ ، وَالْوَلَدِ وَالْمَالِ ، فَيُهَاجِرُونَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، بَعْدَ أَنِ افْتَنَّ الْمُشْرِكُونَ فى تَعْذِيبِهِمْ وَإِيذَائِهِمْ : « فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فى سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » .

وَسَعْيًا إِلَى الْهِدَايَةِ لِلإِيمَانِ بِهِ تَعَالَى ، وَحِرْصًا عَلَى سَعَادَةِ النَّاسِ بِهِ — هَاجَرَ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَمَا زَالَ صلى اللهُ عليه وسلم تَلْحَظُهُ عَيْنُ الْعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ ، حَتَّى وَصَلَ هُوَ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ — إِلَى الْمَدِينَةِ بِسَلامٍ ، وَرَدَّ اللهُ كَيْدَ قُرَيْشٍ فى نَحْرِهَا ، وَأَنْزَلَ تَعَالَى قَوْلَهُ : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

وَهٰكَذَا حَقَّقَ اللهُ رَجَاءَ رَسُولِهِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَيْهِ ، الْقَائِلِ : تَسَلُّحًا مِنْهُ بِالدُّعَاءِ أَمْضَى سِلَاحٍ : لِلنَّصْرِ وَالنَّجَاحِ : حِينَ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ ، لَيْلَةَ الْهِجْرَةِ : «الْحَمْدُ للهِ الَّذِى خَلَقَنِى وَلَمْ أَكُ شَيْئًا ، اللَّهُمَّ أَعِنِّى عَلَى هَوْلِ الدُّنْيَا وَبَوَائِقِ الدَّهْرِ وَمَصَائِبِ اللَّيَالِى وَالأَيَّامِ . اللَّهُمَّ اصْحَبْنِى فى سَفَرِى ، وَاخْلُفْنِى

فِى أَهْلِى ، وَبَارِكْ لِى فِيمَا رَزَقْتَنِى ، وَلَكَ فَذَلِّلْنِى ، وَعَلَى صَالِحِ خُلُقٍ فَقَوِّمْنِى ، وَإِلَيْكَ رَبِّى فَحَبِّبْنِى ، وَإِلَى النَّاسِ فَلاَ تَكِلْنِى ، رَبَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّى ، أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ ، الَّذِى أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَكُشِفَتْ بِهِ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ أَنْ تُحِلَّ عَلَىَّ غَضَبَكَ ، وَتُنْزِلَ بِى سَخَطَكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ ، وَفَجْأَةِ نِقْمَتِكَ ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ ، لَكَ الْعُتْبَى عِنْدِى خَيْرُ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ »[1] .

وَالنَدِ انْتَشَرَ نُورُ الْإِسْلامِ ، الَّذِى بِهِ صَلاحُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، مِنَ الْمَدِينَةِ ، حَيْثُ اسْتَقَرَّ بِهَا رَسُولُ اللهِ ، خَيْرُ هَادٍ بِهِ إِلَى الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ وَحُسْنِ الْعَاقِبَةِ ، وَأَعْلَنَ ذٰلِكَ فَضْلَ هِجْرَتِهِ الْمُبَارَكَةِ ، الَّتِى جَعَلَهَا الْخَلِيفَةُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَبْدَأً لِتَارِيخِ الْإِسْلامِ : تُؤَرَّخُ بِهِ السِّنُونَ الْعَرَبِيَّةُ : تَذْكِيراً بِهَا عَلَى الدَّوَامِ .

وَإِذَا كَانَ ـ يَاقَوْمِ ـ تَذَكُّرُ هٰذِهِ الْهِجْرَةِ الْبَدَنِيَّةِ حَتْماً : لِعِظَمِ شَأْنِهَا وَالاعْتِبَارِ بِسِيَرِهَا ـ كَانَ حَتْماً تَذَكُّرُ أَسَاسِ نَجَاحِهَا وَفَلاحِهَا ، أَلاَ وَهُوَ الْهِجْرَةُ الْقَلْبِيَّةُ ، وَهِىَ انْتِقَالُ الْقُلُوبِ مِنَ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ وَالْهَوَى إِلَى الْإِخْلاصِ لِلّٰهِ فِى طَاعَتِهِ ، حَيْثُ تَكُونُ مُمْتَلِئَةً مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ تعالى ، وَكَرَاهَةِ مَعْصِيَتِهِ ، وَتُوصَفُ حِينَئِذٍ بِالاسْتِقَامَةِ ، وَيَتْبَعُ اسْتِقَامَتَهَا اسْتِقَامَةُ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ كُلِّهَا . وَلِذٰلِكَ قال رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:

---

(١) رواه أبو نعيم .

« لا يستقيم⁽١⁾ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيم⁽٢⁾ قلبُه »⁽٣⁾ .

فلولا أنَّ هجرةَ المسلمين من مكةَ إلى المدينةِ كانت مبنيَّةً على هجرةِ القلوبِ ، مقصوداً بها وجهُ اللهِ علامِ الغيوبِ ، ومُبتغًى بها رضاهُ تعالى – لما نظرَ اللهُ إليها ، ولا زكَّاها ، ولا أنجحَ أصحابَها ، ولا حكمَ لهم بالفلاح .

ولذلكَ لم يقبلِ اللهُ هجرةَ من هاجروا للدُّنيا وأغراضِها ، ومتاعِها القليلِ الفاني : كمُهاجرِ أمِّ قيسٍ ، الذي أرادَ بهجرتِه أن يتزوَّجها ، وفيه وفي أمثالِه – أعلنَ رسولُ اللهِ عدمَ المبالاةِ بهم ، وحرمانَهم من ثوابِ اللهِ لمن هاجرَ لله ، فقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوَى ، فمن كانت هجرتُه إلى اللهِ ورسولِه – أي نيَّةً وقصداً ، فهجرتُه إلى اللهِ ورسولِه : ثواباً وأجراً ، ومن كانت هجرتُه لدُنيا يُصيبُها أو امرأةٍ ينكحُها – أي يتزوَّجُها – فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه »⁽٤⁾ .

وكم من أمثالٍ فينا لمُهاجرِ أمِّ قيسٍ : وقانا اللهُ حالَهم : يُصلُّون كثيراً ويتصدَّقون ، ويتظاهرون بفعلِ الخيرِ : ليقولَ النَّاسُ فعلوا : لا يُريدون

---

(١) المراد باستقامة الإيمان : استقامة أعمال الجوارح .

(٢) معنى استقامة القلب : أن يكون ممتلئاً من محبة الله تعالى ومحبة طاعته وكراهة معصيته .

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، عن أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب : رضي الله عنه .

وَجْهَ اللهِ ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ الْجَاهَ عِنْدَ النَّاسِ : طَمَعًا فِيمَا عِنْدَهُمْ ، وَفِي أَغْرَاضِ الدُّنْيَا الزَّائِلَةِ ، الَّتِي يَرَوْنَ أَنَّهَا تُنَالُ بِتَقْدِيرِهِمْ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى » .

وَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ :

بِفَتْحِ مَكَّةَ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ - انْتَهَتْ فَضِيلَةُ الْهِجْرَةِ الْبَدَنِيَّةِ مِنْ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، وَبَقِيَتْ فَضِيلَةُ الْهِجْرَةِ الْقَلْبِيَّةِ ، الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا رَسُولُنَا صلى اللهُ عليه وسلم بِالْجِهَادِ وَالنِّيَّةِ فِي قَوْلِهِ : « لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ »[1] .

وَذَكَرَهَا صلى اللهُ عليه وسلم ، إِذْ قَالَ : فِي وَصْفِ الْمُهَاجِرِ : « وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ »[2] فَمَنِ انْتَقَلَ قَلْبُهُ مِنْ ظُلْمَةِ الشِّرْكِ إِلَى نُورِ التَّوْحِيدِ وَمِنَ الْغَوَايَةِ إِلَى الْهِدَايَةِ ، وَمِنَ الشَّرِّ إِلَى الْخَيْرِ ، وَمِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ - كَانَ مُهَاجِراً هِجْرَةً قَلْبِيَّةً ، وَكَانَ عَمَلُهُ صَالِحًا ، وَمُعَامَلَتُهُ حَسَنَةً ، وَخُلُقُهُ كَرِيمًا .

فَالْهِجْرَةُ الْقَلْبِيَّةُ ، وَهِيَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَقُومَ بِهَا كُلُّ مُسْلِمٍ - هِيَ الْهِجْرَةُ الْبَاقِيَةُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، وَيَرِثَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها .

(٢) جزء من حديث رواه : البخارى وغيره عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما .

فَلْيُهَاجِرْ كُلُّ مُسْلِمٍ بِقَلْبِهِ وَنَفْسِهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ إِلَى الطَّاعَاتِ، وَمِنْ عِبَادَةِ هَوَاهُ – إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ:

اتَّقِ اللهَ، وَهَاجِرْ مِنَ الْبَاطِلِ إِلَى الْحَقِّ، وَمِنَ الْفَسَادِ إِلَى الصَّلَاحِ، وَمِنَ الشَّرِّ إِلَى الْخَيْرِ، وَمِنَ الرَّذِيلَةِ إِلَى الْفَضِيلَةِ.

هَاجِرْ مِنَ الْبُخْلِ إِلَى الْجُودِ، وَمِنَ الْقَسْوَةِ إِلَى الرَّحْمَةِ، وَمِنَ الْغِشِّ إِلَى النُّصْحِ، وَمِنَ الظُّلْمِ إِلَى الْعَدْلِ.

هَاجِرْ مِنَ الرِّيَاءِ إِلَى الْإِخْلَاصِ، وَمِنَ الْخِيَانَةِ إِلَى الْأَمَانَةِ، وَمِنَ الْغَدْرِ إِلَى الْوَفَاءِ، وَمِنَ الْمَلَقِ إِلَى الصَّرَاحَةِ، وَمِنَ الْجُبْنِ إِلَى الشَّجَاعَةِ.

هَاجِرْ مِنَ الذُّلِّ إِلَى الْعِزِّ، وَمِنَ الْأَثَرَةِ وَالْأَنَانِيَةِ وَحُبِّ النَّفْسِ إِلَى الْإِيثَارِ: كَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ آثَرُوا الْمُهَاجِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَأَحَبَّهُمُ اللهُ.

هَاجِرْ – أَيُّهَا الْمُسْلِمُ – مِنَ الشِّقَاقِ وَالْخِصَامِ إِلَى الْوِفَاقِ وَالْوِئَامِ، وَلَا تَتَّبِعْ مَالَا عِلْمَ لَكَ بِهِ: مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، فَلَا تَشْهَدْ زُوراً، وَلَا تَكْذِبْ، وَلَا تَقُلْ لِلنَّاسِ، وَفِي النَّاسِ – مَالَا عِلْمَ لَكَ بِهِ: قَالَ تَعَالَى: «وَلَا تَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً»[1].

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ

(١) ولا تتبع مالا علم لك به . . . إلى آخر الكلام قبل الآية الشريفة .

وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَاحَرَّمَ اللهُ » رَوَاهُ الْبخَارِيُّ وَمُسْلِم ، عَنْ عَبْدَ اللهِ ابْنِ عَمْرٍو : رضى اللهُ عَنهما .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ ـ أَنَّ مُجَاشِعَ بْنَ مَسْعُودٍ ـ قالَ : انْطَلَقْتُ[١] بِأَبِي[٢] مَعْبَدٍ إلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : لِيُبَايِعَهُ عَلَى الْهِجْرَةِ ، فَقَالَ : « مَضَتِ الْهِجْرَةُ لِأَهْلِهَا ، أُبَايِعُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْجِهَادِ » .

---

(١) أى بعد يوم الفتح .

(٢) هو مجالد ، وهو أخو مجاشع .

فضل يوم عاشوراء
والترغيب فى صومه والإنفاق فيه

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى يَسْمَعُ صَوْتَ الدُّودِ ، فِى خِلَالِ الْعُودِ ، وَدَبِيبَ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ فِى اللَّيَالِى السُّودِ : (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) ، وَأَوْحَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَنْ مُرْ قَوْمَكَ يَتُوبُوا إِلَىَّ فِى أَوَّلِ عَشْرِ الْمُحَرَّمِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْعَاشِرِ فَلْيَخْرُجُوا إِلَىَّ : أَىْ بِأَنْ يَقُولُوا طَيِّبًا : وَيَعْمَلُوا صَالِحًا - حَتَّى أَغْفِرَ لَهُمْ »[1] .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ : جَعَلَ فِى حَوَادِثِ الْأَيَّامِ ذِكْرًا ، وَغَفَرَ ذُنُوبَ مَنِ اتَّقَاهُ : وَأَعْظَمَ لَهُ أَجْرًا ، وَقَالَ رَسُولُهُ نَبِيُّنَا صلى اللهُ عليه وسلم : « اعْبُدُوا الرَّحْمَٰنَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ - تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ »[2] .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، خَيْرُ مَنْ ذَكَّرَ بِيَوْمِ عَاشُورَاءَ ، وَصَامَهُ ، وَقَالَ : « يَوْمُ عَاشُورَاءَ كَانَتْ تَصُومُهُ الْأَنْبِيَاءُ فَصُومُوهُ أَنْتُمْ »[3] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ حَرَصُوا عَلَى طَاعَةِ اللهِ فِى كُلِّ زَمَانٍ ، وَازْدَادُوا لَهُ طَاعَةً فى مواسم الرضوان ، فَفَازُوا فَوْزًا عَظِيمًا .

---

(١) ذكره الإمام الحافظ : زين الدين بن رجب الحنبلى فى كتابه لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف - عن وهب .

(٢) رواه الترمذى ، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما .

(٣) رواه بقى بن مخلد فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه .

أمّا بعدُ : فيا عبادَ الله :

كانَ بالبَصرةِ رجُلٌ ثريٌّ يُحسِنُ إلى أهلِهِ ، ويُحسِنُ إلى المساكينِ والأرامِلِ والأيتامِ في ليلةِ عاشوراء ، ويجمعُ النّاسَ في بيتِهِ فيها : يُحيُونَها بتلاوةِ القرآنِ والذِّكرِ ، وكانَ لهُ جارٌ ، لهُ بنتٌ مُقعَدةٌ ، سألتهُ عمّا يفعلُ هذا الجارُ الثريُّ في تلكَ اللّيلةِ ، فأجابَها يتقرّبُ إلى اللهِ ، في هذهِ اللّيلةِ المباركةِ ، فسهِرتِ البنتُ ، حتّى ختمَ القُرّاءُ والذّاكرونَ اللّيلةَ بالدُّعاءِ ، فرفعتْ يديْها إلى السّماءِ : قِبلةِ الدُّعاءِ ، وسألتِ اللهَ أنْ يجبُرَ كسرَها ، ويُزيلَ ضرَّها ، فاستجابَ لها تباركَ وتعالى : ولمّا رآها أبوها تمشي على قدمَيْها ـ بعدَ أنْ كانتْ عاجزةً عنِ المشي ـ قالَ لها : يا بُنيّةُ ، مَنْ كشفَ عنكِ البليّةَ ؟ قالتْ : الّذي جادَ بالرّحمةِ ، ولا يبخلُ بالنّعمةِ .

دعوتُهُ تعالى في هذهِ اللّيلةِ المباركةِ ـ حينَ دعاهُ الدّاعونَ ذاكرُوهُ ببيتِ جارِنا ، فعافاني .

وصارَ لسانُ حالِ هذهِ الفتاةِ يقولُ لكلِّ مُبتَلًى :

فلا تجزَعْ لريْبِ الدّهرِ واصْبِرْ	فإنَّ الصّبْرَ في العُقبى سليمُ
فما جَزَعٌ بمُغنٍ عنكَ شيئًا	ولا ما فاتَ ترْجِعُهُ الهُمومُ
إذا ضاقَ الخِناقُ فكُنْ صبُوراً	كريمًا فالشّدائِدُ لا تدُومُ
فبالصّبْرِ الجميلِ تنالُ أجْراً	وتُعطَى بعدَ ذلكَ ما تَرُومُ
فكَمْ مِنْ محْنةٍ عظُمَتْ وطالَتْ	وخانَ مُواصِلٌ وجفا حَميمُ
أتى فرَجُ الإلهِ لها صَباحًا	فما أمسَتْ وأقلَعَتِ الغُمُومُ
فسَلِّمْ فالّذي يبْلُو يُعافي	وثِقْ باللهِ فهُوَ بِنا عَليمُ

وَلَقَدْ كَانَ الْبَصْرِيُّ الثَّرِيُّ شَاكِراً لِأَنْعُمِ رَبِّهِ مُهْتَدِياً فِي عَمَلِهِ بِالْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ : رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، إِذْ قَالَ : « مَنْ وَسَّعَ عَلَى أَهْلِهِ لَيْلَةَ عَاشُورَاءَ ـ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ سَائِرَ السَّنَةِ »(١).

وَقَدْ قَالَ رَسُولُنَا صلى اللهُ عليه وسلم : « فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ »(٢) ، وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ »(٣) .

فَامْتَثِلْ ـ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ ـ أَمْرَ نَبِيِّكَ ، وَلاَ تَقُلْ : كَفَانِي الصَّلاَةُ الْمَفْرُوضَةُ وَصَوْمُ رَمَضَانَ ، فَرُبَّمَا كَانَ نَقْصٌ ، لَمْ يُجْبَرْ بِسُجُودِ السَّهْوِ ، فِي صَلاَتِكَ الْمَفْرُوضَةِ : مِنْ تَرْكِ قُعُودِ الصَّلاَةِ الْأَوَّلِ وَنَحْوِهِ مِنْ سُنَنِ الصَّلاَةِ ، أَوْ نَقْصٌ فِي صَوْمِكَ الْفَرْضِ مِنَ الْغَضَبِ وَاللَّغْوِ وَنَحْوِهِمَا ، فَيَجْبُرُ ذَلِكَ النَّقْصَ صَلاَتُكَ النَّافِلَةُ وَصَوْمُكَ ، يَوْمَ عَاشُورَاءَ : قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ ـ صَلاَتُهُ ، فَإِنْ صَلَحَتْ ـ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ(٤) ـ وَإِنْ فَسَدَتْ ـ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ ، فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ : عَزَّ وَجَلَّ انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ

---

(١) قال يحيى بن سعيد : جربنا ذلك ، فوجدناه حقاً ، قال : وإسناده جيد ومن شاء فليراجع ـ فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم ـ لشيخنا المحدث الكبير ـ محمد حبيب الله : رحمه الله تعالى .

(٢) جزء من حديث : رواه أبو داود والترمذي عن العرباض بن سارية رضي الله عنه .

(٣) رواه الإمام أحمد ، والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) فاز ، وظفر بمطلوبه .

مِنَ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ تَكُونُ سَائِرُ أَعْمَالِهِ عَلَى هَذَا »[1] أَىْ عَلَى هَذَا النِّظَامِ ، أَىْ يُكَمَّلُ مَا انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَةٍ مَا : كَصَوْمِ رَمَضَانَ بِالتَّطَوُّعِ .

وَيَاقَوْمِ :

كُلٌّ مِنَّا لاَ يَبْقَى فِى ذَاكِرَتِهِ سِوَى الْأَيَّامِ ، الَّتِى حَدَثَتْ لَهُ فِيهَا أَحْدَاثٌ هَامَّةٌ ، مُفْرِحَةٌ أَوْ مُحْزِنَةٌ .

وَلاَ عَجَبَ ، فَهِىَ الْجَدِيرَةُ بِأَنْ تُذْكَرَ وَلاَ تُنْسَى : لِلاعْتِبَارِ الَّذِى بِهِ الْفَوْزُ بِالْخَيْرِ ، وَالسَّلاَمَةُ مِنَ الشَّرِّ .

وَلِذَلِكَ تُعْنَى الْأُمَمُ اهْتِمَامًا بِشَتَّى الْوَسَائِلِ بِأَيَّامِهَا الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى حَوَادِثِهَا الْهَامَّةِ : لِتَمْلَأَ النُّفُوسَ بِذِكْرَاهَا ـ حِرْصًا عَلَى الْمَكَاسِبِ الَّتِى نَالَتْهَا ، وَحَذَرًا مِنَ الشَّدَائِدِ الَّتِى قَاسَتْهَا ، وَالْمَضَارِّ الَّتِى أُصِيبَتْ بِهَا ، وَكَذَلِكَ التَّارِيخُ لاَ يُسَجِّلُ إِلاَّ الْأَيَّامَ ذَاتَ الْحَوَادِثِ الْعَظِيمَةِ ، وَهِىَ لِذَلِكَ تُنْسَبُ إِلَى اللهِ : لِزِيَادَةِ الاهْتِمَامِ بِهَا ، وَالانْتِبَاهِ لِكَسْبِ الْخَيْرِ ، وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ وَتَوَقِّى الضُّرِّ ، وَاجْتِنَابِ الْبَاطِلِ فِى أَمْثَالِهَا ، وَإِلاَّ فَالْأَيَّامُ كُلُّهَا ـ أَيَّامُ اللهِ : خَلَقَهَا وَخَلَقَ مَا فِيهَا : (وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) .

وَلِذَلِكَ حَثَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ عَلَى التَّذْكِيرِ بِتِلْكَ الْأَيَّامِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَيْهِ : لِصَلاَحِ الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ . فَهِىَ تُذَكِّرُ بِحُسْنِ عَاقِبَةِ الشَّاكِرِينَ لِنِعَمِ اللهِ ، وَالصَّابِرِينَ عَلَى بَلاَيَاهُ ، وَبِسُوءِ عَاقِبَةِ الْجَاحِدِينَ وَالْجَازِعِينَ قَالَ تَعَالَى :

---

(١) رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ).

وَمِنْ تِلْكَ الْأَيَّامِ - يَوْمُ عَاشُورَاءَ الْعَاشِرُ مِنْ شَهْرِ الْمُحَرَّمِ. وَلِذَلِكَ الْيَوْمِ - يَاقَوْمِ - فَضِيلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَحُرْمَةٌ قَدِيمَةٌ: أَذْنَبَتْ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ذَنْبًا، فَتَعَاظَمَ فِي صُدُورِهِمْ، فَسَأَلُوا مَاتَوْبَتُهُمْ؟ قِيلَ: صَوْمُ عَاشُورَاءَ، فَصَامُوهُ، وَكَانُوا يَكْسُونَ فِيهِ الْكَعْبَةَ الَّتِي اخْتَارَهَا اللهُ قِبْلَةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ صلى اللهُ عليهِ وسلم يَصُومُهُ بِمَكَّةَ، وَلَمْ يَأْمُرِ النَّاسَ بِالصَّوْمِ.

وَعَقِبَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ: «مَرَّ[1] النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم بِأُنَاسٍ مِنَ الْيَهُودِ قَدْ صَامُوا عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: مَاهَذَا مِنَ الصَّوْمِ؟ قَالُوا: هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي نَجَّى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ - فِيهِ - مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْغَرَقِ: وَأَغْرَقَ فِيهِ فِرْعَوْنَ، وَهَذَا يَوْمُ اسْتَوَتْ فِيهِ السَّفِينَةُ عَلَى الْجُودِيِّ[2] فَصَامَ[3] نُوحٌ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: شُكْرًا لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم: أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى، وَأَحَقُّ بِصَوْمِ هَذَا الْيَوْمِ، فَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِالصَّوْمِ».

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، عن أبي هريرة: رضي الله عنه.

(٢) جبل بالموصل من العراق.

(٣) أي ذلك اليوم.

(٤) ولم يذكر أنه أحق من سواه بموافقة نوح، كما هو أحق بموسى: لانه يخاطب اليهود الذين صاموا عاشوراء: اقتداء بموسى عليه السلام.

وَأَحَقِّيَتَهُ صلى الله عليه وسلم - مِنَ اليَهُودِ - بِمُوسى عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَبِصَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاء ، لِأَنَّهُ صلى الله عليه وسلم - أَطْوَعُ لِلْحَقِّ ، وَأَتْبَعُ لَهُ مِنْهُمْ ، وَبِصَوْمِهِ صلى الله عليه وسلم ذٰلِكَ اليَوْمَ ، وَحَثِّهِ عَلَى صِيَامِهِ - أَكَّدَ شُكْرَ النِّعَمِ بِالصَّوْمِ ، وَاسْتِحْبَابَ صَوْمِ ذٰلِكَ الْيَوْمِ ، وَلَمْ يَكُنْ[1] صلى الله عليه وسلم يَتَوَخَّى - فى الصَّوْمِ - فَضْلَ يَوْمٍ عَلَى يَوْمٍ ، بَعْدَ رَمَضَانَ ، وَمَا يَتْبَعُهُ فِي الْفَضْلِ مِنْ صِيَامِ شَعْبَانَ ، وَسِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ شَوَّالٍ ، وَيَوْمِ عرفة إِلَّا يَوْمَ عَاشُورَاء ، وَقَدْ تَبِعَهُ أَصْحَابُهُ فى ذٰلِكَ ، وَسُئِلَ صلى الله عليه وسلم عَنْ صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاء ، فَقَالَ : « يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ »[2] .

وَقَدْ حَثَّ صلى الله عليه وسلم عَلَى تَجْدِيدِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ : الْخَالِصَةَ فى ذٰلِكَ اليَوْمِ ، فَإِنَّ الرَّجَاءَ عَظِيمٌ فِي قَبُولِ التَّوْبَةِ فِيهِ ، فقَالَ لِرَجُلٍ : « إِنْ كُنْتَ صَائِماً شَهْراً بَعْدَ رَمَضَانَ - فَصُمِ الْمُحَرَّمَ ، فَإِنَّ فِيهِ يَوْماً تَابَ اللهُ عَلَى قَوْمٍ ، وَيَتُوبُ فِيهِ عَلَى آخَرِينَ »[3] .

لَقَدْ تَابَ اللهُ فِي ذٰلِكَ اليَوْمِ عَلَى آدَمَ[4] عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَعَلَى قَوْمِ[5] يُونُسَ .

---

(١) روى ذلك الطبرانى فى معجمه الأوسط ، عن ابن عباس رضى الله عنهما والأحاديث فى فضل صيام مايتبع رمضان فى الفضل مشهورة .

(٢) رواه مسلم ، عن أبى قتادة رضى الله عنه .

(٣) رواه الترمذى ، عن على رضى الله عنه .

(٤) ذكر ابن رجب فى لطائفه أن عبد الوهاب الخفاف - روى عن سعيد ، عن قتادة ، الصحابى المشهور : رضى الله عنه : قال : « كنا نتحدث أن اليوم الذى تيب فيه على آدم - يوم عاشوراء ، وهبط فيه آدم إلى الأرض - يوم عاشوراء » .

(٥) روى ذلك أبو موسى عن على رضى الله عنه .

وَتَتَأَكَّدُ التَّوْبَةُ ، وَتُثْمِرُ ثَمَرَتَهَا الطَّيِّبَةَ - بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ ، وَلِهٰذَا حَثَّ صلى الله عليه وسلم عَلَى كَثْرَةِ التَّطَوُّعِ بِهَا فِي ذٰلِكَ الْيَوْمِ . فَقَالَ : « هٰذَا - يَعْنِي يَوْمَ عَاشُورَاءَ - يَوْمٌ تَابَ اللهُ فِيهِ عَلَى قَوْمٍ ، فَاجْعَلُوهُ صَلَاةً وَصَوْمًا »(١) .

وَحَسْبُ الْمُتَقَرِّبِ بِالنَّوَافِلِ إِلَى رَبِّهِ - حُبُّهُ تَعَالَى لَهُ ، فَمَنْ أَحَبَّهُ تَعَالَى - غَفَرَ ذَنْبَهُ ، وَرَفَعَ دَرَجَتَهُ ، وَكُلُّ خَيْرٍ فِي حُبِّهِ جَلَّ شَأْنُهُ ، فَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ عَنْهُ تَعَالَى : « وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي عَلَيْهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ »(٢) .

وَمِنْ أَفْعَالِ الْخَيْرِ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ - التَّوْسِيعُ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فِي النَّفَقَةِ عَلَى الْبُيُوتِ : قَالَ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وَسَّعَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ سَائِرَ سَنَتِهِ »(٣) .

وَمَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِاسْتِطَاعَةِ التَّوْسِعَةِ عَلَى بَيْتِهِ فِي ذٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَيْلَتِهِ فَلْيَشْكُرْهُ بِالتَّصَدُّقِ عَلَى الْمُحْتَاجِينَ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ

---

(١) رواه أبو موسى المديني ، عن أبي موسى الأشعري : رضي الله عنه .

(٢) جزء من حديث قدسي : « أي أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم معناه وعبر عنه صلى الله عليه وسلم بلفظه ، ونسبه إلى الله تعالى » . وقد روى هذا الحديث البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه ابن عبد البر في الاستذكار عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ورجاله رجال الصحيح .

رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

اتَّقُوا اللهَ ، وَاحْرِصُوا فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ عَلَى أَنْ يَكُونَ يَوْمَ انْتِصَارِ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فِي نُفُوسِكُمْ بِمُخَالَفَةِ هَوَاكُمْ ، وَفِعْلِ الْخَيْرَاتِ ، وَاجْتِنَابِ الْمُنْكَرَاتِ ، فَلْيَكُنْ صَوْمُكُمْ فِيهِ صَوْمًا كَامِلاً ، فَلَا يَرَاكُمُ اللهُ حَيْثُ نَهَاكُمْ وَلَمْ يَفْقِدْكُمْ حَيْثُ أَمَرَكُمْ ، وَاعْمُرُوا لَحَظَاتِهِ بِمَا يُحِبُّهُ تَعَالَى وَيَرْضَاهُ : (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ ، عَنْ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ ، أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : « أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم - لَمْ يَكُنْ يَدَعُ صِيَامَ يَوْمِ عَاشُورَاءَ وَالْعَشْرِ - أَيْ وَصِيَامَ مَا يَجُوزُ صَوْمُهُ مِنْ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ - وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ » .

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم فِي الْعَامِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ : « لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ مَعَ الْعَاشِرِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : « صُومُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَخَالِفُوا الْيَهُودَ صُومُوا قَبْلَهُ يَوْمًا وَبَعْدَهُ يَوْمًا » رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

٤١ – الخطبة الثانية[1] لمناسبة يوم عاشوراء

الحَمْدُ لِلهِ الحَكِيمِ العَلِيمِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ بَارِىءُ الأُمَمِ ، وَمُولِي النِّعَمِ : الَّذِي لاَ رَادَّ لِمَا حَكَمَ وَلاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَقَسَمَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، سَيِّدُ الخَلْقِ ، وَخَيْرُ مَنْ دَعَاهُمْ إِلَى الحَقِّ .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ ، وَهَدَى بِهِمْ : (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

أَمَّا بَعْدُ :

فَقَدْ تَبَيَّنَ فِي الخُطْبَةِ الأُولَى – أَنَّ يَوْمَ عَاشُورَاءَ – فِي أَعْوَامٍ مُخْتَلِفَةٍ – قَبْلَ ظُهُورِ الإِسْلاَمِ ، عَلَى يَدِ رَسُولِنَا خَيْرِ الأَنَامِ ، عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ – كَانَ زَمَنَ أَحْدَاثٍ ، تَنْطِقُ بِأَنَّ الحَقَّ مُنْتَصِرٌ ، وَالبَاطِلَ مَخْذُولٌ مُنْكَسِرٌ : وَقَدْ وَجَّهَنَا صلى الله عليه وسلم فِيهِ إِلَى الصِّيَامِ الحَقِّ : بِتَرْكِ كُلِّ زُورٍ وَبَاطِلٍ مَعَ الإِمْسَاكِ عَنْ جَمِيعِ المُفْطِرَاتِ : لِنَجْعَلَهُ يَوْمَ انْتِصَارٍ لِلْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فِي نُفُوسِنَا ، وَلاَ نَكُونَ كَمَنْ غَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَبَاعُوا أُخْرَاهُمْ بِدُنْيَاهُمْ فَهَلَكُوا ، حَيْثُ نَصَرُوا البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ ، مُخَالِفِينَ الحَقَّ جَلَّ شَأْنُهُ إِذْ قَالَ : (وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ[2] البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) .

---

(١) لم أتبع الخطبة الأولى بثانية في جميع خطب الديوان : ليكون للخطيب فرصة التعليق على ما يشاء من أجزائها : وفق مقتضى الحال ، أو ليجعل منها خطبتين ، أو لينشىء خطبة ثانية مناسبة وهذه الخطبة نموذج : أرجو أن ينفع الله به .

(٢) ذهب وهلك .

كَقَتَلَةِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، الَّذِينَ قَتَلُوهُ : بِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ — بَعْدَ جِهَادِهِ الْعَنِيفِ الْبُطُولِيِّ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ ، وَدَفْعِ الظُّلْمِ — فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ سَنَةَ إِحْدَى وَسِتِّينَ مِنَ الْهِجْرَةِ ، وَلَمْ يُبَالُوا بِقَوْلِ جَدِّهِ : صلى اللهُ عليه وسلم « مَنْ أَحَبَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ — فَقَدْ أَحَبَّنِي ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي »[1] وَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « هٰذَانِ ابْنَايَ وَابْنَا ابْنَتِي اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا ، وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا »[2] .

وَلَقَدْ أَحْدَثَ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ بِسَبَبِ قَتْلِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ — بِدْعَتَيْنِ :

بِدْعَةَ الْحُزْنِ : ابْتَدَعَهَا قَوْمٌ ، ادَّعَوْا حُبَّ الْحُسَيْنِ ، وَلَوْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي حُبِّهِمْ — لَاتَّبَعُوا هُدَاهُ ، فَمَا كَانُوا يَجْتَمِعُونَ عَلَى اللَّطْمِ ، وَالصُّرَاخِ ، وَسَبِّ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، وَتَجْدِيدِ الْحُزْنِ : لِقَتْلِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وَبِدْعَةَ السُّرُورِ وَالْفَرَحِ ، وَاتِّخَاذِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ — عِيداً ابْتَدَعَهَا قَوْمٌ يُبْغِضُونَ عَلِيًّا ، وَأَوْلَادَهُ وَقَدْ شَارَكَ — الْيَهُودَ — هٰؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعُونَ الْمُبْغِضُونَ لِآلِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، الْمُظْهِرُونَ الشَّمَاتَةَ بِهِمْ فِي اعْتِبَارِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ — عِيداً .

قَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « كَانَ أَهْلُ خَيْبَرَ — يَصُومُونَ

---

(١) رواه الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة رضى الله عنه .

(٢) رواه الترمذى ، وابن حبان : عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما .

يَوْمَ عَاشُورَاء يَتَّخِذُونَهُ عِيداً ، وَيُلْبِسُونَ نِسَاءَهُمْ فِيهِ حُلِيَّهُمْ وَشَارَتَهُمْ »(١) أَىْ لِبَاسَهُم الْحَسَنَ الْجَمِيل .

فالبِدْعَتَانِ مَذْمُومَتَانِ ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ »(٢) وَقَالَ : « إِنَّ اللهَ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حَتَّى يَدَعَ بِدْعَتَهُ »(٣) وَقَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالْمُحْدَثَاتِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ ضَلَالَةٌ »(٤) .

وَلَا يَلِيقُ بِالْمُسْلِمِ الْكَامِلِ ، فى عَاشُورَاء إِلَّا اتِّبَاعُ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أَلَا وَهِيَ التَّوَسُّعُ – بِلَا إِرْهَاقٍ – فى الْإِنْفَاقِ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَهْلِ ، وَالْمُحْتَاجِينَ حِرْصاً عَلَى تَوْسِيعِ اللهِ عَلَيْهِ ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، وَكَذَلِكَ الصِّيَامُ .

قَالَتِ الرُّبَيِّعُ بِنْتُ مُعَوِّذٍ :(٥) « أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم غَدَاةَ عَاشُورَاء إِلَى قُرَى الْأَنْصَارِ الَّتِى حَوْلَ الْمَدِينَةِ : « مَنْ(٦) كَانَ أَصْبَحَ صَائِماً – فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ ، وَمَنْ كَانَ أَصْبَحَ مُفْطِراً – فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ » ، فَكُنَّا – بَعْدَ ذَلِكَ – نَصُومُهُ ، وَنُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا الصِّغَارَ مِنْهُمْ ، وَنَذْهَبُ إِلَى الْمَسْجِدِ

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

(٣) رواه الطبراني ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٤) رواه أبو داود والترمذى وغيرهما ، عن العرباض بن سارية : رضى الله عنه .

(٥) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

(٦) هذا القول الذى أرسل صلى الله عليه وسلم مبلغاً يبلغه .

فَنَجْعَلُ لَهُمُ اللُّعْبَةَ مِنَ الْعِهْنِ[1] ، فَإِذَا[2] بَكَى أَحَدُهُمْ عَلَى الطَّعَامِ - أَعْطَيْنَاهُ إِيَّاهَا ، حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ الْإِفْطَارِ » .

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِمَا وَجَّهَنَا إِلَيْهِ رَسُولُكَ ، وَلِكُلِّ مَا تُحِبُّ وَتَرْضَى ، وَوَفِّقِ الرَّاعِيَ وَالرَّعِيَّةَ لِلْحَقِّ : وَكُنْ لَنَا ، وَمَعَنَا ، وَانْصُرْنَا بِالْحَقِّ ، وَانْصُرِ الْحَقَّ بِنَا وَاهْدِنَا وَعَافِنَا وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ . الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ إِنَّكَ - يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ - سَمِيعٌ مُجِيبٌ .

---

(١) الصوف المصبوغ .

(٢) وفى رواية : « فإذا سألونا الطعام - أعطيناهم اللعبة تلهيهم حتى يتموا صومهم » .

٤٢ — استقبال شهر رجب

الحمدُ لله ، قدّرَ الأُمورَ كما يشاءُ ويختار : وجعلَ الليلَ مُظلماً للسُّكون والاستتار ، والنهارَ مُضيئاً للحركة والانتشار ، وقالَ : (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ خلقَ الشمسَ والقمرَ تجريانِ بحُسبانٍ ومقدار لنعلمَ بهما أوقاتَ الليالي والأيام ، والشهورِ والأعوام ، حتّى نُمضيَ أعمارَنا في الأعمالِ بنظام ، ونهتديَ إلى ميقاتِ الصّلاةِ والصّيام والإفطار والزكاة والحج ، وقالَ تعالَى : (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) .

وأشهدُ أنَّ سيّدَنا محمّداً رسولُ الله : عمرَ جميعَ الأوقاتِ بالطّاعات ، وبيّنَ الأشهرَ التي يتضاعفُ فيها الثوابُ على الطّاعات ، والعقابُ على المعاصي قالَ : « السّنةُ اثنا عشرَ شهراً منها أربعةٌ حُرُمٌ ثلاثةٌ متوالياتٌ : ذو القعدةِ وذو الحجّةِ والمحرّمُ ورجبُ مُضرَ الذي بينَ جُمادى وشعبانَ »[1] .

فاللهُ تعالَى يقولُ : (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي بكرة رضي الله عنه .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ حَرَصُوا عَلَى مَوَاسِمِ الْخَيْرَاتِ ، وَنُصْبُ أَعْيُنِهِمْ قَوْلُ الرَّسُولِ الْحَرِيصِ عَلَى خَيْرِهِمْ : (إِنَّ لِلَّهِ فِي أَيَّامِ الدَّهْرِ نَفَحَاتٍ فَتَعَرَّضُوا لَهَا فَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ نَفْحَةٌ فَلَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا)(١) .

أَمَّا بَعْدُ :

فَيَا أُولِي الْأَلْبَابِ ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الْحِسَابِ : (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) ، (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ) .

قَرِيبًا يُهِلُّ هِلَالُ شَهْرٍ تَثْقُلُ فِيهِ مَوَازِينُ الصَّالِحِينَ ، وَتَزِيدُ حَسَنَاتُ الْمُطِيعِين ، وَيَتَضَاعَفُ عَذَابُ الْعَاصِين ، وَتَخِفُّ موازِينُ الْفَاسِقِينَ هُوَ مِفْتَاحُ أَشْهُرِ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ ، فَشَهْرُ رَجَبٍ شَهْرُ الزَّرْعِ ، وَشَعْبَانُ شَهْرُ السَّقْيِ لِلزَّرْعِ ، وَرَمَضَانُ شَهْرُ حَصَادِ الزَّرْعِ ، أَوْ مَثَلُ رَجَبٍ مَثَلُ الرِّيحِ الَّتِي تَعْلُو الْغَيْمَ ، وَمَثَلُ الْمُبَشِّرِ بِالْمَطَرِ ، وَمَثَلُ رَمَضَانَ مَثَلُ الْمَطَرِ الَّذِي يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَيَنْبُتُ بِهَا النَّبَاتُ ، وَيَأْتِي الثَّمَرُ ، وَالسَّنَةُ مِنْ عُمُرِ كُلٍّ مِنَّا كَالشَّجَرَةِ : شَهْرُ رَجَبٍ أَيَّامُ تَوْرِيقِهَا ، وَشَعْبَانُ أَيَّامُ تَفْرِيعِهَا ، وَرَمَضَانُ أَيَّامُ قَطْفِهَا ، وَالْمُؤْمِنُونَ قُطَّافُهَا .

وَلِذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ إِذَا دَخَلَ رَجَبٌ ـ قَالَ اللَّهُمَّ

---

(١) رواه الطَّبَرَانِيّ عن مُحَمَّد بن مَسْلَمَة رضي الله عنه .

بارِكْ لنا في رَجَبٍ وَشَعْبانَ وَبَلِّغْنا رَمَضانَ »[1] .

فَلْيَسْتَقْبِلِ الْمُسْلِمُ شَهْرَ رَجَبٍ بِالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَلْيَكُنْ مِنْهاجُهُ الَّذي يَسيرُ عَلَيْهِ في رَجَبٍ ذِكْرَ رَبِّهِ ، وَمِنْهُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلى رَسُولِ اللهِ الْقائِلِ : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلاةً »[2] .

وَمِنْ ذِكْرِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ مُراقَبَتُهُ تعالى في لَيْلِهِ وَنَهارِهِ سِرًّا وَعَلانِيَةً ، فَلا يَتْرُكُ صلاةً مَفْرُوضَةً : وَلاَ يُخْرِجُها عَنْ وَقْتِها ، وَلاَ يُقَصِّرُ في إِحْسانِها ، وَلاَ يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلاةِ فِي الْجَماعَةِ ، مَااسْتَطاعَ إِلَى ذٰلِكَ سَبِيلاً ، وَبِخاصَّةٍ صَلاتَا الْعِشاءِ وَالْفَجْرِ : فَقَدْ قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ صَلَّى الْعِشاءَ في جَماعَةٍ ، فَكَأَنَّما قامَ نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ في جَماعَةٍ ، فَكَأَنَّما صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ »[3] .

وَقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَوَّلُ مَا يُحاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيامَةِ الصَّلاةُ فَإِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ سائِرُ عَمَلِهِ ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سائِرُ عَمَلِهِ »[4] .

فَحاسِبْ نَفْسَكَ الْيَوْمَ - يا عَبْدَ اللهِ - وَأَنْتَ قادِرٌ عَلَى قَضاءِ مافاتَكَ مِنْ صَلاةٍ ، بِإِحْسانٍ وَإِتْقانٍ ، قَبْلَ أَنْ يُحاسِبَكَ اللهُ في أُخْراهُ ، وَيَحِلَّ بِكَ الْعَذابُ ، حَيْثُ لاَ تَمْلِكُ قَضاءَ ماعَلَيْكَ ، وَاقْضِ في رَجَبٍ فَوائِتَ صَلَواتِكَ ،

---

(١) رواه زائدة بن أبي الرقاد عن أنس رضي الله عنه .
(٢) رواه الترمذي وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه .
(٣) رواه مسلم في صحيحه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه .
(٤) رواه الطبراني ، عن عبد الله بن قرط رضي الله عنه .

فقد قال ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (اختصَّ اللهُ أربعةَ أشهرٍ جعلَهنَّ حُرُماً وعظَّمَ حُرُماتِهِنَّ وجعلَ الذنبَ فيهِنَّ أعظمَ ، وللعملِ الصالحِ الأجرَ الأعظمَ » .

ومن هُنا استُحبَّ الاعتمارُ ، وزيارةُ الكعبةِ والطوافُ بها ، في رجبٍ عُمرُ بنُ الخطابِ ، الذي أجرى اللهُ الحقَّ على لسانِهِ وقلبِهِ ، وفعلَتْ أمُّ المؤمنينَ عائشةُ ذلكَ : وكذلكَ ابنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما .

وأبوابُ الخيرِ – يا قومِ – كثيرةٌ ، فادخلُوها بسلامٍ آمنينَ في الدُّنيا والآخرةِ ، ولتشهدْ لكُمْ بدخُولِها أوقاتُ رجبٍ ، فاعمرُوا ليلَ رجبٍ ونهارَهُ – بالإحسانِ قولاً وفعلاً : (وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) وبرُّوا والديكم وصِلُوا أرحامَكُمْ ، واسْعَوا إلى ما بهِ وُدُّكُمْ لبعضِكُمْ وتحابُّكُمْ ، وكونُوا رُفقاءَ في المعاملةِ ، حُلماءَ في المعاشرةِ متواضعينَ أُمناءَ ، أسخياءَ بالوعدِ ، أوفياءَ (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) وخيرُ الصَّومِ في رجبٍ ما أرشدَ إليهِ قولُهُ صلى اللهُ عليه وسلم للباهليِّ : « صُمْ مِنَ الحُرُمِ واترُكْ ، صُمْ مِنَ الحُرُمِ واترُكْ ، صُمْ مِنَ الحُرُمِ واترُكْ (وأشارَ صلى اللهُ عليه وسلم بأصابعِهِ الثلاثِ ، فضمَّها ، ثُمَّ أرسلَها) »[1] أي صُمْ ثلاثاً منها ثُمَّ اترُكْ .

---

(١) رواه أبو داود عن مجيبة الباهلية رضي الله عنها ، والباهلي المذكور في الحديث هو أبوها عبد الله بن الحارث الصحابي رضي الله عنه ، أو عمها ، ولم يسم .

يا قوم :

ذٰلِكَ هُوَ النَّهْجُ السَّوِيُّ فِي رجب : عَمَلٌ صَالِحٌ ، وَاجْتِنَابُ السَّيِّئَاتِ -
وَمِنَ العَمَلِ الصَّالِحِ فِي رجب - أَنْ يُنْفِقَ المُسْلِمُ فى وُجُوهِ الخَيْرِ كَعِمَارَةِ
المَسَاجِدِ وَالمَدَارِسِ وَالمُسْتَشْفَيَاتِ .

وَمِنَ العَمَلِ الصَّالِحِ - أَنْ يَزُورَ المُسْلِمُ المَقَابِرَ فِي رجب ، كَمَا يَزُورُهَا
فى غَيْرِهِ للاعْتِبَارِ وَيَقُولُ مَاقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فى زِيَارَةِ المَقَابِرِ :
(السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُسْلِمِينَ ، وَ إِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ
للاحِقُونَ ، نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ العَافِيَةَ »[1].

وَلَيْسَ مِنَ العَمَلِ الصَّالِحِ مَا يَفْعَلُهُ النَّاسُ اليَوْمَ فى أَوَّلِ جُمُعَةٍ مِنْ رجب
مِنْ زِيَارَةِ المَقَابِرِ عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ القَبِيحَةِ الَّتِي لا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ مِنْ خُرُوجِ
النِّسَاءِ مُتَبَرِّجَاتٍ فَاتِنَاتٍ ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم
لَعَنَ زَوَّارَاتِ القُبُورِ »[2] وَمِنَ اخْتِلاطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ ، وَالأَكْلِ بِالمَقَابِرِ
وَالجُلُوسِ عَلَيْهَا ، وَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « لأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ
فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ - خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ »[3] .

وَقَدْ يَتَكَلَّفُ الكَثِيرُونَ مَا يُعِدُّونَ لِلْمَقَابِرِ فى ذٰلِكَ اليَوْمِ مِنْ فَوَاكِهَ
وَنَحْوِهَا بِاسْمِ الصَّدَقَةِ ، وَهُمْ بِهِ يَتَفَاخَرُونَ وَيُرَاءُونَ ، وَلَوْ تَصَدَّقُوا بِذٰلِكَ فى
البُيُوتِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ : لإِرْضَاءِ رَبِّهِمُ الَّذِى يُحِبُّ المُخْلِصِينَ ، وَيُبْغِضُ

(١) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن بريدة رضى الله عنه .
(٢) رواه الترمذى وغيره عن أبي هريرة رضى الله عنه .
(٣) رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضى الله عنه .

المُرائين ، وقالَ : (فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحًا ولا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) .

أَيُّها المُسْلِمُونَ :

اتَّقُوا اللهَ واتْرُكُوا عادَةَ طَلْعَةِ رجبٍ الَّتِى فِيها إغْضابُ الرَّبِّ ، وَصُومُوا فى ذلِكَ الشَّهرِ المُبارَكِ ـ الأَيَّامَ البِيضَ : الثالثَ عَشَرَ والرَّابِعَ عَشَرَ وَالخامِسَ عَشَرَ ، وَيَوْمَيِ الاثنينِ وَالخميسِ مِنْ كلِّ أسْبُوعٍ ، وَمَنْ زادَ صِيامَهُ فِيهِ عَنْ ذلِكَ زادَ اللهُ فى حَسَناتِهِ ، واسْتَغْفِرُوا اللهَ كَثِيراً ، وَاعْمَلُوا فِيهِ صالِحًا مااسْتَطَعْتُمْ ، فانتِهازُ فُرْصَةِ الطَّاعَةِ فِيهِ غَنِيمةٌ ، وَفَضِيلةٌ عَظِيمةٌ : (وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ وَثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كلِّ شَهْرٍ يذْهِبْنَ وَحَرَ(1) الصَّدْرِ » أىْ غِشَّهُ وَحِقْدَهُ وَوَسَاوِسَهُ. رَوَاهُ البَزَّارُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِى اللهُ عَنْهُما .

وَقالَ أَبُو قِلابَةَ : « فى الجَنَّةِ قَصْرٌ لِصُوَّامِ رَجَبٍ » ، رَوَاهُ البَيْهَقِيُّ فى شُعَبِ الإِيمَانِ ، وَقالَ : هٰذا أَصَحُّ ماوَرَدَ فى صَوْمِ رجبٍ ، وَأَبُو قِلابَةَ مِنَ التَّابِعِينَ ، وَمِثْلُهُ لاَ يَقُولُ ذلِكَ إلاَّ عَنْ بَلاغٍ بَلَغَهُ عَنْ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

---

(1) بفتح الواو والحاء المهملة بعدهما راء مهملة أيضاً .

٤٣ ـ الحث على الطاعة فى رجب

الحَمْدُ لِلَّهِ: فَتَحَ أَبْوَابَ جُودِهِ لِلرَّاغِبِينَ، وَأَظْهَرَ غِنَاهُ لِلْمُحْتَاجِينَ وَقَالَ: (يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، بَسَطَ مَوَائِدَ بِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَحَرَمَ مَنْ عَصَاهُ، وَيَشْرَحُ الصَّدْرَ وَيُرِيحُ الْبَالَ بِتَقْوَاهُ، وَلَيْسَ لِغَيْرِ الْمُطِيعِ حُسْنُ الْحَالِ فِي أُخْرَاهُ: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ).

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ: كَانَ[1] إِذَا دَخَلَ رَجَبٌ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي رَجَبٍ وَشَعْبَانَ وَبَلِّغْنَا رَمَضَانَ».

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ لَمْ يَغْفُلُوا عَنْ رَبِّهِمْ فِى وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، فَفَازُوا بِنَفَحَاتِ رَبِّهِمُ الَّتِي يَهَبُهَا لِمَنْ تَعَرَّضَ لَهَا مِنْ أَهْلِ الطَّاعَاتِ: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ).

أَمَّا بَعْدُ:

فَمِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ ـ أَبُو الْحَسَنِ النُّورِيُّ: كَانَ صَوَّاماً بِالنَّهَارِ، قَوَّاماً بِاللَّيْلِ، بَعِيداً عَنِ الْآثَامِ حَسَنَ الْمُعَامَلَةِ مَعَ النَّاسِ، فَكَانَ اللهُ رُكْنَهُ الشَّدِيدَ الَّذِي يَأْوِى إِلَيْهِ، وَمَقْصُودَهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَسَنَدَهُ وَعَوْنَهُ فِيمَا أَهَمَّهُ:

(١) ذكر الإمام ابن رجب فى لطائف المعارف أن زائدة بن أبى الرقاد رواه عن زياد النميرى ـ عن أنس رضى الله عنه.

نَزَلَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ فِي الْمَاءِ : لِيَغْتَسِلَ فَجَاءَ لِصٌّ ، وَأَخَذَ ثِيَابَهُ وَمَشَى فَمَا هِيَ إِلَّا مُدَّةٌ وَجِيزَةٌ ، وَقَدْ عَادَ اللِّصُّ بِالثِّيَابِ ، وَقَدْ يَبِسَتْ يَدُهُ فَلَبِسَ الشَّيْخُ الثِّيَابَ وَحَمِدَ اللهَ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَشْفِيَ يَدَ اللِّصِّ ، وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَعْتَبِرَ وَيَسْتَعْمِلَهَا فِي رِضَا اللهِ ، فَاسْتَجَابَ لَهُ سُبْحَانَهُ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ وَعِمَادُ الدِّينِ وَنُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »[1].

عِبَادَ اللهِ :

كُلٌّ مِنَّا يَسْعَى سَعْيَهُ لِبُلُوغِ رَجَائِهِ ، وَدَفْعِ مَا أَهَمَّهُ فِي الْحَيَاةِ ، وَيَسْتَعِينُ بِمَنْ يَرَاهُ لِذٰلِكَ عَوْنًا وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِمَا يُرْضِيهِ لِيُعِينَهُ ، وَالْقَوِيُّ الَّذِي يُؤْوَى إِلَيْهِ ، وَالْمَرْجُوُّ الَّذِي لَا يَخِيبُ رَاجِيهِ - هُوَ اللهُ ، ذُو الْحَوْلِ وَالطَّوْلِ ، مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ ، (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ) .

وَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي لَا يُرْجَى سِوَاهُ : لِلتَّوْفِيقِ لِلْخَيْرِ ، وَلِدَفْعِ الْهَمِّ ، وَبُلُوغِ الرَّجَاءِ فِي الْآخِرَةِ : (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ، وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) .

فَلِتَفُوزُوا بِكُلِّ ذٰلِكَ تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) ، وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ قَالَ تَعَالَى : « وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي

---

(١) رواه الحاكم عن أبي هريرة رضى الله عنه ، وأبو يعلى عن على رضى الله عنه وكرم الله وجهه .

يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي عَلَيْهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ »[1] ، وَالْمَعنى : كُنْتُ حَافِظَ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَيَدِهِ وَرِجْلِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَكَانَ حُبِّي — هُوَ الْغَايَةَ الْمَقْصُودَةَ مِنْ أَفْعَالِ عَبْدِي بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَيَدِهِ وَرِجْلِهِ ، فَلَا يَسْمَعُ ، وَلَا يُبْصِرُ ، وَلَا يَفْعلُ بِيَدِهِ وَرِجْلِهِ إِلَّا مَا يَزِيدُ قُرْبَهُ عِنْدِي .

وَيَجْمَعُ آثَارَ حُبِّهِ تَعَالَى لِأَحِبَّائِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

فَإِذَا كَانَتِ الْفَرَائِضُ يَاعِبَادَ اللهِ — تُكَفِّرُ بَعْضَ الذُّنُوبَ : كَمَا قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمعةُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ — مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ »[2] — فَإِنَّ النَّوَافِلَ : الطَّاعَاتِ الَّتِي تُؤَدَّى زِيَادَةً عَلَى الْفَرَائِضِ كَصَلَوَاتِ التَّطَوُّعِ — تَحْفَظُ مِنَ ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ ، وَالْإِصْرَارِ عَلَيْهَا : كَمَا تَجْبُرُ نَقْصَ الْفَرَائِضِ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لَهُ كُلُّ مُؤَدٍّ لَهَا قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ — صلاتُهُ ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ

---

(١) روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى قال : (من عادى لي وليا فقد آذنته — أي أعلمته — بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء ... إلخ ، وفي آخر الحديث وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن : يكره الموت وأنا أكره مساءته » .

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ - أَيْ فَقَدْ فَازَ وَظَفِرَ بِمَطْلُوبِهِ - وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ - قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ : انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ ، فَيُكَمَّلُ[1] بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ ؟ ثُمَّ تَكُونُ سَائِرُ أَعْمَالِهِ عَلَى هَذَا »[2].

فَالنَّوَافِلُ مِعْرَاجٌ يَرْتَقِي بِهِ الْعَبْدُ إِلَى رَفِيعِ الدَّرَجَاتِ عِنْدَ اللهِ : لِذَلِكَ حَرَصَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : قَالَ صَاحِبُهُ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ : رضى الله عَنْهُ : « قَامَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ : فَقِيلَ لَهُ : قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ، وَمَا تَأَخَّرَ » ؟ قَالَ : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا »[3].

وَكَانَ صلى الله عليه وسلم يَصُومُ الاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسَ ، وَقَالَ : « تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ »[4] ، وَقَالَ صلى الله عليه وسلم[5] : « صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صِيَامُ الدَّهْرِ[6] أَيَّامُ[7] الْبِيضِ - أَيْ اللَّيَالِي الْبِيضِ : لِنُورِ الْقَمَرِ فِيهَا مَا لَمْ يَكُنْ غَمَامٌ -

---

(١) أى تكمل فرائض سائر الأعمال من تطوعها .
(٢) رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٣) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، والنسائى فى سننه .
(٤) رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٥) رواه النسائى والبيهقى عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه .
(٦) أى السنة .
(٧) هى اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من الشهر العربى .

صَبِيحَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ » ، وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رضى اللهُ عَنهُ قَالَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِذَا صُمْتَ مِنَ الشَّهرِ ثَلَاثًا فَصُمْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمسَ عَشْرَةَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ، فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) ، فَالْيَوْمُ بِعَشْرَةِ أَيَّامٍ »[1] .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضى الله عنهُمَا : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ـ لَا يُفطِرُ أَيَّامَ الْبِيضِ فِي حَضَرٍ ، وَلَا سَفَرٍ »[2] ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً) .

وَإِذَا كَانَ لِلنَّوَافِلِ هَذِهِ الْفَوَائِدُ الَّتِي لَابُدَّ مِنَ الْحِرْصِ عَلَيْهَا إِذْ نَحْنُ أَحْوَجُ مَانَكُونُ إِلَيْهَا ـ فَكَيْفَ يَقُولُ عَاقِلٌ : كَفَانِي أَدَاءُ الْفَرَائِضِ ، وَقَدْ قَالَ صلى الله عليه وسلم : « احْرِصْ عَلَى مَايَنْفَعُكَ »[3] .

وَمِنْ سَعَةِ كَرَمِهِ ، وَعَظِيمِ رَحْمَتِهِ تَعَالَى ـ جَعَلَ فِى الْعَامِ مَوَاسِمَ أَيَّامًا مُبَارَكَةً فِيهَا يَزِيدُ ثَوَابُ طَاعَتِهِ بِالْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ ، وَيَزْدَادُ الْعَبْدُ قُرْبًا مِنْه تعَالَى ، وَقَالَ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ رَضى الله عنهُ وَأَرْضَاهُ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى

---

(١) رواه ابن ماجه ، ورواه أحمد والترمذى والنسائى بدون زيادة : ذلك ... الخ » .

(٢) رواه النسائى .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه من حديث عن أبى هريرة رضى الله عنه .

الله عليه وسلم يخطبنا فيذكرنا بأيام الله »(١) .

منها - ياقوم - أيامُ شهرِ رجبٍ ، أحدِ الأشهرِ الحُرُمِ ، التي قال فيها ابنُ عباس رضي الله عنهما : « اختصَّ الله أربعةَ أشهرٍ جعلهنَّ حُرُماً ، وعظَّمَ حُرُماتِهنَّ ، وجعلَ الذنبَ فيهنَّ أعظمَ ، والعملَ الصالحَ الأجرَ الأعظمَ »

وقال أبو بكرٍ الوراقُ البلخيُّ : شهرُ رجبٍ - شهرُ الزرعِ ، وشعبانُ : شهرُ السقيِ للزرعِ ، وشهرُ رمضانَ - شهرُ حصادِ الزرعِ .

فشهرُ رجبٍ - مفتاحُ أشهرِ الخيرِ والبركةِ التي فيها تُصبُّ الرحماتُ ، وتُنالُ الحسناتُ فإذا كنتَ - ياعبدَ الله - تسعى إلى بضائعِ الدنيا وموادِّها في حرصٍ شديدٍ على المحافظةِ على وقتِ توزيعِها ، وقصدِ المحلِّ الذي يبيعُها بثمنٍ يسيرٍ : حبًّا منكَ لخيرِ نفسِكَ في الحياةِ الفانيةِ - كانَ الأجدرُ بكَ - وأنتَ بكاملِ عقلِكَ - أنْ تسعى لخيرِ آخرتِكَ ، وهي باقيةٌ - بعمارةِ أوقاتِ رجبٍ بطاعةِ الله ، وفي ذلكَ عزُّ الدارينِ وكسبُ رضا الله ، الذي به خيرُ دنياهُ وأخراه ، وقدْ قالَ جلَّ علاه : (أنا العزيزُ منْ أرادَ عزَّ الدارينِ فليطعِ العزيزَ)(٢) .

---

(١) روى الإمام أحمد فى مسنده عن على أو الزبير قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبنا فيذكرنا بأيام الله .

(٢) رواه الخطيب عن أنس رضى الله عنه ، عنه صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل ، فهو حديث قدسى .

أيها المُسْلِمُ :

قَدْ أَظَلَّكَ(١) ، وَدَنَا مِنْكَ - شَهْرُ رَجَبٍ ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ مِنْ أَشْهُرِ السَّعَادَةِ ، فَاتَّقِ اللهَ ، وَاعْمُرْ أَوْقَاتَهُ بِالعِبَادَةِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَحْيَاهَا بِالطَّاعَةِ ، فَازَ بِالجَزَاءِ الأَوْفَى - حَسُنَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهُ ، وَالعَجَبُ مِمَّنْ يُنْكِرُ(٢) الصَّوْمَ فِي رَجَبٍ ، مَعَ أَنَّهُ مِنَ الأَشْهُرِ الحُرُمِ ، الَّتِي الصَّوْمُ فِيهَا مُسْتَحَبٌّ ، نَعَمْ مَا اسْتَطَعْتَ فِي رَجَبٍ وَنُصْبُ عَيْنَيْكَ قَوْلُهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَفْضَلُ الصِّيَامِ صَوْمُ أَخِي دَاوُدَ كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً »(٣) .

وَاحْرِصْ عَلَى أَنْ تَصُومَ فِيهِ يَوْمَيْ الاثْنَيْنِ وَالخَمِيسِ ، وَالأَيَّامِ البِيضِ وَهِيَ الثَّالِثَ عَشَرَ ، وَالرَّابِعَ عَشَرَ وَالخَامِسَ عَشَرَ ، وَاذْكُرِ اللهَ فِي رَجَبٍ كَثِيراً ، فَفِي ذَلِكَ رَاحَةُ القَلْبِ بِالرُّكُونِ إِلَى اللهِ ، وَالتَّوَكُّلِ وَالاعْتِمَادِ عَلَيْهِ تَعَالَى : (أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ) .

وَجَدِيرٌ بِمَنْ سَوَّدَ صَحِيفَتَهُ بِالذُّنُوبِ - أَنْ يُبَيِّضَهَا بِالتَّوْبَةِ فِي شَهْرِ رَجَبٍ .

---

(١) يقال : قد أتاك شهر رجب . إذا كان قد أهل فعلا بدلا من أظلك ، ودنا منك ، وأظلك أى دنا منك فالعطف عليه به عطف تفسير .

(٢) قال الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام ، وهو أشهر من أن يعرف من نهى عن صوم رجب فهو جاهل .

(٣) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

فَيَاعَبْدَ اللهِ :

بَيِّضْ صَحِيفَتَكَ السَّوْدَاءَ فِي رَجَبٍ بِصَالِحِ الْعَمَلِ الْمُنْجِي مِنَ اللَّهَبِ
شَهْرٌ حَرَامٌ أَتَى مِنْ أَشْهُرٍ حُرُمٍ إِذَا دَعَا اللهَ دَاعٍ فِيهِ لَمْ يَخِبِ
طُوبَى لِعَبْدٍ زَكَا فِيهِ لَهُ عَمَلٌ فَكَفَّ فِيهِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالرِّيَبِ[1]

رَوَى الْبَيْهَقِيُّ فى شُعَبِ الْإِيمَانِ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ رضى الله عنه قَالَ : « فِي الْجَنَّةِ قَصْرٌ لِصُوَّامِ رَجَبٍ » ، وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ : هَـذَا أَصَحُّ ماورد فى صَوْمِ رَجَبٍ ـ أَىْ فى خصوصِ صَوْمِ رَجَبٍ ـ قال وَأَبو قلابة من التَّابِعِينَ ، وَمِثْلُهُ لَا يَقُولُ ذٰلِكَ إِلَّا عنْ بَلَاغٍ ـ أَىْ عَنْهُ صلى اللهُ عليه وسلم .

وَعَنْ مُجِيبَةَ الْبَاهِلِيَّةِ ، عَنْ أَبِيهَا[2] ، أَوْ عَمِّهَا[3] ـ أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، ثُمَّ انْطَلَقَ ـ أَىْ إِلَى أَهْلِهِ ـ فَأَتَاهُ بَعْدَ سَنَةٍ وَقَدْ تَغَيَّرَتْ حَالُهُ[4] وَهَيْئَتُهُ[5] ، فَقَالَ : يَارَسُولَ اللهِ أَمَا تَعْرِفُنِي ؟ قَالَ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا الْبَاهِلِيُّ الَّذِي جِئْتُكَ عَامَ[6] الْأَوَّلِ ، قَالَ : فَمَا غَيَّرَكَ ، وَقَدْ كُنْتَ حَسَنَ الْهَيْئَةِ ؟ قَالَ : مَا أَكَلْتُ[7] طَعَامًا مُنْذُ فَارَقْتُكَ إِلَّا بِلَيْلٍ ، فَقَالَ

---

(١) التهم . (٢) عبد الله بن الحارث الباهلى .
(٣) لم يذكر اسمه . (٤) أى صفته .
(٥) الهيئة : هى الحال الظاهرة .
(٦) من إضافة الموصوف لصفته .
(٧) أى لم أزل صائماً ، أى عدا أيام العيدين والتشريق فلو كان صامها لنهاه صلى الله عليه وسلم عن ذلك وبين له تحريمها ، ولكنه لم يفعل ، فدل ذلك على أنه لم يصمها .

رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : عَــذبْتَ نَفْسَكَ ، ثمَّ قَالَ : صُمْ شَهْرَ الصَّبْرِ
ـ أَىْ شَهْرَ رَمَضَانَ ـ وَيَوْماً مِنْ كلِّ شَهْرٍ . قالَ : زِدْنِي ، فَإِنَّ بِى قُوَّةً ،
قَالَ : صُمْ يَوْمَيْنِ ، قَالَ : زِدْنِي ، قَالَ : صُمْ ثَلاَثَةَ[1] أَيَّامٍ ، قَالَ : زِدْنِي
قَالَ : صُمْ مِنَ الْحُـرُمِ وَاتْرُكْ ، صُمْ مِنَ الْحُرُمِ وَاتْرُكْ ، صُمْ مِنَ الْحُـرُمِ ،
وَاتْرُكْ ، وَقَالَ ـ أَىْ أَشَارَ ـ بِأَصَابِعِهِ الثَّلاَثِ ، فَضَمَّهَا ثمَّ أَرْسَلَهَا ـ أَىْ صُمْ
ثَلاَثاً مِنْهَا ثمَّ اتْرُكْ وَهٰـكَذَا » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

---

(١) وذلك لأن فى ضم الثالث من القوة ما يجبر الضعف الحاصل من صوم اليومين لأن المرء إذا اعتاد عمل بر ألفته النفس وارتفعت مشقته ، ولذا أشار إلى الإفطار بعدها . لئلا يصير الصوم معتادا له . فلا يجد كلفة بخلاف ما إذا أفطر ثم عاد له ، فيكون فيه عليه مشقة ، فينمو ثوابه .

٤٤ — ذكرى الإسراء والمعراج

الحمدُ لله : شرّفَ رسولَنا بنِسبتِهِ إليهِ بالعبوديّةِ . وقالَ : « سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ : أَصْعَدَ نبيَّنا إلى مقامٍ أعلى تحتَ العرشِ ، وأسمعَهُ صوتَ أقلامِ الملائكةِ ، وهُمْ يكتُبونَ مقاديرَ الخلائقِ ، الدّالّةَ على أنّهُ تعالى عليمٌ قديرٌ .

وأشهدُ أنّ سيّدَنا محمّداً رسولُ اللهِ ، نجمُ الهُدَى ، الّذى لم يقُلْ زوراً ولَمْ يفعلْ منكراً . وطهّرَهُ اللهُ تطهيراً .

اللّهمَّ صلِّ وسلِّمْ على سيّدِنا محمّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ ، الّذينَ عظّموهُ بالاقتداءِ بهِ ، فعاشُوا أعزّاءَ ، ويُحشَرُونَ تحتَ لوائِهِ سُعداءَ : « يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

أمّا بعدُ : فيأيُّها المسلمونَ :

دَعُوا حديثَ اكتشافِ الفضاءِ وريادتِهِ ، وغزوِ الكواكبِ — إلى هذا الحديثِ الحقِّ المبينِ — مِنْ ربِّ العالمينَ .

قالَ تعالى : « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ، وَلَقَدْ

رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » .

يقولُ تعالى : مُؤَكِّدًا لإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى أَنَّ رَسُولَنَا مُحَمَّدًا صلى اللهُ عليه وسلم — مُنَزَّهٌ عَنْ صِفَتَى الضَّلَالِ وَالْغَوَايَةِ ، اللَّتَيْنِ نَسَبَتْهُ قُرَيْشٌ إِلَيْهِمَا : افْتِرَاءً : « والنَّجْمِ » أَىْ أُقْسِمُ بِالنَّجْمِ « إِذَا هَوَى » : إِذَا سَقَطَ مِنْ عُلْوٍ إِلَى سُفْلٍ ، حَيْثُ يَظْهَرُ نُورُهُ ، فَيُهْتَدَى بِهِ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُوَصِّلِ لِلْمَطْلُوبِ « مَا ضَلَّ » : مَا مَالَ فى اعْتِقَادٍ وَلا قَوْلٍ وَلا فِعْلٍ عَنِ الْحَقِّ « صَاحِبُكُمْ » رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ — يا قُرَيْش — « وَمَا غَوَى » وَمَا جَهِلَ مُعْتَقِدًا اعْتِقَادًا بَاطِلًا — فَكَمَا تَعْتَرِفُونَ — أَنَّ السَّارِىَ فى نُورِ النَّجْمِ — مَاضَلَّ الطَّرِيقَ وَمَا جَهِلَهُ — لِتَيَقُّنِكُمْ ذَلِكَ بِالْمُشَاهَدَةِ — يَجِبُ أَنْ تَعْتَرِفُوا وَلا تُنْكِرُوا — أَنَّ صَاحِبَكُمْ مُحَمَّدًا مَاضَلَّ وَمَا غَوَى — لِتَيَقُّنِكُمْ ذَلِكَ بِالْمُشَاهَدَةِ أَيْضًا ، فَقَدْ صَاحَبْتُمُوهُ مُدَّةً طَوِيلَةً : أَرْبَعِينَ سَنَةً قَبْلَ الرِّسَالَةِ ، وَالصَّاحِبُ — لاشَكَّ — يَعْرِفُ صِفَاتِ صَاحِبِهِ .

وَمَعَ وُضُوحِ بَرَاءَتِهِ صلى اللهُ عليه وسلم مِنَ الضَّلَالِ وَالْغَوَايَةِ ، وَاتِّصَافِهِ بِالرَّشَادِ وَالْهِدَايَةِ — لَمْ يَصْدُرْ نُطْقُهُ فِيمَا أَتَى بِهِ عَنْ هَوَى نَفْسِهِ وَرَأْيِهِ : قالَ تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى » أَىْ مَا الَّذِى يَنْطِقُ بِهِ إِلاَّ وَحْىٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُوحِيهِ إِلَيْهِ فَالْحَدِيثُ النَّبَوِىُّ — أُوحِىَ إِلَيْهِ مَعْنَاهُ ، وَكَذَلِكَ الحديثُ الْقُدْسِىُّ الَّذِى يُعَبِّرُ عَنْهُ بِلَفْظٍ مِنْ عِنْدِهِ وَيَنْسُبُهُ إِلَى اللهِ ، وَأُوحِىَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِلَفْظِهِ — بِوَسَاطَةِ جِبْرِيلَ

عليه السلام ، الموصوف بقوله تعالى : « علمه شديد القوى » ومن شدة قواه ـ أن اقتلع قرى قوم لوط ، ورفعها إلى السماء ، ثم قلبها ، وصاح بثمود صيحة أهلكتهم ، وكان هبوطه على الأنبياء وعروجه إلى السماء في أسرع من رجع البصر « ذو مرة » صاحب حصافة واستحكام في عقله ورأيه ، وكان يأتي نبينا صلى الله عليه وسلم كما كان يأتي الأنبياء في صورة آدمية ، فسأله أن يريه نفسه على صورته التي خلق عليها ، فأراه نفسه كذلك مرتين : مرة في الأرض ، ومرة في السماء ، وفي المرة الأولى الأرضية يقول تعالى : « فاستوى » أي فاستقام جبريل على صورته الحقيقية ، التي خلقه الله تعالى عليها : « وهو بالأفق الأعلى » بالجهة العليا من السماء المقابلة للناظر من الأرض ، وكان صلى الله عليه وسلم عند غار حراء ، بمكة ، الذي كان يخلو فيه صلى الله عليه وسلم ، في مبدإ النبوة .

ولما رآه صلى الله عليه وسلم على تلك الصورة ، وقد سد الأفق من المشرق إلى المغرب خر صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه ، فنزل جبريل متمثلا في صورة آدمية ، وضمه إلى نفسه حتى أفاق وسكن روعه صلى الله عليه وسلم وقال : يا جبريل ما ظننت أن الله تعالى خلق أحدا على مثل هذه الصورة ، فقال : يا محمد إنما نشرت جناحين من أجنحتي وإن لي ستمائة جناح ، سعة كل جناح يسد ما بين المشرق والمغرب وما أنا في جنب ما خلق الله تعالى إلا يسير ، ولقد خلق الله تعالى إسرافيل له ستمائة جناح ، كل جناح قدر جميع أجنحتي ، وإنه ليتضاءل أحيانا من مخافة الله تعالى حتى يكون قدر الوضع أي العصفور الصغير ،

وَفي ضمِّ جِبْرِيلَ لَهُ صلى اللهُ عليه وسلم حَتَّى سَكَن رَوْعُهُ، يَقُولُ تَعَالَى: (ثُمَّ دَنَا) أَيْ قَرُبَ جِبْرِيلُ مِنْهُ صلى اللهُ عليه وسلم (فَتَدَلَّى) فَزَادَ فِي القُرْبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ) فَكَانَ قَرِيباً مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مِقْدَارَ قَوْسَيْنِ أُلصِقَتْ إِحْدَاهُمَا بِالأُخْرَى: (أَوْ أَدْنَى) بَلْ أَقْرَبَ مِنْ ذَلِكَ: (فَأَوْحَى)، أَيْ جِبْرِيلُ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى: (إِلَى عَبْدِهِ) عَبْدِاللهِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم (مَاأَوْحَى) أَيْ الَّذِي أَوْحَاهُ إِلَيْهِ رَبُّهُ، لاَ شَيْئاً مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، وَمِمَّا أَوْحَاهُ أَنَّ الجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الأَنْبِيَاءِ حَتَّى تَدْخُلَهَا، وَعَلَى الأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتُكَ.

وَقَدْ شَهِدَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ - أَنَّ فُؤَادَهُ - مَا كَذَبَ وَلاَ أَنْكَرَ مارَآهُ بِبَصَرِهِ مِنْ صُورَةِ جِبْرِيل الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ اللهِ الخَالِقِ الجَلِيلِ الْمُسْتَحِقِّ لأَنْ يُطَاعَ، وَلاَ يُعْصَى قَالَ تَعَالَى: (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَارَأَى) فَالرَّسُولُ صلى اللهُ عليه وسلم - عَرَفَ جِبْرِيلَ حَقَّ المَعْرِفَةِ، فَلاَ يَصِحُّ تَكْذِيبُهُ فِي وَصْفِهِ لَهُ وَلِذَلِكَ خَاطَبَ اللهُ تَعَالَى مُكَذِّبِيهِ فِي ذَلِكَ تَوْبِيخاً لَهُمْ، فقال: (أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَايَرَى)، أَيْ أَتُكَذِّبُونَهُ فَتُجَادِلُونَهُ عَلَى مايَرَاهُ مُعَايَنَةً، ثُمَّ أَقْسَمَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - تَأْكِيداً لِمَنْعِ الشَّكِّ - أَنَّهُ صلى اللهُ عليه وسلم - قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَى صورَتِهِ الحَقِيقِيَّةِ مَرَّةً أُخْرَى فِي السَّمَاءِ، لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ وَعَبَّرَ عَنْ مَرَّةٍ أُخْرَى بِنَزْلَةٍ أُخْرَى: لإِفَادَةِ أَنَّ الرُّؤْيَةَ فِي هَذِهِ المَرَّةِ الأُخْرَى كَانَتْ بِنُزُولٍ وَدُنُوٍّ وَقُرْبٍ، كَالرُّؤْيَةِ فِي المَرَّةِ الأُولى قَالَ تعالى: (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)، وَهِيَ شَجَرَةُ نَبْقٍ فِي السَّماءِ السَّابِعَةِ

يَسيرُ الرَّاكِبُ فى ظِلِّهَا سَبْعينَ عاماً لاَ يَقْطَعُهَا ، نَبْقُهَا كِقلاَلِ[1] هَجَرٍ ، فَهُوَ عَظِيمُ الحجْمِ جِدًّا ، وَأَوْرَاقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيَلَةِ فى الشَّكْلِ ، وَالوَرَقَةُ مِنْهَا : مِنْ عِظَمِ قَدْرِهَا - تُظِلُّ الخَلقَ : إِليْهَا يَنْتَهِي أَرْوَاحُ المُؤْمِنِين ، وَأَعْمَالُ الخَلاَئِقِ ، وَعِلْمُ كلِّ عَالِمٍ ، وَمَاوَرَاءَهَا لاَ يَعلَمُهُ إِلاَّ اللهُ تعالى ، وَيُقْبَضُ مِنْهَا النَّازِلُ مِنْ فَوْقِهَا ، وَالصَّاعِدُ مِنْ تَحْتِهَا ، وَحِين تجاوَزَهَا الرَّسُولُ إِلَى مَقَامٍ أَعلَى تَحْتَ العَرْشِ - لَمْ يَتعدَّهَا مَعهُ جِبْرِيلُ ، وقالَ : (وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ).

وَزِيَادَةً فِي بيَانِ عُنْوَانِ سِدْرَةَ المُنْتَهَى - قَالَ تَعَالى : (عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى). أي الَّتِي يَأْوِي إِليهَا المُتَّقُون يوْمَ القِيَامَةِ ، وَهِيَ جَنَّةُ الخُلْدِ الَّتِي أَعَدَّ اللهُ فِيهَا لعِبَادِهِ الصَّالِحين مالاَ عينٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعتْ ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

وَقِيلَ : يَارَسُولَ اللهِ : أَيَّ شَيْءٍ رَأَيْتَ يَغْشَى تِلْكَ السِّدْرَةَ ؟ قالَ : رَأَيْتُ يَغْشَاهَا فَرَاشٌ - جَرَادٌ - مِنْ ذَهَبٍ ، وَرَأَيْتُ عَلَى كلِّ وَرَقَةٍ مِنْ وَرَقِهَا مَلَكاً قَائِماً يُسَبِّحُ اللهَ عَزَّ وَجلَّ ، وَقَدْ زَكَّى اللهُ بَصَرَهُ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَشَهِدَ لَهُ بِتحْقِيقِ مارَأَى وَإِثْبَاتِهِ إِثبَاتاً صَحِيحاً مُسْتَقِيماً - لِنَثِقَ بِمَا أَخْبَرَ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ أَبْصَرَه - فقَال جَلَّ شَأْنُهُ : (مازَاغَ البَصَرُ وَمَاطَغَى) ، مَامَالَ بَصَرُهُ صلى اللهُ عليهِ وسلم عَمَّا رَآهُ ، وَأُذِنَ لَهُ أَنْ يَرَاه ، وَمَا تَجَاوَزَهُ

---

(١) القلة من قلال هجر تسع قربتين ونصفا من قرب الحجاز ، والقربة مائة رطل بغدادية تقريباً . فالقلة الهجرية إذا مائتان وخمسون رطلا بغدادية وهجر بلد قريب من المدينة.

إلى ما لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ بِرُؤْيَتِهِ ، ولا تعدّاه ، ثمّ أقسَمَ تعالى أنَّهُ صلى الله عليه وسلم - قَدْ رأى - في مِعْرَاجِهِ - مِنْ آيَاتِهِ تَعَالَى الكُبْرَى فَقَالَ : (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى) .

وَمِنْ تِلْكَ الآيَاتِ - تَحِيَّتُهُ صلى اللهُ عليه وسلم السَّمَوَاتِ ، وَلِقَاؤُهُ بِهَا أنبياءَ شَهِدُوا لَهُ بالنُّبُوَّةِ ، وَحَيَّوْهُ أطْيَبَ التَّحِيَّاتِ ، فإذا كَانَ صلى الله عليه وسلم - قَدْ وَجَدَ فى الأرْضِ مَنْ أنْكَرُوا نُبُوَّتَهُ وَأساءوا إليْهِ مِنَ الكَافِرِينَ الضَّالِّينَ - فَقَدْ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ مَنْ شَهِدُوا بِنُبُوَّتِهِ وَأَحْسَنُوا تَحِيَّتَهُ مِنَ مِنَ العِبَادِ الصَّالِحِينَ المُكْرَمِينَ ، وَزَادَهُ أبُوهُ إبْرَاهِيمُ تَحِيَّةَ أُمَّتِهِ قالَ لَهُ : أقْرِىء أُمَّتَكَ مِنِّى السَّلَامَ ، وَأَخْبِرْهُمْ أنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ المَاءِ ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللهِ ، وَالحَمْدُ للهِ ، وَلَا إلَهَ إلَّا اللهُ ، وَاللهُ أكْبَرُ .

وَرَأَى صلى اللهُ عليه وسلم البَيْتَ المَعْمُورَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ : يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ ألْفَ مَلَكٍ ، لَا يَعُودُونَ إلَيْهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ : فَهُوَ - فِى السَّمَاءِ - لِلْمَلَائِكَةِ - كَالكَعْبَةِ فى الأرْضِ لِلنَّاسِ .

وَلِيَعْلَمَ صلى اللهُ عليه وسلم - عَنْ عِيَانٍ - ما أعَدَّهُ اللهُ لِأحِبَّائِهِ وَمَا أعَدَّهُ لِأعْدَائِهِ - لِيَزْدَادَ بيانُهُ قُوَّةً - أرَاهُ تعالى الجَنَّةَ وَالنَّارَ ، وَأكْثَرُ العُلَمَاءِ عَلَى أنَّهُ صلى الله عليه وسلم - رأى رَبَّهُ بِبَصَرِهِ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ ، كَمَا يَرَاهُ سَائِرُ المُؤْمِنِينَ فى الجَنَّةِ : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) .

وَفى ليلةِ الإسراءِ والمِعْرَاجِ فى أعْلَى مَقَامٍ تَحْتَ العَرْشِ ، لَمْ يَصِلْهُ مَلَكٌ

مُقَرَّبٌ ، وَلاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ اخْتَصَّ اللهُ بِهِ حَبِيبَهُ المصطفَى صلى اللهُ عليه وسلم فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ الصَّلَوَاتِ ، بِدُونِ وَاسِطَةِ جِبْرِيلَ ، وَفِي ذَلِكَ إِعْلاَنٌ لِعُلُوِّ مَنْزِلَتِهَا عِنْدَ اللهِ ، وَأَنَّهَا سَبِيلٌ لإِعْلاَءِ الْقَدْرِ عِنْدَهُ تَعَالَى ، وَلِذَلِكَ كَانَ صلى الله عليه وسلم تَقَرُّ بِهَا عَيْنُهُ ، وَيَسْتَرِيحُ بِأَدَائِهَا ، وَقَالَ : « وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ — الصَّلاَةُ »(1) .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

اتَّقُوا اللهَ ، وَاذْكُرُوا عَلَى الدَّوَامِ — أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرَى نَبِيَّكُمْ — فِي فِي بَعْضِ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ — مِنْ آيَاتِهِ وَعَجَائِبِ مَخْلُوقَاتِهِ — مَا دُونَهُ بِمَرَاحِلَ — مَا يَسْعَى لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ عَمَالِقَةُ ، الْعَصْرِ الْمَادِّيُّونَ ، فَاحْمَدُوا اللهَ تَعَالَى ، الَّذِي بَيَّنَ لَكُمْ دَلاَئِلَ عَظَمَتِهِ ، وَأَطْلَعَكُمْ — بِوَاسِطَةِ نَبِيِّكُمْ عَلَى أَسْرَارٍ مِنْ كَوْنِهِ ، لَنْ يَبْلُغَهَا الْمُتَنَافِسُونَ فِي مُحَاوَلَةِ غَزْوِ الْكَوَاكِبِ أَبَداً مَهْمَا جَدُّوا ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمُونَ) وَعَظِّمُوا رَبَّكُمْ — يَاقَوْمِ تَعْظِيمًا يَشْهَدُ بِقُوَّةِ إِيمَانِكُمْ ، فَلاَ يَرَاكُمْ حَيْثُ نَهَاكُمْ ، وَلاَ يَفْقِدُكُمْ حَيْثُ أَمَرَكُمْ ، وَاحْرِصُوا عَلَى الصَّلاَةِ حِرْصَكُمْ عَلَى الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ أَوْ أَشَدَّ ، فَهِيَ لَهَا وَسِيلَةٌ عُظْمَى ، وَكَفَى الصَّلاَةَ

(1) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى ومسلم عن ثوبان رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

فَضْلاً أَنَّهَا تُثْمِرُ الصَّبْرَ عِنْدَ الْبَلاءِ ، وَالشُّكْرَ عِنْدَ الرَّخَاءِ قالَ تَعَالَى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ) .

قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ بِمُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ ـ أَيْ صَوْتَ أَقْلَامِ الْمَلَائِكَةِ ، وَهِيَ تَكْتُبُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ » رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ » رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

وقالَ مَسْرُوقٌ : كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ ، فَقُلْتُ : أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ : (وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) فَقَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ هٰذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ : إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ : لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا إِلاَّ مَرَّتَيْنِ رَآهُ مُنْهَبِطاً مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ .

٤٥ – استقبال شهر شعبان

الحمد لله جعل لنا مواسم لعبادته لنتدارك ما فاتنا من طاعته فنكون أهلاً لإكرامه ومثوبته، ونسلم من عقوبته، وفي الحديث النبوي الشريف «إن لله في أيام الدهر نفحات فتعرضوا لها فلعل أحدكم أن تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبداً»[1].

وأشهد أن لا إله إلا الله: نعيمه للطائعين حق، وعذابه للعاصين حق ولذلك رجاه المؤمن وخافه، وقيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا[2].

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذي باتباعه ينال رضا الله، وقد قال تعالى: «ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم».

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الذين اقتدوا به صلى الله عليه وسلم، فكانت دنياهم طيبة بعزهم، ولهم حسن العاقبة في آخرتهم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «من أكل طيباً، وعمل في سنة

---

(١) رواه الطبراني عن محمد بن مسلمة رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم.

(٢) أخرجه البيهقي بهذا اللفظ، وبغير هذا اللفظ منسوباً إلى قائل، ورواه غيره، وكل الروايات تفيد أنه ليس حديثاً نبوياً، مرفوعاً مضافاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو قول يؤثر عن بعض السلف.

وَأَمِنَ النَّاسُ بَوَائِقَهُ ، أَىْ دَوَاهِيَهُ وَشُرُورَهُ الشَّدِيدَةَ - دَخَلَ الْجَنَّةَ ، قَالُوا : يَارَسُولَ اللهِ إِنَّ هَـٰذَا فِى أُمَّتِكَ الْيَوْمَ كَثِيرٌ . قَالَ : وَسَيَكُونُ فِى قَوْمٍ بَعْدِى »[1] .

أَمَّا بَعْدُ : فياعبادَ اللهِ :

دَخَلَ جَمَاعَةٌ عَلَى عُمَرَ بْنِ عبدِ الْعَزِيزِ فِى مَرَضِ مَوْتِهِ يَعُودُونَهُ ، فَإِذَا فِيهِمْ - شَابٌّ نَاحِلُ الْجِسْمِ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : يَافَتَى مَاالَّذِى بَلَغَ بِكَ مَاأَرَى ؟ فَقَالَ : يَاأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرَاضٌ وَأَسْقَامٌ ، فقَالَ لَهُ عُمَرُ : سَأَلْتُكَ بِاللهِ أَنْ تَصْدُقَنِى ، فقالَ : يَاأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : ذُقْتُ حَلاوَةَ الدُّنْيَا ، فَوَجَدْتُهَا مُرَّةً فَصَغُرَتْ زَهْرَتُهَا وَحَلاوتُهَا فى عَيْنِى ، فَكَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّى بَارِزاً ، وَالنَّاسُ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ ، فَأَظْمَأْتُ لِذَلِكَ نَهَارِى ، وَأَسْهَرْتُ لَهُ لَيْلِى ، وَقَلِيلٌ حَقِيرٌ كُلُّ مَاأَنَا فِيهِ فِى جَنْبِ ثَوَابِ اللهِ أَوْ عِقَابِهِ .

فانظرُوا كَيْفَ كَانَ انْتِبَاهُ ذَلِكَ الشَّابِّ الْمُؤْمِنِ لِغَدِهِ ، وَلِقَائِهِ لِرَبِّهِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، يَوْمِ الْجَزَاءِ عَلَى الأَعمَالِ ، فَإِنَّهُ - مَعَ كَثْرَةِ صِيامِهِ بِالنَّهَارِ وَسَهَرِهِ فِى الطَّاعَةِ لَيْلاً ، حَتَّى نَحَلَ جِسْمُهُ - يَسْتَصْغِرُ ذَلِكَ فِى جَانِبِ ثَوَابِ اللهِ وَعِقَابِهِ ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ :

فِى الدُّنْيَا الَّتِى فِيهَا أَيَّامُنَا - مَهْمَا طَالَتْ - قَلِيلَةٌ - نَسْتَعِدُّ لِلْوِقَايَةِ مِمَّ

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا والحاكم واللفظ له .

يَضُرُّ ، وَلنَيلِ مايَنفَع ، فَنُدَبِّرُ لِلصَّيفِ مَطَالِبَهُ ، وَلِلشِّتَاءِ حَاجَاتِهِ ، أَفَلاَ نَسْتَعِدُّ لِلوِقَايَةِ مِنَ الضرَرِ ، وَنَيْلِ النَّافِعِ فِي الآخِرَةِ ، الدَّارِ الْبَاقِيَةِ ، فَنَعْمَلُ خَيْرًا وَنَجْتَنِبُ شرًّا مِنَ الآن ، حَتَّى تَكُونَ النُّفُوسُ مُتَدَرِّبَةً عَلَى ذٰلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَهُوَ خِزَانَةُ الْعَامِ الَّتِي نَدَّخِرُ فِيهَا مَاتَكْسِبُ بِهِ رِضَا اللهِ ، حَتَّى نَكُونَ يَوْمَ لِقَائِهِ سُعَدَاءَ . بِحُبِّ اللهِ - لِطَاعَتِهِ - أَعِزَّاءَ ، وَقَدْ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

يَا قَوْمِ : لِلغَدِ الذي لَابُدَّ مِنهُ : وَلِحُسْنِ الْحَالِ الذي - مَعَهُ - حُسْنُ الاسْتِعْدَادِ لِلْمَآلِ .

كَانَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا دَخَلَ شَعبانُ - انْكَبُّوا عَلَى الْمَصَاحِفِ فَقَرَءُوها ، تَقْوِيَةً لِأَرْوَاحِهِمْ ، وَتَنْوِيرًا لِقُلُوبِهِمْ ، وَأَخْرَجُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ : تَقْوِيَةً لِلضَّعِيفِ وَالْمِسْكِينِ عَلَى صِيَامِ رَمَضَانَ ، وَأَكْثَرُوا مِنَ الصِّيَامِ لِئَلَّا يَدْخُلُوا فِي صَوْمِ رَمَضَانَ عَلَى مَشَقَّةٍ . وَكُلْفَةٍ ، وَهٰكَذَا كَانُوا يَهْتَمُّونَ بِالطَّاعَةِ فِي شَعْبَانَ : تَمْرِينًا لِنُفُوسِهِمْ عَلَى أَدَائِهَا بِرَغْبَةٍ ، وَإِقْبَالٍ وَقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ فِي رَمَضَانَ .

وَلٰكِنْ قَلَّ الاقْتِدَاءُ بِمَنْ سَبَقَنَا مِنْ ذَوِي الصَّلَاحِ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ، مَعَ أَنَّا لَاغِنَى لَنَا عَنْ فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) ، أَي الَّذِينَ أَحْسَنُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ - بِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ وَالْحَسَنَاتِ ، وَاجْتِنَابِ الْخَطَايَا ، وَالتَّخَلُّصِ مِنَ

السَّيِّئَاتِ ، وَكَيْفَ نَعْتَمِدُ – مَعَ التَّقْصِيرِ – عَلَى رَحْمَةِ اللهِ ، وَقَدْ نَبَّهَنَا رَسُولُنَا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ – إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى – أَعْطَانَا فُرَصاً كَثِيرَةً لِنَتُوبَ إِلَيْهِ ، وَنَفُوزَ بِمَغْفِرَتِهِ ، فَأَخْبَرَنَا بِأَنَّ أَعْمَالَنَا – تُعْرَضُ عَلَيْهِ تَعَالَى يَوْمِيّاً بُكْرَةً وَعَشِيّاً إِذْ قَالَ : (يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ، فَيَقُولُونَ : تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ » [1] .

أَخْبَرَنَا بِعَرْضِ أَعْمَالِنَا عَلَيْهِ عَرْضاً أُسْبُوعِيّاً ، فقال صلى اللهُ عليه وسلم : « تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي ، وَأَنَا صَائِمٌ » [2] وَأَخْبَرَنَا بِأَنَّ أَعْمَالَنَا تُعْرَضُ عَلَيْهِ تَعَالَى عَرْضاً سَنَوِيّاً إِجْمَالِيّاً فِي شَعْبَانَ ، إِذْ صَامَهُ فِي بَعْضِ السَّنَوَاتِ كُلَّهُ ، وَصَامَ فِي بَعْضِهَا أَكْثَرَهُ . وَقَالَ [3] « ذَاكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ فِيهِ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ » [4] .

فَمَنْ آمَنَ بِأَنَّ أَعْمَالَهُ تُعْرَضُ عَلَى اللهِ الَّذِي بِيَدِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ حَرَصَ عَلَى أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُهُ صَالِحَةً لِلْعَرْضِ عَلَيْهِ تَعَالَى ، وَمُنِيلَةً لِرِضَاهُ ، وَوَاقِيَةً

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) قال ذلك صلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيد رضي الله عنهما ، حين قال له : يارسول الله : لم أرك تصوم من شهر من الشهور ماتصوم من شعبان .

(٤) رواه النسائي .

مِنْ سَخَطِهِ ، وَلِأَنَّ رِيحَ الصَّائِمِ - أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ - أَحَبَّ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُرْفَعَ عَمَلُهُ وَهُوَ صَائِمٌ ، حَتَّى يَكُونَ مَصْحُوبًا بِالرَّائِحَةِ الزَّكِيَّةِ زِيَادَةً فِي تَمْجِيدِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ الَّذِي هُوَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَلِذَلِكَ كَانَتِ السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ ، ابْنَةُ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ تُطَيِّبُ صَدَقَتَهَا وَتَقُولُ : إِنَّهَا تَقَعُ فِي يَدِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ - قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ الْفَقِيرِ ، وَقَدْ طَيَّبَ اللهُ رَائِحَةَ الصِّيَامِ ، لِأَنَّهُ سِرٌّ بَيْنَ الْعَبْدِ ، وَبَيْنَ رَبِّهِ فَلَمَّا أَخْفَاهُ الْعَبْدُ عَنْ بَنِي جِنْسِهِ - أَظْهَرَهُ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ الْمَعْبُودُ جَلَّ شَأْنُهُ لِنَفْسِهِ .

فَيَأَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

شَهْرُ شَعْبَانَ مَوْسِمٌ يَتَدَارَكُ فِيهِ الْمُسْلِمُ مَا فَاتَهُ : مِنْ خَيْرٍ : لِيَزْدَادَ خَيْرًا فِي رَمَضَانَ . وَلَا أَقَلَّ - مَعَ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ - مِنْ أَنْ يَصُومَ يَوْمَيِ الاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ ، وَالْأَيَّامَ الْبِيضَ الَّتِي لَيَالِيهَا بِيضٌ بِنُورِ الْقَمَرِ .

وَقَدْ قَالَ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَامَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ - فَذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ »[1] ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » الْيَوْمُ بِعَشَرَةِ أَيَّامٍ .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ :

صَحِيفَةُ أَعْمَالِكَ - شُهُودُهَا جَوَارِحُكَ وَأَعْضَاؤُكَ ، وَرُقَبَاؤُهَا الْحَفَظَةُ الْكِرَامُ ، الَّذِينَ لَا يَقْبَلُونَ رِشْوَةً وَلَا هَدِيَّةً ، وَلَا يَعْرِفُونَ مَلَقًا وَلَا نِفَاقًا

---

(١) رواه الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه .

ولا رياء « ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

وسينشرها عالم السر والنجوى : « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » . وقد تنكر — أيها العبد — في ذلك اليوم — ما عملت في دنياك ، فإذا أنكرت ختم الله على فمك وأنطق بقية جوارحك .

والله تعالى يقول : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين » .

فيا للهول : يوم يقول لك ربك : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » . حسيبا : على ما قدمت من أعمال سجلت عليك بغاية الأمانة : ليس فيها تزوير ، ولا مبالغة ولا مغالطة : سجلت عليك : تذكرة لك ، وحجة عليك : لا تذكرة له تعالى ، كما قال تعالى في كتابه : « لا يضل ربي ولا ينسى » ألا ما أصعب حساب المذنب ، بعد الإمهال الطويل . وبعد الفرص الكثيرة — للتوبة والإنابة ، فما تعدد عرض الأعمال على الكبير المتعال إلا للانتباه للرجوع إليه تعالى وقد أوقظتم لذلك يا قوم ، فاتقوا الله ، وجدوا في طاعته تعالى ، فالموت يحل دار كل حي يوما ما بعد أو قرب . فانتهزوا الفرصة واستعدوا له من الآن ، واعملوا صالحا وليشهد لكم بذلك شعبان .

فيا عبد الله :

مَضَى رَجَبٌ وَمَا أَحْسَنْتَ فِيهِ ... فَهَذَا شَهْرُ شَعْبَانَ الْمُبَارَكْ

تَدَارَكْ فِيهِ مَاقَدْ فَاتَ قَبْلاً ... بِحِيلَكَ مَنْ يُحَاسِبُنَا تَبَارَكْ

رَوَى الإمامُ أحمدُ عَنْ عبدِ اللهِ بنِ أُنَيْسٍ رضي اللهُ عنهُ أنَّهُ سمِعَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم يقول : « يَحْشُرُ اللهُ الْعِبَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ قالَ النَّاسَ عُرَاةً غُرْلاً بُهْماً . قالَ : قُلْنَا : وَمَا بُهْماً ؟ قالَ : لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ : أَنَا الدَّيَّانُ أَنَا الْمَلِكُ لايَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أُقِصَّهُ مِنْهُ . وَلاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أُقِصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةُ . قالَ : قُلْنَا : كَيْفَ ، وَإِنَّمَا نَأْتِي عُرَاةً غُرْلاً بُهْماً . قالَ : الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ » . أيْ كَائِنَةٌ وَمُسْتَقِرَّةٌ حِينَئِذٍ ، فَهِيَ الَّتِي بِهَا قَضَاءُ الْحُقُوقِ لِأَرْبَابِهَا ، وَتَأْدِيَتُهَا الْيَوْمَ .

وَقالَ مُحمدُ بنُ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فَقَالَ : وَاذُنُوبَاهُ ، وَاذُنُوبَاهُ . فَقَالَ : هَذَا الْقَوْلَ مَرَّتَيْنِ . أَوْ ثَلاَثاً ، فَقَالَ لَهُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « قُلِ اللَّهُمَّ مَغْفِرَتُكَ أَوْسَعُ مِنْ ذُنُوبِي ، وَرَحْمَتُكَ أَرْجَى عِنْدِي مِنْ عَمَلِي ، فَقَالَهَا ، ثُمَّ قالَ : عُدْ . فَعَادَ . ثُمَّ قالَ: عُدْ . فَعَادَ . ثُمَّ قالَ: قُمْ . فَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ » رواهُ الحاكِمُ .

٤٦ — السعى للسعادة فى ليلة النصف من شعبان

الْحَمْدُ لِلَّهِ: نَعَّمَ أَحِبَّاءَهُ فِى الدُّنْيَا بِذِكْرِهِ ، وَزَيَّنَهُمْ فِيهَا بِطَاعَتِهِ وَشُكْرِهِ . وَأَنَارَ قُلُوبَهُمْ بِالصَّوْمِ ، وَأَرَاحَهَا بِالصَّلَاةِ ، وَأَعَدَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ فِى أُخْرَاه ، يَوْمَ يَقُولُ لَهُمْ : « عِبَادِى آثَرْتُمُونِى عَلَى شَهَوَاتِكُمْ فَأَبْشِرُوا الْيَوْمَ بِكَرَامَتِى . فَوَعِزَّتِى وَجَلَالِى مَاخَلَقْتُ الْجَنَّةَ إِلَّا لَكُمْ) .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ الْغَنِىُّ الْعَلِىُّ الَّذِى رَوَى عنه النَّبِىُّ : (يَاعِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ مَانَقَصَ ذٰلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ » .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ : بَلَّغَنَا أَنَّ اللهَ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ، وَيُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ ، وَيَسْتَحْيِى مِنَ الْعَبْدِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً — خَالِيَتَيْنِ — وَكَانَ يَسْأَلُهُ تَعَالَى فَيَقُولَ : « اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ الْأَمْنَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ، وَالْجَنَّةَ يَوْمَ الْخُلُودِ ، مَعَ الْمُقَرَّبِينَ الشُّهُودِ ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، الْمُوفِينَ بِالْعُهُودِ ، إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ » .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَيْرِ الدُّعَاةِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ السَّادَةِ الْهُدَاةِ ، الَّذِينَ أَحَبُّوا اللهَ ، وَأَحَبَّهُمُ الله : (وَاللهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) .

أَمَّا بَعْدُ : فَيَاعِبَادَ اللهِ :

دَخَلَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِى الْحَوارِىِّ عَلَى شَيْخِهِ أَبِى سُلَيْمَانَ الدَّارَانِىِّ ، وَكُلٌّ

مِنْهُمَا قُدْوَةٌ لِلْمُؤْمِنِ التَّقِيِّ ، فَوَجَدَهُ يَبْكِي : فَقَالَ له : مَاالَّذِي أَبْكَاكَ ؟
فقالَ : يَا أَحْمَدُ إِذَا جَنَّ اللَّيْلُ عَلَى الْمُحِبِّينَ ، وَصَفُّوا أَقْدَامَهُمْ : وَأَجْرَوْا
دُمُوعَهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ ـ أَشْرَقَ نُورُ الْجَلِيلِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِم وَنَادَى يَاجِبْرِيلُ
بِعَيْنِي مَنْ تَلَذَّذَ بِكَلَامِي ، وَاسْتَرَاحَ إِلَى مُنَاجَاتِي ، وَأَنَا الْمُطَّلِعُ عَلَيْهِمْ :
أَسْمَعُ حَنِينَهُمْ فَنَادِهِمْ مَاهَذَا الْجَزَعُ الَّذِي أَرَاهُ بِكُمْ . هَلْ أَخْبَرَكُمْ مُخْبِرٌ أَنَّ
حَبِيباً ـ يُعَذِّبُ حَبِيبَه ، فَبِعِزَّتِي حَلَفْتُ لَأَجْعَلَنَّ هَدِيَّتِي لَهُمْ إِذَا وَرَدُوا عَلَيَّ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَكْشِفَ لَهُمْ عَنْ وَجْهِي الْكَرِيم ، ثُمَّ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ
وَيَنْظُرُونَ إِلَيَّ : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ـ أَفْتَلُومُنِي
يَاأَحمدُ إِذَا بَكَيْتُ عَلَى تَخَلُّفِي عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فَمَاذَا يَقولُ حَلِيفُ النَّوْمِ
الَّذِي يَمُرُّ عليه العامُ ، وَرُبَّمَا لَمْ يُصَلِّ ، وَلَمْ يَصُمْ سِوَى الْفَرْضِ إِذَا كَانَ
يَقُولُ : هَذَا أَبُو سُلَيْمَانَ الَّذِي كَانَ حَرِيصاً عَلَى عِمَارَةِ أَوْقَاتِهِ بِالطَّاعَاتِ طُولَ
الْعَامِ ، مُنْتَهِزاً لِفُرَصِ مَوَاسِمِهَا ، الَّتِي بِهَا يَنَالُ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ فِي دَارِ
السَّلَامِ ، وَيَرَى اللهَ ، وَيَتَمَتَّعُ بِلِقَاءِ حَبِيبِهِ وَمُصْطَفَاهُ ، الْقَائِلِ : (لَمَّا خَلَقَ
اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ وَدَلَّى فِيهَا ثِمَارَهَا وَشَقَّ فِيهَا أَنْهَارَهَا ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا ،
فَقَالَ : لَهَا : تَكَلَّمِي . فقالتْ : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) ، فقالَ : « وَعِزَّتِي
لَا يُجَاوِرُنِي فِيكِ بَخِيلٌ »)[1] .

أَلَا مَاأَجْدَرَنَا جَمِيعاً بِالانْتِبَاهِ لِمَوَاسِمِ الطَّاعَاتِ ، وَانْتِهَازِ فُرَصِهَا :
لِكَسْبِ الْخَيْرَاتِ فِي الْحَيَاةِ ، وَبَعْدَ الْمَمَاتِ حَيْثُ الْجَنَّةُ الْعَالِيَةُ ، وَعِيشَتُهَا

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن ابن عباس رضى الله عنهما .

الرَّاضِيَة ، وَمِنْ مَوَاسِمِ الطَّاعَاتِ : لَيلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : « قَامَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى فَأَطَالَ السُّجُودَ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ قُبِضَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُمْتُ حَتَّى حَرَّكْتُ إِبْهَامَهُ فَتَحَرَّكَ ، فَرَجَعْتُ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ : أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ ، وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ إِلَيْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ السُّجُودِ ، وَفَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ ـ قَالَ : يَاعَائِشَةُ أَوْ يَاحُمَيْرَاءُ أَظَنَنْتِ أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قَدْ خَاسَ(1) بِكِ ؟ قُلْتُ : لَا وَاللهِ يَارَسُولَ اللهِ ، وَلَكِنِّي ظَنَنْتُ أَنَّكَ قُبِضْتَ لِطُولِ سُجُودِكَ فَقَالَ : أَتَدْرِينَ . أَيُّ لَيْلَةٍ هَذِهِ ؟ قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ هَذِهِ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَطَّلِعُ عَلَى عِبَادِهِ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ، فَيَغْفِرُ لِلْمُسْتَغْفِرِينَ ، وَيَرْحَمُ الْمُسْتَرْحِمِينَ وَيُؤَخِّرُ أَهْلَ الْحِقْدِ كَمَا هُمْ »(2) .

عَبْدَ اللهِ :

لِمَا كَانَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مِنْ زِيَادَةِ طَاعَةٍ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَإِطَالَةِ السُّجُودِ للهِ فِي صَلَاتِهِ بِهَا وَتَعْظِيمِهِ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ تَعَالَى وَتَضَرُّعِهِ وَدُعَائِهِ الْخَاصِّ ـ لَفَتَنَا صلى اللهُ عليه وسلم إِلَى أَنَّ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ

---

(١) أى غدر بك ولم يوفك حقك ، وذهب فى ليلتك إلى غيرك .

(٢) رواه البيهقى من طريق العلاء بن الحارث عنها : وقال : هذا مرسل جيد : يعنى أن العلاء لم يسمعه من عائشة .

مَوْسِمٌ يَحْرِصُ الْمُسْلِمُ الرَّشِيدُ عَلَى اسْتِغْلَالِهِ لِطَاعَةِ وَإِرْضَاءِ اللهِ ، وَحَسْبُ الْعَبْدِ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ ، وَيَفُوزَ بِرَحْمَةِ الرَّحْمٰنِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَلَكِنْ لِيَنْتَبِهِ : لَا يَغْفِرُ اللهُ لِمَنْ قَالَ أَسْتَغْفِرُ اللهَ بِلِسَانِهِ ، وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى ذُنُوبِهِ ، فَلَيْسَ الاسْتِغْفَارُ كَلِمَةً تُقَالُ ، وَلَكِنَّهَا أَعْمَالٌ تُعْمَلُ ، الاسْتِغْفَارُ هُوَ النَّدَمُ عَلَى مَامَضَى ، وَالْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدَةِ إِلَيْهِ ، وَأَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَهَا ، وَأَنْ تُؤَدِّيَ لِلنَّاسِ حُقُوقَهُمُ الَّتِي أَخَذْتَ مِنْهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللهَ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ ، فَإِذَا قُلْتَ بَعْدَ ذَلِكَ : أَسْتَغْفِرُ اللهَ ـ قَالَ اللهُ تَعَالَى : (غَفَرْتُ لَكَ وَأَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) ، وَلَا يَرْحَمُ سُبْحَانَهُ مَنْ يَسْأَلُهُ الرَّحْمَةَ ، وَهُوَ قَاسِي الْقَلْبِ شَحِيحٌ : لَا يُطْعِمُ جَائِعاً ، وَلَا يَسْقِي عَطْشَانَ ، وَلَا يَكْسُو عُرْيَانَ ، وَلَا يُنَفِّسُ كُرْبَةَ مُؤْمِنٍ ، وَلَا يُعِينُ ضَعِيفاً ، وَلَا يُيَسِّرُ عَلَى مُعْسِرٍ ، وَفِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمٰنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ »[1] .

وَاذْكُرُوا يَاعِبَادَ اللهِ ـ قَوْلَهُ صلى الله عليه وسلم لِعَائِشَةَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ : (وَيُؤَخِّرُ أَهْلَ الْحِقْدِ كَمَا هُمْ) فَالْحِقْدُ ـ وَهُوَ إِضْمَارُ السُّوءِ ، وَالتَّحَفُّزُ لِلإِيذَاءِ هُوَ الدَّاءُ الَّذِي يَبْعَثُ عَلَى الدَّاءِ الَّذِي كَانَ بِهِ خُسْرَانُ إِبْلِيسَ وَخُلُودُهُ فِي النَّارِ دَاءِ الْحَسَدِ ، وَتَمَنِّي زَوَالِ نِعْمَةِ الْغَيْرِ فَلَا عَجَبَ أَنْ يُحْرَمَ ذُو الْحِقْدِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَغُفْرَانِهِ ـ فِي لَيْلَةِ الرَّحْمَةِ وَالْغُفْرَانِ ، وَلِذَلِكَ لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِحَقُودٍ ، وَيُحِبُّ

---

(١) رواه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

الخيرَ لِسِواه ، ومِمّا سجَّله القرآنُ لبعضِ المؤمنينَ ـ قولُهم : (ربَّنا اغفرْ لنا ولإخوانِنا الَّذينَ سبقُونا بالإيمانِ) .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم لأصحابِه ثلاثةَ أيّامٍ : يطلُعُ[1] الآنَ عليكُم رجُلٌ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ، فكانَ الرَّجُلُ الطَّالِعُ في الأيّامِ الثّلاثةِ ـ هوَ سعدَ ابنَ مالكٍ ، فاستضافَهُ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو ثلاثَ ليالٍ لينظُرَ عملَه في اللَّيلِ حيثُ الخلوةُ باللهِ ، فلمْ يرَ منهُ كبيرَ عملٍ ، فأخبرَهُ بالحالِ ، وسألَهُ عمّا بلغَ بهِ ماقالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فقالَ لهُ سعدٌ : ماهُوَ إلاّ ما رأيتَ غيرَ أنّي لا أجِدُ[2] في نفسِي لأحدٍ مِنَ المُسلمينَ غِشًّا ، ولا أحسُدُ أحدًا على خيرٍ أعطاهُ اللهُ إيّاهُ ، فقالَ عبدُ اللهِ : هذهِ الّتي بلغَتْ بكَ .

عبدَ الله :

قُمْ بطاعةِ اللهِ في تلكَ اللّيلةِ ، وصُمْ نهارَها ، وهوَ اليومُ الخامسَ عشرَ مِنْ شعبانَ آخرُ الأيّامِ البيضِ مِنْهُ ، فأضِفْ إليهِ اليومَيْنِ السّابقَيْنِ : الثالثَ عشرَ ، والرّابعَ عشرَ لتفوزَ بسُنَّةِ صِيامِ الأيّامِ البيضِ مِنْ هذا الشّهرِ المُباركِ الّذي تُرفَعُ فيهِ الأعمالُ إلى اللهِ وتكونَ كأنّكَ صُمْتَ الشّهرَ كلَّهُ :

---

(١) رواه أحمد والنسائى وأبو يعلى والبزار والبيهقى عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) وفى رواية : « آخذ مضجعى، وليس فى قلبى غمر ـ أى حقد على أحد » .

وَذَلِكَ[1] مَيْسُورٌ جِدًّا الآنَ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُنَا صلى الله عليه وسلم: « الشِّتَاءُ رَبِيعُ الْمُؤْمِنِ طَالَ لَيْلُهُ فَقَامَهُ، وَقَصُرَ نَهَارُهُ فَصَامَهُ » [2].

وَادْعُ اللهَ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ - فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَأَنْتَ مُتَضَرِّعٌ خَائِفٌ فِي سِرِّكَ وَجَهْرِكَ، وَاذْكُرْ أَنَّكَ تَدْعُو وَاهِبَ النِّعَمِ صَاحِبَ الْجُودِ وَالْكَرَمِ الَّذِي قَالَ: [3] « يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ، وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ[4] السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ[5] الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً »، ادْعُ اللهَ وَأَلِحَّ فِي الدُّعَاءِ، وَقُلْ فِي ذِلَّةٍ وَخُشُوعٍ:

لَبِسْتُ ثَوْبَ الرَّجَا وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا
وَبِتُّ أَشْكُو إِلَى مَوْلاَيَ مَا أَجِدُ

وَقُلْتُ: يَا أَمَلِي فِي كُلِّ نَائِبَةٍ
يَا مَنْ عَلَيْهِ لِكَشْفِ الضُّرِّ أَعْتَمِدُ

---

(١) يقال هذا إذا كان الزمن شتاء، ويقال: إذا كان صيفاً قال أبو الدرداء صوموا يوماً شديداً حره لحر يوم النشور، وصلوا ركعتين فى ظلمة الليل لظلمة القبور.

(٢) رواه أحمد والبيهقى عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه.

(٣) رواه الترمذى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل.

(٤) هو السحاب.

(٥) بما يقارب ملئها.

أَشْكُو إِلَيْكَ أُمُوراً أَنْتَ تَعْلَمُهَا ... مَالِي تَحَمُّلُهَا صَبْرٌ وَلاَ جَلَدُ
وَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي بِالذُّلِّ مُفْتَقِرًا ... إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ إِلَيْهِ يَدُ
فَلاَ تَرُدَّنَّهَا يَارَبِّ خَائِبَةً ... فَبَحْرُ جُودِكَ يَرْوِي كُلَّ مَنْ يَرِدُ

اتَّقِ اللهَ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُ - وَأَسْعِدْ نَفْسَكَ بِطَاعَةِ اللهِ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، وَسَلْ رَبَّكَ خَيْرَ دُنْيَاكَ وَأُخْرَاكَ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَرَى مَكَانَكَ، وَيَسْمَعُ كَلاَمَكَ، وَيَعْلَمُ سِرَّكَ وَعَلاَنِيَتَكَ وَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِكَ (إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ).

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَاهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٤٧ — استقبال شهر رمضان

الحمدُ للهِ ذي الجلالِ والإكرامِ الذي انفردَ بالتقرّبِ إليهِ بالصّيامِ ، ولذلكَ اختصَّ سبحانَهُ جزاءهُ بتسليمِهِ بنفسِهِ لمستحقّيه ، وقالَ في الحديثِ القدسيِّ : « كلُّ عملِ ابنِ آدمَ لهُ إلاَّ الصّومَ ، فإنّهُ لي ، وأنا أجزي بهِ »[1] .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ : يقبلُ شفاعةَ الصّيامِ والقرآنِ في أُخراه لِمَنْ هذّبا نفسَهُ ، وأصلحا حالَهُ في دُنياه ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « الصّيامُ والقرآنُ يشفعانِ للعبدِ يومَ القيامةِ يقولُ الصّيامُ : أيْ ربِّ منعتُهُ الطّعامَ والشّهوةَ بالنّهارِ فشفّعْني فيهِ ، ويقولُ القرآنُ : منعتُهُ النّومَ باللّيلِ فشفّعْني فيهِ قالَ : فيُشفَّعانِ »[2] .

وأشهدُ أنَّ سيّدَنا محمّداً رسولُ اللهِ : كانَ يُبشّرُ أصحابَهُ بقدومِ شهرِ رمضانَ فيقولُ : « قدْ جاءكُمْ شهرُ رمضانَ شهرٌ مباركٌ كتبَ اللهُ عليكُمْ صيامَهُ فيهِ تُفتّحُ أبوابُ الجنانِ ، وتُغلقُ فيهِ أبوابُ الجحيمِ ، وتُغلُّ فيهِ الشّياطينُ فيهِ ليلةٌ خيرٌ منْ ألفِ شهرٍ مَنْ حُرِمَ خيرَها ـ فقدْ حُرِمَ »[3] .

---

(٣) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة عنه صلى الله عليه فيما يرويه عن ربه عز وجل .

(٢) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما .

(٣) رواه الإمام أحمد والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ اسْتَقْبَلُوا رَمَضَانَ بِطَهَارَةِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فِي فَرَحٍ وَاسْتِبْشَارٍ ، وَحُبِّبَ إِلَيْهِمْ فِيهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ : لِزِيَادَةِ قُوَّةِ أَرْوَاحِهِمْ فِيهِ ، وَزِيَادَةِ مَعُونَةِ مَنْ بِيَدِهِ النَّصْرُ وَحْدَهُ . اللهِ الْعَزِيزِ الْقَهَّارِ .

أَمَّا بَعْدُ : فَيَا عِبَادَ اللهِ :

كَانَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ يَدْعُونَ اللهَ تَعَالَى سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ رَمَضَانَ ، ثُمَّ يَدْعُونَهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنْهُمْ ، فَهَلْ تَتَصَوَّرُونَ إِذًا - يَاقَوْمِ - مَبْلَغَ فَرَحِهِمْ بِقُدُومِهِ ، وَسُرُورِهِمْ فِي أَوْقَاتِهِ ، وَاسْتِقْبَالِهِمْ ، وَإِمْضَائِهِمْ لِسَاعَاتِهِ .

تَصَوَّرُوا اسْتِقْبَالَ الضَّيْفِ الْكَرِيمِ يَقْدَمُ إِلَى أَحِبَّائِهِ بَعْدَ غَيْبَتِهِ أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَمَعَهُ الْهَدَايَا الْفَاخِرَةُ ، وَالْعَطَايَا النَّفِيسَةُ الْوَافِرَةُ : قَالَ رَسُولُنَا صلى اللهُ عليه وسلم : [١]« إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجِنَانِ ، فَلَا يُغْلَقُ مِنْهَا بَابٌ وَاحِدٌ الشَّهْرَ كُلَّهُ ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ الشَّهْرَ كُلَّهُ وَغُلَّتْ عُتَاةُ[٢] الْجِنِّ ، وَنَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى انْفِجَارِ الصُّبْحِ يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ يَمِّمْ وَأَبْشِرْ ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ وَأَبْصِرْ . هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ يَتُوبُ[٣] عَلَيْهِ ؟

---

(١) رواه البيهقي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) المتمردون.

(٣) يتوب الله عليه.

هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى سُؤْلَهُ ، وَلِلهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ كُلِّ فِطْرٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ كُلَّ لَيْلَةٍ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ سِتُّونَ أَلْفًا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْفِطْرِ - أَعْتَقَ اللهُ مِثْلَ مَا أَعْتَقَ فِي جَمِيعِ الشَّهْرِ ثَلَاثِينَ مَرَّةً سِتِّينَ أَلْفًا سِتِّينَ أَلْفًا ... » وَفَتْحُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ . وَإِغْلَاقُ أَبْوَابِ النَّارِ ، وَغَلُّ مَرَدَةِ الْجِنِّ لِلسَّلَامَةِ مِنْ إِغْوَائِهِمْ - إِعْلَانٌ عَنْ عِظَمِ رِضَا اللهِ فِي هَذَا الشَّهْرِ وَزِيَادَةِ ثَوَابِهِ ، وَتَيْسِيرِ الطَّاعَةِ فِيهِ ، وَقَالَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَوْمًا ، وَحَضَرَ رَمَضَانُ : [1] « أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرُ بَرَكَةٍ ، يَغْشَاكُمُ اللهُ فِيهِ ، فَيُنْزِلُ الرَّحْمَةَ ، وَيَحُطُّ الْخَطَايَا ، وَيَسْتَجِيبُ فِيهِ الدُّعَاءَ : يَنْظُرُ اللهُ تَعَالَى إِلَى تَنَافُسِكُمْ فِيهِ ، وَيُبَاهِي بِكُمْ مَلَائِكَتَهُ ، فَأَرُوا اللهَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا ، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ فِيهِ رَحْمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ ، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ »[2] ، وَفِي رِوَايَةٍ - زِيَادَةٌ : « وَمَنْ دَخَلَهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا »[3] .

يَاقَوْمِ :

فَرِحَ بِذَلِكَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ ، فَصَامُوا رَمَضَانَ وَقَامُوهُ ، وَفِيهِ قَصَدُوا

---

(١) رواه الطبرانى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

(٢) رواه البخارى ومسلم والنسائى عن سهل بن سعد رضى الله عنه .

(٣) روى هذه الزيادة الترمذى ، وفى صحيح ابن خزيمة : « فإذا دخل أحدهم أغلق من دخل شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً » .

الْخَيْرَ ، وَبَعُدُوا عَنِ الشرِّ ، وَاسْتَغْفَرُوا وَتَابُوا ، وَطَمِعُوا فِي الْعِتْقِ مِنَ النَّارِ ، سَاعِينَ لِغُفْرَانِ الذُّنُوبِ ، وَتَفْرِيجِ الْكُرُوبِ : بِكَثْرَةِ الصَّدَقَاتِ ، وَلَقُوا الْمُسْلِمِينَ - بِمَا يُحِبُّونَ وَيَفْرَحُونَ ، وَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ بِمَا يُحِبُّ لِيَسُرَّهُ بِذَلِكَ سَرَّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1] .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ :

كُنْ كَسَلَفِكَ الصَّالِحِ : اعْزِمْ عَزْماً أَكِيداً عَلَى أَنْ تَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ ، فَبِالصَّوْمِ - يُشْرِقُ النُّورُ فِي الْقَلْبِ ، فَيَنْشَرِحُ الصَّدْرُ لِلْعِبَادَةِ ، وَتَحْصُلُ الرَّغْبَةُ فِيهَا ، وَلِذَلِكَ قالَ رسولُنَا صلى اللهُ عليه وسلم : « لِكُلِّ شَيْءٍ بَابٌ وَبَابُ الْعِبَادَةِ الصَّوْمُ »[2] .

وَقالَ تَعَالَى فِي ثَمَرَةِ الصَّوْمِ : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ، وَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : « الصَّوْمُ نُورٌ قَذَفْتُهُ فِي قُلُوبِ الْمُطِيعِينَ) .

وَلَكِنْ أَيُّ صَوْمٍ هَذَا ؟ أَهُوَ صَوْمُ عُمُومِ النَّاسِ الَّذِي هُوَ تَرْكُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْإِمْسَاكُ عَنْ سَائِرِ الْمُفَطِّرَاتِ مِنْ طُلُوعِ فَجْرِ الْيَوْمِ إِلَى غُرُوبِ شَمْسِهِ : لَا: إِنَّهُ - مَعَ ذَلِكَ - الصِّيَامُ الَّذِي بَيَّنَهُ صلى اللهُ عليه وسلم بِقَوْلِهِ :

---

(١) رواه الطبراني في الصغير ، وأبو الشيخ في كتاب الثواب عن أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو الشيخ بن حبان .

« مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ - فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ »[1] ، وَلِذَلِكَ قَالَ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : « إِذَا صُمْتَ فَلْيَصُمْ سَمْعُكَ وَبَصَرُكَ وَلِسَانُكَ عَنِ الْكَذِبِ وَالْمَحَارِمِ وَدَعْ أَذَى الْجَارِ وَلْيَكُنْ عَلَيْكَ وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ يَوْمَ صَوْمِكَ ، وَلَا تَجْعَلْ يَوْمَ صَوْمِكَ وَيَوْمَ فِطْرِكَ سَوَاءً .

فَاللهَ اللهَ عِبَادَ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ أَوْقَاتَ رَمَضَانَ كُنُوزٌ غَالِيَةٌ فَلَا تُضَيِّعُوهَا فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ ، وَاتَّخِذُوا بَيَانَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِبَعْضِ أَحْكَامِ هَذَا الشَّهْرِ وَآدَابِهِ وَفَضْلِهِ - دُسْتُوراً طُولَ أَيَّامِهِ . قَالَ صلى الله عليه وسلم : « يَا أَيُّهَا[2] النَّاسُ قَدْ أَظَلَّكُمْ شَهْرٌ عَظِيمٌ مُبَارَكٌ ، شَهْرٌ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، شَهْرٌ جَعَلَ اللهُ صِيَامَهُ فَرِيضَةً وَقِيَامَ لَيْلِهِ تَطَوُّعاً مَنْ تَقَرَّبَ فِيهِ بِخَصْلَةٍ مِنَ الْخَيْرِ كَانَ كَمَنْ أَدَّى فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ ، وَمَنْ أَدَّى فَرِيضَةً فِيهِ كَانَ كَمَنْ أَدَّى سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ ، وَهُوَ شَهْرُ الصَّبْرِ ، وَالصَّبْرُ ثَوَابُهُ الْجَنَّةُ ، وَشَهْرُ الْمُوَاسَاةِ ، وَشَهْرٌ يُزَادُ فِي رِزْقِ الْمُؤْمِنِ فِيهِ ، مَنْ فَطَّرَ فِيهِ صَائِماً كَانَ مَغْفِرَةً لِذُنُوبِهِ ، وَعِتْقَ رَقَبَتِهِ مِنَ النَّارِ ، وَكَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَجْرِهِ شَيْءٌ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ لَيْسَ كُلُّنَا يَجِدُ مَا يُفَطِّرُ

---

(١) رواه البخارى وأبو داود والترمذى وغيرهم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) رواه ابن خزيمة فى صحيحه عن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر يوم من شعبان قال : يا أيها الناس ... إلخ .

الصَّائِمَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : يُعْطِي اللهُ هَـذَا الثَّوَابَ مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا عَلَى تَمْرَةٍ أَوْ شَرْبَةِ مَاءٍ أَوْ مَذْقَةِ[1] لَبَنٍ ، وَهُوَ شَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ وَآخِـرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ ، مَنْ خَفَّفَ عَنْ مَمْلُوكِهِ فِيـهِ غَفَرَ اللهُ لَهُ وَأَعْتَقَهُ مِنَ النَّـارِ ، فَاسْتَكْثِرُوا فِيـهِ مِنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ : خَصْلَتَيْنِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّـكُمْ ، وَخَصْلَتَيْنِ لاَغِنَى بِكُمْ عَنْهُمَا ، فَأَمَّا الْخَصْلَتَانِ اللَّتَانِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّـكُمْ ـ فَشَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَتَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَأَمَّا الْخَصْلَتَانِ اللَّتَانِ لاَغِنَى بِكُمْ عَنْهُمَا ـ فَتَسْأَلُونَ اللهَ الْجَنَّـةَ وَتَعُوذُونَ بِهِ مِنَ النَّارِ ، وَمَنْ سَقَى صَائِمًا سَقَاهُ اللهُ مِنْ حَوْضِي شَرْبَةً لاَيَظْمَأُ بَعْدَهَا حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ » .

عِبَادَ اللهِ :

إِنَّ مَنْ يَغْفُلُ عَنْ رَمَضَانَ وَفَضْلِهِ ، وَيَحْرِمُ نَفْسَهُ خَيْرَهُ ، وَيَسِيرُ فِي غَيِّهِ يَكُونُ شَقِيًّا مَحْرُومًا ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ صَعِدَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم[2] الْمِنْبَرَ فَلَمَّا رَقِيَ عَتَبَةً قَالَ : آمِينْ[3] . ثُمَّ رَقِيَ أُخْرَى فَقَالَ : آمِينْ . ثُمَّ رَقِيَ عَتَبَةً ثَالِثَةً فَقَالَ : آمِينْ . ثُمَّ قَالَ : أَتَانِي جِبْرِيلُ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّـدُ مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ ، فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ ، فَأَبْعَـدَهُ اللهُ ، فَقُلْتُ : آمِينَ . قَالَ : وَمَنْ أَدْرَكَ

---

(١) شربة لبن ممذوق أى مخلوط بالماء .

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه عن الحسن بن مالك بن الحويرث عن أبيه عن جده رضى الله عنهم .

(٣) أى استجب يا ألله .

وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَدَخَلَ النَّارَ ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ ، فَقُلْتُ : آمِينَ . قَالَ : وَمَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ : فَقُلْتُ : آمِينَ » .

وَيَاقَوْمِ :

كَيْفَ يَسْتَثْقِلُ صِيَامَ هَـذَا الشَّهْرِ ، وَيَكْرَهُ قُدُومَهُ عَاقِلٌ ، وَقَدْ عَلِمَ تِلْكَ الْمَزَايَا ، وَهَلْ يَرْضَى مُؤْمِنٌ أَنْ يَسْتَثْقِلَ رَمَضَانَ ، وَيَكُونَ كَابْنِ الرَّشِيدِ الَّذِي كَانَ سَفِيهاً ، وَقَدْ قَالَ : فِي عَامِ مَوْتِهِ قَبْلَ قُدُومِ رَمَضَانَ مُعْلِناً كَرَاهِيَتَهُ لَهُ :

دَعَانِيَ شَهْرُ الصَّوْمِ لاَ كَانَ مِنْ شَهْرِ
وَلاَ صُمْتُ شَهْراً بَعْدَهُ آخِرَ الدَّهْرِ

وَقَدْ أَصَابَ ذَلِكَ السَّفِيهَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَوْلِ ـ دَاءُ الصَّرْعِ ، فَكَانَ يُصْرَعُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً ، وَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ رَمَضَانُ آخَرُ ، وَإِنَّ الْمُسْتَثْقِلِينَ لِرَمَضَانَ وَمَا فِيهِ مِنْ صَلاَةٍ وَصِيَامٍ : وَمَا إِلَيْهِمَا ـ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لاَ يُصَلِّي إِلاَّ فِي رَمَضَانَ إِذَا صَامَ ، وَرُبَّمَا يَصُومُ ، وَلاَ يُصَلِّي ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لاَ يَجْتَنِبُ كَبَائِرَ الذُّنُوبِ إِلاَّ فِي رَمَضَانَ فَيَعُدُّ أَيَّامَهُ وَلَيَالِيَهُ تَلَهُّفاً وَتَسَرُّعاً إِلَى الْعَوْدَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ الَّتِي تَرَكَهَا بِمَشَقَّةٍ ، وَهَؤُلاَءِ الْمُصِرُّونَ عَلَى مَافَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ـ لَمْ يَتُوبُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ ، فَهُمْ هَلْكَى ، وَمِنَ الْمُسْتَثْقِلِينَ لِصَوْمِ رَمَضَانَ وَطَاعَةِ اللهِ فِيهِ ـ مَنْ لاَ يَصْبِرُ عَلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي ، فَهُوَ يُوَاقِعُهَا فِي رَمَضَانَ ، وَلاَشَكَّ أَنَّ أُولَئِكَ الأَشْقِيَاءَ يَسْعَوْنَ إِلَى النَّارِ ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ .

أيها المسلم :

قال النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم : « الصِّيَامُ فِي الشِّتَاءِ الْغَنِيمَةُ الْبَارِدَةُ »[1] أي الَّتِي تَحْصُلُ بِدُونِ مَشَقَّةٍ ، وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً : « الشِّتَاءُ رَبِيعُ الْمُؤْمِنِ طَالَ لَيْلُهُ فَقَامَهُ وَقَصُرَ نَهَارُهُ فَصَامَهُ »[2] ، فَشَهْرُ رمضانَ فِي عَامِنَا هٰذَا - فُرْصَةٌ لِلتَّمَتُّعِ بِالصِّيَامِ وَالْقِيَامِ بِصَلَاةِ الْقِيَامِ التَّرَاوِيحِ ، وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ رَبِيعِ الْقُلُوبِ وَنُورِهَا وَدَوَائِهَا .

أيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

إنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكْرَمَكُمْ إِذْ نَادَاكُمْ بِوَصْفِ الْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) فَاتَّقُوا اللهَ وَاشْكُرُوا لَهُ : لِذٰلِكَ الْإِكْرَامِ بِكَمَالِ الصِّيَامِ ، وَحُسْنِ الْقِيَامِ ، وَأَدَاءِ صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ بِخُشُوعٍ وَاطْمِئْنَانٍ وَاتَّقُوهُ تَعَالَى وَانْشَطُوا لِلْقِيَامِ مِنَ الْفِرَاشِ ، وَتَسَحَّرُوا ، فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَةً ، وَبَرْهِنُوا عَلَى إِيمَانِكُمْ بِإِسْبَاغِ الْوُضُوءِ ، وَإِتْمَامِهِ مَعَ الْبَرْدِ الشَّدِيدِ :

فَقَدْ قَالَ رَسُولُنَا صلى اللهُ عليه وسلم: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ . قالوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ : إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَذٰلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذٰلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذٰلِكُمُ الرِّبَاطُ »[3] .

---

(١) رواه الإمام أحمد ، والترمذى .

(٢) سبق بيان من خرجه .

(٣) رواه مالك ومسلم والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

فَمَا أَجْدَرَكَ أَيُّهَا الْعَاقِلُ بِالْحِرْصِ عَلَى الْإِيمَانِ : بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى فُرُوعِهِ عَلَى الدَّوَامِ ، وَبِخَاصَّةٍ فِي شَهْرِ الصِّيَامِ وَالْقُرْآنِ حُبًّا لِلَّهِ ، الَّذِي تَفَضَّلَ عَلَيْكَ بِإِنْعَامِهِ وَإِكْرَامِهِ : لِتَسْعَدَ بِغَيْرِ انْقِطَاعٍ بِالْفَوْزِ بِكُلِّ خَيْرٍ مِنَ اللهِ الَّذِي بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ ، وَتَكُونَ أَهْلًا لِسِتِّ بِشَارَاتٍ :

(الأولى) مَحَبَّةُ اللهِ الْقَائِلِ : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

(الثانية) النُّصْرَةُ عَلَى الْأَعْدَاءِ : « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » الْقَائِلِ : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

(الثالثة) الْعِزَّةُ « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » .

(الرابعة) الرَّحْمَةُ قَالَ تَعَالَى : « وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » .

(الخامسة) الْفَضْلُ الْكَبِيرُ : قال تعالى : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا » .

(السادسة) الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ عِنْدَهُ تَعَالَى : قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ » : أى مَنْزِلَةً عَالِيَةً .

قَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم : « إِنَّ اللهَ فَرَضَ صِيَامَ رَمَضَانَ وَسَنَنْتُ لَكُمْ قِيَامَهُ فَمَنْ صَامَهُ وَقَامَهُ إِيمَانًا (١) وَاحْتِسَابًا (٢) خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ

---

(١) أى تصديقاً بأنه حق وطاعة .
(٢) أى طلباً لوجه الله تعالى وثوابه : لا لرياء .

كيوم ولدته أمه » رواه النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ(١) لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ . وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُعْطِيَتْ أُمَّتِي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي ، أَمَّا وَاحِدَةٌ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ يَنْظُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ ، وَمَنْ نَظَرَ اللهُ إِلَيْهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ أَبَدًا ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ خُلُوفَ أَفْوَاهِهِمْ حِينَ يُمْسُونَ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ . وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَأَمَّا الرَّابِعَةُ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُ جَنَّتَهُ فَيَقُولُ لَهَا : اسْتَعِدِّي وَتَزَيَّنِي لِعِبَادِي أَوْشَكَ أَنْ يَسْتَرِيحُوا مِنْ تَعَبِ الدُّنْيَا إِلَى دَارِي وَكَرَامَتِي ، وَأَمَّا الْخَامِسَةُ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ آخِرُ لَيْلَةٍ غَفَرَ اللهُ لَهُمْ جَمِيعًا ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، فَقَالَ : لَا ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الْعُمَّالِ يَعْمَلُونَ ، فَإِذَا فَرَغُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ وُفُّوا أُجُورَهُمْ » رواه البيهقي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

---

(١) أى سترت ذنوبه وعفا الله عنها ، وهذا فى حقوق الله تعالى دون حقوق العباد : ولعل الله تعالى يتجاوز عن الجميع ويرضى العباد ذوى الحقوق عن الصائم يوم القيامة ، ويؤيد ذلك حديث النسائى السابق .

٤٨ — مزايا الصيام

الحمدُ للهِ جعلَ رمضانَ سيِّدَ الشهورِ ، والسَّعيدُ منْ عمرَ أوقاتَهُ بالطاعةِ والشقيُّ منْ حُرِمَ ثوابَهُ بالمعصيةِ ، وفيما أوحاهُ اللهُ تعالَى إلى نبيِّهِ موسَى : « إنِّي أعطيتُ أمَّةَ محمَّدٍ نورَيْنِ نورَ رمضانَ ، ونورَ القرآنِ لِكَيْلا تضرَّهُمْ ظلمتانِ : ظلمةُ القبرِ وظلمةُ يومِ القيامةِ » .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ يحبُّ منْ جاهدَ نفسَهُ وهواهُ ، وشيطانَهُ ، ولذلكَ — شرعَ الصيامَ ، وقالَ : (يا أيُّها الَّذينَ آمنوا كُتِبَ عليكُمُ الصِّيامُ كما كُتِبَ على الَّذينَ منْ قبلِكُمْ لعلَّكُمْ تتَّقونَ) .

وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمَّداً رسولُ اللهِ خيرُ منْ صامَ وقامَ ، وطابَ لهُ ذلكَ إلى أنْ قامَ منَ الليلِ حتَّى تورَّمتْ قدماهُ ، وواصلَ صيامَهُ ونهى غيرَهُ عنْ ذلكَ رحمةً لهُ وقالَ : « إنِّي لستُ كهيئتِكُمْ إنِّي يطعمُني ربِّي ويسقيني »[1] أيْ يعطيني قوَّةَ الآكلِ الشاربِ ، ووجَّهَ لأداءِ الصيامِ والقيامِ على أكملِ وجهٍ فقالَ : « منْ صامَ رمضانَ وعرفَ حدودَهُ وتحفَّظَ ما ينبغي لهُ أنْ يتحفَّظَ كفَّرَ ما قبلَهُ »[2] . وقالَ : « ربَّ صائمٍ ليسَ لهُ منْ صيامِهِ إلاَّ الجوعُ ، والعطشُ ، وربَّ قائمٍ ليسَ لهُ منْ قيامِهِ إلاَّ السهرُ »[3] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها .

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٣) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

اللَّهُمَّ صلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ دَامَتْ طَاعَتُهُمْ دَلِيلاً عَلَى حُسْنِ صِيَامِهِمْ وَقِيَامِهِمْ : (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

أَمَّا بَعْدُ :

فَيَاعِبادَ اللهِ : الْإِمَامُ الثَّوْرِيُّ – مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يُقْتَدَى بِهِمْ : كَانَ عَظِيمَ الاجْتِهَادِ فِي الطَّاعَةِ ، حَتَّى قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ : لَوْ خَفَّفْتَ عَنْ نَفْسِكَ مِنْ هَذَا الاجْتِهَادِ لَبَلَغْتَ مُرَادَكَ أَيْضاً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، فَقَالَ ذَلِكَ الْإِمَامُ الْعَارِفُ بِرَبِّهِ : بِدَلَائِلِ عَظَمَتِهِ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ : « كَيْفَ لَا أَجْتَهِدُ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ – يَكُونُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ فَيَتَجَلَّى لَهُمْ نُورٌ يُضِيءُ لَهُمْ الْجِنَانَ الثَّمَانِيَةَ فَيَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ نُورٌ لِلنَّظَرِ إِلَى اللهِ تَعَالَى الْقَائِلِ : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » .

فَيَخِرُّونَ سَاجِدِينَ فَيُنَادَوْنَ : ارْفَعُوا رُءُوسَكُمْ لَيْسَ الَّذِي تَظُنُّونَ إِنَّمَا هُوَ نُورُ جَارِيَةٍ تَبَسَّمَتْ فِي وَجْهِ صَاحِبِهَا .

فَمِنَ النَّاسِ – مَنْ يَعْرِفُ اللهَ بِالْجُودِ وَالْإِحْسَانِ ، وَيَقُولُ : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُهُ بِالْعَفْوِ وَالْحِلْمِ وَالتَّجَاوُزِ ، وَيَقُولُ : سُبْحَانَ مَنْ أَهْلَكَ الْجَبَابِرَةَ « وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » .

ومنهمْ مَنْ يَعْرِفُهُ بِالْعِزَّةِ وَالْكِبْرِيَاءِ ، وَيَقُولُ : سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَنَا لِعِبَادَتِهِ

« وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُهُ بِالْقَهْرِ وَالْمُلْكِ ، وَيَقُولُ سُبْحَانَ مَنْ يَتَصَرَّفُ فِينَا كَمَا يَشَاءُ . « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُهُ بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وَيقولُ كَمَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : « سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُهُ بِالرَّحْمَةِ وَالْبِرِّ وَاللُّطْفِ ، وَيقولُ : سُبْحَانَ الْبَرِّ الرَّحِيمِ « اللَّهُمَّ يَا مَنْ لَطَفْتَ بِخَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَطَفْتَ بِالْأَجِنَّةِ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهَا ، الطُفْ بِنَا يَا سَيِّدَنَا وَيَا مَوْلَانَا فِيمَا قَدَّرْتَهُ عَلَيْنَا بِلُطْفِكَ الْخَفِيِّ الَّذِي يَتَخَلَّلُ الْمَصَائِبَ بِحَيْثُ لَا يَدْرِي الْمُصَابُ » .

ومِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُهُ بِإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ ، وَقَضَاءِ حَاجَتِهِ ، وَيَقُولُ : سُبْحَانَكَ أَدِمْ عَلَيَّ إِعَانَتَكَ لِي .

وَالْمُؤْمِنُ بِاللهِ حَقًّا هُوَ مَنْ عَرَفَهُ تَعَالَى بِكُلِّ ذٰلِكَ ، وَمَا إِلَى ذٰلِكَ مِنْ دَلَائِلِ عَظَمَتِهِ تَعَالَى ، فَإِنَّهُ يَعْرِفُ رَبَّهُ الَّذِي لَهُ صِفَاتُ الْكَمَالِ ، وَنُعُوتُ الْجَلَالِ ، وَقَدْ تَنَزَّهَ عَنِ الْمِثَالِ : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » هُوَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَقَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَعَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُقَاسَ بِهِ شَيْءٌ ، وَأَجْمَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَأَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، وَيَعْرِفُ الْعَبْدُ ذٰلِكَ خَيْرَ مَعْرِفَةٍ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى الْعَظِيمِ ، الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، الَّذِي يَهْدِي إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَدِينِهِ الْقَوِيمِ ، الَّذِي يُحَقِّقُهُ الْعَبْدُ فِي نَفْسِهِ بِكَامِلِ الصِّيَامِ ، الَّذِي بَيَّنَهُ صلى اللهُ عليه وسلم بِقَوْلِهِ : « لَيْسَ الصِّيَامُ

مِنَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ ، إِنَّمَا الصِّيَامُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ »[١] ، فَمَنْ صَامَ عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ كَمَا يَصُومُ عَنْ كُلِّ مُفْطِرٍ ، وَأَمْسَكَ عَنِ الْفُحْشِ ، وَاجْتَنَبَ الْبَاطِلَ عَلَى الدَّوَامِ — كَانَ مُتَدَيِّنًا وَلِأَنَّ الْقُرْآنَ وَالصِّيَامَ وَسِيلَتَانِ[٢] لِتَدَيُّنِ الْمَرْءِ ، وَمَعْرِفَةِ رَبِّهِ ، وَهِدَايَتِهِ وَتَهْذِيبِهِ وَتَقْوَى قَلْبِهِ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ وَفَرَضَ الصِّيَامَ فِي شَهْرٍ وَاحِدٍ : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَاهَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

عِبَادَ اللهِ :

لَيْسَ كَالصَّوْمِ شَيْءٌ يُصْلِحُ النُّفُوسَ وَيَرُوضُهَا عَلَى أُمَّهَاتِ الْفَضَائِلِ ، وَيُجَمِّلُهَا بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَامِثْلَ لَهُ »[٣] .

---

(١) رواه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما ، والحاكم . وفى آخر هذا الحديث : (فإن سابك أحد أو جهل عليك ، فقل : إنى صائم إنى صائم) .

(٢) القرآن وسيلة ذلك القولية ، والصيام وسيلته العملية .

(٣) قال أبو أمامة رضى الله عنه : يارسول الله مرنى بعمل ـ أى أدخل به الجنة أو ينفعنى الله به ، كما أفاد ذلك بعض روايات الحديث . قال : « عليك بالصوم فإنه لاعدل له . قلت يارسول الله مرنى بعمل . قال : عليك بالصوم ، فإنه لامثل له . قلت يارسول الله مرنى بعمل . قال : عليك بالصوم فإنه لامثل له » رواه النسائى وابن خزيمة فى صحيحه هكذا بالتكرار وبدونه ، ولا عدل له أى لامثل له ، وكان أبو أمامة لايرى فى بيته الدخان نهاراً إلا إذا نزل بهم .

إِنَّ الصَّوْمَ كما يُصِحُّ الْجِسْمَ : قالَ صلى اللهُ عليه وسلم[١] : « صُومُوا تَصِحُّوا » ـ يُعَوِّدُ النفْسَ عَلَى الصَّبْرِ ، فَمَنْ صَبَرَ شَهْراً كَامِلاً عَنْ تَنَاوُلِ شَهَوَاتِهِ ، مَعَ شِدَّةِ شَغَفِهِ وَمَيْلِهِ إِلَيْهَا ، وَوَفْرَةِ الْفِتَنِ ، وَكَثْرَةِ الْمُغْرِيَاتِ صَارَ الصَّبْرُ لَهُ خُلُقاً ، وَكَانَ اللهُ مَعَهُ ، يُمِدُّهُ بِعَوْنِهِ : « إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

وَالصَّوْمُ كَذَٰلِكَ يُرَبِّي النَّفْسَ عَلَى مُرَاقَبَةِ اللهِ ، فالصَّائِمُ حَقًّا إِنَّمَا يَصُومُ مُرَاقِباً لِلهِ الَّذِى لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ : « إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ » وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِى مُرَاقَبَةِ اللهِ .

وَمِنْ ذَٰلِكَ الْخَبَرِ لَمَّا الْتَقَتِ امْرَأَةٌ بِرَجُلٍ فِى الْخَلاَءِ بِاللَّيْلِ ، وَرَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا : قَائِلاً : لاَ يَرَانَا أَحَدٌ إِلاَّ الْكَوَاكِبُ ـ قَالَتْ لَهُ : وَأَيْنَ مُكَوْكِبُ الْكَوَاكِبِ ، فَكَانَتْ تِلْكَ الْكَلِمَةُ الزَّاجِرَةُ ، مِنَ الْمَرْأَةِ الطَّاهِرَةِ ـ وَاقِيَةً مِنَ الْجَرِيمَةِ الْمُنْكَرَةِ .

وَكَذَٰلِكَ الصَّوْمُ يَبْعَثُ عَلَى الْعَطْفِ وَالْمُوَاسَاةِ ، فَإِنَّ الصَّائِمَ ـ إِذْ يُحِسُّ الْجُوعَ ـ يَذْكُرُ قَدْرَ الطَّعَامِ ، وَأَنَّهُ نِعْمَةٌ جَدِيرَةٌ بِالشُّكْرِ ، وَشُكْرُهَا بِإِطْعَامِ الْجَائِعِ ، وَمُوَاسَاةِ الْمُحتَاجِ ، وَمِنْ هُنَا كَانَ يُوسُفُ يَصُومُ كَثِيراً وَلَمَّا قِيلَ لَهُ : لِمَ تَجُوعُ وَأَنْتَ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ؟ قَالَ : أَخَافُ أَنْ أَشْبَعَ فَأَنْسَى الْجَائِعَ .

---

(١) روى الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « اغزوا تغنموا وصوموا تصحوا وسافروا تستغنوا » .

كَذٰلِكَ بِالصَّوْمِ ـ يَكُونُ المَرْءُ عَفِيفاً ، وَلِذٰلِكَ وَجَّهَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إِلَيْهِ الشَّبَابَ فقَالَ[1] : «يَامَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ ـ الْقُدْرَةَ عَلَى مُؤَنِ الزَّوَاجِ ـ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » : وِقَايَةٌ مِنَ الشَّهْوَةِ ، وَكَذٰلِكَ المَرْءُ بالصَّوْمِ ـ يَكُونُ مُهَذَّباً . لايَسُبُّ وَلاَ يَغْتَابُ وَلاَ يَنِمُّ ، وَلاَ يَلْغُو ، وَلاَ يُفْحِشُ ، وَيَرَى أَنَّ هٰذِهِ السَّيِّئَاتِ ، وَإِنْ كَانَتْ فى كُلِّ وَقْتٍ ضَارَّةً فى وَقْتِ الصَّوْمِ ـ هِيَ أَسْوَأُ ضَرَراً ، وَأَعْظَمُ خَطَراً : لِضَيَاعِ الصَّوْمِ بِهَا ، وَهُوَ نِعْمَتُهُ الْكُبْرَى ، وَسِرُّ قُوَّةِ رُوحِهِ الَّتِي بِهَا يَعِزُّ وَيَسْعَدُ فى الدُّنْيَا وَالأُخْرَى ، وَدَوْماً نُصْبُ عَيْنِ الصَّائِمِ ، الْحَرِيصِ عَلَى نَفْعِ نَفْسِهِ ـ قَوْلُهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ ـ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ ، فَإِنَّ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ ـ فَلْيَقُلْ : إِنِّى صَائِمٌ ، إِنِّى صَائِمٌ »[2]. لِيَقُلْ : ذٰلِكَ بِقَلْبِهِ ، حَتَّى لاَيُقَابِلَ السِّبَابَ بِمِثْلِهِ ، وَلْيَقُلْهُ بِلِسَانِهِ : لَعَلَّ مَنْ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ ـ يَكُفُّ عَنْ ذٰلِكَ ، حِينَ يُنَبَّهُ إِلَى أَنَّهُ فى مُوَاجَهَةِ صَائِمٍ ، لاَيُقَاتِلُ وَلاَ يُشَاتِمُ ، فَمِنَ الْإِنْصَافِ أَنْ يُقَابَلَ بِالْمِثْلِ ، وَلاَ شَكَّ

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٢) روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به . والصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أوقاتله فليقل: إنى صائم إنى صائم . والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقى ربه فرح بصومه » .

أنَّ هذا الموقف من الصائم يجعله عفوًا مُصلحًا ، والله تعالى يقول : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » .

والصوم - يفرض على الناس جميعًا مَنْ حِيزَتْ لَهُ كنوز قارون ، ومَنْ مَلَكَ شيئًا يسيرًا ، ومَنْ لَمْ يَمْلِكْ شيئًا - الامتناع في وقت واحد عن الطعام والشراب ، وهذه مساواة بين العالم الإسلامي كله : لِوَحْدَةِ الهدف والفكرة والمشاعر . والله تعالى يقول : « وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » .

أيها المسلمون :

اتقوا الله . وحققوا الصوم في نفوسكم بالإمساك عما يغضب الله . واحذروا المعاصي ، التي تجعل حظكم من الصوم الجوع والعطش . وتحرمكم ثوابه ، واستعينوا بقراءة القرآن وتدبره والعمل به - على ملء صحائفكم بالخير في شهر الخير ، الذي من تقرب فيه بخصلة من الخير - كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فيه فريضة - كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وحثوا أولادكم وأهلكم ونساءكم وخدمكم على أداء الصلوات في أوقاتها ، فلا يليق صيام بلا صلاة ، واحرصوا على أداء صلاة التراويح في خشوع وطمأنينة ، ولا تقطعوا صيامكم بالإسراف في الطعام والشراب محاولين تعويض ما فاتكم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « ما ملأ آدمي وعاء شرًا من بطن بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه

فإنْ كانَ لاَ محَالَةَ - فثُلُثٌ لِطعامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرابِهِ وَثُلُثٌ لِنفَسِهِ »[1] .

واعلَمُوا أنَّ الصَّدَقَةَ فى رمَضانَ - أفضَلُ صَدَقَةٍ : « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إلَى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « الصِّيَامُ لِلهِ - لايعلَمُ ثَوَابَ عَمَلِهِ إلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ » رواه الطبرانىُّ عن ابن عُمَرَ رضى اللهُ عنهما .

وقال صلى اللهُ عليـه وسلم : « الصِّيَامُ جُنَّةٌ - أىْ وِقَايَةٌ مِنَ المعَاصِى المؤَدِّيَةِ إلَى النَّارِ - مالَمْ يَخْرِقْهَا » رواه النسائىُّ ، وابنُ خُزَيْمَةَ فى صحيحِهِ ، وَالْبَيْهَقِىُّ - عن أبى عُبَيْدَةَ رضى اللهُ عنه . وَزَادَ : « قيلَ : وَبِمَ يَخْرِقُهَا ؟ قَالَ : بِكَذِبٍ أوْ غِيبَةٍ » .

---

(١) رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه ، عن المقدام بن معديكرب رضى الله عنه .

٤٩ – إرشاد الصائم إلى فعل الخير وأثر الصوم المقبول

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَرَّمَ بَنِي آدَمَ وَشَرَّفَهُمْ بِعِبَادَتِهِ ، وَهُوَ الغَنِيُّ الكَرِيمُ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَنْشُرُ رَائِحَةً عَلَى أَهْلِ الجَنَّةِ بَعْدَ اسْتِقْرَارِهِمْ فِيهَا ، فَيَقُولُونَ : مَا شَمِمْنَا رَائِحَةً أَطْيَبَ مِنْ هَذِهِ الرَّائِحَةِ فَيُقَالُ لَهُمْ : هَذِهِ رَائِحَةُ أَفْوَاهِ الصَّائِمِينَ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ القَائِلُ : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ » .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الصَّابِرِينَ القَائِمِينَ الخَاشِعِينَ .

أَمَّا بَعْدُ : فَيَاعِبَادَ اللَّهِ :

كَانَ عَطَاءٌ الخُرَاسَانِيُّ أَحَدُ الهُدَاةِ الصَّالِحِينَ - يُنَادِي أَصْحَابَهُ بِاللَّيْلِ ، وَيَقُولُ : يَافُلَانُ ، وَيَافُلَانُ ، وَيَافُلَانُ قُومُوا فَتَوَضَّئُوا ، وَصَلُّوا : فَقِيَامُ هَذَا اللَّيْلِ . وَصِيَامُ هَذَا النَّهَارِ - أَهْوَنُ مِنْ شُرْبِ الصَّدِيدِ غَداً فِي النَّارِ يَوْمَ الوَعِيدِ .

فَالصِّيَامُ وَالقِيَامُ - مِنْ أَعْظَمِ الحَوَاجِزِ عَنِ النِّيرَانِ ، وَهُمَا مُيَسَّرَانِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، الَّذِي يُعْظِمُ اللَّهُ فِيهِ أَجْرَ العَامِلِينَ .

عبدَ الله :

الموتُ أمامكَ ، ولَوْ متَّ لطالتْ رَقدَتُكَ عَلى حَسْرَةٍ أوْ سُرُورٍ ، وَيكسبُكَ السُّرُورَ وَيقيكَ الحَسْرَةَ – اجْتهادُكَ في الطَّاعَةِ أيَّامَ ذلكَ الشَّهرِ الَّتي تَمضي سِرَاعاً ، وَهيَ أيَّامٌ سَعيدَة . أيَّامُ سَيِّدِ الشُّهُورِ شَهرِ التَّرَاويحِ الَّتي لهَا حَلاوَةٌ ، وعَلَيهَا طُلاوَة ، وَمَنْ ذَاقَ عَرَف . فالنُّفوسُ الوَاعيةُ تُسارِعُ فيهَا في فعلِ الخيْرَاتِ حَيثُ تُضاعَفُ الحَسنَاتِ ، وَفيهِ طرُقُ الطَّاعَاتِ سَهلَة مُيسَّرَةَ وَالدُّعاءِ مَقبُولٌ ، وَقدْ قَالَ رَسُولُنَا صلى الله عليه وسلم : « نَوْمُ الصَّائمِ عِبَادَةٌ وَصَمْتُهُ تَسْبيحٌ ، ودُعَاؤُهُ مُسْتجَابٌ ، وَعَمَلُهُ مُضاعَفٌ وَذَنبُهُ مَغفُورٌ »[1] .

فالعَاقلُ يجتهِدُ في هـذهِ الأيَّامِ في الطَّاعَةِ ، وَلاَ يَلهُو عَنهَا ، وَلاَ يُفرِّطُ وَلاَ يَلعَبُ في وَقتٍ منهَا مَهمَا قصَّرَ فهُوَ أحوَجُ يَوْمَ السَّاعَةِ لِكُلِّ أوْقاتِ العُمُرِ في طَاعَةٍ ليَكُونَ في عِدَادِ السَّابقينَ الفَائزِينَ ، وَبذلكَ يَسْلَمُ منَ النَّدَمِ يَوْمَ لا يَستطيعُ أنْ يَعمَلَ وَيتَدَارَكَ مَافَاتَ يَوْمَ الجزَاءِ عَلى مَايَكونُ مِنْ أعمَالٍ في الدُّنيَا : (فَمَنْ يَعمَلْ مثقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعمَلْ مثقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) .

وَانتَبهُوا – يَاعبَادَ اللهِ – لِقوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنهُمَا : « كَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أجْوَدَ النَّاسِ وَكانَ أجْوَدُ مَايَكُونُ في رَمَضَانَ حِينَ يَلقَاهُ جبْرِيلُ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ ، وَكَانَ يَلقَاهُ جبْرِيلُ يَلقَاهُ كُلَّ لَيلَةٍ

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه .

مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ »[1].

وَحَقًّا كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَخِيًّا كَرِيمًا فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَمَا أَصْدَقَ زَوْجَهُ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي خِطَابِهَا لَهُ : « إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ أَيِ الْقَرَابَةَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، أَيْ تُعِينُ مَنْ لَا يَسْتَقِلُّ بِأَمْرِهِ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ - الَّذِي لَا يُوجَدُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ نَفَائِسِ الْفَوَائِدِ ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ - حَوَادِثِ الْحَقِّ »[2] .

وَقَدْ سُئِلَ صلى اللهُ عليه وسلم وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ ، فَقَالَ لِسَائِلِهِ : اقْتَرِضْ عَلَيْنَا ، وَلَكِنَّهُ صلى الله عليه وسلم يَزِيدُ سَخَاؤُهُ وَكَرَمُهُ فِي رَمَضَانَ شَهْرِ الْكَرَمِ الْإِلَهِيِّ الْعَظِيمِ لِدَرَجَةِ أَنَّ وَاصِفَهُ يَقُولُ : إِنَّهُ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ الَّذِي يُعْطِيهِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ الَّتِي تَهُبُّ قَبْلَ نُزُولِ الْمَطَرِ مُبَشِّرَةً بِهِ وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ اسْتَخْلَصَ هَذَا الدِّينَ لِنَفْسِهِ ، فَلَا يَصْلُحُ لِدِينِكُمْ إِلَّا السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ ، أَلَا فَزَيِّنُوا دِينَكُمْ بِهِمَا »[3] .

أَلَا فَمَا أَسْعَدَ الصَّائِمَ وَقَدْ أَدْرَكَ أَثَرَ الصَّوْمِ ، وَاقْتَدَى بِنَبِيِّهِ ، فَعَطَفَ عَلَى الْمُحْتَاجِ ، وَرَحِمَ الْمِسْكِينَ ، وَأَطْعَمَ الْجَائِعَ ، وَلِسَانُهُ رَطْبٌ بِحَمْدِ اللهِ ، الَّذِي دَفَعَهُ لِلْخَيْرِ وَرِضَاهُ .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها .

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط عن عمران بن حصين رضى الله عنه .

وَلِذَلِكَ كَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - سَعْيًا إِلَى هَٰذَا الرِّضَا - يَصُومُ وَيُفْطِرُ مَعَ المَسَاكِينِ ، وَكَانَ إِذَا جَاءَهُ سَائِلٌ ، وَهُوَ عَلَى طَعَامِهِ - أَخَذَ نَصِيبَهُ مِنَ الطَّعَامِ ، فَيُصْبِحُ صَائِمًا ، وَمَا أَكَلَ شَيْئًا .

أَلاَ وَإِنَّ حُبَّ فِعْلِ الخَيْرَاتِ - لَأَمَارَةُ الصِّيَامِ المَقْبُولِ ذَلِكَ الصِّيَامُ الَّذِى يَكُونُ فِيهِ الامْتِنَاعُ عَنِ المُفْطِرَاتِ احْتِسَابًا للهِ لاَ قَصْدًا لِسِوَاهُ وَالَّذِى تَصُومُ فِيهِ الجَوَارِحُ عَمَّا يُغْضِبُ اللهُ ، فَلاَ تَسْتَمِعُ الأُذُنُ إِلَى لَغْوٍ أَوْ بَاطِلٍ وَلاَ يَنْظُرُ العَيْنُ إِلَى مُحَرَّمٍ وَلاَ يَنْطِقُ اللِّسَانُ إِلَى فُحْشٍ أَوْ زُورٍ وَلاَ يَتَحَرَّكُ اليَدُ وَالرِّجْلُ إِلاَّ فِى الخَيْرِ وَإِلَى الخَيْرِ ، ذَلِكَ الصِّيَامُ المَقْبُولُ هُوَ الَّذِى يُقْبَلُ دُعَاءُ صَاحِبِهِ . قال صلى الله عليه وسلم : « ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَفِى رِوَايَةٍ حِينَ يُفْطِرُ ، وَالإِمَامُ العَادِلُ ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الغَمَامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَيَقُولُ الرَّبُّ : وَعِزَّتِى وَجَلاَلِى لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ »[1] ، ذَلِكَ الصِّيَامُ المَقْبُولُ هُوَ الَّذِى نَسَبَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى نَفْسِهِ ، وَيُعْطِى الجَزَاءَ عَلَيْهِ بِنَفْسِهِ ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُونَ - يَاقَوْمِ - أَنْ تَتَصَوَّرُوا مَبْلَغَ جَزَاءٍ يَتَوَلَّى تَسْلِيمَهُ بِنَفْسِهِ الوَاسِعُ العَلِيمُ الَّذِى قال : « كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِى ، وَأَنَا أَجْزِى بِهِ »[2] .

وَمِنْ هُنَا كَانَ تَغَيُّرُ فَمِ الصَّائِمِ مِنْ تَرْكِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَمَا أَجَمَّ

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) سبق تخريجه .

مما يحرص الإنسان عليه ، ويسعى إليه - أطيب عنــده تعالى من ريح المسك .

أيها المستمعون لهذا الحق الواعون له :

صوموا عما حرم الله كما تصومون عما أحل الله : إرضاء لله، فما أعظم - كما اتضح - أثر الصيام المقبول في خير الفرد والمجتمع ، ولا عجب أن يرفع الله ذكر من صام ذلك الصيام يوم القيامة يوم يلقاه تبارك وتعالى وهو فرح بصومه يوم يجعل سبحانه رائحة فم الصائم الكريمة أطيب من ريح المسك : تنويها به ، وإشادة بفضله في الموقف العظيم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة يخرج الصائمون من قبورهم يعرفون بريح صيامهم وأفواههم أطيب من ريح المسك ، فيلقون الموائد والأباريق مسندة ، فيقال لهم : كلوا ، فقد جعتم ، واشربوا ، فقد عطشتم وتمتعوا ، فقد عييتم ، فيأكلون ، ويشربون ، والناس في شدة وعيا - أي تعب -

يا قوم :

الصوم المقبول المثمر ييسر للصائم الاقتداء بالسبط الكريم وليد رمضان[1] الحسن رضي الله عنه في سخائه وعفوه .

---

(١) رواه أبو الشيخ عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) ولد رضى الله عنه فى منتصف شهر رمضان المبارك من السنة الثالثة من الهجرة .

وَكَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَجَدِّهِ صلى الله عليه وسلم – غَايَةً فِي الْجُودِ وَالْكَرَمِ بِبَاعِثٍ مِنْ قُوَّةِ الْإِيمَانِ بِاللهِ الَّذِي وَعَدَ بِالْجَزَاءِ الْأَوْفَى لِلْمُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ وَقَالَ : (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا) .

وَقَالَ : (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) . وَقَالَ: (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) : سَمِعَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شَخْصًا يَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَسُدَّ حَاجَتَهُ ، وَيَرْزُقَهُ عَشَرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ، فَبَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ ، وَرَآهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ يُقَالُ لَهُ عِصَامٌ ، فَأَخَذَ يَشْتِمُهُ ، وَيَسُبُّ أَبَاهُ عَلِيًّا كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، فَقَالَ الْحَسَنُ : أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ثُمَّ قَرَأَ : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) ثُمَّ قَالَ : هَوِّنِ الْأَمْرَ عَلَيْكَ اسْتَغْفِرِ اللهَ لِي وَلَكَ إِنَّكَ لَوِ اسْتَعَنْتَنَا أَعَنَّاكَ ، وَلَوِ اسْتَرْشَدْتَنَا لَأَرْشَدْنَاكَ . فَنَدِمَ عِصَامٌ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ، فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ قَوْلًا كَقَوْلِ جَدِّهِ لِأَهْلِ مَكَّةَ يَوْمَ فَتْحِهَا فِي رَمَضَانَ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ « لَا عَتْبَ عَلَيْكَ يَغْفِرُ اللهُ لَكَ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » ، ثُمَّ قَالَ رضي الله عنه : حَيَّاكَ اللهُ وَعَافَاكَ انْبَسِطْ لَنَا فِي حَوَائِجِكَ وَمَا يَعْرِضُ لَكَ – تَجِدْ عِنْدَنَا أَفْضَلَ ظَنِّكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى فَاسْتَحْيَا عِصَامٌ كُلَّ الْحَيَاءِ وَانْصَرَفَ ، وَهُوَ يَقُولُ : مَا عَلَى الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْحَسَنِ ، وَمِنْ أَبِيهِ : (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

اتَّقُوا اللهَ ، وَبَرْهِنُوا بِحُسْنِ مُعَامَلَتِكُمْ ، وَإِحْسَانِكُمْ وَجُودِكُمْ ، وَعَفْوِكُمْ وَحِلْمِكُمْ وَصَبْرِكُمْ - عَلَى حُسْنِ صِيَامِكُمْ يَحْسُنْ حَالُكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

قَالَ صلى الله عليه وسلم : « الصِّيَامُ جُنَّةٌ يَسْتَجِنُّ بِهَا الْعَبْدُ مِنَ النَّارِ » رَوَاهُ أَحْمَدُ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي اللهُ عنهما .

وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّ لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ لَدَعْوَةً مَا تُرَدُّ » ، رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضى اللهُ عنهما ، وَقَالَ عَبْدُ اللهِ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ رضي الله عنه : سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي رضي الله عنهما يَقُولُ عند فِطْرِهِ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي » .

وَقَالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ » ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى اللهُ عنه .

٥٠ – تذكير الصائم بذكرى غزوتى بدر والفتح

الحمدُ للهِ ، الَّذى جَعَلَ فى حَوَادِثِ الأَيَّامِ عِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَار .

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ : صَدَقَ وَعْدَهُ . وَنَصَرَ عَبْدَهُ . وَأَعَزَّ جُنْدَه . وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحدَه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحمداً رَسُولُ اللهِ : دَعَا إِلَى سَبيلِ رَبِّهِ ـ كَمَا أَدَّبَهُ ـ بالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وَجَادَلَ المُعَانِدِينَ بالَّتِى هِيَ أَحْسَن ، وَقَاتَلَ المُقَاتِلِينَ الظَّالِمِينَ ـ بإِذْنِهِ تَعَالَى ، فَنَصَرَهُ نَصْراً مُبِيناً .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ جَاهَدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَنَصَرُوا دِينَهُ وَوَقَفُوا عِنْدَ حُدُودِهِ ، فَنَصَرَهُمُ اللهُ « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ » .

أما بعدُ : فَيَاعِبَادَ اللهِ ، الَّذِى أَسْأَلُهُ لِى وَلَكُمْ حِفْظَ الإِيمَانِ وَدَوَامَهُ ، حَتَّى تَدُومَ لَنَا البُشْرَى ـ بالنَّصْرِ عَلَى اليَهُودِ ، أَهْلِ الغُرُورِ وَالمَكْرِ وَالكَيْدِ وَالبَغْىِ وَالعُدْوَانِ وَالفَسَادِ فِى كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ : أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَضُوا عَهْدَ الرَّسُولِ وَحَارَبُوهُ ، وَبَدَلاً مِنْ أَنْ يَعْتَبِرُوا بِهَزِيمَةِ قُرَيْشٍ ـ مَعَ قُوَّتِهِمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ ـ أَمَامَ المُسْلِمِينَ : مَعَ قِلَّتِهِمْ عَدَداً وَعُدَداً ـ قَالُوا : لَسْنَا أَمْثَالَ قُرَيْشٍ فِى الضَّعْفِ ، وَقِلَّةِ المَعْرِفَةِ بالقِتَالِ ، وَإِنَّمَا نَحْنُ أَقْوِيَاءُ بالقِتَالِ عَارِفُونَ فَأَنْزَلَ اللهُ قُرْآنًا : لإِعْلاَنِ هَزِيمَتِهِمْ كَمَا هُزِمَ المُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَإِنَّ ذَلِكَ لَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ بالنَّصْرِ : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ التَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى

سَبِيلِ اللهِ وَأُخْـرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ[1] مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ[2] بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ » .

وَمَا يَوْمُ بَدْرٍ - يَاقَوْمِ ؟

هُوَ يَوْمٌ تَبَسَّمَ فِيهِ الْإِسْلَامُ : بِانْهِزَامِ الشِّرْكِ وَارْتِفَاعِ لِوَاءِ الْحَقِّ : ذَٰلِكُمُ الْيَوْمُ هُوَ يَوْمُ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ ، وَقَدْ فُرِضَ الصِّيَامُ ، الَّذِي يُقَوِّي فِي النُّفُوسِ الْعَزَائِمَ ، وَيُضَاعِفُ فِيهَا الْهِمَمَ : وَتِلْكَ هِيَ الْقُوَى الْمَعْنَوِيَّةُ ، الَّتِي تَفُوقُ الْقُوَى الْمَادِيَّةَ : فِي إِحْرَازِ النَّصْرِ .

وَقَدْ دَارَتِ الْمَعْرَكَةُ فِي ذَٰلِكَ الْيَوْمِ ، بَيْنَ الْإِيمَانِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ ، فِي مَوْضِعٍ يُسَمَّى بَدْراً ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، حَيْثُ الْتَقَى الْجَمْعَانِ : جَمْعُ الْمُسْلِمِينَ وَجَمْعُ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَمْ تَكُنْ قُوَّةُ الْجَمْعَيْنِ الْمَادِيَّةُ - مُتَكَافِئَةً ، فَقَدْ كَانَ جَمْعُ الْمُشْرِكِينَ نَحْوَ أَلْفِ رَجُلٍ . كَامِلِي السِّلَاحِ وَالْمَئُونَةِ ، وَجَمْعُ الْمُسْلِمِينَ - ثَلَثُمِائَةِ رَجُلٍ يَزِيدُونَ قَلِيلاً ، وَأَسْلِحَتُهُمْ وَمَئُونَتُهُمْ قَلِيلَةٌ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْبَلُوا عَلَى الْعَدُوِّ بِالْإِيمَانِ ، وَقَدْ نَمَّاهُ الصِّيَامُ ، وَزَادَهُ إِشْرَاقاً الْقُرْآنُ وَالْإِيمَانُ يَجْعَلُ الْعَزَائِمَ قَوِيَّةً ، وَالْهِمَمَ فَتِيَّةً ، وَالْحَقَّ مُخْتَاراً : انْظُرُوا إِلَى

---

(١) يرى الكفار المسلمين مثليهم أى مثل الكفار فى العدد ، وذلك عند الالتحام فى ساحة القتال : لتضعف قلوبهم وينهزموا فيتمكن منهم المسلمون : قتلا وأسراً ، وأما تقليلهم وأعين الكفار فى قوله تعالى : « ويقللكم فى أعينهم » فهو قبل ذلك : ليطمعوا فى المسلمين ولا يجبنوا عن قتالهم .

(٢) يقوى بنصره ولو بدون الأسباب العادية .

بقول سعد بن معاذ يخاطب النبيّ . قبل الوصول إلى المعركة : « قد آمنّا بك وصدّقناك ، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السّمع والطّاعة . فامض يارسول الله لما أردت ، فنحن معك فوالّذى بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته ـ لخضناه معك ، ما تخلّف منّا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً : إنّا لصبر عند الحرب : صدق عند اللّقاء ، ولعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك فسر بنا على بركة الله » . فقال صلى الله عليه وسلم : « سيروا وأبشروا ، والله لكأنّى أنظر إلى مصارع القوم » .

ياقوم :

سار المسلمون إلى بدر ، والعزّة بالله ملء نفوسهم ، والرّجاء فى الله ـ نور سبيلهم ، وعناية الله تعالى تحفّهم ، والإخلاص لله يحدوهم ، ولسان حال كلّ منهم يقول :

لى من الله رعاية ... أنا منها فى عناية
قد جعلت الصّدق دأبى ... والتّوكّل لى وقاية
فإذا رام عدوّى ... بى شرّاً أو نكاية
حلته سراً على الله ... وفى الله الكفاية

وقد أخذ الرّسول صلى الله عليه وسلم ـ بعد الوصول إلى بدر ـ يحرّض المؤمنين على القتال : قائلاً : والّذى نفس محمّد بيده ـ لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر إلاّ أدخله الله الجنّة » ،

فلمّا سمعَ عُمَيْرُ بنُ الحُمَام قولَ النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم ، وكانَ في يدهِ تمرَاتٌ يأكلُهنّ – قالَ : أفما بيْني وبيْنَ أنْ أدخُلَ الجنّةَ إلاّ أنْ يقتُلَني هؤلاءِ ، ثمّ قذفَ بالتمرَاتِ مِن يدِه ، وقالَ : واللهِ إنْ بقيتُ ، حتّى آكُلَ تمرَاتي هٰذهِ إنّها لحياةٌ طويلةٌ ، وأخذَ سيْفَهُ وقاتَلَ حتّى قُتِلَ ، وبيْنَما المعرَكةُ حاميَةُ الوَطِيسِ – كانَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم في عَريشٍ بجوارِها – يُلِحُّ في الدُّعاءِ قائِلاً : اللّهمّ أنجِزْ لي ما وَعدتَني . اللّهمّ إنْ تَهلِكْ هٰذهِ العِصابَةُ مِنْ أهْلِ الإسْلامِ لا تُعبَدْ في الأرضِ ، وما زالَ صلى الله عليه وسلم يهتِفُ بربّهِ داعياً ، حتّى سقطَ رِداؤُهُ عنْ منْكبيْهِ ، فتناوَلَهُ أبو بكرٍ وألقاهُ عليْهِما ، وقالَ لهُ : يا نبيَّ اللهِ كفاكَ مُناشدَتُكَ ربَّكَ ، فإنّهُ سيُنْجِزُ لكَ ما وعدَكَ ، فنعِسَ الرّسُولُ قليلاً ، فرأى في نُعاسهِ نصْرَ اللهِ فانتبَهَ مُستبْشِراً قائِلاً : يا أبا بكرٍ أتاكَ نصْرُ اللهِ ، وازْدادَ الرّسُولُ اطْمِئْناناً بقوْلِ اللهِ : (سيُهْزَمُ الجمْعُ ويُوَلّونَ الدُّبُرَ) ، وتقدّمَ صلى الله عليه وسلم – بحفْنةٍ مِنْ حصًى ورَمَى بها القوْمَ قائِلاً : شاهَتْ – أي قبُحَتْ – الوُجُوهُ ، واللهُ تعالَى يقُولُ : (وما رَميْتَ إذْ رَميْتَ ولٰكِنّ اللهَ رَمَى) .

وكانَ مِنْ مُقدّماتِ هٰذا النّصْرِ أنْ أمدّ اللهُ المُسلِمينَ بالملائكةِ يُقاتِلُونَ معَهُمْ مُشجّعينَ ومُؤيّدينَ ، وفي ذٰلكَ يقُولُ تعالَى : (إذْ تستغيثُونَ ربّكُمْ فاستجابَ لكُمْ أنّي مُمِدُّكُمْ بألْفٍ مِنَ الملائكةِ مُرْدِفينَ[1]) ، وما جعلَهُ

---

(١) أي متتابعين بعضهم في إثر بعض .

اللهُ إلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ. وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) . وَقَذَفَ اللهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ - بَعْدَ أَنْ قَلَّلَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ حِينَ الالْتِقَاءِ قَبْلَ الالْتِحَامِ لِيَتْرُكُوا الاسْتِعْدَادَ ، وَالاسْتِمْدَادَ ، وَلاَ يَجْبُنُوا عَنْ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَرَى اللهُ النَّبِيَّ وَصَحْبَهُ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ قِلَّةً ، وَقَالَ: (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ) .

وَإِنَّ فِي انْهِزَامِ الْمُشْرِكِينَ - جَيْشِ الْبَاطِلِ ، مَعَ قُوَّتِهِ الْمَادِيَّةِ وَانْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ - جَيْشِ الْحَقِّ مَعَ قِلَّةِ عَدَدِهِ وَعُدَّتِهِ - إِعْلاَنًا أَنَّ النَّصْرَ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَنْصُرُ مَنْ يَنْصُرُ دِينَهُ كَمَا وَعَدَ بِقَوْلِهِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ).

وَلَقَدْ سَجَّلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذَا النَّصْرَ الْمُبِينَ فَقَالَ: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ [١] فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ [٢] وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ

---

(١) ضعفاء القلة العدد والعدد .

(٢) معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامات مخصوصة .

وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) .

عِبَادَ اللهِ :

عَلِمْتُمْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ انْتَصَرُوا بِبَدْرٍ لِأَنَّهُمْ نَصَرُوا دِينَهُ ، فَهُمْ حَمَلَتُهُ الْعَامِلُونَ بِهِ ، وَهُمْ حُمَاتُهُ الْمُدَافِعُونَ عَنْهُ ، وَهُمْ هُدَاتُهُ الدَّالُّونَ عَلَيْهِ ، فَقَدْ أَنْجَزَ اللهُ لَهُمْ وَعْدَهُ ، كَمَا قَالَ : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) ، فَلْيَكُنْ لَكُمْ فِي هَٰذِهِ الذِّكْرَى عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ ، فَاسْعَوْا إِلَى نَصْرِهِ تَعَالَى لَكُمْ بِنَصْرِ دِينِهِ ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِهِ ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ تَعَالَى بِكُلِّ مَاتَسْتَطِيعُونَ مِنْ أَنْوَاعِ جِهَادِ النَّفْسِ ، وَنَصْرِهَا عَلَى الطَّاعَاتِ ، وَحَبْسِهَا عَنِ الْمَعَاصِي وَبِخَاصَّةٍ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ رَمَضَانَ ، وَتِلْكَ الصَّالِحَاتُ هِيَ الذَّخِيرَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَسْبِقَ الْعِنَايَةُ بِهَا مَلْءَ الْمَخَازِنِ بِالذَّخِيرَةِ الْمَادِيَّةِ ، وَلِذَلِكَ قَدِمَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم مِنْ غَزَاةٍ[1] فَقَالَ : (قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ قَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ ، قَالُوا : وَمَا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ ؟ قَالَ : مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ)[2] .

فَإِذَا دَعَتْكُمُ النَّفْسُ إِلَى النَّظْرَةِ الْمُحَرَّمَةِ ـ فَاذْكُرُوا أَنَّ نَظَرَ اللهِ ـ أَسْبَقُ مِنْ نَظَرِكُمْ إِلَى مَاتَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، وَإِذَا هَوِيتُمْ شَيْئًا مُحَرَّمًا ـ فَلَا

---

(١) غزوة .

(٢) رواه الخطيب فى تاريخه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، وهذا الحديث مشهور على الألسنة بلفظ : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ولكن هذا المشهور من كلام إبراهيم بن علية وليس بحديث مرفوع فليس متصل الاسناد بالرسول صلى الله عليه وسلم أفاد ذلك الحافظ بن حجر فى تسديد القوس وقال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء : رواه البيهقى بسند ضعيف عن جابر .

تَتَّبِعُوا الْهَوَى ، وَاذْكُرُوا قُدْرَةَ اللهِ وَعَذَابَهُ ، وَمَنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ كَمَا عَلَّمَنَا رَسُولُه ، وَقَالَ عِيسَى لِيَحْيَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ : « إِنِّي مُعَلِّمُكَ عِلْماً نَافِعاً : لاَ تَغْضَبْ : فَقَالَ : وَكَيْفَ لِي لاَ أَغْضَبُ ؟ قَالَ : إِذَا مَاقِيلَ لَكَ مَافِيكَ – فَقُلْ : ذَنْبٌ ذُكِّرْتُهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْهُ ، وَإِنْ قِيلَ لَكَ مَالَيْسَ فِيكَ – فَاحْمَدِ اللهَ إِذَا لَمْ يَجْعَلْ فِيكَ مَاعُيِّرْتَ بِهِ ، وَهِيَ حَسَنَةٌ سِيقَتْ إِلَيْكَ » .

وَفِي الْيَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ أَرَادَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَعُودَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ ، فَأَزَالَ عَنْ أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ أَدْرَانَ الشِّرْكِ ، وَرِجْسَ الْوَثَنِيَّةِ ، كَمَا أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدِّيَارِ هَـؤُلاَءِ الأَبْطَالُ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ – وَهُمْ مَرْفُوعُو الرَّأْسِ مَوْفُورُو الْكَرَامَةِ ، وَقَدْ تَمَّ ذَلِكَ بِفَتْحِ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ ، وَدُخُولِ النَّاسِ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً ، وَقَدِ ارْتَفَعَ صَوْتُ الْمُؤَذِّنِ بِمَكَّةَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ : اللهُ أَكْبَرُ . اللهُ أَكْبَرُ ، وَفِي هَـذَا الْيَوْمِ الأَغَرِّ – حِينَمَا اسْتَقَرَّ لِلْمُسْلِمِينَ الأَمْرُ – أَصْدَرَ صلى اللهُ عليه وسلم عَفْوَهُ الْعَامَّ عَنْ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ قَدَّمُوا لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ وَلِدَعْوَتِهِ – كُلَّ بَلاَءٍ وَأَذًى ، فَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم كَلِمَتَهُ الْخَالِدَةَ ، وَهُمْ – جَمِيعاً – وُقُوفٌ يَرْتَجِفُونَ : « إِنِّي أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

أَلاَ فَمَا أَجْمَلَ الْعَفْوَ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ ، وَإِنَّهُ مِنْ مَفَاتِيحِ الْجَنَّةِ وَهُوَ الأَلْيَقُ

بالصائم الذى من أدبه ألاَّ يقابل السَّيِّئة بالسَّيِّئة ، ولكن يعفو ويغفر.
وإذا كانَ رسولُنا صلى الله عليه وسلم فى الحادى والعشرين من رمضانَ بدء العشر الأخير منه - قد طهَّر البيتَ الحرامَ من الأصنام : آلهة المشركين فلنطهِّرْ نفوسَنا من الهوى ، وهو شرُّ إله يُعبدُ ، وقد قال الله تعالى الذى لا إله غيره ولا معبودَ سواه : (ولا تتَّبِعِ الهوى ، فيُضلَّكَ عن سبيلِ الله) .

أيُّها الصَّائم :

اتقوا الله وخالفِ الهوى ، واجتهدْ فى طاعة الله فى هذه الأيام المقبلة من شهر رمضانَ لتستبشرَ بنصر الله ، وتعيشَ مطمئنًا بعناية الله وحسنِ الثواب فى أخراه. وليزدِ اجتهادُك فى العشر الأخير من رمضانَ ، ففيه ليلةُ القدر : (وما أدراكَ ما ليلةُ القدر ليلةُ القدر خيرٌ من ألف شهر) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ حُرِمَ خيرَها فقد حُرِمَ » .قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « اطَّلعَ الله على أهلِ بدرٍ فقال -أى إذ علم أنهم لا يرغبون إلاَّ الخير - : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم أو فقد وجبت لكم الجنة» رواه الطبرانىُّ عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : «لاهجرةَ بعدَ الفتحِ ولكن جهادٌ ونيةٌ ، وإذا استُنفِرتم فانفروا » ، رواه البخاريُّ ومسلمٌ فى صحيحيهما عن عائشة رضى الله عنها ، والمعنى : لاهجرةَ من مكةَ لأنها صارتْ - بعدَ فتحها - دارَ إسلامٍ ، وإذا استنفرتم : أى طُلِبتم للخروج إلى الجهاد أو نحوه - فانفروا :

أى فاخرجوا : لِمَا طُلِبتمْ له مما فيه رِضا الله تعالى . وقالتْ عائِشَةُ رضىالله عنها : « كَانَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ - أَىِ الْأَخِيرُ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ - أَحْيَا اللَّيْلَ ، وَأَيقَظَ أَهْلَهُ ، وَشَدَّ[1] المِئْزَرَ » رواهُ الْبُخَارِىُّ وَمُسْلِمٌ فى صَحِيحَيْهِمَا ، وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ ، وَلَفْظُ الْبُخَارِىِّ : « شَدَّ مِئْزَرَهُ ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ » ، وَفى رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ أَيْضاً رضىالله عنها قَالَتْ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَجْتَهِدُ فِى الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مَالاَ يَجْتَهِدُ فِى غيْرِهِ » .

---

(١) شد المئزر : كناية عن شدة جده صلى الله عليه وسلم واجتهاده فى العبادة كما يقال : فلان يشد وسطه ويسعى فى كذا ، وفسره السلف والأئمة المتقدمون ومنهم سفيان الثورى - باعتزاله للنساء وهو الظاهر : لأنه - صلى الله عليه وسلم - كان يعتكف العشر الأخير من رمضان . والمعتكف ممنوع من قربان النساء .

٥١ – فضل ليلة القدر والحث على قيامها

الحَمْدُ لِلَّهِ نَوَّرَ بِهِدَايَتِهِ قُلُوبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَا يَخَافُونَ وَلَا يَحْزَنُونَ ، إِذَا نَطَقَتِ الجُلُودُ ، وَغَضِبَ المَعْبُودُ ، وَقَالَ : (لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ) .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ : يَضَعُ مَائِدَةً يَوْمَ القِيَامَةِ يَأْكُلُ مِنْهَا الصَّائِمُونَ وَالقَائِمُونَ ، وَالنَّاسُ يُحَاسَبُونَ : فَيَقُولُ : يَارَبِّ نَحْنُ نُحَاسَبُ وَهُمْ يَأْكُلُونَ ، فَيُقَالُ لَهُمْ : إِنَّهُمْ طَالَمَا صَامُوا وَأَفْطَرْتُمْ ، وَقَامُوا وَنِمْتُمْ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ سَيِّدُ العَابِدِينَ الصَّائِمِينَ القَائِمِينَ الذَّاكِرِينَ ، قَالَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كَانَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ[١] قَدَمَاهُ ، فَقُلْتُ لَهُ تَصْنَعُ هَٰذَا يَارَسُولَ اللهِ وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ، وَمَا تَأَخَّرَ ؟ قَالَ : أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً[٢] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ أَحْيَوْا لَيْلَةَ القَدْرِ ، فَفَازُوا بِرِضَا اللهِ ، وَسَعِدُوا بِجَزِيلِ الأَجْرِ .

أَمَّا بَعْدُ : فَيَاعِبَادَ اللهِ :

طَاوُسٌ اليَمَانِيُّ أَحَدُ التَّابِعِينَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِ الإِمَامُ مَالِكٌ : عَرَفْتُ مِنْهُ

(١) تنشق

(٢) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما

كيف أخاف الله كان يفرش فراشه ، فيتقلب عليه كما يقلب الحب فى المقلاة ، ثم يقوم فيطويه ، ويأخذ فى الصلاة إلى الصباح ، ويقول : ذكر جهنم طير نوم العابدين ، وكان ذكر جهنم يبكيهم وهم ساجدون ، وكان عبد العزيز بن رواد يأتى فراشه بالليل ، فيمتد عليه ، ويقول : والله إنك للين ، وإن فراش الجنة ألين منك ، فيطويه ويقوم يصلى إلى الصباح وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم »(١) .

ولذلك بكى أبو الشعثاء أحد سلفنا الصالح عند موته ، فقيل له : مايبكيك ؟ فقال : اشتقت إلى قيام الليل . وقال سهل بن سعد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد عش ماشئت فإنك ميت ، واعمل ماشئت ، فإنك مجزى به . وأحبب من شئت ، فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس »(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار - أى نهض - عن وطائه ولحافه من بين أهله ، وحبه(٣) إلى صلاته ، فيقول الله جل وعلا : انظروا إلى عبدى ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى

(١) رواه الترمذى عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه .
(٢) رواه الطبرانى فى معجمه الأوسط عن سهل بن سعد رضى الله عنه .
(٣) حبه : بكسر الحاء أى أهله : يعنى زوجه .

وَرَجُلٍ غَزَا فى سَبِيلِ اللهِ ، وَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ ، وَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ فى الانْهِزَامِ ، وَمَالَهُ فى الرُّجُوعِ ، فَرَجَعَ حَتَّى يُهْرِيقَ دَمَهُ ، فيقولُ اللهُ : انْظُرُوا إِلَى عَبْدِى رَجَعَ رَجَاءَ فِيمَا عِنْدِى ، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِى حَتَّى يُهْرِيقَ دَمَهُ »[1] ؛ وَيُحِبُّ اللهُ - غَايَةُ رِضَاهُ ، وَثَمَرَةُ ذَلِكَ - نَيْلُ الْعَبْدِ رَغْبَتَهُ ، وَتَحْقِيقُ رَجَائِهِ ، وَتَأْمِينُهُ مِمَّا يَخَافُ ، فَالَّذِينَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ، وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ :

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ ... فَيُسْفِرُ عَنْهُمُو وَهُمُو رُكُوعُ
أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمُو فَقَامُوا ... وَأَهْلُ الأَمْنِ فى الدُّنْيَا هُجُوعُ
لَهُمْ تَحْتَ الظَّلَامِ وَهُمْ سُجُودٌ ... أَنِينٌ مِنْهُ تَنْفَرِجُ الضُّلُوعُ

وَهَكَذَا - يَاقَوْمِ - كَانَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ : تَفَكَّرُوا فى نَشْرِ الصَّحَائِفِ يَوْمَ الْجَمْعِ الأَكْبَرِ بَيْنَ يَدَى الْمُتَكَبِّرِ فَأَطَارَ ذَلِكَ نَوْمَهُمْ وَسَهَّلَ تَفَكُّرُهُمْ فِى الْقِيَامِ بَيْنَ يَدَى اللهِ لِلْحِسَابِ وَالْعِتَابِ - قِيَامَهُمْ لِلصَّلَاةِ وَالطَّاعَاتِ ، قَالَتِ امْرَأَةُ حَسَّانَ بْنِ أَبِى سِنَانٍ : كَانَ زَوْجِى إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ - يُشَاغِلُنِى كَمَا تُشَاغِلُ الْمَرْأَةُ وَلَدَهَا لِيَنَامَ ، وَيُظْهِرُ النَّوْمَ ، وَلَيْسَ بِنَائِمٍ ، فَإِذَا عَلِمَ أَنِّى قَدْ نِمْتُ - سَلَّ نَفْسَهُ ، وَقَامَ إِلَى الصَّلَاةِ حَتَّى الصَّبَاحِ ، فَقُلْتُ لَهُ فِى بَعْضِ اللَّيَالِى : كَمْ تَحْرِمُ نَفْسَكَ النَّوْمَ ؟ ارْفُقْ بِنَفْسِكَ ، فَقَالَ : يُوشِكُ أَنْ أَرْقُدَ رَقْدَةً لَا أَسْتَفِيقُ مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

هَكَذَا كَانَ اجْتِهَادُ مَنْ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ طُولَ الدَّهْرِ فَكَيْفَ لَا نَجْتَهِدُ

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى وابن حبان فى صحيحه عن ابن مسعود رضى الله عنه .

نَحْنُ فى إحْيَاءِ لَيَالِى هٰذَا الشَّهْرِ ، وَبِخَاصَّةٍ فى إحْيَاءِ لَيْـلَةِ الْقَدْرِ ، الَّتِى تَضُمُّ إلَى أعْمَارِنَا الْمُسَمَّاةِ ، وَآجَالِنَا الْمُحَدَّدَةِ ـ أعْمَارَ سَنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ ، وَشُهُورٍ مَزِيدَةٍ ، نَجِدُ خَيْرَهَا : (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ) يَوْمَ يُقَالُ لِلنَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ الَّتِى عَمِلَتْ فِى الدُّنْيَا لِلسَّلَامَةِ مِنَ النَّارِ وَالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ : (يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ، فَادْخُلِى فِى عِبَادِى وَادْخُلِى جَنَّتِى) .

عِبَادَ اللهِ :

لَيْلَةُ الْقَدْرِ أنْزَلَ اللهُ فِيهَا الْقُرْآنَ قَالَ تَعَالَى : (إنَّا أنْزَلْنَاهُ فِى لَيْـلَةِ الْقَدْرِ) أنْزَلَ سُبْحَانَهُ أوَّلَ مَا أنْزَلَ مِنْـهُ : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ) ، وَكَانَ نُزُولُ ذٰلِكَ الْقَوْلِ الْكَرِيمِ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَهُوَ فى غَارِ حِـرَاء فى تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِى تَفْرَحُ بِقُدُومِهَا الْمَلَائِكَةُ ، وَأنْزَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِيهَا فى صُحُفٍ مِنَ اللَّـوْحِ الْمَحْفُوظِ الْحَاوِى لِكُلِّ مَاشَاءَ اللهُ تَقْدِيرَهُ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فى مَكَانٍ بِهَا يُسَمَّى بَيْتَ الْعِزَّةِ ، ثُمَّ نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، بِإذْنِ اللهِ ـ بَعْدَ ذٰلِكَ ـ مُنَجَّماً مُفَرَّقاً ، عَلَى حَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْمَصَالِحِ ، وَمُقْتَضَيَاتِ الْأَحْوَالِ عَلَيْهِ صلى الله عليه وسلم فى ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً : تَيْسِيراً لِضَبْطِ أحْكَامِهِ ، وَفَهْمِهِ وَحِفْظِهِ (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ جُمْـلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) فَلَوْ نُزِّلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً ـ لَضَلَّتِ الْأفْهَامُ ، وَحَارَتِ الْأفْكَارُ وَلَمْ يُطِقْهُ الْأنَامُ .

ويا قوم :

لنزول القرآن فى تلك الليلة الكريمة - سميت ليلة القدر ، أى ليلة الشرف والمنزلة العالية (وما أدراك) وما أعلمك (ما ليلة القدر) ما تلك الليلة العالية القدر ، ولا عجب أن تكون كذلك ليلة أنزل فيها الله الذى دون قدره كل قدر - كتابا ذا قدر بواسطة ملك ذى قدر ، على رسول ذى قدر ، لأمة ذات قدر ، وهى ليلة القدر أيضا لأن الله يقدر فيها مقادير الخلائق من رزق وموت وولادة ، وغير ذلك من وقتها إلى وقت مثلها فى السنة المقبلة ، وذلك بأن يسلم سبحانه كتب مقادير الخلائق فى العام الذى يوافيها إلى الملائكة الذين يقومون بالتنفيذ . وأيضا : هى ليلة القدر لأن للطاعات فيها قدرا عظيما ، وثوابا جزيلا ، كريما فضلا منه تعالى وهو سبحانه يختص ماشاء بما شاء .

قال تبارك وتعالى : (ليلة القدر خير من ألف شهر) . أى العبادة فيها[1] أكثر ثوابا ، وأعظم فضلا من العبادة فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وأيضا فى فضل هذه الليلة التى شرفها الله على غيرها ، ومن على عباده بجزيل خيرها . قال تعالى : (تنزل الملائكة) أى من السموات إلى الأرض أفواجا (والروح) جبريل عليه السلام (فيها) فى تلك الليلة (بإذن ربهم)

---

(١) ولا عجب فالعمل القليل قد يفضل الكثير باعتبار الزمان والمكان وكيفية الأداء .

بِأَمْرِهِ تَعَالَى يَنْزِلُونَ لَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ (مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)[1] بِكُلِّ أَمْرٍ مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ يَكُونَانِ فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى: مِنْ صَلَاةٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ قِرَاءَةِ قُرْآنٍ. وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى.

وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ (سَلَامٌ هِيَ) مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ (حَتَّى) إِلَى (مَطْلَعِ) طُلُوعِ (الْفَجْرِ).

فَهِيَ لَيْلَةُ تَسْلِيمٍ دَائِمٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْقَائِمِينَ فِيهَا لِلّٰهِ تَعَالَى وَسَبَبُ سَلَامٍ وَسَلَامَةٍ وَنَجَاةٍ مِنَ الْمَهَالِكِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَنْ قَامَهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا وَسَلَامَةٍ، وَنَجَاةٍ مِنَ السُّوءِ وَالْأَذَى، وَوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ.

وَيَجِدُ الْعَابِدُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي أَرْضَى رَبَّهُ بِإِحْيَائِهَا - أَثَرَ تَسْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِ رِضًا وَصَفَاءً وَانْشِرَاحًا وَأَمْنًا، فَهُوَ - وَإِنْ لَمْ يَسْمَعِ السَّلَامَ بِأُذُنِهِ - يُحِسُّهُ بِرُوحِهِ وَقَلْبِهِ، وَمَنْ ذَاقَ عَرَفَ.

وَلْيَتَحَرَّ الْمُسْلِمُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْ رَمَضَانَ، وَبِخَاصَّةٍ فِي لَيَالِي ذَلِكَ الْعَشْرِ الْفَرْدِيَّةِ، فَهِيَ أَرْجَى لَيَالِيهَا، وَلِذَلِكَ كَانَ صلى الله عليه وسلم يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَخِيرَ مِنْ رَمَضَانَ، وَيَقُولُ: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ»[2]، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ

---

(١) فمن بمعنى الباء كما ذكره أبو حاتم.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.

الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ[1] مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ » .

وَاعْلَمْ - يَا عَبْدَ اللهِ - أَنَّ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْقِيَامِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ - هُوَ إِحْيَاءُ جَمِيعِ أَوْقَاتِهَا بِأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ ، الَّتِي مِنْهَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الرَّسُولِ سَيِّدِ الْكَائِنَاتِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَأَوْسَطَ مَرَاتِبِ قِيَامِهَا - هُوَ إِحْيَاءُ مُعْظَمِهَا بِذَلِكَ ، وَأَدْنَى قِيَامِهَا - يَكُونَ بِصَلَاتِي الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ فِي جَمَاعَةٍ .

قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « مَنْ شَهِدَ الْعِشَاءَ وَالصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ لَيْلَةَ الْقَدْرِ - فَقَدْ أَخَذَ بِحَظِّهِ مِنْهَا » ، وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ صَلَّى لَيْلَةَ الْقَدْرِ الْعِشَاءَ ، وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ ، فَقَدْ أَخَذَ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ بِالنَّصِيبِ الْوَافِرِ »[2] .

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ فِي قِيَامِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ يَكُونُ مَحْرُوماً وَمَنْ قَامَهَا فَلْيَدْعُ رَبَّهُ أَنْ يَمْنَحَهُ عَفْوَهُ ، فَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا يَارَسُولَ اللهِ : إِذَا وَافَيْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فَبِمَ أَدْعُو ؟ قَالَ : قُولِي « اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي »[3] .

أَيُّهَا الصَّائِمُ :

اتَّقِ اللهَ وَلَا تَحْرِمْ نَفْسَكَ قِيَامَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ الْلَّحَظَاتِ ، الْعَامِرَةِ

---

(١) أى فى الفرد : من العشر الأواخر وهى ليلة أحد وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين .

(٢) رواه الخطيب فى تاريخه عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٣) رواه الإمام أحمد ، والترمذى .

النَّفَحَاتِ الَّتِي يُؤَمِّنُ فِيهَا عَلَى تَأْمِينِكَ الْمَلَائِكَةُ مَعَ جِبْرِيلَ الرُّوحِ الْأَمِينِ .

قُمْهَا - يَاعَبْدَ اللهِ - مُقْتَدِيًا بِرَسُولِ اللهِ عَابِدًا خَاشِعًا خَاضِعًا مُتَضَرِّعًا ، حَوْلَكَ جُنُودُ الرَّحْمٰنِ ، عَنْ يَمِينِكَ ، وَعَنْ شِمَالِكَ : لِزِيَادَةِ هُدَاكَ ، وَإِنَّ الْإِذَاعَاتِ الرَّبَّانِيَّةَ - وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْهَا - تَكُونُ مَفْتُوحَةً حِينَئِذٍ بِرَفْعِ ذِكْرِكَ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَى فَيَابُشْرَاكَ قَالَ تَعَالَى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِذَا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، فَيُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ »[1] .

وَقُلْ - يَاعَبْدَ اللهِ - فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْعَظِيمَةِ - بِصِدْقٍ مِنْ قَلْبِكَ وَإِخْلَاصٍ لِرَبِّكَ : أَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُمَّ ، وَأَتُوبُ إِلَيْكَ . إِلٰهِي أَسَأْتُ ، وَنَدِمْتُ ، وَإِلَيْكَ رَجَعْتُ .

فَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَهُوَ الْحَلِيمُ الَّذِي لَا يَعْجَلُ بِالْعُقُوبَةِ ، وَالْكَرِيمُ الَّذِي لَا يَبْخَلُ بِالتَّوْبَةِ - يَقُولُ لَكَ حِينَئِذٍ ، وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ : وَأَنَا يَاعَبْدِي سَتَرْتُ وَعَفَوْتُ وَقَبِلْتُ : (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ قامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إيماناً، وَاحْتِساباً ـ غُفِرَ لَهُ مَاتَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِهِ » رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . وَعَنْ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ سَمِعَ مَنْ يَثِقُ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ـ أُرِيَ أَعْمَارَ النَّاسِ قَبْلَهُ أَوْ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ فَكَأَنَّهُ تَقَاصَرَ أَعْمَارَ أُمَّتِهِ أَلاَّ يَبْلُغُوا مِنَ الْعَمَلِ مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ غَيْرُهُمْ ، فَأَعْطَاهُ اللهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْراً مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ » ذَكَرَهُ فِي الْمُوَطَّإِ .

٥٢ – وداع شهر رمضان

الحَمْدُ لِلّهِ يُثِيبُ عَلَى الصِّيَامِ وَالقِيَامِ – جَنَّتَهُ دَارَ الإِنْعَامِ وَالإِكْرَامِ ، وَقَالَ نَبِيُّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفاً يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا ، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا أَعَدَّهَا اللّهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَفْشَى السَّلَامَ ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ »(١) .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ قَالَ رَسُولُهُ صلى الله عليه وسلم :(٢) « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ – يَقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ : تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ ، فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنْجِنَا مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : فَيَكْشِفُ الحِجَابَ(٣) ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) » .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللّهِ خَيْرُ مَنْ صَامَ وَقَامَ ، وَبَشَّرَ بِغُفْرَانِ الذُّنُوبِ لِمَنْ كَمَّلَ صِيَامَهُ وَقِيَامَهُ – بِتَمَامِ أَيَّامِ رَمَضَانَ ، وَقَالَ : « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً – غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً – غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »(٤) ، وَقَالَ : « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم والترمذى والنسائى عن صهيب رضى الله عنه .

(٣) الحجاب يحجبهم عن رؤيته تعالى .

(٤) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وَاحْتِسَابًا ـ غُفِرَ لَهُ مَاتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[1]

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّـــدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ بَرْهَنُوا عَلَى إِيمَانِهِمْ ـ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ فِى دُنْيَاهُمْ ، فَكَمَّلَ صِيَامُهُمْ ، وَفَازُوا بِالْغُفْرَانِ وَالْإِحْسَانِ .

أَمَّا بَعْدُ :

فَيَأَيُّهَا الصَّائِمُونَ الْقَائِمُونَ :

كَانَ أَحَدُ الشُّيُوخِ الْمُرَبِّينَ ـ يُؤْثِرُ أَحَـــدَ تَلَامِيذِهِ عَلَى صِغَرِهِ ـ بِزِيَادَةِ تَقْدِيرٍ .

وَلِتَرْتَاحَ نُفُوسُهُمْ لِهَذَا الْإِيثَارِ ، وَلَعَلَّهُمْ يَقْتَدُونَ بِهَذَا الصَّغِيرِ ـ أَعْطَاهُ سِكِّينًا وَدَجَاجَةً ، وَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَذَلِكَ ـ سِكِّينًا وَدَجَاجَةً وَأَمَرَهُمْ جَمِيعًا بِأَنْ يَذْبَحَ كُلٌّ مِنْهُمْ دَجَاجَتَهُ فِى مَكَانٍ لَايَرَاهُ فِيهِ أَحَدٌ ، ثُمَّ يَأْتُوا إِلَيْهِ جَمِيعًا بِذَبَائِحِهِمْ ، فَعَادُوا جَمِيعًا بِذَبَائِحِهِمْ إِلَّا الصَّغِيرَ ، فَقَدْ عَادَ بِدَجَاجَتِهِ غَيْرَ مَذْبُوحَةٍ ، فَقَالَ الشَّيْخُ لَهُمْ : أَذَبَحْتُمْ حَيْثُ لَمْ يَرَكُمْ أَحَـدٌ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَقَالَ الصَّغِيرُ : يَاسَيِّدِى لَمْ أَذْبَحْ دَجَاجَتِى ، فَإِنِّى لَمْ أَجِدْ الْمَكَانَ الْخَالِى كُلُّ مَكَانٍ حَلَلْتُ فِيهِ ـ وَجَدْتُنِى يَرَانِى فِيهِ مَنْ لَاتَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ . اللهُ الَّذِى يَرَى وَلَا يُرَى : (لَاتُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب فى قيام رمضان من غير أن يأمرهم ثم يقول : « من قام رمضان .. إلخ » .

اللطيفُ الخبيرُ) ، فقالوا جميعاً : لقد آثرك الشيخ علينا بفضل مراقبتك لله وهى خيرُ ثمراتِ الصومِ ، وبها دوامُ الاستقامةِ ، فمن راقب ربه - اجتهد في الطاعةِ ، وبخاصةٍ في الأوقاتِ الأخيرةِ من رمضانَ ، فهو كلما قرب من نهايةِ رمضانَ - قال لنفسهِ : زيدى في الإحسانِ ، وأكثرى من الطاعةِ في موسمِ تحصيلها الأعظمِ قبلَ فواتِ الأوانِ ، وادخرى ذخائرَ الفضلِ عندَ رفيعِ الدرجاتِ .

ويا قوم :

إذا لم يدخرِ المسلمُ في رمضانَ لغدهِ ، ويومِ حسابهِ - فمتى يدخر ، فأيامه أرجى أيامِ العامِ للغفرانِ ، ومضاعفةِ الحسناتِ ، ومحوِ السيئاتِ ، واستجابةِ الدعاءِ ، ونحوِ ذلكَ ، ولذلكَ - قال نبينا صلى الله عليه وسلم : «لو يعلمُ العبادُ ما في هذا الشهرِ من الخيراتِ لتمنتْ أمتى أن يكونَ رمضانُ السنةَ كلها »[1] .

ومن هنا - كانَ سلفنا الصالحُ - يزدادونَ إقبالاً إلى الطاعةِ ، كلما قربَ رمضانُ من النهايةِ .

ومن لم يغفرْ له في رمضانَ فمتى يغفرُ له ، فوسائلُ الغفرانِ في رمضانَ كثيرةٌ منها صيامهُ وقيامهُ ، واستغفارُ الملائكةِ لمن صامهُ وقامهُ ، وذكرُ اللهِ فيهِ ، ولهذا كانَ من سبقنا من صالحي الأمةِ - يذكرونَ اللهَ فيهِ كثيراً

---

(١) رواه الطبرانى .

وَنُصْبُ أَعْيُنِهِمْ قَوْلُهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « ذَاكِرُ اللهِ فِي رَمَضَانَ ـ مَغْفُورٌ لَهُ ، وَسَائِلُ اللهِ فِيهِ لَا يَخِيبُ »[1] .

أَلَا إِنَّ مَنْ فَاتَهُ الْغُفْرَانُ فِي رَمَضَانَ ـ كَانَ فِي غَايَةِ الْحِرْمَانِ مِنْ إِحْسَانِ الْمَنَّانِ ، وَأَبْعَدَهُ اللهُ عَنْ رِضَاهُ .

فَفِي صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ـ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ : آمِينَ . آمِينَ . آمِينْ قِيلَ : يَارَسُولَ اللهِ إِنَّكَ صَعِدْتَ الْمِنْبَرَ ، فَقُلْتَ : آمِينَ . آمِينَ . آمِينْ . فَقَالَ : إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي ، فَقَالَ : مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ ، فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ ، فَدَخَلَ النَّارَ ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ . قُلْ : آمِينْ ، فَقُلْتُ : آمِينْ ، وَمَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا ، فَلَمْ يَبَرَّهُمَا ، فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللهُ ، قُلْ: آمِينْ ، فَقُلْتُ : آمِينْ ، وَمَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ ، قُلْ : آمِينْ ، فَقُلْتُ . آمِينْ » .

فَيَاعِبَادَ اللهِ :

وَقَدْ عَزَمَ شَهْرُ رَمَضَانَ عَلَى الرَّحِيلِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلُ ، ثُمَّ تَغِيبُ شَمْسُهُ ، وَيَتَقَلَّصُ ظِلُّهُ ، وَتُطْوَى بِمُضِيِّهِ ـ صَحِيفَةٌ مِنْ صُحُفِ أَعْمَالِنَا ، الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى أَسَاسِ مُسْتَقْبَلِنَا ـ عَلَامَ عَزَمْتُمْ لِتَوْدِيعِهِ . وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ عُقْبَاهُ

---

(١) رواه الطبراني في معجمه الأوسط والبيهقي والأصبهاني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

غُفْرَانٌ وَإِحْسَانٌ لِمَنْ اتَّقَى ، وَإِبْعَادٌ عَنِ الْخَيْرِ، وَنَارٌ لِمَنْ عَصَى ، أَلاَ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ فَرِحُوا بِلِقَاءِ ذَلِكَ الشَّهْرِ الْكَرِيمِ ، فَأَحْيَوْا لَيْلَهُ بِالْقِيَامِ ، وَنَهَارَهُ بِآدَابِ الصِّيَامِ ، وَعَكَفُوا فِي كُلِّ أَوْقَاتِهِ عَلَى عِبَادَةِ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ فَأَحَسُّوا رَحْمَةَ رَبِّهِمْ ، وَرِضْوَانَهُ ، وَذَكَرُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانَهُ ، فَشَعَرُوا بِحَاجَةِ الْمَحْرُومِ وَالْمُحْتَاجِ ، وَبَحَثُوا عَنِ الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَ إِلْحَاحًا لِسَدِّ حَاجَتِهِمْ - أُولَئِكَ الَّذِينَ فَازُوا بِتَقْوَى اللهِ وَازْدَادُوا إِيمَانًا فِي رَمَضَانَ ، وَأُولَئِكَ الَّذِينَ تَئِنُّ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَلَمِ فِرَاقِهِ ، وَلاَ يُخَفِّفُ عَنْهُمْ مِنْ حِدَّتِهِ - إِلاَّ قُوَّةُ عَزْمِهِمْ عَلَى إِدَامَةِ الطَّاعَةِ ، وَدَوَامِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ رَبِّ رَمَضَانَ ، وَرَبِّ شَوَّالٍ ، رَبِّ سَائِرِ الشُّهُورِ : لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَلاَ مَعْبُودَ سِوَاهُ .

وَأَمَّا الَّذِينَ مَارَأَوْا رَمَضَانَ إِلاَّ أَنَّهُ يَحُدُّ مِنَ الْحُرِّيَّاتِ ، فَصَامُوا نَهَارَهُ مُتَبَرِّمِينَ لِحِرْمَانِهِمْ مِنَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالشَّهَوَاتِ ، وَقَامُوا لَيْلَهُ مُتَّبِعِينَ أَهْوَاءَهُمْ عَاكِفِينَ عَلَى مَعْصِيَةِ مَوْلاَهُمْ - فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرْتَقِبُونَ رَحِيلَهُ مُتَلَهِّفِينَ ، وَصِيَامُهُمْ وَقِيَامُهُمْ مَرْدُودَانِ عَلَيْهِمْ قَالَ صلى الله عليه وسلّم : «رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ »[1] .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْمُؤْمِنُونَ بِغَدٍ لاَ يَنْفَعُ فِيهِ إِلاَّ صَالِحُ الأَعْمَالِ :

---

(١) رواه ابن خزيمة فى صحيحه والحاكم ، وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وَدِّعُوا رَمَضَانَ بِتَوْثِيقِ الْعَهْدِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللهِ - أَنْ تَسْتَمِرَّ صِلَتُكُمُ الطَّيِّبَةُ بِهِ تَعَالَى بِفِعْلِ الْخَيْرَاتِ ، وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ فَتَدُومَ تِلْكَ الصُّورَةُ الطَّيِّبَةُ مِنَ الْخَيْرِ الَّتِي تَأْنَسُ بِهَا الْقُلُوبُ ، حَيْثُ يَحْرِصُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى تَلْبِيَةِ نِدَاءِ اللهِ ، وَعِمَارَةِ الْمَسَاجِدِ بِهِمْ فِي الْجُمَعِ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَلَا تَظْهَرَ تِلْكَ الصُّورَةُ الْمُؤْذِيَةُ إِذْ يُصْبِحُ أَتْقِيَاءُ رَمَضَانَ - أَفْجَرَ الْفُجَّارِ بَعْدَ رَمَضَانَ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

اتَّقُوا اللهَ وَوَدِّعُوا رَمَضَانَ بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ ، خَالِصَةٍ لِوَجْهِهِ تَعَالَى لَا ذَنْبَ بَعْدَهَا : بِهَا يَسْتَمِرُّ الطَّائِعُ عَلَى طَاعَتِهِ وَيُقْلِعُ الْعَاصِي عَنِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ إِلَيْهَا ، لِمُرَاقَبَتِهِ لِرَبِّهِ عَلَى الدَّوَامِ .

وَاجْتَهِدُوا فِي الْمُدَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ الْعَظِيمِ ، فَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ »[1] .

وَقَدْ كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ - مَنْشُوراً إِلَى الْمُسْلِمِينَ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِهِمْ ، يَأْمُرُهُمْ فِيهِ - بِخَتْمِ رَمَضَانَ - بِالاسْتِغْفَارِ وَصَدَقَةِ الْفِطْرِ ، فَإِنَّ صَدَقَةَ الْفِطْرِ طُهْرَةٌ لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ ، وَالاسْتِغْفَارَ يُرَقِّعُ مَا تَخَرَّقَ مِنَ الصِّيَامِ بِاللَّغْوِ وَالرَّفَثِ - أَيِ الْفُحْشِ فِي الْقَوْلِ - .

وَقَالَ لَهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي ذَلِكَ الْمَنْشُورِ أَيْضاً : « قُولُوا كَمَا قَالَ أَبُوكُمْ آدَمُ : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها .

مِنَ الْخَاسِرِينَ » وَقُولُوا كَمَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » وَقُولُوا كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : « رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي» وَقُولُوا كَمَا قَالَ ذُو النُّونِ ـ أَيْ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » .

فَيَاقَوْمِ :

إِنَّ صَدَقَةَ الْفِطْرِ وَالاسْتِغْفَارَ ـ حَقًّا ـ خِتَامُ مِسْكٍ لِرَمَضَانَ شَهْرِ الْبَرَكَةِ وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إِنَّ صَدَقَةَ الْفِطْرِ لِلصِّيَامِ ـ كَسَجْدَتَيِ السَّهْوِ لِلصَّلَاةِ ، وَهِيَ سَبَبٌ فِي قَبُولِ الصِّيَامِ : قَالَ صلى الله عليه وسلم : «صَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ مُعَلَّقٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَلَا يُرْفَعُ إِلَّا بِزَكَاةِ الْفِطْرِ »[1] . وَقَالَ صلى الله عليه وسلم « مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ »[2] ، وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : « قَالَ إِبْلِيسُ : وَعِزَّتِكَ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَادَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ ، قَالَ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي »[3] .

فَيَأَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

اتَّقُوا اللهَ ، وَأَدُّوا صَدَقَةَ الْفِطْرِ قَبْلَ صَلَاةِ الْعِيدِ فَإِنَّ تَأْخِيرَهَا عَنْ صَلَاةِ الْعِيدِ مَكْرُوهٌ .

---

(١) رواه أبو حفص بن شاهين .

(٢) رواه أبو داود والنسائي ، وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) رواه أحمد والحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : « فَرَضَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم صَدَقَةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ ، فَمَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ ـ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ ـ فَصَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ »[1] .

وَأَحْيُوا لَيْلَةَ الْعِيدِ بِطَاعَةِ اللهِ ، لِئَلَّا تَمُوتَ قُلُوبُكُمْ ، وَلَا تَتَحَيَّرَ عِنْدَ النَّزْعِ ، وَلَا فِي الْقَبْرِ ، وَلَا فِي الْقِيَامَةِ ، إِذْ يُثَبِّتُهَا اللهُ تَعَالَى ، وَيُؤَمِّنُ رَوْعَهَا عِنْدَ مُوجِبَاتِ الْفَزَعِ ، وَالْخَوْفِ : (وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[2]) .

قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ قَامَ لَيْلَتَيِ الْعِيدَيْنِ مُحْتَسِبًا[3] ـ لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْقُلُوبُ » ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : « أُعْطِيَتْ أُمَّتِي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي ، أَمَّا وَاحِدَةٌ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ يَنْظُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ ، وَمَنْ نَظَرَ اللهُ إِلَيْهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ أَبَدًا ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ خُلُوفَ أَفْوَاهِهِمْ حِينَ يُمْسُونَ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ وَأَمَّا الثَّالِثَةُ ـ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَأَمَّا الرَّابِعَةُ

---

(١) رواه أبو داود ، وابن ماجه وغيرهما .

(٢) طالباً لوجه الله تعالى وثوابه لا مرائياً لأحد .

فَإِنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُ جَنَّتَهُ ، فَيَقُولُ لَهَا : اسْتَعِدِّي وَتَزَيَّنِي لِعِبَادِي ! أَوْشَكَ أَنْ يَسْتَرِيحُوا مِنْ تَعَبِ الدُّنْيَا إِلَى دَارِي وَكَرَامَتِي ، وَأَمَّا الْخَامِسَةُ ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ آخِرُ لَيْلَةٍ ـ غَفَرَ اللَّهُ لَهُمْ جَمِيعاً ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ؟ قَالَ : لاَ ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الْعُمَّالِ يَعْمَلُونَ ، فَإِذَا فَرَغُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ ـ وُفُّوا أُجُورَهُمْ » ، رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

٥٣ ـ خطبة عيد الفطر المبارك

اللهُ أكبرُ : تُكَرَّرُ تِسْعَ مراتٍ .

اللهُ أكبرُ : مَاصَامَ الْمُسْلِمُ عَنِ الشَّهَوَاتِ إرضاءً لِرَبِّهِ قيُّومِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ .

اللهُ أكبرُ : مَاقَامَ الْمُصَلِّى بَيْنَ يَدَىِ اللهِ مُتَدَبِّراً الآياتِ ، فَازْدَادَ إيمَاناً وَرَغْبَةً فى الطَّاعَاتِ .

اللهُ أكبرُ : مَا كانَتِ الفَضَائِلُ أَسَاسَ العَلاَقَاتِ ، فطَابَتِ الحَيَاةُ بِحُسْنِ الْمُعَامَلاتِ .

اللهُ أكبرُ كبيراً ، وَالحمدُ لِلهِ كَثِيراً ، وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً .

الحمدُ لِلهِ : (غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) .

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ : جَعَلَ فى تعَاقُبِ الْأَيَّامِ ، وَتَتَابُعِ الْأَعْوَامِ عِبْرَةً لِكلِّ عَاقِلٍ بَصِيرٍ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ الْبَشِيرُ النَّذِيرِ ، السِّرَاجُ الْمُنِيرُ .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَصَابِيحِ الظَّلاَمِ ، وَهُدَاةِ الْأَنَامِ .

أَمَّا بَعْدُ :

فَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الَّذِى قَالَ فِيهِ الْإِمَامُ الشَّافِعِىُّ : إِنَّهُ خامِسُ الْخُلَفَاء

الرَّاشِدِينَ رَأَى وَلَداً لَهُ يَوْمَ عِيدٍ عَلَيْهِ قَمِيصٌ خَلَقٌ: قَدِيمٌ، فَبَكَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ وَلَدُهُ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَبِي؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ أَخْشَى أَنْ يَنْكَسِرَ قَلْبُكَ فِي يَوْمِ الْعِيدِ إِذَا رَآكَ الصِّبْيَانُ بِهَذَا الْقَمِيصِ الْخَلَقِ الْقَدِيمِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّمَا يَنْكَسِرُ قَلْبُ مَنْ حَرَمَهُ اللهُ رِضَاهُ أَوْ عَقَّ أُمَّهُ أَوْ أَبَاهُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللهُ رَاضِياً عَنِّي بِرِضَاكَ، فَقَبَّلَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، وَهُوَ يَبْكِي بُكَاءَ الْفَرَحِ لِمَعْرِفَتِهِ السَّبِيلَ الْحَقَّ لِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ، وَحِرْصِهِ عَلَيْهِ، وَهُوَ رِضَا اللهِ الَّذِي يَنَالُهُ مَنِ اسْتَقَامَ فِي رَمَضَانَ مُخْلِصاً لَهُ تَعَالَى وَتَهَذَّبَتْ بِالصِّيَامِ نَفْسُهُ، وَحَسُنَتْ عَلَاقَتُهُ بِالْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، وَعَمِلَ بِقَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[1].

عِبَادَ اللهِ:

عَقِبَ الصِّيَامِ هَذَا الرُّكْنِ الْعَظِيمِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ - شُرِعَ عِيدُ الْفِطْرِ شُكْراً لِلَّهِ بِعِبَادَتِهِ وَتَكْبِيرِهِ، وَتَسْبِيحِهِ وَتَحْمِيدِهِ لِتَوْفِيقِهِ - لِتَأْدِيَةِ هَذَا الْفَرْضِ الَّذِي يُعْلِنُ الْمُسَاوَاةَ بَيْنَ النَّاسِ، وَيُوَحِّدُ بَيْنَ الْقُلُوبِ، فَإِنَّهُ فُرِضَ عَلَى كُلِّ مَنْ شَهِدَ رَمَضَانَ، فَيَصُومُ الْغَنِيُّ كَمَا يَصُومُ الْفَقِيرُ، وَيَصْبِرُ وَيَتَذَوَّقُ طَعْمَ الْأَلَمِ وَالْحِرْمَانِ - كَمَا يَصْبِرُ وَيَتَذَوَّقُ ذَلِكَ الْمُحْتَاجُ وَالْمِسْكِينُ الَّذِي يَعْطِفُ عَلَيْهِ عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ، وَهُوَ حَامِدٌ شَاكِرٌ لِأَنْعُمِ اللهِ،

---

(١) رواه الترمذي عن أبي ذر، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما.

وما أعظمَ الصبرَ الذي يثمرُهُ الصيامُ ، فهو عدةُ الحياةِ ، والقوةُ التي ينالُ بها المرءُ مُناهُ .

ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ :[1] (وما أعطِيَ أحدٌ عطاءً خيراً وأوسعَ مِنَ الصبرِ) والآنَ ، وقد انقضى رمضانُ ، ونرجو اللهَ مُخلصينَ أنْ يكونَ شاهداً لنا لا علينا ـ تظهرُ آثارُ الصيامِ في تهذيبِ النفسِ وتأديبِها ـ في معاملاتِنا ـ مع الخلقِ والخالقِ ، ومعَ أنفسِنا ـ كما تظهرُ منها شكرُ اللهِ ، بتأديةِ زكاةِ الفطرِ لنستغنِيَ بها إغناءً للمحتاجينَ عن السؤالِ في يومِنا هذا الذي ينبغي أنْ نبتهجَ بهِ جميعاً ، وهي دَينٌ على مَنْ وجبتْ عليهِ حتى يؤدِّيَها . وهنيئاً لمَنْ أدَّاها برحمةِ اللهِ لهُ جزاءَ رحمتِهِ لسِواهُ ، فقدْ قالَ صلى الله عليه وسلم : « الراحمونَ يرحمُهُمُ الرحمنُ ، ارحموا مَنْ في الأرضِ يرحمْكُمْ مَنْ في السماءِ »[1] ونحنُ محتاجونَ لرحمةِ اللهِ في كلِّ وقتٍ ، فلنرحمْ غيرَنا على الدوامِ لذلكَ .

ولولا رحمةُ اللهِ ما كانَ فرحٌ وسرورٌ : لذلكَ كانَ سلفُنا الصالحُ ـ يسألونَ في هذا اليومِ ـ يومِ العيدِ ـ رحمةَ اللهِ القائلِ : « قلْ بفضلِ اللهِ وبرحمتِهِ فبذلكَ فليفرحوا هوَ خيرٌ مما يجمعونَ » : وقفَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ ـ بعدَ صلاةِ العيدِ ، فقالَ : « اللهمَّ إنكَ قلتَ ، وقولُكَ الحقُّ .

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى ومسلم ، عن أبى سعيد الخدرى : رضى الله عنه .

(٢) رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما .

(إنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) فَإِنْ كُنْتُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ - فَارْحَمْنِي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ - فَقَدْ قُلْتَ: (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) فَارْحَمْنِي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْتَ أَهْلُ التَّقْوَى وَالْمَغْفِرَةِ، فَاغْفِرْ لِي، وَإِنْ لَمْ أَكُنْ مُسْتَحِقًّا لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ - فَأَنَا صَاحِبُ مُصِيبَةٍ، وَقَدْ قُلْتَ: (الَّذِي إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) اللَّهُمَّ فَارْحَمْنِي.

وَيَا عِبَادَ اللهِ:

بَعْدَ قَضَاءِ صَلَاةِ الْعِيدِ، وَبَعْدَ هَٰذَا الْحَفْلِ الَّذِي تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، لِيَشْهَدُوا أَعْمَالَ الْمُتَّقِينَ - يَنْصَرِفُ النَّاسُ إِلَى دُورِهِمْ، وَاصِلِينَ قُرْبَاهُمْ، مُتَزَاوِرِينَ أَحْبَابًا فِي اللهِ: يَرْبِطُهُمْ بِبَعْضِهِمْ حُبُّ اللهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ»[1]، فَمَا الْعِيدُ إِلَّا لِمَنِ اتَّقَى رَبَّهُ، وَعَرَفَ الْفَقِيرَ بِالصَّدَقَةِ وَالْقَرِيبَ، وَالْأَهْلَ، وَالْأَوْلَادَ، وَالزَّمِيلَ، وَالْجَارَ: بِالصِّلَةِ وَالْمَوَدَّةِ الْخَالِصَةِ، وَإِشَاعَةِ السُّرُورِ، وَكَانَ رَفِيقًا حَسَنَ الْمُعَامَلَةِ وَاللِّقَاءِ، عَفُوًّا تَقِيَّ الْقَلْبِ طَاهِرَ النَّفْسِ.

فَيَا عِبَادَ اللهِ:

اتَّقُوا اللهَ، وَحَقِّقُوا الْعِيدَ بَيْنَكُمْ بِطَاعَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَاجْتِنَابِ

---

(١) رواه مالك في الموطأ، عن أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

تصفيتها ، والتحلي بمكارم الأخلاق وكريم الخصال فانتبهوا ؛ ودخل رجل على سيدنا علي في يوم عيد فوجده يأكل خبزاً خشناً ، فقال : يا أمير المؤمنين يوم العيد وتأكل خبزاً خشناً ، فقال علي : اليوم عيد من قبل صومه وشكر سعيه ، وغفر ذنبه ، ثم قال : اليوم لنا عيد ، وغداً لنا عيد ، وكل يوم لا نعصى الله فيه فهو لنا عيد .

في هذا اليوم يباهي الله بعباده الطائعين الملائكة ، ويستجيب لهم الدعاء ، ويجزل لهم العطاء .

ولنجعل شكرنا لله الذي وفقنا في شهر رمضان لطاعته ، ومن علينا بالعيد ترويحاً واستجماماً عقب الصيام والقيام — أن نصوم ستة أيام من شوال ، وقد قال رسولنا عليه الصلاة والسلام : « من صام رمضان ، ثم أتبعه ستاً من شوال — كان كصيام الدهر »[1] ، وفسر ذلك صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : « صيام رمضان بعشرة أشهر ، وصيام ستة[2] أيام بشهرين ، فذلك صيام سنة »[3] .

ويا شبان التوبة لا ترجعوا إلى ارتضاع ثدي الهوى من بعد الفطام فقد أصبحتم بالتوبة رجالاً ، والرضاع إنما يصلح للأطفال لا للرجال : (واعلموا أن الله مع المتقين) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم عيد الفطر وقفت

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه .
(٢) يعني ستة أيام من شوال بعد رمضان .
(٣) رواه الإمام أحمد ، والنسائي ، واللفظ له عن ثوبان ر .

الملائكةُ على أبوابِ الطُّرُقِ ، فنادوا اغدُوا يا معشرَ المسلمينَ إلى ربٍّ كريمٍ يَمُنُّ بالخيرِ، ثم يُثيبُ عليهِ الجزيلَ لقد أُمِرْتُم بقيامِ الليلِ فقمتم ، وأُمِرْتُم بصيامِ النهارِ فصمتم وأطعتم ربَّكم فاقبضوا جوائزَكم ، فإذا صلَّوا نادى منادٍ : ألا إنَّ ربَّكم قد غفرَ لكم ، فارجِعوا راشدينَ إلى رِحالِكم ، فهوَ يومُ الجائزةِ ، ويُسمَّى ذلكَ اليومُ في السماءِ يومَ الجائزةِ ، رواهُ الطبرانيُّ في معجمِهِ الكبيرِ ، عن سعدِ بنِ أوسٍ الأنصاريِّ ، عن أبيهِ رضي اللهُ عنهما .

٥٤ – التحذير من العصيان بعد شهر رمضان

الحمدُ لله الدائمِ ، وكلُّ موجودٍ سواهُ يزولُ ، أوحى إلى موسى عليهِ السّلامُ فقالَ : (ما لم تعلمْ أنْ قد زالَ مُلكي فلا تتركْ طاعتي) .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ فتحَ أبوابَ رحمتِهِ – لمنْ داومَ على طاعتِهِ ، وحجبَ أنوارَ هدايتِهِ – عمَّنِ انقادَ لشهوتِهِ ، وتجرّأَ على معصيتِهِ ، وقالَ جلَّ شأنُهُ : حديثاً قدسيّاً : « ابنَ آدمَ إذا ذكرتَني – أي بالطاعةِ – شكرتَني ، وإنْ نسيتَني – أي بفعلِ المعصيةِ – كفرتَني – أي جحدتَ نعمتي » ، وفي القرآنِ الكريمِ : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » .

وأشهدُ أنَّ سيّدَنا محمّداً رسولُ اللهِ أمضى حياتَهُ كلَّها ممتثلاً لأمرِ مولاهُ . الذي لمْ يجعلْ لعملِهِ – أجلاً دونَ الموتِ : قالَ لهُ : (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) ، وقالَ سبحانَهُ لنا في القرآنِ الكريمِ : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) .

اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على سيّدِنا محمّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ الذينَ أطاعوا ربَّهُمْ في سائرِ الأوقاتِ ، ونُصْبُ أعينِهِمْ قولُهُ تعالى : (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

أمّا بعدُ : فيا عبادَ الله :

رأى عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ ـ في بعضِ أسفارِهِ ـ رجلاً ، فسلّمَ عليهِ ، وقالَ : رحمَكَ اللهُ أسألُكَ مسألةً ، فقالَ الرجلُ لهُ : قلْ وأوجزْ ولا تُلهِني عنْ طاعةِ ربّي ، فإنَّ الأيّامَ تمضي والأنفاسَ تُعدُّ وتُحصى ، والربُّ مُطّلعٌ يسمعُ ويرى ، فقالَ عبدُ الواحدِ : ما رأسُ التقوى ؟ والتقوى ـ كما علمتُمْ يا قومِ ـ ثمرةُ الصّومِ ، فقالَ الرجلُ : الصبرُ مع اللهِ ، ولا شكَّ أنَّ منْ صبرَ معَ اللهِ ـ أدامَ تقواهُ .

أيُّها المسلمونَ :

ذهبَ رمضانُ ولكنْ ـ منْ بعدِهِ ـ دوامُ تقوى منْ صامَهُ بصدقٍ ، وقامَهُ بإخلاصٍ ـ عنوانُ فضلِهِ ، وقبولِ أعمالِهِ : (واعلموا أنَّ اللهَ معَ المتّقينَ) فمنْ صامَ نهارَ رمضانَ ، بعيداً عنْ كلِّ ما يُغضبُ اللهَ ، وأمسكَ عنِ السّبابِ والزورِ ، والفحشِ والفجورِ ، وقامَ ليلَهُ بالصلاةِ وتلاوةِ القرآنِ ، وذكرِ اللهِ ، مُخلصاً لهُ سبحانَهُ ، لا مُرائياً ، ولا قاصداً ثناءَ أحدٍ وتقديرَهُ ـ كانَ بعدَ رمضانَ تقيّاً : يجعلُ الأوقاتَ بعدَ رمضانَ إمداداً لأوقاتِ رمضانَ : في امتثالِ أوامرِ اللهِ واجتنابِ نواهيهِ ، فيُحافظُ على الصّلواتِ ، ويحرصُ على الجمعِ والجماعاتِ ، ويتفقّهُ في دينِهِ ، ويُحسنُ منْ مالِهِ وجاهِهِ إلى المُحتاجِ ، ويصومُ تطوّعاً ، ويفعلُ الخيرَ ما استطاعَ ، ويُمسكُ عنِ الشرِّ كلِّهِ ، فلا يُؤذي أحداً بقولٍ أو فعلٍ ، ولا يغشُّ في المُعاملةِ ، ولا يغتابُ أحداً ، ولا يسخرُ منْ أحدٍ ، ولا يكذبُ ، ولا ينمُّ ، ويتعاونُ على البرِّ والتقوى ، ولا يتعاونُ

عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ عَبْداً صَالِحاً : قِيلَ لِبِشْرٍ الحَافِي ، أَحَدِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ : إِنَّ قَوْماً يَتَعَبَّدُونَ ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي رَمَضَانَ ، فَقَالَ : بِئْسَ القَوْمُ لاَ يَعْرِفُونَ لِلَّهِ حَقّاً إِلاَّ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، إِنَّ الصَّالِحَ الَّذِي يَتَعَبَّدُ ، وَيَجْتَهِدُ السَّنَةَ كُلَّهَا .

وَتَصَوَّرُوا مَاشِئْتُمْ مِنْ عَظِيمِ المُكَافَآتِ . وَرَفِيعِ الدَّرَجَاتِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ جَزَاءَ الصَّالِحِينَ ـ فَوْقَ مَا تَتَصَوَّرُونَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَل : « أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَالاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ (فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاأُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) »[1] .

وَتَكُونُ ـ يَاعَبْدَ اللهِ ـ تَقِيّاً عَلَى الدَّوَامِ ، مُتَشَرِّفاً بِوِسَامِ الصَّلاَحِ ـ بِصَبْرِكَ مَعَ اللهِ ، فَلاَ يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ ، وَلا يَفْقِدُكَ حَيْثُ أَمَرَكَ ، وَيَجِدُكَ عِنْدَ المَكَارِهِ وَالشَّدَائِدِ مُتَحَمِّلاً ، وَلِلصَّالِحَاتِ مَا اسْتَطَعْتَ عَامِلاً ، وَهُوَ تَعَالَى يَقُولُ : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ » .

أَلاَ وَإِنَّ الَّذِي خَلَقَنَا لِعِبَادَتِهِ ، وَرَزَقَنَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ـ حَقُّهُ أَنْ نَعْبُدَهُ مَادُمْنَا أَحْيَاءَ قَادِرِينَ : لِتَدُومَ لَنَا نِعَمُهُ ، وَبِخَاصَّةٍ فِي دَارِ ضِيَافَتِهِ وَكَرَمِهِ : « أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا » .

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي . والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ألا وإنّ المعاصي - تزيل النعم ، ومن المعاصي - ترك الطاعات . قال الحسن البصري ، أحد كبار التابعين : الملائكة يعملون لبني آدم في الجنة يغرسون ويبنون ، فربما أمسكوا عن الغرس والبناء ، فيقال لهم : لِمَ انقطعتم عن الغرس والبناء ؟ فيقولون . حتى تأتينا النفقات ، فكما يحتاج غرس الشجر وبناء الدور في الدنيا إلى نفقات ومصروفات - يحتاجان - في الجنة - إلى نفقات ومصروفات كذلك ، وتلك هي عمل الصالحات في الدنيا .

فمن ترك في الدنيا - العمل الصالح - ترك الغارسون والبانون الغرس والبناء له في الجنة ، ومن أراد أن يدوم له ذلك - فليداوم على طاعة الله في كل زمان .

وإنّ المؤمن بذلك الحق - يطيب له فعل الخير دائما ، والله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » .

وقد قال رسولنا صلى الله عليه وسلم : «لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة »[1] .

ولماذا يهجر الناس الطاعة - بعد رمضان - وهي نور ، ويسعون إلى المعصية ، وهي ظلام ؟ : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

(١) رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

ويا قوم :

الصلاة عماد الدين ، وبها يعين الله المرء على كسب مناه ورضاه ، ولقد بشر الله نبيه زكريا بولده يحيى : عليهما السلام ، في حال قيامه في الصلاة : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين » .

فلماذا هجرها أو أخرجها عن وقتها أو حرم نفسه من أدائها في جماعة من كان حريصا عليها كذلك في رمضان .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من فاتته صلاة فكأنما وتر أهله وماله »[1] أي نقص أهله وماله .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لينتهين رجال عن ترك الجماعة أو لأحرقن بيوتهم »[2] .

ولماذا يترك المسلم تلاوة القرآن ، ويهجر ذلك الذكر ، وقد أنار في رمضان قلبه ، وهو هدى وعصمة ، وشفاء ورحمة : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » .

وكيف يرضى المؤمن لنفسه سوء الخلق بعد حسنه في شهر الصيام ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق »[3] .

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه عن نوفل بن معاوية رضي الله عنه .
(٢) رواه ابن ماجه عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما .
(٣) رواه أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

أَلاَ مَا أَحْسَنَ الْحَسَنَةَ بَعْدَ السَّيِّئَةِ : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » ، وَكَانَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ ـ يَرَوْنَ أَنَّ الذَّنْبَ بَعْدَ التَّوْبَةِ أَقْبَحُ مِنْ سَبْعِينَ ذَنْباً قَبْلَهَا ، وَمَا أَشَدَّ حَسْرَةَ الْمَعْصِيَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ : إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ » .

أَلاَ وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ بِذَلِكَ ـ لَا يُطِيعُ اللهَ فِى وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ ، بَلْ يُطِيعُهُ عَلَى الدَّوَامِ : حِرْصاً عَلَى السَّلَامَةِ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ ، وَهَذِهِ الشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ وَاللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ ـ كُلُّهَا مَقَادِيرُ الْآجَالِ ، وَمَوَاقِيتُ الْأَعْمَالِ ، ثُمَّ تَنْقَضِي سَرِيعاً وَتَمْضِي جَمِيعاً ، وَالَّذِي أَوْجَدَهَا وَابْتَدَعَهَا ، وَخَصَّهَا بِالْفَضَائِلِ وَمَا شَاءَ أَوْدَعَهَا بَاقٍ لَا يَزُولُ وَلَا يَتَغَيَّرُ ، وَهُوَ فِى جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ ـ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَلِأَعْمَالِ الْعِبَادِ مُشَاهِدٌ : « إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً » .

فَاتَّقُوهُ ـ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ـ وَحَافِظُوا عَلَى مَا كَسَبْتُمْ فِى رَمَضَانَ ، وَزِيدُوهُ ، وَاحْذَرُوا مَرَارَةَ الْعِصْيَانِ بَعْدَ حَلَاوَةِ الطَّاعَةِ ، وَانْتَبِهُوا إِلَى أَنَّ الْمَوْتَ يَأْتِي بَغْتَةً ، وَيُحْشَرُ الْمَرْءُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ ، فَاخْشَوْا مُفَارَقَةَ الْحَيَاةِ عَلَى غَيْرِ تَوْبَةٍ وَإِقْبَالٍ إِلَى اللهِ : « وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل » .

رواهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِى صَحِيحَيْهِمَا عن عائِشَةَ رضى الله عنها .

٥٥ – استقبال عشر ذى الحجة

الحمدُ لله ، الذى لا يُحيطُ بهِ عقلُ خلقه ، ولا يُحصى الثناء عليه لسانُ أنطقه : نبيك خاطبه رسولنا أجلُّ خلقه ، فقال : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »(١) .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، الذى من اكتفى به أغناه ، ومن دعاه لبَّاه ، ومن عصاه ناداه ، فقد قال : « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » .

ومن أقبل إليه – أعزه وأسعده ، وجعل الجنة مأواه : تلك الدار التى قال فيها رسولُ الله : « إن أدنى أهل الجنة منزلة – لينظر فى مُلكه ألفى سنة يرى أقصاه ، كما يرى أدناه : ينظر إلى أزواجه وخدمه »(٢) . « وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر إلى الله عز وجل فى وجهه فى كل يوم مرتين »(٣) .

والله تعالى يقول : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من اجتهد فى فعل الخيرات ، وعمل الصالحات ، فى العشر الأول من ذى الحجة ، الأيام التى تلى

---

(١) رواه البيهق ، عن عائشة : رضى الله عنها .
(٢) رواه أحمد ، عن ابن عمر - رضى الله عنهما .
(٣) هذا مازاده البيهق فى لفظ له على مارواه أحمد ، المذكور قبله .

فى الفضلِ أيَّامَ رَمَضانَ سَيِّدِ[1] الشُّهُورِ ، وقالَ : « مَامِنْ أيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أفضَلُ مِنْ أيَّامِ الْعَشْرِ : يَعْنى عَشْرَ ذِى الْحِجَّةِ الأُوَّلَ قِيلَ . وَلا الْجِهَادُ فى سَبيلِ اللهِ ؟ قالَ : وَلا الْجِهَادُ فى سَبيلِ اللهِ »[2] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ذَوِى الْعَزَائِمِ الْفَتِيَّةِ فِى طَاعَةِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ[3] .

أَمَّا بَعْدُ :

فَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى – مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ – أَنْ يَصُومَ شَهْرَ ذِى الْقَعْدَةِ ، وَفِى آخِرِهِ – يُلَقَّى التَّوْرَاةَ ، فَكَرِهَ مُوسَى – عِنْدَ ذَهَابِهِ لِلْمَوْعِدِ رَائِحَةَ فَمِهِ فَاسْتَاكَ ، فَقَالَ لَهُ تَعَالَى : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ خَلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدِى مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، ارْجِعْ فَصُمْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ أُخْرَى ، وَائْتِنِى بِدُونِ اسْتِيَاكٍ ، وَكَانَتْ تِلْكَ الأَيَّامُ هِىَ الْعَشْرَ الأُوَّلَ مِنْ ذِى الْحِجَّةِ ، وَفِى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » .

وَقَدْ أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَى بِلَيَالِى هَذَا الْعَشْرِ : تَوْجِيهاً لِلْقِيَامِ فِيهَا بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى ، فقالَ : « وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ » .

فَفِى هَذَا الْعَشْرِ ، لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ – تَهُبُّ نَفَحَاتُ رِضَا اللهِ عَلَى مَنْ أَجَابَ دَاعِىَ اللهِ : سَوَاءٌ أَكَانَ بِمَكَّةَ أَمْ كَانَ مُقِيماً بَيْنَ أَهْلِهِ :

---

(١) أفاد ابن حجر فى التحفة أن قوله صلى الله عليه وسلم (رمضان سيد الشهور) – خبر صحيح . (٢) رواه الطبرانى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . (٣) الخليقة .

قالَ رسولُنَا صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ أيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أحَبُّ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هٰـذِهِ الأيَّامِ – يَعْنِي أيَّامَ عَشْرِ ذِي الحِجَّةِ الأوَّلِ – قالوا : يَارسُولَ اللهِ . وَلا الجِهَادُ في سَبيلِ اللهِ ؟ إلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ »(1) ، أيْ إلاَّ رَجُل مَاتَ شَهِيداً ، وَقَدْ أنفَقَ مَالَهُ في سَبيلِ اللهِ .

ألاَ إنَّ اللهَ تَعالى – يُحِبُّ الأعْمَالَ الصَّالِحَةَ الخَالِصَةَ لَهُ ، في كلِّ وَقْتٍ ، وَأحَبُّهَا إلَيْهِ – ما كانَتْ في العَشْرِ الأوَّلِ مِنْ ذِي الحِجَّةِ : لأنَّ النَّفْسَ بِهَا وَقَدْ اهْتَدَتْ – تُمْضِي سَائِرَ شَهْرِ ذِي الحِجَّةِ في طَاعَةِ اللهِ ، القَائِل : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » وَبِذَلِكَ تَخْتِمُ عَامَهَا ، وَهِيَ عَظِيمَةُ الرَّجَاءِ في رِضَاهُ تَعَالَى ، وَ بِهِ خَـيْرُ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ ، وَهُوَ مُحَقَّقٌ لِلشَّهِيدِ ، الَّذِي بَاعَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ لِلهِ ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِـلُوا في سَبِيلِ اللهِ أمْوَاتاً بَلْ أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) .

في هٰـذَا العَشْرِ – يَا قَوْمِ – يَذْكُرُ اللهَ في مَهْبِطِ الوَحْيِ – مَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِزِيَارَةِ الحَبِيبِ المُصْطَفَى ، وَحَجِّ البَيْتِ الحَرَامِ ، حَيْثُ يَطُوفُونَ بِهِ ، وَيَسْعَوْنَ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ ، وَيَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ ، وَيَرْمُونَ الجَمَرَاتِ ، في خُضُوعٍ وَخُشُـوعٍ ، وَامْتِثَالٍ وَابْتِهَالٍ ، وَتَضَرُّعٍ للهِ ، وَالرُّءوسُ عَارِيَةٌ ، وَالعُيُونُ بَاكِيَةٌ ، وَالألسِنَةُ تُرَدِّدُ النَّشِيدَ السَّمَاوِيَّ ، مُتَرْجِمَةً عَنِ القُلُوبِ الوَجِلَةِ المُسْتَجِيبَةِ قَائِلَةً : (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ . لَبَّيْكَ لاشَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ . إنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ لاشَرِيكَ لَكَ) .

---

(1) رواه البخارى والترمذى وابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما

هُنالِكَ – تَتَمَثَّلُ الْعُبُودِيَّةُ – بِأَظْهَرِ مَعَانِيهَا ، وَتَتَجَلَّى الرُّبُوبِيَّةُ بِأَجْلَى مَجَالِيهَا ، حَيْثُ تَنْخَلِعُ الْقُلُوبُ هَيْبَةً وَإِكْبَاراً ، وَتَذِلُّ النُّفُوسُ خَشْيَةً وَاعْتِبَاراً ، وَيَتَفَضَّلُ الْجَلِيلُ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ – بِالْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ ، وَالصَّفَاءِ وَالرِّضْوَانِ .

فَمَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِالْحَجِّ ، وَتَأَدَّبَ بِآدَابِهِ – يُمْضِي أَيَّامَ الْعَشْرِ مُطِيعاً لِلَّهِ ، وَفْقَ كَلِمَةِ التَّلْبِيَةِ ، فَبِذَلِكَ يَكُونُ حَجُّهُ مَبْرُوراً .

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ فِي الْحَجِّ – فَلْيُشَارِكِ الْحُجَّاجَ فِي السَّعْيِ إِلَى رِضَا اللهِ ، وَمُضَاعَفَةِ الْحَسَنَاتِ ، فِي أَوْقَاتِ هَذَا الْعَشْرِ : بِالْتِزَامِ طَاعَتِهِ تَعَالَى ، وَمِنْهَا الْمُحَافَظَةُ عَلَى أَدَاءِ الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا ، وَبِخَاصَّةٍ فِي جَمَاعَةٍ فِي بُيُوتِ اللهِ ، فَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ رَاحَ إِلَى مَسْجِدِ الْجَمَاعَةِ فَخُطْوَةٌ تَمْحُو سَيِّئَةً ، وَخُطْوَةٌ تُكْتَبُ لَهُ حَسَنَةً ذَاهِباً وَرَاجِعاً »[1]

وَمِنَ الطَّاعَةِ – صِيَامُ الْأَيَّامِ التِّسْعَةِ مِنْ هَذَا الْعَشْرِ – صَوْماً كَامِلاً ، يَتْرُكُ بِهِ الْإِنْسَانُ كُلَّ مَا يُغْضِبُ اللهَ ، وَيُقْبِلُ عَلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَصُمْ يَوْمَيِ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ مِنْهَا ، فَقَدْ قَالَ صلى الله عليه وسلم : « تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ »[2]. وَلْيَحْرِصْ عَلَى صِيَامِ يَوْمِ عَرَفَةَ الَّذِي يُكَفِّرُ ذُنُوبَ السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ ، وَيَقِي ذُنُوبَ السَّنَةِ الْمُقْبِلَةِ .

---

(١) رواه أحمد والطبراني وابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَمِنَ الطَّاعَةِ - قِيَامُ لَيَالِي هٰذَا الْعَشْرِ ، وَلَوْ بِصَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ فِي جَمَاعَةٍ ، فَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ . وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ »(١)

وَفِي ذَٰلِكَ الصِّيَامِ . وَهٰذَا الْقِيَامِ - قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم :(٢) « مَامِنْ أَيَّامٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ أَنْ يُتَعَبَّدَ لَهُ فِيهَا مِنْ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ يُعْدَلُ(٣) صِيَامُ كُلِّ يَوْمٍ مِنْهَا بِصِيَامِ سَنَةٍ ، وَقِيَامُ كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْهَا بِقِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .

وَلْيُكْثِرِ الْمَرْءُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي هٰذَا الْعَشْرِ ، فَقَدْ قَالَ صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ عِبَادَةِ أُمَّتِي تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ »(٤) .

وَقَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَامِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ وَلَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ الْعَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ أَيَّامِ الْعَشْرِ ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّسْبِيحِ ، وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ »(٥) .

أَيْ فَأَكْثِرُوا فِي أَيَّامِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ الْأُوَلِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ بِقَوْلِكُمْ سُبْحَانَ اللهِ ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ ، وَلَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ . وَإِذَا كَانَ الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ فِي هٰذِهِ الْأَيَّامِ - بِذَٰلِكَ الذِّكْرِ - خَارِجَ الصَّلَاةِ - عَظِيمَ الْأَجْرِ - كَانَ فِي الصَّلَاةِ أَعْظَمَ أَجْراً ، وَمِنْ هُنَا يَتَجَلَّى فَضْلُ صَلَاةِ التَّسْبِيحِ فِي هٰذِهِ الْأَيَّامِ .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه ، عن عثمان بن عفان : رضى الله عنه .
(٢) رواه الترمذى . وابن ماجة والبيهقى ، عن أبى هريرة : رضى الله عنه
(٣) يسوى .
(٤) رواه البيهقى فى الشعب ، عن النعمان بن بشير : رضى الله عنهما .
(٥) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس : رضى الله عنهما .

وَفى فَضْلِهَا فى سَائِرِ الأيَّامِ - قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، لِلعبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : [1] « يَاعبَّاسُ . يَاعَمَّاهُ [2] . أَلاَ أُعْطِيكَ . أَلاَ أَمْنَحُكَ . أَلاَ أَحْبُوكَ [3] . أَلاَ أَفْعَلُ [4] لَكَ - عَشْرَ [5] خِصَالٍ : إِذَا أَنْتَ فَعَلْتَ ذَلِكَ - غَفَرَ اللهُ لَكَ ذَنْبَكَ : أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ . وَقَدِيمَهُ وَحَدِيثَهُ . وَخَطَأَهُ وَعَمْدَهُ . وَصَغِيرَهُ وَكَبِيرَهُ . وَسِرَّهُ وَعَلاَنِيَتَهُ . عَشْرَ خِصَالٍ : أَنْ تُصَلِّيَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ : تَقْرَأُ فى كُلِّ رَكْعَةٍ - بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ وَسُورَةٍ ، فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الْقِرَاءَةِ فى أَوَّلِ رَكْعَةٍ - فَقُلْ - وَأَنْتَ قَائِمٌ : سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلهِ . وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ : خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً ، ثُمَّ تَرْكَعُ فَتَقُولُ - وَأَنْتَ رَاكِعٌ - عَشْراً ، ثُمَّ تَرْفَعُ رَأْسَكَ مِنَ الرُّكُوعِ ، فَتَقُولُهَا عَشْراً ، ثُمَّ تَهْوِى سَاجِداً ، فَتَقُولُ - وَأَنْتَ سَاجِدٌ - عَشْراً ، ثُمَّ تَرْفَعُ رَأْسَكَ مِنَ السُّجُودِ ، فَتَقُولُهَا عَشْراً ، ثُمَّ تَسْجُدُ ، فَتَقُولُهَا عَشْراً ، ثُم تَرْفَعُ

---

(١) رواه أبو داود ، وابن ماجه ، وابن خزيمة فى صحيحه ، عن عكرمه ، عن ابن عباس : رضى الله عنهما .

(٢) إشارة إلى مزيد استحقاقه — العطية الآتية .

(٣) أحبوك ، وأمنحك ، وأعطيك : بمعنى واحد

(٤) أى أعطيك . . أو أعلمك .

(٥) تنازعت فى هذا اللفظ الأفعال قبله ، والمراد بعشر خصال - الأنواع العشرة للذنوب : من الأول والآخر ، والقديم والحديث ، والخطأ والعمد ، والصغير والكبير ، والسر والعلانية ، فهو على حذف المضاف ، أى ألا أعطيك مكفر عشر خصـال ، أى أنواع ذنوبك العشرة ، أو المراد بعشر خصال — التسبيحات ، فإنها فيما سوى القيام — عشر ، عشر . . . وعلى هذا — يراد به الصلاة المشتملة على التسبيحات العشر : بالنظر إلى غالب الأركان . . .

رَأْسَكَ مِنَ السُّجُودِ ، فَتَقُولُهَا عَشْراً ، فَذَلِكَ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ فِى كُلِّ رَكْعَةٍ تَفْعَلُ ذَلِكَ فِى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ : إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُصَلِّيَهَا فِى كُلِّ يَوْمٍ مَرَّةً – فَافْعَلْ ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ – فَفِى كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِى كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ – فَفِى عُمُرِكَ مَرَّةً » . وَزِيدَ فِى رِوَايَةٍ[1] « فَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُكَ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ أَوْ رَمْلِ عَالِجٍ[2] – غَفَرَ اللَّهُ لَكَ »[3] .

---

(١) روى الحديث الطبرانى ، وقال فى آخره هذه الزيادة . (٢) العالج : ما تراكم من الرمل ، ودخل بعضه فى بعض ، وهو أيضاً اسم لموضع كثير الرمل .

(٣) قال الحافظ المنذرى ، فى الترغيب والترهيب : وقد روى هذا الحديث من طرق كثيرة . وعن جماعة من الصحابة ، وأمثلها حديث عكرمة هذا ، وقد صححه جماعة : منهم — الحافظ أبو بكر الآجرى ، وشيخنا أبو محمد عبد الرحيم المصرى ، وشيخنا الحافظ أبو الحسن المقدسى : رحمهم الله تعالى ؛ وقال أبو بكر بن أبى داود : سمعت أبي يقول : ليس فى صلاة التسبيح حديث صحيح غير هذا ، وقال مسلم بن الحجاج : رحمه الله تعالى : لا يروى فى هذا الحديث إسناد أحسن من هذا ، يعنى إسناد حديث عكرمة عن ابن عباس ، وروى الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : ياغلام ألا أحبوك . ألا أنحلك . ألا أعطيك ؟ قال : قلت : بلى . بأبى أنت وأمى يارسول الله . قال : فظننت أنه سيقطع لى قطعة من مال . فقال : أربع ركعات تصليهن . فذكر الحديث كما تقدم ، وقال فى آخره : (فإذا فرغت — قلت — بعد التشهد ، وقبل السلام : اللهم إنى أسألك توفيق أهل الهدى ، وأعمال أهل اليقين ، ومناصحة أهل التوبة ، وعزم أهل الصبر ، وجد أهل الخشية ، وطلب أهل الرغبة ، وتعبد أهل الورع ، وعرفان أهل العلم ، حتى أخافك ، اللهم إنى أسألك مخافة تحجزنى عن معاصيك حتى أعمل بطاعتك ، عملا أستحق به رضاك ، وحتى أناصحك بالتوبة ؛ خوفاً منك ، وحتى أخلص لك النصيحة : حباً لك ، وحتى أتوكل عليك فى الأمور حسن ظن بك ، سبحان خالق النور ، فإذا فعلت ذلك يا ابن عباس — غفر الله لك ذنوبك : صغيرها وكبيرها ، وقديمها وحديثها ، وسرها وعلانيتها ، وعمدها وخطأها) .

وَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

أَتَدْرُونَ : لِمَاذَا كَانَ الِاهْتِمَامُ بِذَلِكَ الذِّكْرِ فِي هَذَا الْوَقْتِ انْتَبِهُوا :

إِذَا كَانَتْ مَنَاسِكُ الْحَجِّ - تَزِيدُ الْإِيمَانَ ، وَيَقْوَى بِهَا تَعْظِيمُنَا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الدَّيَّانِ - فَالثَّنَاءُ عَلَى اللهِ بِذَلِكَ الذِّكْرِ - يُحَقِّقُ ذَلِكَ الْخَيْرَ ، فَإِنَّهُ إِقْرَارٌ بِتَنَزُّهِهِ تَعَالَى عَنْ كُلِّ نَقْصٍ ، وَبِاتِّصَافِهِ بِكُلِّ كَمَالٍ ، وَجَمَالٍ ، وَجَلَالٍ ، وَهُوَ وَحْدَهُ وَاهِبُ النِّعَمِ كُلِّهَا ، وَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُقَاسَ بِهِ سِوَاهُ .

فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[1] رضي الله عنه قال : جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالُوا : ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ[2] مِنَ الْأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ وَالْمُقِيمِ : يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَلَهُمْ فَضْلُ أَمْوَالٍ : يَحُجُّونَ بِهَا ، وَيَعْتَمِرُونَ وَيُجَاهِدُونَ ، وَيَتَصَدَّقُونَ .

فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِمَا لَوْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَحِقْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ ظَهْرَانَيْهِمْ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ : تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ - أَيْ مَرَّةً .

---

(١) قال أبو صالح ، راوى الحديث عن أبي هريرة : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ، ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

(٢) جمع دثر ، والمراد الكثير .

وقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم : « خيرُ الدُّعاءِ دُعاءُ يومِ عرفةَ ، وأفضل ما قلتُ أنا والنَّبيُّونَ مِنْ قَبْلِي لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحمدُ ، وهُوَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »[1].

وَالصَّدَقَةُ - كالحجِّ - تعُودُ عَلَى مُؤَدِّيها - بالغِنَى وَغُفْرَانِ الذُّنُوبِ ، وَتزِيدُ - عَلَى الحجِّ - بِفَائِدَةِ انْتِفَاعِ المُتَصَدَّقِ عَلَيْهِ بِهَا ، وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما : « لأَنْ أعُولَ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ المُسْلِمِينَ شَهْراً أَوْ جُمُعَةً أَوْ مَا شَاءَ اللهُ أحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حِجَّةٍ بَعْدَ حِجَّةٍ - أَيْ مِنْ حِجَّةِ التَّطَوُّعِ - بَعْدَ حِجَّةِ الفَرِيضَةِ » . وَمِنْ هُنَا دَخَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ الكُوفَةَ فَإِذَا بِامْرَأَةٍ جَالِسَةٍ عَلَى مَزْبَلَةٍ ، تَنْتِفُ بَطَّةً مَيْتَةً ؛ دَفَعَتْهَا الحَاجَةُ لإِعْدَادِهَا لِتَأْكُلَهَا هِيَ وَعِيَالُهَا ، فَقَالَ لَهَا : إِنَّ اللهَ حَرَّمَ المَيْتَةَ عَلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ فِي هَذَا البَلَدِ ، الَّذِي يَتَيَسَّرُ فِيهِ طَعَامُكُمْ ، فَقَالَتْ لَهُ : انْصَرِفْ عَنِّي ، فَسَأَلَ عَنْ مَنْزِلِهَا ، وَجَاءَهَا مِنْ مَالٍ كَانَ مَعَهُ لِنَفَقَةِ حِجَّةٍ - بِزَادٍ وَكِسْوَةٍ ، وَتَصَدَّقَ عَلَيْهَا بِذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، لِتَسْتَغْنِيَ هِيَ وَعِيَالُهَا عَنِ المَيْتَةِ وَنَحْوِهَا ، وَلَمْ يَحُجَّ فِي سَنَتِهِ فَبَعْدَ عَوْدَةِ الحُجَّاجِ جَاءَ قَوْمٌ يُهَنِّئُونَهُ بِالحَجِّ ، وَذَكَرَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ عَلاَمَاتِ لِقَائِهِمْ لَهُ بِمَكَّةَ ، فَقَالَ : لا أَدْرِي مَا تَقُولُونَ ، أَنَا لَمْ أَحُجَّ هَذَا العَامَ ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أُتِيَ فِي مَنَامِهِ ، فَقِيلَ لَهُ : يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ المُبَارَكِ ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى جَلَّ جَلاَلُهُ قَدْ قَبِلَ صَدَقَتَكَ ، وَبَعَثَ مَلَكاً عَلَى صُورَتِكَ يَحُجُّ عَنْكَ ،

(١) رواه الترمذى ، عن ابن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ؛ رضى الله عنهم .

وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ : « ما أَدْخَلَ رَجُل عَلَى مُؤْمِنٍ سُرُوراً إِلاَّ خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَل مِنْ ذَلِكَ السُّرُورِ مَلَكاً يَعْبُدُ اللهَ عَزَّ وَجَل وَيُوَحِّدُهُ ، فَإِذَا صَارَ الْعَبْدُ فِى قَبْرِهِ أَتَاهُ ذَلِكَ السُّرُورُ ، فَيَقُولُ : مَاتَعْرِفُنِى ؟ فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا السُّرُورُ الَّذِى أَدْخَلْتَنِى عَلَى فُلاَنٍ ، أَنَا الْيَوْمَ أُونِسُ وَحْشَتَكَ ، وَأُلَقِّنُكَ حُجَّتَكَ ، وَأُثَبِّتُكَ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ، وَأُشْهِدُكَ مَشَاهِدَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَشْفَعُ لَكَ إِلَى رَبِّكَ ، وَأُرِيكَ مَنْزِلَكَ مِنَ الْجَنَّةِ »[1]. فَمَا أَسْعَدَ الْمُسْلِمَ الْمُتَصَدِّقَ فِى هٰذِهِ الأَيَّامِ الْمُبَارَكَةِ ـ بِإِدْخَالِ السُّرُورِ ـ بِصَدَقَتِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ .

وَلْيَطْمَئِنَّ مَنْ نَوَى الْحَجَّ ، وَتَخَلَّفَ عَنْهُ لِعُذْرٍ ـ بِأَنَّهُ ـ بِنِيَّتِهِ ـ مُثَابٌ كَمَنْ أَدَّاهُ ، فَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم ، حِينَ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ[2] : « إِنَّ أَقْوَاماً خَلْفَنَا بِالْمَدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْباً[3] ، ولاقَطَعْنَا وَادِياً إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا[4] : حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ » . فَصَدَقَ مَنْ قَالَ :

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا ، وأبو الشيخ فى كتاب الثواب ، عن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على ، عن أبيه ، عن جده : رضى الله عنهم أجمعين .

(٢) رواه البخارى ، عن أنس : رضى الله عنه .

(٣) طريقا فى الجبل .

(٤) أى بنيتهم ، فيشاركوننا فى استحقاق الثواب ، ولو أنه أقل قدراً من ثواب من جاهد . لقوله : (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما ، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما) .

يَاسَائِرِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ لَقَدْ ... سِرْتُمْ جُسُوماً وَسِرْنَا نَحْنُ أَرْوَاحَا

إِنَّا أَقَمْنَا عَلَى عُذْرٍ ، وَقَدْ رَحَلُوا ... وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُذْرٍ كَمَنْ رَاحَا

وَرُبَّمَا سَبَقَ مَنْ أَخْلَصَ نِيَّتَهُ ، وَتَخَلَّفَ عَنِ الْحَجِّ : لِعُذْرٍ - بَعْضَ مَنْ سَارَ ، وَلَمْ يُخْلِصْ نِيَّتَهُ :

قَالَ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَانَوَى »[1] .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

اتَّقُوا اللَّهَ ، الَّذِي جَعَلَ لَنَا مَوَاسِمَ لِزِيَادَةِ عِبَادَتِهِ : كَسْباً لِعَظِيمِ مَثُوبَتِهِ ، وَاشْكُرُوا لَهُ تَعَالَى فِي عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ : بِالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ : فِي طَاعَتِهِ ، وَبِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَالذِّكْرِ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم ، وَبِالتَّصَدُّقِ عَلَى الْمُحْتَاجِينَ ، وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَبِصِلَةِ الْأَرْحَامِ ، وَبِإِنَةِ ، ذَوِي الْحَاجَاتِ فِي قَضَائِهَا لِلَّهِ : « وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ »[2] .

---

(١) تتمته : (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله - فهجرته إلى الله ورسوله) أى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله : نية وقصدا — فهجرته إلى الله ورسوله : جزاء وأجراً (ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها) . أى يتزوجها (فهجرته إلى ما هاجر إليه) : رواه إماما المحدثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن [illegible] المغيرة بن بردزبه البخارى الجعفى ، وأبوا الحسين . مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيرى النيسابورى ، فى صحيحهما اللذين هما أصح الكتب المصنفة فى الحديث ، عن أمير المؤمنين ، أبى حفص ، عمر بن الخطاب : رضى الله عنهما .

(٢) جزء من حديث رواه الترمذى . وغيره ، عن أبى هريرة : رضى الله عنه ، عنه صلى الله عليه وسلم .

وَمَنْ عَجَزَ عَنْ حَجِّ بَيْتِ اللهِ ـ فَلْيَقْصِدْ رَبَّ الْبَيْتِ سُبْحَانَهُ : بِشُكْرِهِ فِي هٰذِهِ الْأَيَّامِ : بِعَمَلِ تِلْكَ الصَّالِحَاتِ ، لِتَهْدَأَ نَارُ شَوْقِهِ بِكَسْبِ رِضَاهُ سُبْحَانَهُ ، فَمَا الْبَيْتُ الْحَرَامُ ، وَكُلُّ الْمَشَاهِدِ الْعِظَامِ ـ عَظِيمَةٌ إِلَّا مِنْ أَجْلِ رِضَاهُ .

وَلْيَرْضَ بِمَا أَحَبَّهُ لَهُ تَعَالَى ، مُعْتَبِراً بِمَا كَانَ لِأَبِي مُعَاوِيَةَ الْأَسْوَدِ : كَانَ كَفِيفاً ، وَمَعَ ذَلِكَ ـ كَانَ إِذَا فَتَحَ الْمُصْحَفَ ـ أَبْصَرَ فَقَرَأَ ، فَإِذَا انْتَهَى مِنْ قِرَاءَتِهِ ـ عَادَ إِلَيْهِ عَمَاهُ : فَمَالَتْ نَفْسُهُ إِلَى أَنْ يَكُونَ مُبْصِراً عَلَى الدَّوَامِ ، فَسَأَلَ ذَلِكَ رَبَّهُ ، فَنَادَاهُ فِي مَنَامِهِ ، وَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ . إِنِّي أَغَارُ أَنْ تَرَى بِبَصَرِكَ غَيْرَ كَلَامِي .

وَبِرُؤْيَتِهِ لِكَلَامِهِ تَعَالَى ـ يَزْدَادُ أَجْراً وَفَضْلاً ، فَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَفْضَلُ عِبَادَةِ أُمَّتِي ـ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ نَظَراً »[1] .

وَجَاهِدُوا أَنْفُسَكُمْ ـ يَا قَوْمِ ـ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى ، وَابْعُدُوا عَمَّا يُغْضِبُهُ تَعَالَى : « وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَا مِنْ عَمَلٍ أَزْكَى عِنْدَ اللهِ ، وَلَا أَعْظَمَ أَجْراً مِنْ خَيْرٍ يَعْمَلُهُ ـ أَيِ الْمُسْلِمُ ـ فِي عَشْرِ الْأَضْحَى ، قِيلَ : وَلَا

---

(١) رواه الحكيم ، عن عبادة بن الصامت : رضى الله عنه .

الجِهَادُ فى سَبِيلِ اللهِ ؟ قالَ : وَلاَ الجِهَادُ فى سَبِيلِ اللهِ ، إلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَىْءٍ » .

رواهُ البَيْهَقِىُّ ، عن ابْنِ عَبَّاسٍ : رضى اللهُ عَنْهُمَا ، وَقالَ البَيْهَقِىُّ : « فَكَانَ سَعِيدُ بنُ جُبَيْرٍ – إذَا دَخَلَ أيَّامُ العَشْرِ – اجْتَهَدَ اجْتِهَاداً شَدِيداً ، حَتَّى مَا يَكَادُ يَقْدِرُ عَلَيْهِ » .

٥٦ – الحث على الرغبة فى الخير والرهبة من الشر يوم عرفة

الْحَمْدُ لِلَّهِ : مَنِ الْتَجَأَ إِلَيْهِ فَرِحَ . وَمَنْ عَامَلَهُ رَبِحَ ، وَقَالَ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إِنَّ لِى عِبَاداً إِنْ نَاجَوْنِى – أَصْغَيْتُ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْ نَادَوْنِى – أَقْبَلْتُ عَلَيْهِمْ ، وَإِنْ أَقْبَلُوا عَلَىَّ – أَدْنَيْتُهُمْ ، وَإِنْ دَنَوْا مِنِّى قَرَّبْتُهُمْ » .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ : مَنِ اجْتَهَدَ فِى عِبَادَتِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ – عَرَّفَهُ سُبْحَانَهُ بِإِحْسَانِهِ ، وَمَنَحَهُ أَلْطَافَهُ ، وَجَعَلَ رَاحَتَهُ فِى طَاعَتِهِ ، وَالْبُعْدِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ . وفى القرآن الكريم : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رسولُ اللهِ خَيْرُ مَنْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ ، وَدَعَا اللهُ وَعَرَفَهُ .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الْأَصْفِيَاءِ الْأَتْقِيَاءِ .

أَمَّا بَعْد :

فَمِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ – عَلِيُّ بْنُ الْمُوَفَّقِ : وَقَفَ بِعَرَفَةَ فِى بَعْضِ حِجَّاتِهِ ، وَكَانَ قَدْ حَجَّ كَثِيراً ، فَرَأَى كَثْرَةَ النَّاسِ ، فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ مِنْهُمْ أَحَدٌ لَمْ تَتَقَبَّلْ حَجَّهُ – فَقَدْ وَهَبْتُهُ حَجِّى ، فقالَ اللهُ لَهُ فى مَنَامِهِ . يَا بْنَ الْمُوَفَّقِ أَتَتَسَخَّى عَلَىَّ . قَدْ غَفَرْتُ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ وَلِأَمْثَالِهِمْ وَشَفَّعْتُ كُلَّ وَاحِدٍ

منهم في أهل بيته وذريته وعشيرته . فإذ دعا لهم — استجاب سبحانه دعاءه ، وهو أهل التقوى وأهل المغفرة .

وإنها — ياعبدالله — رؤيا صادقة «إن ربك واسع المغفرة» ، ولكن غفرانه تعالى يوم عرفة — يكون للحجاج الذين وقفوا بعرفة ، ولأمثالهم الذين يحفظون أنفسهم مما يغضب الله ، ويزكونها بما يرضيه جل علاه :

اسمعوا وعوا — ياقوم — وانتفعوا :[1] كان الفضل بن عباس رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم — خلفه على ظهر الدابة التي هو راكب عليها — فجعل الفتى يلاحظ النساء وينظر إليهن فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ابن أخي . إن هذا يوم من ملك فيه سمعه وبصره ولسانه — غفر له » .

فيوم عرفة يوم عتق من النار : لمن وقف بعرفة ، ومن لم يقف بها ممن لم يشهد زوراً ، ولم يشتم ولم يسب ولم يقذف أحداً ، ولم يغتب ولم ينم ، ولم يدع إلى منكر : كتناول الحشيش ونحوه ، ولم يكذب ولو مازحا : كمن يكذب في إبريل ، والرسول صلى الله عليه وسلم قد قال «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة — هو ماحولها — لمن ترك المراء وهو محق وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وهو مازح ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسنت سريرته »[2] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت ، وابن خزيمة في صحيحه والبيهقي .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر : رضي الله عنهما .

وَيومُ عرفَةَ يومُ عِتقٍ مِنَ النَّارِ : لِمَنْ حَفظَ سَمْعَهُ عَنِ القَبِيحِ وَالْغِيبَةِ وَالطَّعْنِ فى الْأَعْرَاضِ وَنَحْوِ ذَٰلِكَ مِنْ سَيِّئَاتٍ ، وَلِمَنْ حَفظَ بَصَرَهُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى الْأَجْنَبِيَّاتِ ، وَلِمَنْ صَــامَهُ فَأَرْضَى رَبَّهُ ، فَغَفَرَ لَهُ ذُنُوبَهُ السَّابِقَةَ ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ فى مُسْتَقْبَلِهِ طَاعَتَهُ ، وَكَرَّهَ إِلَيْهِ الفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ :

قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ صَامَ يَوْمَ عَرَفَةَ – غُفِرَ لَهُ سَنَةً أَمَامَهُ وَسَنَةً خَلْفَهُ ، وَمَنْ صَامَ عَاشُورَاءَ – غُفِرَ لَهُ سَنَةً »[1] .

فَمَا أَسْعَدَ الْمُسْلِمِينَ بِهَٰذَا الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ الْكَرِيمِ ، وَلِمَاذَا لَا يَفِيضُ فِيهِ السُّرُورُ بَيْنَهُمْ ، وَيَمْتَلِئُونَ فِيهِ وَابْتِهَاجًا انْشِرَاحًا ، وَفَضْــلُ اللهُ بِهِ عَظِيمٌ .

قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليـه وسلم : « إِذَا كَانَ يَوْمُ[2] عَرَفَةَ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ فى قَلْبِهِ مِثْقَالُ[3] ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إِلَّا غُفِرَ لَهُ : قِيــلَ لَهُ أَلِلْمُعَرِّفِ الْوَاقِفِ بِعَرَفَةَ – خَاصَّةً أَمْ لِلنَّاسِ عَامَّةً . قالَ : بَلْ لِلنَّاسِ عَامَّةً »[4] .

وَيَاقَوْمِ :

إِنَّ إِخْوَانَكُمُ الْحُجَّاجَ الْمُخْلِصِينَ فى مَوْقِفِهِمُ الْعَظِيمِ هَٰذَا – يَدْعُونَ اللهَ بِأَلْسِنَةٍ صَادِقَةٍ ، وَقُلُوبٍ وَجِلَةٍ ، وَدُمُوعٍ مُسْتَبِقَةٍ ، يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى سعيد الخدرى : رضى الله عنه .

(٢) سمى موضع وقوف الحجاج بذلك لأن جبريل عليه السلام – كان يرى إبراهيم عليه السلام مناسك الحج ، وهو به فيقول « عرفت » ، ولتكرار هذه الكلمة : عرفت – سمى الموضع عرفات .

(٣) المثقال من الشيء : ميزانه من مثله ، والذرة أصغر النمل .

(٤) رواه أبو داود عن ابن عمر : رضى الله عنهما .

وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَرْحَمُ الرُّحَمَاءِ - يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِتَحْقِيقِ الرَّجَاءِ ، وَيَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَيَقِيهِمُ الْعَذَابَ ، وَيَمُنُّ عَلَيْهِمْ بِجَزِيلِ الثَّوَابِ وَعَظِيمِ الْعَطَاءِ « وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

فَلْيُشَارِكِ الْعَاقِلُ الْحُجَّاجَ فِي الْإِقْبَالِ إِلَى اللهِ فِي هٰذَا الْيَوْمِ ، وَلْيَقُمْ لِلهِ بِحَقِّهِ ، وَلْيَحْذَرْ أَنْ يَرَاهُ حَيْثُ نَهَاهُ ، أَوْ يَفْقِدَهُ حَيْثُ أَمَرَهُ ، وَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

فَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَخَيْرُ مَاقُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَاشَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »(1) .

وَالدَّعْوَةُ الْجَامِعَةُ لِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْوِقَايَةِ مِنْ شَرِّهِمَا « رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » .

فَلْنُكْثِرِ الدُّعَاءَ بِهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ ، وَلْنَصُمْهُ ، وَنُصْبُ أَعْيُنِنَا قَوْلُهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ حَفِظَ لِسَانَهُ وَسَمْعَهُ وَبَصَرَهُ يَوْمَ عَرَفَةَ غُفِرَ لَهُ مِنْ عَرَفَةَ إِلَى عَرَفَةَ »(2) .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ :

اتَّقُوا اللهَ ، وَاتَّبِعُوا الْحَقَّ الَّذِي عَرَّفْتُمُوهُ وَاجْتَنِبُوا الْبَاطِلَ الَّذِي حُذِّرْتُمُوهُ ، وَاشْكُرُوا اللهَ بِاتِّبَاعِ الْمَعْرُوفِ وَاجْتِنَابِ الْمُنْكَرِ ، وَاحْرِصُوا

---

(1) رواه الترمذى ، عن عبد الله بن عمرو : رضى الله عنهما .

(2) رواه أبو الشيخ بن حبان فى كتاب الثواب والبيهقى ، عن الفضل بن العباس : رضى الله عنهما .

عَلَى صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَمَنْ لَمْ يُوَفَّقْ لِصَوْمِهِ فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَصُومَ فِيهِ عَنِ الآثَامِ ، وَيَنْأَى فِيهِ عَنِ الْحَرَامِ ، وَقِفُوا عِنْدَ حَدِّ قَوْلِ اللهِ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَى شُعَيْبٍ عليه السلام : (يَاشُعَيْبُ هَبْ لِي مِنْ رَقَبَتِكَ الْخُضُوعَ ، وَمِنْ قَلْبِكَ الْخُشُوعَ ، وَمِنْ عَيْنَيْكَ الدُّمُوعَ ، وَادْعُنِي فَإِنِّي قَرِيبٌ) .

قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلا أَدْحَرُ[1] وَلا أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَمَاذَاكَ إِلَّا لِمَا يَرَى فِيهِ مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ ، إِلَّا مَا رُئِيَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَإِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ[2] الْمَلائِكَةَ » رواه مالكٌ عن طَلْحَةَ بنِ عبدِ اللهِ ابنِ كُرَيْزٍ رضى اللهُ عنه .

---

(١) الدحر : الدفع بعنف على سبيل الإذلال والإهانة .

(٢) يرتبهم ويسوقهم ويصفهم للحرب .

٥٧ ـ استقبال يوم عرفة
وأيام عيد الأضحى والتشريق

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيِّ ذِي الْعَرْشِ الْمَجِيد ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى مَنْ دَعَاهُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد ، وَقَالَ : (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي)[1]

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ : مَنْ عَامَلَهُ رَبِح ، وَمَنِ اسْتَعَانَ بِهِ سَعِدَ وَنَجَح ، وَأَوْحَى تَعَالَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : (يَامُوسَى أَتُحِبُّ أَنْ أَسْكُنَ مَعَكَ بَيْتَكَ ، فَخَرَّ لِلَّهِ سَاجِداً ، ثُمَّ قَالَ : يَارَبِّ ، وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : يَامُوسَى ، أَمَا عَلِمْتَ أَنِّي جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي ، وَحَيْثُمَا الْتَمَسَنِي عَبْدِي وَجَدَنِي)[2] .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ ، خَيْرُ مَنْ عَرَفَ مَوْلَاهُ جَلَّ عُلاه وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِالضَّحَايَا ، وَدَعَا إِلَى سَبِيلِهِ الْبَرَايَا ، وَرَغَّبَ فِي صِيَامِ يَوْمِ عَرَفَةَ ، فَقَالَ : « مَنْ صَامَ يَوْمَ عَرَفَةَ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُ سَنَتَيْنِ مُتَتَابِعَتَيْنِ »[3]

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الْمَهْدِيِّينَ الْهُدَاة .

أَمَّا بَعْدُ :

فَفِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ ـ حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حِجَّةً ، وَدَّعَ فِيهَا الْأُمَّةَ ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ حِجَّةَ الْوَدَاع ، وَقَدْ خَرَجَ لَمَّا صلى الله

---

(١) رواه أحمد ، عن أنس : رضى الله عنه .

(٢) رواه ابن شاهين ، عن جابر : رضى الله عنه .

(٣) رواه أبو يعلى ، عن سهل بن سعد : رضى الله عنه .

عليه وسلم مِنَ المَدِينَةِ إلى مَكَّةَ في جَمْعٍ عَظِيمٍ ، في أَوَائِلِ ذِي القَعْدَةِ ، وَأَحْرَمَ بالحجِّ ، وَلَبَّى قائلاً : [1] « لَبَّيْكَ [2] اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ . لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ . إنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ . لا شَرِيكَ لَكَ » . وَلَمَّا دَخَلَ صلى اللهُ عليه وسلم مَكَّةَ وَرَأَى البَيْتَ الحَرَامَ قَالَ : [3] « اللَّهُمَّ زِدْ هَـذَا البَيْتَ تَشْرِيفاً وَتَعْظِيماً وَتَكْرِيماً وَمَهَابَةً ، وَزِدْ مَنْ شَرَّفَهُ وَكَرَّمَهُ ، مِمَّنْ حَجَّهُ أو اعْتَمَرَهُ - تَشْرِيفاً وَتَكْرِيماً وَتَعْظِيماً وَبِرًّا » ، ثُمَّ طَافَ بِالبَيْتِ سَبْعاً ، وَاسْتَلَمَ الحَجَرَ الأَسْوَدَ ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ عِنْدَ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ شَرِبَ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ سَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ ، وَفي الثَّامِنِ مِنْ ذِي الحِجَّةِ تَوَجَّهَ إلى مِنًى ، فَبَاتَ بِهَا ، وَفي اليَوْمِ التَّاسِعِ تَوَجَّهَ إلى عَرَفَةَ وَلَمَّا زَالَتِ الشَّمْسُ في ذَلِكَ اليَوْمِ - يَوْمِ عَرَفَةَ - انْتَهَزَ فُرْصَةَ الجَمْعِ مِنْ مُخْتَلِفِ الجِهَاتِ ، فَخَطَبَ النَّاسَ [4] خُطْبَةً عَظِيمَةً : بَيَّنَ فِيهَا مِنَ المَبَادِئِ وَالتَّعَالِيمِ مَا بِهِ صَلاحُ الفَرْدِ وَالجَمَاعَةِ ، وَالعِزَّةِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .

---

(١) روى مالك عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم لبيك إلى آخر الصيغة المذكورة .

(٢) قال الزمخشرى : معنى لبيك : أى داوماً على طاعتك ، وإقامة عليها مرة بعد أخرى : من لب بالمكان وألب : إذا أقام به .

(٣) رواه الشافعى مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم : قاله عمر .

(٤) ونصها من رواية ابن هشام فى سيرته : الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه . ونعوذ به من شرور أنفسنا . ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له . ومن يضلل - فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله : أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير . أيها الناس اسمعوا قولى .

فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، بهذا الموقف أبداً . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا . وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع . وإن أول دمائكم أضع - دم ابن ربيعة بن الحارث ، وكان مسترضعاً فى بنى ليث ، فقتله هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد - أيها الناس - إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك - فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . أيها الناس إن النسىء - زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم : ثلاث متوالية . ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . أما بعد - أيها الناس - فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً : لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين - فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً : فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به - فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً : كتاب الله ، وسنة نبيه . أيها الناس اسمعوا قولى ، واعقلوه - تعلمن - أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوته ، فلا يحل لمسلم من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ألا هل بلغت ؟ فقال الناس : اللهم نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أشهد .

وقال ابن إسحاق ، حدثنى ليث بن أبى سليم عن شهر بن حوشب الأشعرى ، عن عمرو بن خارجة . قال : بعثنى عتاب بن أسيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وَدَعَا صلى اللهُ عليه وسلم بِعَرَفَةَ فقَالَ :[1] « اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَسْمَعُ كَلَامِي ، وَتَرَى مَكَانِي ، وَتَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي ، لَايَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي وَأَنَا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ ، الْمُسْتَغِيثُ الْمُسْتَجِيرُ ، الْوَجِلُ الْمُشْفِقُ ، الْمُقِرُّ الْمُعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمِسْكِين ، وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الْمُذْنِبِ الذَّلِيلِ ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيرِ ، مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ ، وَفَاضَتْ لَكَ عَبْرَتُهُ ، وَذَلَّ لَكَ جِسْمُهُ ، وَرَغِمَ لَكَ أَنْفُهُ . اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِي بِدُعَائِكَ شَقِيًّا وَكُنْ بِي رَءُوفاً رَحِيماً . يَاخَيْرَ الْمَسْئُولِينَ ، وَيَاخَيْرَ الْمُعْطِينَ » .

وَمَا أَدْرَاكَ - يَاعَبْدَ اللهِ - ما يَوْمُ عَرَفَةَ ؟ هُوَ يَوْمٌ كَتَبَ اللهُ الْمَغْفِرَةَ فِيهِ لِكُلِّ مَنْ وَقَفَ بِعَرَفَاتٍ ، قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ عَرَفَاتٌ بِآلافِ السِّنِين ، يَوْمٌ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْحُجَّاجُ ، وَقَدْ خَلَصَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الأَكْدَارِ ، وَتَوَجَّهُوا

فى حاجة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة ، فبلغته ، ثم وقفت تحت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لغامها أى لعابها - ليقع على رأسى ، فسمعته ، وهو يقول : أيها الناس : إن الله قد أدى إلى كل ذى حق حقه ، وإنه لاتجوز وصية لوارث ، والولد للفراش - أى لأبيه - وللعاهر الحجر - والعاهر هى التى تخون زوجها ، وجزاؤها الرجم بالحجارة - ومن ادعى إلى غير أبيه ، أى انتسب إلى غير أبيه - أو تولى غير مواليه - فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لايقبل الله منه صرفا - أى توبة - ولا عدلا - أى فدية .

وهاك أيها المطلع بعض تعليقات على بعض ما جاء بهذه الخطبة :

النسيء : التأخير فى الوقت ، وكان العرب يؤخرون بعض الأشهر الحرم إلى شهر آخر ، فذمهم الله ونفر منه ، والأشهر الحرم المتوالية هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ومعنى عوان أى أسيرات أى فى حكم الأسيرات وفسر ذلك فى القول بعده : لايملكن لأنفسهن شيئاً . وفى رواية : فإنهن عندكم عوار أى بالراء أى أمانات

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما .

بأجسامهم وأرواحهم للواحد القهار ، متطلعين إلى رحمته تعالى ، وهو العزيز الغفار ، مرتفعة أصواتهم ، معلنة الامتثال والخضوع لأحكم الحاكمين العظيم الجبار ، مرددة ذلك النشيد[1] السماوى .

هو يوم تعم فيه رحمة الله كثيراً من خلقه ، سواء أوقفوا بعرفات أم تخلفوا لعذر ؟ وقد عقدوا نية الحج مخلصين لقيوم الأرض والسماوات ، وأقوالهم سديدة ، وأعمالهم صالحات ، وقد قال الفضيل بن عياض ، أحد مشاهير الأولياء — والناس وقوف بعرفات يستمعون إليه — : ما تقولون ، لو قصد هؤلاء الوفد — يعنى المجتمعين بعرفات — بعض الكرماء — يطلبون منه دانقاً[2] : أكان يردهم ؟ قالوا : لا . قال : والله ، للمغفرة فى جنب كرم الله أهون على الله عز وجل من الدانق فى جنب كرم ذلك الرجل .

فليعظم المسلم رجاءه فى المغفرة فى يوم عرفة : (إن الله غفور رحيم) ، وقد قال تعالى : (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) .

ألا وإن غفرانه تعالى — يوم عرفة — لاشك — يكون للحجاج الذين وقفوا بعرفة ، مخلصين لله ، ولأمثالهم ، الذين يحفظون أنفسهم مما يغضب الله ، ويزكونها بما يرضيه .

فيوم عرفة — يوم عتق من النار لمن وقف بعرفة ، ومن لم يقف بها

---

(١) لبيك اللهم لبيك . . . إلخ (٢) الدانق سدس درهم .

وَحَفِظَ سَمْعَهُ عَنِ الْقَبِيحِ وَالْغِيبَةِ وَالطَّعْنِ فِي الْأَعْرَاضِ وَنَحْوِ ذَٰلِكَ مِنْ سَيِّئَاتٍ وَلِمَنْ حَفِظَ بَصَرَهُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْأَجْنَبِيَّاتِ ، وَلِمَنْ صَامَهُ فَأَرْضَى رَبَّهُ فَغَفَرَ ذُنُوبَهُ السَّابِقَةَ ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ فِي مُسْتَقْبَلِهِ ـ طَاعَتَهُ ، وَكَرَّهَ إِلَيْهِ الْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ .

أَلَا وَإِنَّ آمَالَ الْحُجَّاجِ وَعَاقِبَتَهُمْ بِيَوْمِ عَرَفَةَ ـ كما قال رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : [1]« إِنَّ اللهَ تَطَوَّلَ[2] عَلَى أَهْلِ عَرَفَاتٍ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ يَقُولُ : يَامَلَائِكَتِي انظُرُوا إِلَى عِبَادِي شُعْثًا[3] غُبْرًا أَقْبَلُوا يَضْرِبُونَ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ فَجٍّ[4] عَمِيقٍ ، فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ، وَأَجَبْتُ دُعَاءَهُمْ ، وَشَفَّعْتُ رَغِيبَهُمْ ، وَوَهَبْتُ مُسِيئَهُمْ لِمُحْسِنِهِمْ ، وَأَعْطَيْتُ لِمُحْسِنِيهِمْ جَمِيعَ مَاسَأَلُونِي غَيْرَ التَّبِعَاتِ[5] الَّتِي بَيْنَهُمْ ، فَإِذَا أَفَاضَ الْقَوْمُ إِلَى جَمْعٍ[6] وَوَقَفُوا وَعَادُوا فِي الرَّغْبَةِ وَالطَّلَبِ إِلَى اللهِ ، فَيَقُولُ : يَامَلَائِكَتِي ، عِبَادِي وَقَفُوا فَعَادُوا فِي الرَّغْبَةِ وَالطَّلَبِ ، فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَجَبْتُ دُعَاءَهُمْ وَشَفَّعْتُ رَغِيبَهُمْ وَوَهَبْتُ مُسِيئَهُمْ لِمُحْسِنِهِمْ وَأَعْطَيْتُ مُحْسِنِيهِمْ جَمِيعَ مَاسَأَلُونِي وَكَفَلْتُ عَنْهُمُ التَّبِعَاتِ الَّتِي بَيْنَهُمْ » .

وَكَذَٰلِكَ الْعَاقِبَةُ يَوْمَ عَرَفَةَ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ يَعْمَلُ صَالِحًا ، قال رَسُولُ اللهِ

---

(١) رواه أبو يعلى عن أنس رضى الله عنه .

(٢) تفضل (٣) شعث : جمع أشعث أى وسخ الجسد ، متلبد الشعر : لقلة تعهده بالغسل والتسريح . وغبر : جمع أغبر أى أصاب الغبار جسده وثوبه ، حتى غير لونهما . (٤) طريق .

(٥) أى المظالم (٦) أى المزدلفة .

صلى اللهُ عليه وسلم : [١] « إذَا كَانَ يَوْمُ عرَفَةَ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ فى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إلاَّ غُفِرَ لَهُ . قِيلَ لَهُ أَلِلْمُعَرِّفِ ، أَىِ الْوَاقِفِ بِعَرَفَةَ ، خَاصَّةً أَمْ لِلنَّاسِ عامَّةً ؟ قالَ : بَلْ لِلنَّاسِ عامَّةً » .

وَيا قَوْمِ : يَقِفُ الْحُجَّاجُ بِعَرَفَةَ - الْمَوْضِعِ الَّذِى يَعْرِفُونَ فِيهِ رَبَّهُمْ - بالتَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَال ، فَيَعْرِفُهُمْ تعالَى بالإِحْسَانِ وَالْأَفْضَالِ : يَدْعُونَ اللهَ بأَلْسُنٍ صادِقَةٍ ، وَقُلُوبٍ وَجِلَةٍ خائِفَةٍ ، إِلَى نَيْلِ الآمَالِ مُتَلَهِّفَة ، وَدُمُوعُهُمْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ مُتَدَفِّقَة .

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ إِنَّ التَّشَبُّهَ بِالرِّجَالِ فَلَاحُ

وَاتَّقُوا اللهَ وَأَكْثِرُوا التَّضَرُّعَ إِلَيْهِ تعالَى فى ذَلِكَ الْيَوْمِ وَصُومُوهُ ، وَاعْبُدُوهُ تعالَى وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَأَحْيُوا لَيْلَةَ الْعِيدِ بِطَاعَتِهِ تعالَى وَكَبِّرُوهُ تَكْبِيراً ، وَأَخِّرُوا فُطُورَكُمْ يَوْمَ الْأَضْحَى لِمَا بَعْدَ الصَّلاةِ ، وَاسْتَمِعُوا لِخُطْبَةِ الْعِيدِ ، وَاعْزِمُوا عَلَى ذَبْحِ الضَّحَايَا بَعْدَ صَلاةِ الْعِيدِ لا يَوْمَ الْوَقْفَةِ وَلا لَيْلَةَ الْعِيدِ وَلاقَبْلَ الصَّلاةِ - تَفُوزُوا بِثَوَابِ الضَّحِيَّةِ وَالِاقْتِدَاءِ بِرَسُولِ اللهِ (وَاذْكُرُوا اللهَ فى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ) : هِيَ الْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ الَّتِى تَعْقُبُ يَوْمَ عِيدِ الْأَضْحَى ، وَتُسَمَّى أَيَّامَ التَّشْرِيقِ [٢] ، وَقَالَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : [٣] « أَيَّامُ مِنًى أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَفْضَلُ الْأَيَّامِ يَوْمُ عَرَفَةَ » .

---

(١) رواه أبو داود عن ابن عمر : رضى الله عنهما .

(٢) لان لحوم الاضاحى تشرق فيها ، أى تنشر فى الشمس وتقدد .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه عن نبيشة الهذلى رضى الله عنه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « ما مِنْ يَوْمٍ أفْضَلَ عِنْدَ اللهِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيُبَاهِي بِأهْلِ الأرْضِ أهْلَ السَّمَاءِ ، فيَقُولُ : انظُرُوا إلَى عِبَادِي شُعْثاً غُبْراً ضَاحِينَ جَاءُوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، يَرْجُونَ رَحْمَتِي ، وَلَمْ يَرَوْا عَذَابِي ، فلَمْ يُرَ أكْثَرُ عَتِيقاً مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ » رَوَاهُما ابْنُ حِبَّانَ فى صَحِيحِهِ عن جابرٍ رضى اللهُ عنه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ قامَ لَيْلَتَي الْعِيدَيْنِ مُحْتَسِباً لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْقُلُوبُ » رواه ابن ماجه .

وَصَلَّى النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يَوْمَ النَّحْرِ بالْمَدِينَةِ ، فَتَقَدَّمَ رِجَالٌ ، فَنَحَرُوا ، وَظَنُّوا أنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قَدْ نَحَرَ فأمَرَهُمْ أنْ يُعِيدُوا » رواه الطَّحَاوِيُّ عن جابرٍ رضى اللهُ عنه .

٥٨ ـ خطبة عيد الأضحى

اللهُ أكبرُ : تِسعَ مرَّاتٍ مُفْرَدَة .

اللهُ أكبرُ : مافرِحَ بالعيدِ مَنِ اتَّقى اللهَ وتابَ . واستغفرَ .

اللهُ أكبرُ : ماسَبَّحَ المُسْلِمُ للهِ وحَمِدَ . وهَلَّلَ . وكَبَّرَ .

اللهُ أكبرُ : مااستجابَ المُؤْمِنُ لِقَوْلِ رَبِّهِ : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ » .

اللهُ أكبرُ . اللهُ أكبرُ . اللهُ أكبرُ .

اللهُ أكبرُ : ماذَبَحَ المُسْلِمُونَ الذَّبائِحَ بالعيدِ : شُكْراً للهِ .

اللهُ أكبرُ : ماتَصافَحُوا . وَوَصَلُوا الأَرْحامَ ، فَفازُوا مِنَ اللهِ بِرِضاهُ .

اللهُ أكبرُ كبيراً . والحَمْدُ للهِ كَثيراً . وَسُبْحانَ اللهِ بُكْرَةً وأَصِيلاً .

سُبْحانَ اللهِ . ذِي المُلْكِ وَالمَلَكُوتِ .

سُبْحانَ اللهِ ذِي العِزَّةِ وَالجَبَرُوتِ .

سُبْحانَ اللهِ الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ .

سُبْحانَ اللهِ . والحَمْدُ للهِ . وَلا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ . واللهُ أَكْبَرُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ باللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ .

الحَمْدُ للهِ ، الَّذِي جَعَلَ أَيَّامَ الأَعْيادِ ضِيافَةً لِعِبادِهِ الصَّالِحِينَ وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، ذُو العَرْشِ المَجِيد ، وَهُوَ ـ سُبْحانَهُ ـ أَقْرَبُ إِلَى مَنْ دَعاهُ . وَرَجاهُ مِنْ حَبْلِ الوَرِيد .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، خَيْرُ مَنْ صَلَّى وَضَحَّى ، وَقالَ :

« مَنْ ضَحَّى طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ ، مُحْتَسِباً لِأُضْحِيَتِهِ ، كَانَتْ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّارِ »[1] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ ، وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ كَانَ عِيدُهُمْ هُوَ يَوْمَ طَاعَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ ، أَسَاسِ فَضْلِهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ « وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

أَمَّا بَعْدُ :

فَقَدْ كَانَ لِلْإِمَامِ الْوَاقِدِيِّ ، أَحَدِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ الْمَشَاهِيرِ - صَدِيقَانِ : دَفَعَتْهُ ضَرُورَةُ النَّفَقَةِ ، يَوْمَ عِيدٍ - إِلَى طَلَبِ عَوْنٍ مِنْ أَحَدِهِمَا ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ صُرَّةَ مَالٍ وَفِيرٍ ، فَمَا إِنْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ ، حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيْهِ الصَّدِيقُ الْآخَرُ ، يَطْلُبُ مِنْهُ عَوْناً عَلَى نَفَقَتِهِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الصُّرَّةَ بِحَالِهَا ، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَيْهِ وَجَدَهَا صُرَّتَهُ بِحَالِهَا ، الَّتِي أَرْسَلَهَا إِلَى الْوَاقِدِيِّ ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ بِهَا ، وَعَلِمَ مِنْهُ حَاجَةَ صَدِيقِهِمَا ، فَاقْتَسَمُوهَا جَمِيعاً ، وَأَنْفَقُوهَا فِي مَطَالِبِ الْعِيدِ ، الَّذِي كَانَ حَقّاً عِيداً عَامِراً بِالسُّرُورِ : لِإِخْلَاصِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ .

وَيَا قَوْمِ : (لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) .

وَيَا قَوْمِ :

بِالْأَمْسِ ، فِي يَوْمِ عَرَفَةَ - كَانَ الْمُسْلِمُونَ - فِي خُضُوعٍ لِعَظَمَةِ اللَّهِ ، وَإِقْبَالٍ إِلَيْهِ تَعَالَى - يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَرِضَاهُ - بِإِلْحَاحٍ فِي الدُّعَاءِ ، وَالرَّسُولُ

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن الحسن بن على رضى الله عنهما .

صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ : [١] « إنَّ اللهَ تعالَى يُحِبُّ المُلِحِّينَ فى الدُّعاءِ » .

وَقَدْ شَمِلَ تعالَى بِفَضْلِهِ فى يَوْمِ عَرَفَةَ كلَّ مَنْ عَرَفَهُ - بِطَاعَتِهِ تعالَى .

وَلِذَلِكَ الفَضْلِ صَارَ اليَوْمُ الَّذِى يَلِى يَوْمَ عَرَفَةَ - عِيداً لِجَمِيعِ المُسْلِمِينَ فى جَمِيعِ بِلَادِهِمْ : مَنْ شَهِدَ المَوْسِمَ مِنْهُمْ ، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهُ ، وَشَرَعَ اللهُ فِيهِ لِلْجَمِيعِ شُكْرَهُ تعالَى : بِصَلَاةِ العِيدِ ، وَإِرَاقَةِ دِمَاءِ الذَّبَائِحِ : عَمَلاً بِسُنَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ ، وَوَلَدِهِ ، رَسُولِنَا العَظِيمِ ، القَائِلِ : [٢] « ما عَمِلَ آدَمِىٌّ مِنْ عَمَلٍ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ إِهْرَاقِ دَمٍ ، إِنَّهَا لَتَأْتِى يَوْمَ القِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَظْلَافِهَا ، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الأَرْضِ ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْساً » .

وقالَ أَنَسٌ رضىَ اللهُ عنه : [٣] « ضَحَّى النَّبِىُّ صلى الله عليه وسلم بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ [٤] أَقْرَنَيْنِ [٥] : ذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ ، وَسَمَّى وَكَبَّرَ وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا [٦] » .

وَلْيَذْبَحِ المُسْلِمُ ضَحِيَّتَهُ بِيَدِهِ ، وَمَنْ لَمْ يُحْسِنِ الذَّبْحَ كَفَاهُ أَنْ يُوَكِّلَ مَنْ يَقُومُ أَمَامَهُ بِذَبْحِهَا ، وَقَدْ قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِابْنَتِهِ

---

(١) رواه الحكيم ، وابن عدى فى الكامل ، والبيهق فى شعب الإيمان ، عن عائشة رضى الله عنها .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن عائشة رضى الله عنها .

(٣) رواه مسلم . (٤) الأملح : الأبيض الخالص .

(٥) الأقرن : الذى له قرنان معتدلان .

(٦) جمع صفحة وهى الجانب

فَاطِمَةَ : (١)« يَافَاطِمَةُ قُومِي إِلَى أُضْحِيَتِكِ فَاشْهَدِيهَا فَإِنَّ لَكِ بِأَوَّلِ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ مِنْ دَمِهَا - أَنْ يُغْفَرَ لَكِ مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِكِ . قَالَتْ : يَارَسُولَ اللهِ أَلَنَا خَاصَّةً أَهْلَ الْبَيْتِ ، أَوْ لَنَا وَلِلْمُسْلِمِينَ ؟ قَالَ : بَلْ لَنَا وَلِلْمُسْلِمِينَ » .

وَتُطْلَبُ الضَّحِيَّةُ مِمَّنْ يَقْدِرُ عَلَيْهَا ، وَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ وَجَدَ سَعَةً لِأَنْ يُضَحِّيَ فَلَمْ يُضَحِّ فَلَا يَحْضُرْ مُصَلَّانَا »(٢).

وَالضَّحِيَّةُ مِنَ الْفَرْدِ الْوَاحِدِ : مِنَ الضَّأْنِ مَا أَتَمَّ سَنَةً أَوْ نِصْفَ سَنَةٍ وَكَانَ سَمِينًا ، وَمِنَ الْمَعْزِ مَا أَتَمَّ سَنَتَيْنِ أَوْ سَنَةً ، بِشَرْطِ السَّلَامَةِ مِنَ الْعُيُوبِ الَّتِي تَنْقُصُ اللَّحْمَ أَوْ تُفْسِدُهُ ، وَيُجْزِيءُ عَنْ سَبْعَةِ أَفْرَادٍ - الْوَاحِدُ مِنَ الْجِمَالِ ، الَّذِي أَتَمَّ خَمْسَ سَنَوَاتٍ كَوَامِلَ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْجَامُوسِ مَا أَتَمَّ سَنَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ .

وَيَحْرُمُ أَنْ يَبِيعَ الْمُضَحِّي شَيْئًا مِنَ الْأُضْحِيَةِ ، أَوْ يُعْطِيَ الْجَزَّارَ أُجْرَتَهُ مِنْهَا ، وَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : (٣)(مَنْ بَاعَ جِلْدَ أُضْحِيَتِهِ فَلَا أُضْحِيَةَ لَهُ) . وَيُسَنُّ أَنْ يَأْكُلَ ثُلُثَهَا وَيُهْدِيَ وَلَوْ لِغَنِيٍّ : قَرِيبًا أَوْ صَدِيقًا أَوْ جَارًا أَوْ نَحْوَهُمْ - ثُلُثَهَا ، وَيَتَصَدَّقَ عَلَى الْفُقَرَاءِ بِثُلُثِهَا ، وَفِي هٰذَا التَّقْسِيمِ حَظُّ النَّفْسِ وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى الصَّدِيقِ وَالْجَارِ ، وَالتَّصَدُّقُ عَلَى الْفُقَرَاءِ .

فَاتَّقُوا اللهَ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ - وَأَشِيعُوا السُّرُورَ فِي الْعِيدِ بَيْنَكُمْ

---

(١) رواه البزار وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه .
(٢) رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ السُّرُورَ حَقًّا - إِنَّمَا يَكُونُ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ وَرِضَاهُ (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) وَانْتَبِهُوا إِلَى مَا تَهْدِفُ إِلَيْهِ شَعَائِرُ الْعِيدِ : مِنْ صَلَاةٍ وَتَحِيَّةٍ وَتَكْبِيرٍ : لِتَزْدَادُوا إِيمَانًا بِأَنَّ اللهَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُقَاسَ بِهِ سِوَاهُ ، فَتَسْتَشْعِرُوا دَائِمًا أَنَّهُ لَا يَلِيقُ أَنْ تَخَافُوا خَلْقَهُ وَلَا تَخَافُوهُ ، وَتَجْعَلُوا طَاعَتَهُ مُقَدَّمَةً عَلَى كُلِّ طَاعَةٍ ، وَتَكُونُوا مُؤْتَلِفِينَ ، مُتَحَابِّينَ مُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَكَبِّرُوا اللهَ عَقِبَ الصَّلَوَاتِ إِلَى عَقِبِ الْعَصْرِ ، فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ مِنَ الْعِيدِ .

وَتَبَادَلُوا التَّهَانِيَ ، وَتَزَاوَرُوا (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) .

قَالَ جُنْدَبُ بْنُ سُفْيَانَ الْبَجَلِيُّ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : (شَهِدْتُ الْأُضْحِيَةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ بِالنَّاسِ - نَظَرَ إِلَى غَنَمٍ قَدْ ذُبِحَتْ ، فَقَالَ : « مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلْيَذْبَحْ شَاةً مَكَانَهَا ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ ») رواه البخاريُّ وَمُسْلِمٌ في صحيحيهما .

٥٩ – خطبة يوم الجمعة

إذا جاء فيه عيـد الأضحى

(ويتصرفُ الخطيبُ فيها بما يُناسب عيدَ الفطر إذا جاء يومَ جُمُعَةٍ)

(الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَافِى السَّمٰوَاتِ وَمَافِى الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِى الآخِرَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ) .

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ اللهُ (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الغَفُورُ) .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، نَبِىُّ الرَّحْمَةِ ، وَهَادِى الأُمَّةِ ، الَّذِى أَرْشَدَهَا فَقَالَ : [١](اطْلُبُوا الخَيْرَ دَهْرَكُمْ وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَبِّكُمْ فَإِنَّ لِلَّهِ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ : يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَسَلُوا اللهَ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ وَيُؤَمِّنَ رَوْعَاتِكُمْ) . وَقَالَ : [٢](إِنَّ لِلَّهِ فِى أَيَّامِ الدَّهْرِ نَفَحَاتٍ فَتَعَرَّضُوا لَهَا ، فَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ نَفْحَـةٌ ، فَلا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَداً) .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، الَّذِينَ كَانَتْ أَيَّامُهُمْ كُلُّهَا – بِتَقْوَى اللهِ – أَعْيَادًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَيَاعِبَادَ اللهِ :

أَبُو المِسْكِ كَافُورٌ الإِخْشِيدِىُّ ، وَالِى مِصْرَ – كَانَتْ لَهُ عَادَةٌ فِى عِيدِ

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) رواه الطبرانى عن محمد بن مسلمة رضى الله عنه

الْأَضْحَى ، وَهُوَ أَنْ يُرْسِلَ رَسُولاً بِمَبْلَغٍ مِنَ الْمَالِ وَمَعَهُ صَحِيفَةٌ بِأَسْمَاءِ مَنْ يُوَزَّعُ عَلَيْهِمُ الْمَبْلَغُ ، وَأَنْصِبَائِهِمْ .

فَكَانَ يَمُرُّ الرَّسُولُ بِمَنَازِلِهِمْ لَيْلَةَ الْعِيدِ ، وَيُعْطِي كُلَّ وَاحِدٍ نَصِيبَهُ الْمُقَدَّر ، وَفِي عَامٍ مِنَ الْأَعْوَامِ زَادَ الْوَالِي اسْمَ أَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ جَابَار ، وَجَعَلَ نَصِيبَهُ مِائَةَ دِينَار ، فَلَمْ يَقْبَلِ الْعَطَاء ، وَقَالَ لِلرَّسُولِ : نَحْنُ رَعِيَّتُهُ وَنُحِبُّهُ فِي اللهِ تَعَالَى ، وَمَا نُفْسِدُ هٰذِهِ الْمَحَبَّةَ بِعِلَّةٍ . فَلَمَّا عَلِمَ الْوَالِي ذٰلِكَ ، وَهُوَ الْحَرِيصُ عَلَى قَبُولِ عَطِيَّتِهِ : رَجَاءَ حُسْنِ ثَوَابِ اللهِ : لِإِكْرَامِ عَبْدِهِ الصَّالِحِ بْنِ جَابَارِ ـ أَمَرَ الرَّسُولُ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ مَرَّةً ثَانِيَةً بِالْمَبْلَغِ ، وَيَقْرَأَ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ طٰهَ ـ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى) . ثُمَّ يَقُولَ لَهُ : يَابْنَ جَابَارَ ، الْأُسْتَاذُ كَافُورٌ يَقُولُ لَكَ : وَمَنْ كَافُورٌ الْعَبْدُ الْأَسْوَدُ ، وَمَنْ هُوَ مَوْلَاه ، وَمَنِ الْخَلْقُ ؟ لَيْسَ لِأَحَدٍ مَعَ اللهِ مُلْكٌ وَلَا شَرِكَةٌ ، تَلَاشَى النَّاسُ كُلُّهُمْ هَاهُنَا ، أَتَدْرِي مَنْ هُوَ مُعْطِيكَ ، وَعَلَى مَنْ رَدَدْتَ : أَنْتَ مَا سَأَلْتَ ، وَإِنَّمَا هُوَ أَرْسَلَ إِلَيْكَ . يَابْنَ جَابَارَ ، أَنْتَ مَا تَفْرُقُ بَيْنَ السَّبَبِ وَالْمُسَبِّبِ ، فَالْمُعْطِي ـ فِي الْحَقِيقَةِ ـ هُوَ اللهُ .

فَاسْتَرَاحَتْ نَفْسُ ابْنِ جَابَارَ لِأَخْذِ الْعَطِيَّةِ ـ حِينَ سَمِعَ ذٰلِكَ ، وَسُرَّ كَافُورٌ لِذٰلِكَ ، فَسَجَدَ شُكْراً لِلهِ الَّذِي وَفَّقَهُ لِإِغَاثَةِ ذٰلِكَ التَّقِيِّ فِي يَوْمِ الْعِيدِ الْمُبَارَكِ .

وَطُوبَى لِمَنْ بِهِ اقْتَدَى .

ويا قوم :

قالَ زَيْدُ بْنُ أرْقَمَ رضى الله عنه : [1] «اجْتَمَعَ عِيدَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فى يَوْمٍ وَاحِدٍ ، فَصَلَّى العِيدَ فى أوَّلِ النَّهَارِ ، وَقالَ : يٰأيُّهَا النَّاسُ . إنَّ هٰـذَا يَوْمٌ ـ قَدْ اجْتَمَعَ لَكُمْ فِيهِ عِيدَانِ ، فَمَنْ [2] أحَبَّ أنْ يَشْهَدَ مَعَنَا الْجُمُعَةَ ـ فَلْيَفْعَلْ ، وَمَنْ أحَبَّ أنْ يَنْصَرِفَ فَلْيَفْعَلْ » .

فاجْتِمَاعُ عِيدَيْنِ لِلْمُسْلِمِينَ فى يَوْمٍ : كَيَوْمِنَا هَذَا : اجْتَمَعَ فِيـهِ عِيدُ الأُسْبُوعِ : الْجُمُعَةُ وَعِيدُ الأَضْحَى [3] ـ لا يَكُونُ أنَّ أشْؤُمًا [4] عَلَى الْمُسْلِمِينَ : بِشَرٍّ يَصِلُ إلَىَّ وَإلَيْهِمْ ، وَأىُّ مُنَاسَبَةٍ بَيْنَ اجْتِمَاعِ العِيدَيْنِ وَضَرَرِ بَعْضِ عِبَادِ اللهِ تَعَالَى ، وَإنَّمَا ذَلِكَ إرْشَادٌ لَنَا : لِيَزْدَادَ فِى هَـذَا الْيَوْمِ شَرْحُ صُدُورِنَا أوْ يَتَضَاعَفَ فِيهِ سُرُورُنَا ، وَيَعْظُمَ شُكْرُنَا لِلهِ ، الَّذِى مَنَّ عَلَيْنَا بِالْحَيَاةِ فِى يَوْمٍ يَزِيدُ فِيهِ رِضَاهُ .

وإنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ الرِّضَا الْمَزِيدُ ـ بِزِيَادَةِ تَقْوَاهُ ، وَذِكْرُهُ جَلَّ عُلاَهُ .

قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليـه وسلم : « فَإنَّ اللهَ لاَ يُنَالُ فَضْلُهُ

---

(١) رواه أبو داود والحاكم .

(٢) حكى عن الشافعى رضى الله عنه أن الترخيص يختص بمن كان خارج الحضر ، واستدل له بقول عثمان : من أراد من أهل العوالى أن يصلى معنا الجمعة فليصل ، ومن أراد أن ينصرف فليفعل .

(٣) يقال وعيد الفطر بدلا من قولنا وعيد الأضحى إذا جاء عيد الفطر يوم جمعة ، ويحذف من الخطبة كل ما يناسب عيد الأضحى .

(٤) يتوهم بعض العامة ذلك إذا جاء فى يوم الجمعة أحد العيدين .

بِمَعْصِيَتِهِ »[١] . وقالَ : « فَإِنَّ اللهَ لاَيُنالُ مَاعِنْدَهُ إلاَّ بِطَاعَتِهِ »[٢] .

وَقالَ ذُو النُّونِ ، أَحَدُ مَشَاهِيرِ الأَوْلِيَاءِ : « مَاطَابَتِ الدُّنْيَا إلاَّ بِذِكْرِهِ ، وَلاَ الآخِرَةُ إلاَّ بِعَفْوِهِ ، وَلاَ الْجَنَّةُ إلاَّ بِرُؤْيَتِهِ » ، وَصَدَقَ مَنْ قَالَ :

بِذِكْرِ اللهِ تَرْتَاحُ الْقُلُوبُ　　وَدُنْيَانَا بِذِكْرَاهُ تَطِيبُ

وَقالَ جَلَّ شَأْنُهُ : (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

وَيَاقَوْمُ :

لاَقَى الْوَافِدُونَ إِلَى بَيْتِ اللهِ مَا لاَقَوْا : مِنْ مَشَاقِّ السَّفَرِ ، وَتَعَبِ الإِحْرَامِ لِتَرْكِ الْمَأْلُوفِ وَالْمُعْتَادِ ، وَجِهَادِ النُّفُوسِ فِى تَأْدِيَةِ مَنَاسِكِ الْحَجِّ ، وَشَارَكَهُمُ الْمُسْلِمُونَ السُّعَدَاءُ فِى جَمِيعِ الْمَوَاطِنِ — فِى الاِجْتِهَادِ فِى عَشْرِ ذِى الْحِجَّةِ —

---

(١) روى الحاكم ، عن ابن مسعود رضي الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال : « ليس من عمل يقرب من الجنة إلا قد أمرتكم به ، ولا من عمل يقرب إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه ، فلا يستبطئن أحد منكم رزقه ، فإن جبريل ألقى فى روعى — أي قلبى — أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا ، حتى يستكمل رزقه ، فاتقوا الله أيها الناس وأجملوا فى الطلب ، فإذا استبطأ أحد منكم رزقه — فلا يطلبه بمعصية الله ، فإن الله لا ينال فضله بمعصيته » .

(٢) روى البزار ، عن حذيفة رضى الله عنه قال : « قام النبى صلى الله عليه وسلم ، فدعا الناس ، فقال : هلموا إلىّ ، فأقبلوا إليه ، فجلسوا فقال : هذا رسول رب العالمين جبريل صلى الله عليه وسلم — نفث فى روعى أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، وإن أبطأ عليها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله ، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته » .

بالصَّوْمِ ، وَالذِّكْرِ ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ العِبَادَاتِ المُسْتَطَاعَةِ : سَعْيًا إِلَى المَغْفِرَةِ ، وَفَضْلِ اللهِ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ .

فَشَرَعَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِجَمِيعِ المُسْلِمِينَ : حُجَّاجًا وَمُقِيمِينَ : رَحْمَةً مِنْهُ بِهِمْ - عِيدَ النَّحْرِ ، وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بَعْدَهُ : بِهَا يَفْرَحُونَ ، وَيَسْتَرِيحُونَ ، عَقِبَ جِدِّهِمْ ، فِي إِرْضَاءِ رَبِّهِمْ ، وَيَذْبَحُونَ الذَّبَائِحَ : تَقَرُّبًا إِلَيْهِ تَعَالَى .

وَبِذَلِكَ صَارَ المُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ فِي ضِيَافَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فِي هَذِهِ الأَيَّامِ : يَأْكُلُونَ اللَّحْمَ : سَيِّدَ الطَّعَامِ : رِزْقًا مِنْهُ ، وَيَشْكُرُونَ لَهُ تَعَالَى : لِفَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ . وَنُهُوا عَنْ صِيَامِهَا : لِأَنَّ الكَرِيمَ - لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يُجِيعَ أَضْيَافَهُ ، وَكَأَنَّهُ قِيلَ لِلْمُؤْمِنِينَ : فِي هَذِهِ الأَيَّامِ - قَدْ فَرَغَ عَمَلُكُمُ الَّذِي عَمِلْتُمُوهُ ، فَمَا بَقِيَ لَكُمْ إِلَّا الرَّاحَةَ : كَمَا أُرِيحَ صَائِمُو شَهْرِ رَمَضَانَ : لِلَّهِ - بِأَمْرِهِمْ بِإِفْطَارِ يَوْمِ عِيدِ الفِطْرِ .

وَكَمَا أَنَّ التَّمَتُّعَ حَقًّا ، الَّذِي يَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ يَكُونُ - بِتَنَاوُلِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، وَطَاعَتِهِ تَعَالَى - تَكُونُ الرَّاحَةُ - حَقًا - فِي هَذِهِ الأَيَّامِ - بِرَاحَةِ البَدَنِ بِالإِفْطَارِ وَتَرْكِ الصِّيَامِ ، وَبِرَاحَتِهِ ، وَرَاحَةِ القَلْبِ وَالضَّمِيرِ - بِاجْتِنَابِ المَعَاصِي وَالحَرَامِ ، فَصَدَقَ مَنْ قَالَ :

أَطَاعَ اللهَ قَوْمٌ فَاسْتَرَاحُوا   وَلَمْ يَتَجَرَّعُوا غُصَصَ المَعَاصِي

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ :

إِنَّ يَوْمَكُمْ وَالثَّلَاثَةَ بَعْدَهُ - أَيَّامُ صَفَاءٍ ، وَهَنَاءٍ وَأَعْيَادٍ بِالسُّرُورِ عَامِرَةٍ ، إِذَا وَصَلْتُمُ الأَرْحَامَ ، وَنَبَذْتُمُ الخِصَامَ ، وَاسْتَمْسَكْتُمْ بِالأَخْلَاقِ

الحَسَنَة ، فَكُنتُمْ حُلَمَاءَ كُرَمَاءَ رُحَمَاءَ مُتَوَاضِعِينَ حَرِيصِينَ عَلَى المَحَبَّةِ وَالائْتِلافِ . وَالتَّحَلِّي بِالإِحْسَانِ ، وَالتَّخَلِّي عَنِ الإِسَاءَةِ ، وَنُصْبُ أَعْيُنِكُمْ ـ قَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ المُسْلِمَ بِمَا يُحِبُّ لِيَسُرَّهُ بِذَلِكَ سَرَّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ »[1] .

فَيَا عِبَادَ اللهِ :

سُرُّوا اليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَالأَرَامِلَ بِالإِعْطَاءِ مِمَّا أَعْطَاكُمُ اللهُ ، وَانْتَبِهُوا لِقَوْلِ رسول الله : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ . فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ـ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ »[2] ، وَلْيُقَابِلْ كُلٌّ مِنَّا أَخَاهُ ، لِقَوْلِهِ صلى اللهُ عليه وسلم « لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئاً وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلِيقٍ »[3] ، وَاذْكُرُوا عَلَى الدَّوَامِ ، وَبِخَاصَّةٍ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ ـ قَوْلَ ابْنِ عَبَّاسٍ ، رضى اللهُ عنهما . « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ ـ فَقَدِ اسْتَحَقَّ وِلايَةَ اللهِ أَيْ نَصْرَهُ : حِلْمٌ يَدْفَعُ بِهِ سَفَهَ السَّفِيهِ ، وَوَرَعٌ يَمْنَعُهُ عَنِ المَعَاصِي ، وَخُلُقٌ حَسَنٌ يُدَارِي بِهِ النَّاسَ » . وَتَقَرَّبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ـ أَيُّهَا القَادِرُونَ ـ عَلَى الضَّحَايَا ـ بِالتَّوْسِيعِ عَلَى الأَهْلِ وَالتَّصَدُّقِ عَلَى الفُقَرَاءِ ، وَالإِهْدَاءِ لِلْجِيرَانِ وَالأَصْدِقَاءِ وَالأَقْرِبَاءِ ، وَمَنْ وَصَلَ رَحِمَهُ ـ وَصَلَهُ اللهُ وَرَحِمَهُ ، وَكَبِّرُوا اللهَ ـ عَقِبَ صَلاةِ الجُمُعَةِ اليَوْمَ ، وَعَقِبَ الصَّلَوَاتِ إِلَى عَقِبِ العَصْرِ مِنَ اليَوْمِ الثَّالِثِ ، بَعْدَ اليَوْمِ ، وَلْيَحْرِصْ كُلٌّ

---

(١) رواه الطبراني ، في الصغير ، وأبو الشيخ في كتاب الثواب ، عن أنس رضى الله عنه .

(٢) رواه البخاري ومسلم ، عن عدى بن حاتم رضى الله عنه .

(٣) رواه مسلم ، عن أبي ذر رضى الله عنه .

مِنَّا دَائِمًا عَلَى الْبُعْدِ عَنِ الْمَعَاصِي ، فَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : « كُلُّ يَوْمٍ لاتَعْصِي اللهَ فِيهِ فَهُوَ لَكَ عِيدٌ » « وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « يَوْمُ عَرَفَةَ ، وَيَوْمُ النَّحْرِ ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ عِيدُنَا أَهْلَ الإِسْلَامِ ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ » رواه التِّرْمِذِيُّ وغيرُه عن عُقْبَةَ بن عامر رضي اللهُ عنه .

وقال صلى اللهُ عليه وسلم[1] « أَعْظَمُ الأَيَّامِ عِنْدَ اللهِ يَوْمُ النَّحْرِ ثم يَوْمُ القَرِّ[2] » رواه الإمامُ أحمدُ وأبو داود والنسائي عن عبدِ اللهِ بن قُرْطٍ رضي اللهُ عنه .

---

(١) لفظ ابن حبان في صحيحه (أفضل الأيام) والأفضلية أو الأعظمية بالنسبة لأيام الأعياد ، التي لاصيام فيها .

(٢) بفتح القاف : هو اليوم الذي بعد يوم النحر لأن الناس ـ فيه ـ يقرون في منازلهم .

٦٠ – وداع العام الهجرى ، واستقبال الآخر الجديد

الحَمْدُ لِلهِ (هُوَ الأَوَّلُ) بِلاَ ابْتِدَاء (وَالآخِرُ) بِلاَ انْتِهَاء (وَالظَّاهِرُ) بِصِفَاتِهِ وَمَصْنُوعَاتِهِ (وَالْبَاطِنُ) بِحَقِيقَةِ ذَاتِهِ (وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ : بِهِ التَّوْفِيقُ وَحُسْنُ الخِتَام ، وَلَوْلاَ عَفْوُهُ لَهَلَكَ الأَنَام : لِتَقْصِيرِهِمْ فى حَقِّهِ ، مَهْمَا عَبَدُوه ، وَفِيمَا أَوْحَاهُ اللهُ لِبَعْضِ أَنْبِيَائِهِ – أَنْ قال : « بَشِّرِ الْمُذْنِبِينَ ، وَأَنْذِرِ الصِّدِّيقِينَ ، فإِنِّى لا يَتَعَاظَمُنِى ذَنْبُ المَغْفِرَةِ ، وَإِنِّى لا أَضَعُ عَدْلِى وَلاحِسَابِى عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ أَهْلَكْتُهُ » .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، خَاتَمُ الأَنْبِيَاء ، وَخَيْرُ الْبَرِيَّة ، الْبَدْرُ جَبِينُهُ وَفى الْعَطَاء الْبَحْرُ يَمِينُهُ ، وَالْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ دِينُهُ : ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، الَّذِى بِهِ صَلاَحُ الدُّنْيَا ، وَالْفَلاَحُ فى الآخِرَةِ . وقد قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « مَنْ رَضِىَ باللهِ رَبًّا وبالإِسْلاَمِ دِيناً وبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً – وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ »[1] .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ أَحْسَنُوا (وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، وتكملته (فعجب لها أبو سعيد ، فقال أعدها علىّ يارسول الله ، فأعادها عليه ، ثم قال (وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة : مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، قال : وماهى يارسول الله ؟ قال : (الجهاد فى سبيل الله ، الجهاد فى سبيل الله) .

أمَّا بَعْدُ : فَيَاعِبَادَ اللهِ :

قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ ، أَحَدُ كِبَارِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ — لِرَجُلٍ : كَمْ سَنَةً أَتَتْ عَلَيْكَ ؟ قَالَ سِتُّونَ سَنَةً . قَالَ : فَأَنْتَ تَسِيرُ إِلَى رَبِّكَ مُنْذُ سِتِّينَ سَنَةً ، يُوشِكُ أَنْ تَبْلُغَ أَجَلَكَ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . فَقَالَ الْفُضَيْلُ : أَتدرى تَفْسِيرَهَا ؟ تقولُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لِلَّهِ عَبْدٌ ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ رَاجِعٌ — فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ — مَوْقُوفٌ — وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مَسْئُولٌ ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ — فَلْيُعِدَّ لِلسُّؤَالِ جَوَابًا ، فَقَالَ الرَّجُلُ فَمَا الْحِيلَةُ ؟ قَالَ : يَسِيرَةٌ . قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : تُحْسِنُ فِيمَا بَقِيَ : يَغْفِرُ لَكَ فِيمَا مَضَى ، فَإِنَّكَ إِنْ أَسَأْتَ فِيمَا بَقِيَ أُخِذْتَ بِمَا مَضَى وَمَا بَقِيَ .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمُزَنِيُّ : مَا مِنْ يَوْمٍ أَخْرَجَهُ اللهُ إِلَى الدُّنيا إِلَّا يقول : يَابْنَ آدَمَ اغْتَنِمْنِي لَعَلَّهُ لا يومَ لَكَ بَعْدِي ، ولا لَيْلَةٍ إِلَّا تُنَادِي : يَابْنَ آدَمَ اغْتَنِمْنِي . لَعَلَّهُ لا ليلةَ لَكَ بَعْدِي .

فَيَاعَبْدَ اللهِ :

اغْتَنِمْ فِي الْفَرَاغِ فَضْلَ رُكُوعٍ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَةْ
كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْتَ مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَةْ

* * *

وَمَا هٰذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَرَاحِلٌ يَحُثُّ بِهَا دَاعٍ إِلَى الْمَوْتِ قَاصِدُ
وَأَعْجَبُ شَيْءٍ لَوْ تَأَمَّلْتَ أَنَّهَا مَرَاحِلُ تُطْوَى وَالْمُسَافِرُ قَاعِدُ

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الْأَوْزَاعِيُّ ، عَالِمُ الشَّامِ فِي كِتَابٍ بَعَثَ بِهِ إِلَى أَخٍ لَهُ

فى الله : أمّا بَعْدُ فَقَدْ أُحِيطَ بِكَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ يُسَارُ بِكَ فى كلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَاحْذَرِ اللهَ وَالمَقَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلْيَكُنْ هُوَ آخِرُ عَهْدِكَ بِهِ ، وَالسَّلَام .

وَيَا قَوْمِ :

لَمْ يَبْقَ عَلَى انتهاء العَامِ سِوَى أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ ، ثُمَّ يُضَافُ إلى مَا سَبَقَهُ مِنْ أَعْوامٍ ، لِيَجِيءَ يَوْمَ القِيَامَةِ شَاهِداً لَنَا أَوْ عَلَيْنَا بِحَسَبِ مَا عَمِلْنَا فِيهِ : إِنْ خَيراً فَخَيْرٌ ، وَ إِنْ شَرّاً فَشَرٌّ ، وَمِنْ هُنَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام : « إِنَّ هٰذَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِزَانَتَانِ ، فَانْظُرُوا مَا تَضَعُونَ فِيهِمَا » .

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ : (وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى) .

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضى اللهُ عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم الْتَقَى هُوَ وَالمُشْرِكُونَ ، وَفِى أَصْحَابِهِ رَجُلٌ لا يَدَعُ شَاذَّةً وَلا فَاذَّةً إِلاَّ أَتْبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ ، فَقَالُوا : مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : هُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَنَا صَاحِبُهُ فَأَتْبَعَهُ ، فَجُرِحَ الرَّجُلُ جَرْحًا شَدِيداً ، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ عَلَى الأَرْضِ ، وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ فخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ وَقَصَّ عَلَيْهِ القِصَّةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم :[1] « إِنَّ الرَّجُلَ

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، إلا قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالخواتيم» فهو زيادة فى رواية البخارى ، لم يروها مسلم ، وروى هذه الزيادة ابن حبان فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها .

لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْـلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ » .

فَلْيَكُنْ كُلٌّ مِنَّا كَالتَّاجِرِ الْعَاقِلِ الَّذِي يُحْصِي آخِرَ الْعَامِ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ لِيَعْرِفَ رِبْحَهُ مِنْ خَسَارَتِهِ ، فَيَجْتَنِبَ أَسْبَابَ الْخَسَارَةِ وَيَزِيدَ الرِّبْحَ ، وَيَعِيشَ سَعِيداً مُكَرَّماً حَسَنَ الْعَاقِبَةِ .

فَلْنُحَاسِبْ أَنْفُسَنَا الْآنَ : فَإِذَا لَمْ نَكُنْ أَدَّيْنَا أَوْ أَدَّيْنَا — بِنَقْصٍ — مَا عَلَيْنَا : مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ الَّتِي فِيهَا حُسْنُ حَالِنَا وَمَآلِنَا — تُبْنَا تَوْبَةً صَادِقَةً ، وَأَخَذْنَا فِي الْأَدَاءِ — بِإِحْسَانٍ وَصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ ، وَقَضَيْنَا مَا عَلَيْنَا ، وَلْيُهَوِّنِ الزَّكَاةَ عَلَى النَّفْسِ — أَنَّهَا حِصْنُ الْمَالِ مِنَ الْهَلَاكِ ، وَتَنْمِيَةٌ لَهُ : مَعَ ضَآلَةِ الْمُعْطَى لِلْمُحْتَاجِينَ : رُبْعُ عُشْرِ الْمَالِ ، الَّذِي مَرَّتْ سَنَةٌ عَلَيْهِ مَمْلُوكًا لِلْمُزَكِّي : (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) .

وَقَدْ قَالَ سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي اللهُ عنه : « حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا » .

وَبِتِلْكَ الْمُحَاسَبَةِ نَخْتِمُ عَامًا وَنَسْتَقْبِلُ آخَرَ بِمَا فِيهِ إِرْضَاءُ رَبِّنَا وَصَلَاحُ أَمْرِنَا (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) .

أَيُّهَا المسلمون :

مِنَّا مَنْ غَرَّهُ طُولُ الْعَـامِ شَبَابُهُ ، وَقُوَّتُهُ ، وَمَتَاعُ الدُّنْيَا الْقَلِيلِ . وَنَعِيمُهَا الْفَانِي وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، فَأَسْرَفَ فِي إِشْبَاعِ شَهْوَتِهِ ،

مُطْمَئِنًّا إِلَى الدُّنْيَا ، مَعَ غَدْرِهَا ، وَخِدَاعِهَا ، وَلَمْ يَتَّعِظْ بِمَنْ فَرَّطَ أَوْ أَفْرَطَ وَلَمْ يَسْتَمِعْ لِلنُّصْحِ وَقَدْ ضَرَبَ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلْأَغْنِيَاءِ ، وَحَذَّرَ مِنْ مَخْبُوءِ اللَّيَالِي . وَمُفَاجَآتِ الْأَيَّامِ .

حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » ، وَلَمْ يُقَدِّرْ مَاتَنْطَوِي عَلَيْهِ الشَّيْخُوخَةُ مِنْ ضَعْفٍ وَمَرَضٍ وَهَوَانٍ ، وَلَمْ يَنْظُرْ لِغَدِهِ وَعَاقِبَةِ أَمْرِهِ - وَمَنْ نَظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ سَلِمَ مِنَ النَّوَائِبِ - حَتَّى جَاءَهُ الشَّيْبُ وَأَدْرَكَهُ الْهَرَمُ ، وَقَدْ زَالَ مَالُهُ وَذَهَبَ سُلْطَانُهُ ، وَلَمْ يَنَلْ مَانَالَهُ الْمُطِيعُ فِي قُوَّتِهِ وَشَبَابِهِ حِينَ أَدْرَكَهُ الضَّعْفُ وَالشَّيْخُوخَةُ ، حَيْثُ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ مِثْلَ : « مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي صِحَّتِهِ مِنَ الْخَيْرِ »[1] .

وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْمَغْرُورُ . كَمَنْ زَهَا وَتَكَبَّرَ مِنْ قَبْلُ ، وَأَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ : كَقَارُونَ ، الَّذِي سَجَّلَ اللهُ غُرُورَهُ ، وَهَدَّدَ وَحَذَّرَ ، إِذْ قَالَ سُبْحَانَهُ : (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ، أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ

---

(١) روى الترمذى ، عن عثمان بن عفان رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى : (إذا بلغ عبدى أربعين سنة - عافيته من البلايا الثلاث : من الجنون والجذام والبرص ، وإذا بلغ خمسين سنة - حاسبته حساباً يسيراً ، وإذا بلغ ستين سنة - حببت إليه الإنابة ، وإذا بلغ سبعين سنة أحببته للملائكة ، وإذا بلغ ثمانين كتبت حسناته وألقيت سيئاته . وإذا بلغ تسعين - قالت الملائكة : أسير الله فى أرضه ، فغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وشفع ، فإذا بلغ أرذل العمر - كتب الله له مثل ما كان يعمل فى صحته من الخير وإن عمل سيئة لم تكتب) ، والمراد بالعبد . العبد الصالح التقى ، والجذام علة رديئة تنتشر فى البدن كله ، فيفسد مزاج الأعضاء وهيئتها ، والبرص : بياض يظهر فى ظاهر البدن يشوه هيئة الإنسان ، وأرذل العمر : الخرف .

أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) ، أَىْ لاَ يُسْأَلُونَ سُؤَالَ إِكْرَامٍ ، بَلْ سُؤَالَ إِهَانَةٍ وَإِذْلاَلٍ .

وَمِنَّا مَنْ عَبَدَ اللهَ ، وَقَطَعَ أَيَّامَ عَامِهِ فِي طَاعَتِهِ تَعَالَى ، وَلَكِنْ تَمَلَّكَهُ الْغُرُورُ ، وَنَسِيَ أَنَّ هَذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ تَعَالَى وَهُوَ الْوَاهِبُ الْمُعْطِى ، وَلَوْ شَاءَ لَسَلَبَ مَا أَعْطَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَقَدْ يَبْلُغُ مِنْ غُرُورِ ذَلِكَ الْمَغْرُورِ أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ صَارَ فِي مَصَافِّ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَأَنَّهُ أَفْضَلُ بِكَثِيرٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، فَيَكُونُ كَإِبْلِيسَ حِينَ اغْتَرَّ ، فَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لآدَمَ حِينَ أُمِرَ بِالسُّجُودِ لَهُ : (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ) .

فَلْيَذْكُرِ الْعَبْدُ عِنْدَ النِّعْمَةِ رَبَّهُ ، الَّذِى مَنَّ بِهَا عَلَيْهِ وَتَفَضَّلَ ، لِيَشْكُرَ لَهُ تَعَالَى وَيَتَذَلَّلُ لِئَلاَّ يَتَعَالَى بِهَا عَلَى سِوَاهُ ، وَلِيَسْلَمَ مِنْ غَضَبِ اللهِ ، الَّذِى قَالَ : (فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ . قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

فَيَاقَوْمِ :

الْعَاصِي وَالْمُطِيعُ ، وَهُوَ غَيْرُ مُخْلِصٍ لِلهِ - كِلاَهُمَا يَشْهَدُ الْعَامُ عَلَيْهِمَا ، وَمَا لَهُمَا الْحِرْمَانُ وَالْخُسْرَانُ : « وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً » .

فاتقوا الله ، واختموا عامكم مستقبلين عاماً جديداً بفعل الخير ابتغاء وجه الله ، وليتب العاصي مما جنته يداه ، وليخلص المرائي في الطاعة فيما بقي من عامه ، والله تعالى يقول : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم »

ولقد لقي الشيخ إمام الحرمين ـ بعض العارفين بالله ، فتذاكرا مليًّا : مدة طويلة : في آخرها ـ قال إمام الحرمين : ما أظنني جلست مجلساً أنا له أرجى من مجلسي هذا ، فقال له العارف بالله : لكنني ما جلست مجلساً أنا له أخوف من مجلسي هذا ، ألست تعمد إلى أحسن حديثك وعلومك فتحدثني بها ، وتظهرها بين يدي ، وأنا كذلك ، فقد وقع الرياء ، فبكى الشيخ الإمام ، ثم غشي عليه ، فكان بعد ذلك يتمثل بهذه الأبيات :

يا ويلنا من موقف ما به ... أخوف من أن يعدل الحاكم
أبارز الله بعصيانه ... وليس لي من دونه راحم
يا رب عفواً منك عن مذنب ... أسرف إلا أنه نادم
يقول في الليل إذا ما دجا ... آهاً لذنب ستر العالم

واعتبروا بمن عبد الله عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة في آخرها نظر في المرآة فوجد الشيب قد علاه ، فبكى وقال :

عصيت هوى نفسي صغيراً فعندما ... أتتني الليالي بالمشيب وبالكبر
أطعت الهوى عكس القضية ليتني ... خلقت كبيراً ثم عدت إلى الصغر

فَسَمِعَ هَاتِفًا يَقُولُ عَنِ اللهِ : أَحْبَبْتَنَا فَأَحْبَبْنَاكَ ، أَطَعْتَنَا عِشْرِينَ عَامًا فَقَرَّبْنَاكَ ، وَعَصَيْتَنَا عِشْرِينَ عَامًا فَأَمْهَلْنَاكَ ، وَإِذَا جِئْتَنَا وَوَقَفْتَ بِبَابِنَا تَائِبًا قَبِلْنَاكَ (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى مِنْ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

قالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قِيلَ : كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ ؟ قالَ : يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ » رَوَاهُ الْحَاكِمُ عن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضى اللهُ عنه .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا عَسَلَهُ[1] : قَالُوا : مَاعَسَلَهُ يَارَسُولَ اللهِ ؟ قالَ : يُوَفِّقُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا بَيْنَ يَدَيْ رِحْلَتِهِ ، حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ جِيرَانُهُ ، أَوْ قالَ : مَنْ حَوْلَهُ » رواه ابنُ حِبَّانَ فى صحيحِهِ وَالْحَاكِمُ عن عَمْرِو بنِ الْحَمِقِ رضى اللهُ عنه .

---

(١) : من العسل ، وهو طيب الثناء ، وقال بعضهم : هذا مثل . أى وفقه الله لعمل صالح يتحفه به كما يتحف الرجل أخاه ، إذا أطعمه العسل .

٦١ - ذكرى المولد النبوى الشريف

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، الَّذِى شَرَّفَنَا ، فَجَعَلَنَا مِنْ أُمَّةِ حَبِيبِهِ وَمُصْطَفَاهُ ، الَّذِى اعْتَزَّ بِعُبُودِيَّتِهِ لَهُ جَلَّ عُلَاهُ ، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا ، لا نَبِيًّا مَلِكًا .

أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، الْقَائِلُ : [لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ] .

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، أَجَلُّ مَنْ سَعِدَتْ بِهِ الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَهُدِىَ بِهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، الَّذِى دَلَّتْ أَسْمَاؤُهُ الشَّرِيفَةُ ، عَلَى فَضَائِلِهِ الْمُنِيفَةِ ، فَقَدْ قَالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « [1] إِنَّ لِى أَسْمَاءً : أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا الْمَاحِى الَّذِى يَمْحُو اللَّهُ بِىَ الْكُفْرَ ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِى يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِى ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِى لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِىٌّ » .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَسَائِرِ أُمَّتِهِ ، الْمَشْمُولَةِ بِعِنَايَتِهِ : قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا « [2] تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صلى اللهُ عليه وسلم « رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وَقَوْلَهُ : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » فَرَفَعَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ : « اللَّهُمَّ أُمَّتِى . أُمَّتِى

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، فى صحيحيهما ، عن جبير بن مطعم : رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم ، فى صحيحه .

وَبَكَى » ، فقالَ اللهُ عزَّ وَجلَّ : (يا جبريلُ . اذهبْ إلى محمَّدٍ ، وربُّكَ أعلمُ . فاسألْهُ : ما يُبكيه ؟ فأتاهُ جبريلُ . فسألَهُ ، فأخبرَهُ بما قالَ - وهوَ أعلمُ - فقالَ اللهُ تعالَى : « يا جبريلُ . اذهبْ إلى محمَّدٍ ، فقلْ لَهُ : إنَّا سنُرضيكَ في أمَّتِكَ . ولا نسوؤُكَ » .

وفي القرآنِ الكريمِ : « ولسوفَ يُعطيكَ ربُّكَ فترضَى » .

أمَّا بعدُ : فيا عبادَ اللهِ :

«[1] قالَ أبو جهلٍ عدوُّ اللهِ ورسولِهِ للمشركينَ وقدِ اشتدَّ غيظُهُ : لصلاةِ رسولِ اللهِ أمامَهمْ : « هلْ يعفرُ محمَّدٌ وجهَهُ بينَ أظهرِكمْ ؟ فقيلَ : نعمْ ، فقالَ : « واللاتِ والعزَّى ، لئنْ رأيتُهُ يفعلُ ذلكَ لأطأنَّ على رقبتِهِ ولأعفرنَّ وجهَهُ في الترابِ » ، فأتى رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وهوَ يُصلِّي ليطأَ على رقبتِهِ ، فما فجأَهمْ منهُ إلَّا وهوَ ينكصُ[2] على عقبيهِ ، ويتَّقي بيدِهِ ، فقيلَ لَهُ : مالَكَ ؟ قالَ : إنَّ بيني وبينَهُ خندقًا منْ نارٍ ، وهولاءَ الأجنحةَ . فقالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « لوْ دنا منِّي لاختطفتْهُ الملائكةُ عضوًا ، عضوًا ، وأنزلَ اللهُ : « كلَّا إنَّ الإنسانَ ليطغَى[3] . أنْ رآهُ استغنَى . إنَّ إلى ربِّكَ الرُّجعَى[4] . أرأيتَ الذي ينهَى

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) يرجع وراءه .

(٣) ليجاوز الحد ، ويستكبر على ربه ، ويكفر به ، من أجل رؤية نفسه ذا غنى وثراء وقوة وقدرة .

(٤) رجوع هذا الطاغية وأمثاله بالبعث .

عَبْدًا إِذَا صَلَّى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى . أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى . أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى . كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا[١] بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ[٢] . كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ » .

وَهَكَذَا كَانَ صلى الله عليه وسلم كَانَ كَامِلَ الإِيمَانِ بِرَبِّهِ ، فَمَا كَانَ يَخْشَى قُرَيْشًا ، وَهُوَ يَسْجُدُ لَهُ تَعَالَى فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَقَدْ وَقَاهُ سُبْحَانَهُ شَرَّهُمْ ، وَزَادَ إِيمَانَهُ بِعِنَايَتِهِ بِهِ .

وَمِنْ كَمَالِ إِيمَانِهِ صلى الله عليه وسلم - أَنَّهُ كَانَ[٣] يُحْرَسُ - بِرِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِهِ - حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ : « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » ، فَقَالَ لَهُمْ : « أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللهُ » : تَوَلَّى حِرَاسَتِي ، وَهُوَ - سُبْحَانَهُ لا يَغْفَلُ وَلاَ يَنَامُ .

وَالإِيمَانُ بِاللهِ - كَذَلِكَ - حَقًّا يُرِيحُ النَّفْسَ ، وَيُقَوِّي الْقَلْبَ ، وَيَجْعَلُ الإِنْسَانَ فِي جَانِبِ الْحَقِّ دَائِمًا ، فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ، وَإِنَّمَا يَعِزُّ . وَيَسْعَدُ ؛ وَيَرْقَى بِنُورِ هُدَى اللهِ الْعَلِيِّ الأَكْرَمِ وَرِضَاه : لِحَارِثَةَ بْنِ مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاه .

---

(١) لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار ، والناصية : شعر مقدم الرأس

(٢) هم الملائكة الغلاظ الشداد الموكلون بالعذاب : لإلقائه فى النار ، والزبانية - فى كلام العرب - هم الشرط .

(٣) رواه الترمذي ، والحاكم ، والبيهق ، وأبو نعيم ، عن عائشة رضى الله عنها ، وفيه : « فأخرج رأسه من القبة فقال لهم : أيها الناس : انصرفوا »

قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : [1] « كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ ؟ قَالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً حَقّاً ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً ، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟ وَفِي رِوَايَةٍ – قَالَ له : اعْلَمْ مَا تَقُولُ ، أَوِ انْظُرْ مَا تَقُولُ ، فَقَالَ : عَزَفَتْ – أَيْ أَعْرَضَتْ – نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا ، فَاسْتَوَى عِنْدِي حَجَرُهَا وَذَهَبُهَا ، فَأَسْهَرْتُ[2] لَيْلِي ، وَأَظْمَأْتُ[3] نَهَارِي ، وَكَأَنِّي أَرَى عَرْشَ رَبِّي بَارِزاً ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا ، وَكَأَنِّي أَسْمَعُ عُوَاءَ أَهْلِ النَّارِ ، فَقَالَ لَهُ : « عَرَفْتَ فَالْزَمْ » ، وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَنْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَارِثَةَ بْنِ مَالِكٍ » .

وَمَا كَانَ حَارِثَةُ – كَذَلِكَ – إِلَّا بِاقْتِدَائِهِ بِهِ صلى الله عليه وسلم وَالِاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ .

وَإِنَّهُ – صلى الله عليه وسلم – لَذَلِكُمُ التَّقِيُّ النَّقِيُّ الزَّكِيُّ ، الَّذِي كَانَ كُلُّ اهْتِمَامِهِ – اتِّصَالُهُ بِرَبِّهِ ، وَقَالَ :[4] « أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ – كَلِمَةُ لَبِيدٍ : « أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ » ؛ فَمَا اسْتَطَاعَتْ مُغْرِيَاتُ الْحَيَاةِ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْ قَلْبِهِ . وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : [5] « اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ » . وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : [6] « نَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى حَصِيرٍ ؛ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ . قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ

---

(١) رواه الطبراني والبزار وغيرهما .

(٢) أي متعبداً لله مصلياً . (٣) أي صائماً .

(٤) رواه البخاري ومسلم ، عن أبي هريرة : رضي الله عنه .

(٥) رواه البخاري ، ومسلم ، عن أنس : رضي الله عنه .

(٦) رواه الترمذي .

لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً ؛ وَفِى رِوَايَةٍ[1] : فَقُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ لَوْ كُنْتَ آذَنْتَنَا ـ أَعْلَمْتَنَا ـ فَفَرَشْنَا لَكَ شَيْئًا يَقِيكَ . فَقَالَ : « مَالِى وَلِلدُّنْيَا ؟ مَاأَنَا فِى الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا » .

وَتُوُفِّىَ[2] رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَدِرْعُهُ الَّتِى كَانَ يَلْبَسُهَا فِى الْحَرْبِ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِىٍّ ، فِى ثَلاَثِينَ صَاعًا[3] مِنْ شَعِيرٍ » .

وَمَرَّ[4] أَبُو هُرَيْرَةَ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ ـ أَىْ مَشْوِيَّةٌ ـ فَدَعَوْهُ ؛ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ ؛ وقَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ » .

وَقَامَ[5] النَّبِىُّ صلى اللهُ عليه وسلم ـ مِنَ اللَّيْلِ ـ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ فَقِيلَ لَهُ : قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ قَالَ : أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً » (وكَانَ[6] صلى اللهُ عليه وسلم يَتَحَرَّى صَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ) وقال[7] : « تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِى وَأَنَا صَائِمٌ » .

وَسُئِلَ[8] عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ فَقَالَ : « ذَلِكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ

---

(١) رواها ابن ماجه .

(٢) رواه البخارى ومسلم ، عن عائشة : رضى الله عنها

(٣) الصاع ملوة أى قدحان ، عند الشافعية والحنابلة ، وقدحان وثلث ، عند الحنفية ، وقدح وثلث ، عند المالكية .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه .

(٥) رواه البخارى ومسلم ، فى صحيحيهما عن المغيرة بن شعبة : رضى الله عنه .

(٦) رواه الترمذى ، عن عائشة : رضى الله عنها .

(٧) رواه الترمذى ، عن أبى هريرة : رضى الله عنه .

(٨) رواه مسلم ، فى صحيحه ، عن أبى قتادة : رضى الله عنه .

وَيَوْمٌ بُعِثْتُ . أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ » .

وَكَمْ أَظْمَأَ صلى اللهُ عليه وسلم نَهَارَهُ صَائِماً ، وقالَ : [1]« الصِّيَامُ جُنَّةٌ ـ وِقَايَةٌ ـ يَسْتَجِنُّ بِهَا الْعَبْدُ مِنَ النَّارِ » .

وكانَ صلى اللهُ عليه وسلم يُوَاصِلُ فى صِيَامِهِ ، وَنَهَى النَّاسَ عَنْ ذَلِكَ رَحْمَةً لَهُمْ . فَقِيلَ : إِنَّكَ تُوَاصِلُ . فقَالَ ـ مُعْلِناً اسْتِغْنَاءَهُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ـ بِإِشْبَاعِ اللهِ لَهُ وَإِرْوَائِهِ : [2]« إِنِّى لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ ؛ إِنِّى يُطْعِمُنِى رَبِّى وَيَسْقِينِى » .

وكانَ صلى اللهُ عليه وسلم يَذْكُرُ اللهَ كَثِيراً فى لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ، وقال[3]: « لَأَنْ أَقُولَ : سُبْحَانَ اللهِ . وَالْحَمْدُ لِلهِ . وَلا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ . وَاللهُ أَكْبَرُ ـ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ » . وقال : [٥]« أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ : سُبْحَانَ اللهِ . وَالْحَمْدُ لِلهِ . وَلا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ . وَاللهُ أَكْبَرُ . لا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ ـ بَدَأْتَ » .

فَخَالِقُنَا وَرَازِقُنَا وَمُرَبِّينَا وَمَنْ بِيَدِهِ كُلُّ شُئُونِنَا وَجَمِيعُ نِعَمِنَا ـ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ ؛ وَهُوَ وَحْدَهُ الْمَحْمُودُ ؛ وَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ ؛ وَأَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُقَاسَ بِهِ غَيْرُهُ : (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ) .

وَمِنْ جَمِيلِ صُنْعِهِ صلى اللهُ عليه وسلم وَكِيَاسَتِهِ وَحُسْنِ مُعَامَلَتِهِ ـ أَنَّه

---

(١) رواه الإمام أحمد والبيهقى عن جابر رضى الله عنه .
(٢) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن عائشة رضى الله عنها .
(٣) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٤) رواه مسلم وغيره عن سمرة بن جندب رضى الله عنه .

مَا شَبِعَ مِنْ خُبْزٍ وَلا لَحْمٍ قَطُّ إلاَّ أَنْ يَكُونَ مَعَ النَّاسِ : إِينَاساً لَهُمْ وَتَطْيِيباً لِخَاطِرِهِمْ .

[1]« وكَانَ خَاتَمُهُ صلى اللهُ عليه وسلم مِنْ فِضَّةٍ ، وَفَصُّهُ مِنْه » ، وكَانَ يَلْبَسُهُ فى إِصْبَعِهِ الْخِنْصِرِ : بِيَمِينِهِ ، وَنُقِشَ فِيهِ : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) لِتُخْتَمَ بِهِ كُتُبُهُ : لإثْبَاتِ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

وَمِنْ هُنَا يَجُوزُ أَنْ يَتَخَتَّمَ الْمُسْلِمُ بِالْفِضَّةِ لا بِالذَّهَبِ . فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رضىَ اللهُ عنهما [2] « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم رَأى خَاتَماً مِنْ ذَهَبٍ فى يَدِ رَجُلٍ ، فنزَعَهُ وَطَرَحَهُ وقالَ : يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إلَى جَمْرَةٍ - أىْ سَبَبِ جَمْرَةٍ - مِنْ نَارٍ . فَيَطْرَحُهَا فى يَدِهِ . فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعدَما ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : خُذْ خَاتَمَكَ انْتَفِعْ بِهِ . فقَالَ : لا وَاللهِ . لا آخُذُهُ وَقدْ طَرَحَهُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم » .

وقالَ عَلِيٌّ رضى اللهُ عنه : [3] « رَأَيْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أَخَذَ حَرِيراً فَجَعَلَهُ فى يَمِينِهِ ؛ وَذَهَباً فَجَعَلَهُ فى شِمَالِهِ ؛ ثُمَّ قالَ : «إِنَّ هٰذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِى » .

فَلَعَلَّ الرِّجَالَ الَّذِينَ يَلْبَسُونَ الْخَوَاتِمَ وَالدِّبَلَ[4] الذَّهَبِيَّةَ - يَسْتَمِعُونَ وَيَعُونَ ؛ فَيَقُونَ أَنْفُسَهُمْ - بِطَرْحِهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَإِعْطَائِهَا أَزْوَاجَهُمْ

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

(٣) رواه أبو داود والنسائى .

(٤) هى الفتخات عند العرب ، والمراد بها : فتخة ، وآثرنا هنا المعروف المشهور بين الناس .

أو بالانتفاع بها فى تصرف حلال : اقتداء بأهل الكمال : كعمر بن عبد العزيز : بلغه أن ابنه اشترى خاتماً واتخذ له فصاً بألف درهم ؛ فأرسل إليه أن بع الخاتم وأشبع بثمنه ألف فقير واشتر خاتماً من حديد واكتب عليه : (رحم الله امرأً عرف قدر نفسه) .

[1] « وكان صلى الله عليه وسلم لا يرد الطيب » - العطر - إذا أهدى إليه . وكان[2] يحبه . وقال : مبيناً نوعه للرجال والنساء : [3] « طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفى لونه . وطيب النساء ما ظهر لونه وخفى ريحه » .

فحرام على المرأة أن تتطيب - عند الخروج من منزلها - بالعطر فائح الرائحة . قال صلى الله عليه وسلم : [4] « أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهى زانية وكل عين زانية » .

وكان صلى الله عليه وسلم يعود المرضى فى أقصى المدينة . وكان يعود بعض أهله يمسح بيده اليمنى . ويقول : [5] « اللهم رب الناس أذهب البأس . اشف أنت الشافى . لا شفاء إلا شفاؤك . شفاء لا يغادر سقماً » .

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخارى والنسائى عن أنس رضى الله عنه .

(٢) روى النسائى ، عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « حبب إلىّ النساء والطيب » .

(٣) رواه الترمذى ، عن أبى هريرة ، والطبرانى فى الكبير ، والضياء ، عن أنس رضى الله عنه .

(٤) رواه النسائى ، وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحيهما ، عن أبى موسى رضى الله عنه .

(٥) رواه البخارى ومسلم ، عن عائشة رضى الله عنها .

[1] وَمَرَّ أَنَسٌ عَلَى صِبْيَانٍ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، وقالَ : « كَانَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يفعَلُهُ » . وقالَ صلى اللهُ عليه وسلمَ : [2] « لا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ – أَيْ يَرْتَفِعُ وَيَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ – حَتَّى يُكْتَبَ فِى الْجَبَّارِينَ فَيُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُمْ » .

وكَانَ صلى اللهُ عليه وسلم يَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ وَيُعْطِى مَنْ حَرَمَهُ ، وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَ رَحِمَه . وكَانَ صلى اللهُ عليه وسلم حَلِيماً رَفِيقاً ، رَءُوفاً رَحِيماً ، عَفُوّاً غَفُوراً ، عَظِيمَ الْمُرَاقَبَةِ لِلَّهِ ، شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَى رِضَاه ، حَامِداً شَاكِراً لَهُ تَعَالَى عَلَى الدَّوَامِ [3] وَرَأَى نُخَامَةً [4] فِى الْقِبْلَةِ ؛ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، حَتَّى رُئِىَ فِى وَجْهِهِ ، فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ ، فَقَالَ : « إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِى صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِى رَبَّهُ ، وَإِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ ، فَلَا يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ قِبَلَ الْقِبْلَةِ وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ – وَذَلِكَ إِذَا كَانَ فِى غَيْرِ الْمَسْجِدِ – ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ فَبَصَقَ فِيهِ ، ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ ، فَقَالَ : « أَوْ يَفْعَلُ هَكَذَا » . وَلَا يَفْعَلُ غَيْرَ الْبَصْقِ فِى ثَوْبِهِ ، أَوْ فِى الْمِنْدِيلِ ، وَهُوَ أَنْسَبُ إِذَا كَانَ فِى الْمَسْجِدِ » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، فى صحيحيهما .
(٢) رواه الترمذى ، عن سلمة بن الأكوع : رضى الله عنه .
(٣) رواه البخارى ، ومسلم ، فى صحيحيهما ، عن أنس رضي الله عنه .
(٤) هى ما يخرجه الإنسان من حلقه من مخرج الخاء المعجمة ، وأيضا ما يخرج من الخيشوم عند النخع ، والخيشوم الأنف أو أقصاه .

(١) وكانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إذَا أوَى إلَى فِرَاشِهِ لِيَنَامَ قالَ : « بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أحْيَا وَأمُوتُ » . وَإذَا اسْتَيقَظَ قالَ : (٢) « الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أحْيَانَا بَعْدَ مَا أمَاتَنَا وَإلَيْهِ النُّشُورُ » . وَإذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ ـ بَعْدَ نِعْمَةِ الرَّاحَةِ بالنَّوْمِ ـ قالَ : (٣) « اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ . وَلَكَ الحَمْدُ . لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ . وَلَكَ الحَمْدُ أنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ . وَلَكَ الحَمْدُ أنْتَ الحَقُّ ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ . اللَّهُمَّ لَكَ أسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإلَيْكَ أنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإلَيْكَ حَاكَمْتُ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أخَّرْتُ ، وَمَا أسْرَرْتُ وَمَا أعْلَنْتُ . أنْتَ المُقَدِّمُ وَأنْتَ المُؤَخِّرُ . لا إلَهَ إلاَّ أنْتَ » . زَادَ بَعْضُ الرُّوَاةِ : « وَلا حَوْلَ (٤) وَلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ » .

فَحَقًّا . . كانَ (٥) رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا . . مَعَ الخَلْقِ وَالخَالِقِ :

رَحْمَـــةٌ (٦) كُلُّهُ وَحَزْمٌ وَعَزْمٌ   وَوَقَارٌ وَعِصْـــمَةٌ وَحَيَـــاءُ

(١ ، ٢) رواه البخارى فى صحيحـــه ، عن حذيفة بن اليمان : رضى الله عنهما ، وعن أبى ذر : رضى الله عنه : قالا : كان رسول الله . . . الخ

(٣) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، عن ابن عباس : رضى الله عنهما .

(٤) أي لاتحول عن المعصية والشر ، ولاقوة على الطاعة والخير إلا بعون الله.

(٥) رواه البخاري ومسلم ، فى صحيحيهما ، عن أنس : رضى الله عنه .

(٦) هذه الأبيات ـ من همزية الإمام البوصيرى .

لاَ تَحُلُّ الْبَأْسَاءُ مِنْهُ عُرَى الصَّبْـ ـرِ وَلاَ تَسْتَخِفُّهُ السَّرَّاءُ
كَرُمَتْ نَفْسُهُ فَمَا يَخْطُرُ السُّو ءُ عَلَى قَلْبِهِ وَلاَ الْفَحْشَاءُ

وَلَقَدْ حَوَى صلى اللهُ عليه وسلم - مَكَارِمَ الْأَخْلاَقِ جَمِيعَهَا وَلِذَلِكَ - قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : (1) « كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ » .

وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُنَا صلى الله عليه وسلم - فِي كَمَالِ عَقِيدَتِهِ الصَّحِيحَةِ ، وَتَمَامِ إِيمَانِهِ ، وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ ، وَخُلُقِهِ الْفَاضِلِ الْكَرِيمِ - صُورَةً وَاضِحَةً لِلدِّينِ الْكَامِلِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِيهِ ، الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ لِتَبْلِيغِهِ : لِلْإِصْلاَحِ ، فِي الْأَرْضِ إِلَى انْتِهَاءِ الدُّنْيَا : لِيَعِيشَ النَّاسُ بِتَعَالِيمِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ فِي أَمْنٍ وَهَنَاءٍ ، وَسَعَادَةٍ وَرَخَاءٍ ، وَيُحَقِّقُوا مَا خُلِقُوا مِنْ أَجْلِهِ : مِنْ عِبَادَةِ الْخَالِقِ ، وَاهِبِ النَّعْمَاءِ .

وَقَدْ أَعْلَنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَمَامَهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَكَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ : قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاَمَ دِيناً » .

وَلِأَنَّهُ صلى الله عليه وسلم - كَانَ مَظْهَرًا كَامِلاً لِلْإِسْلاَمِ ، دِينِ الْإِصْلاَحِ الشَّامِلِ الْعَامِّ - شَهِدَ (2) لَهُ : صلى الله عليه وسلم - أَهْلُ الِاخْتِصَاصِ بِالصَّلاَحِ ، فَمَا مَرَّ بِنَبِيٍّ ، لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ ، فِي سَمَاءٍ مِنَ السَّمَوَاتِ - إِلاَّ قَالَ لَهُ : « مَرْحَباً بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ » .

---

(1) رواه الإمام أحمد ومسلم . وأبو داود .
(2) جاء ذلك ، فى حديث الإسراء والمعراج ، الذى رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم ، عن أنس : رضى الله عنه . عن مالك بن صعصعة : رضى الله عنه .

وَإِصْلاَحِهِ : صلى الله عليه وسلم ـ اخْتَارَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ قُدْوَةً صَالِحَةً ـ لِمَنْ أَرَادَ الْفَلاَحَ : قَالَ سُبْحَانَهُ : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا » .

فَمَنِ اتَّخَذَهُ صلى الله عليه وسلم إِمَامًا ، وَاقْتَدَى بِهِ فِي سَائِرِ شُئُونِهِ ـ كَانَ عُنْوَانًا وَاضِحًا صَادِقًا لِلإِسْلاَمِ ، فَلاَ يَدَعُ مَعْرُوفًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْعَلَهُ مَا دَامَ مُسْتَطِيعًا ، وَلاَ يَرْتَكِبُ مُنْكَرًا أَبَدًا ، فَلاَ يَتَنَاوَلُ الْحَشِيشَ ، وَلاَ يَبِيعُهُ ، وَلاَ يُعِينُ عَلَى كَسْبِهِ : لِضَرَرِهِ وَتَفْتِيرِهِ لِلأَعْضَاءِ وَإِضْعَافِهَا ، وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ـ « [1] نَهَى عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرٍ » ، وَيُحَافِظُ عَلَى الصَّلَوَاتِ فِي الْجَمَاعَاتِ . وَنُصْبُ عَيْنَيْهِ ـ قَوْلُهُ صلى اللهُ عليه وسلم : « [2] مَنْ صَلَّى لِلَّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الأُولَى كُتِبَ لَهُ بَرَاءَتَانِ : بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ » .

وَلِفَضْلِ صَلاَتَيِ الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ فِي جَمَاعَةٍ ، الَّذِي بَيَّنَهُ صلى اللهُ عليه وسلم : حِرْصًا عَلَى الْخَيْرِ لأُمَّتِهِ ـ بِقَوْلِهِ : « [3] مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ ـ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ ـ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ » .

قَالَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ : « [4] إِنَّ أَثْقَلَ صَلاَةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، وأبو داود ، عن أم سلمة : رضى الله عنها .

(٢) رواه الترمذى ، عن أنس بن مالك : رضى الله عنه .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه ، عن عثمان بن عفان : رضى الله عنه .

(٤) رواه البخارى ، ومسلم ، عن أبى هريرة : رضى الله عنه .

صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا – لَأَتَوْهُمَا ، وَلَوْ حَبْوًا ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ ، فَتُقَامَ ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ فَأُحْرِقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ » .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ أُرْسِلَ بِأَوْفَى دِينٍ ، حَوَى كُلَّ مَا بِهِ خَيْرُ الدَّارَيْنِ ، وَصَلَاحُ النَّاسِ أَجْمَعِينَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ – يَكُونُ خَيْرَ الْمُرْسَلِينَ ، وَتَكُونُ ذِكْرَى مَوْلِدِهِ – خَيْرَ الذِّكْرَيَاتِ : بِإِذَاعَةِ فَضَائِلِهِ ، الَّتِي بِهَا تَطِيبُ الْحَيَاةُ ، وَيَسْعَدُ الْإِنْسَانُ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ .

أَلَا إِنَّ فِي هَذِهِ الذِّكْرَى الْمُبَارَكَةِ تَخْلِيدًا لِلْخُلُقِ الْعَظِيمِ ، وَالسَّيْرِ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَتَذْكِرَةً بِحُقُوقِ الْيَتَامَى وَالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ ، وَدَعْوَةً قَوِيَّةً إِلَى الِاعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللهِ وَالِاسْتِمْسَاكِ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّتِهِ صلى اللهُ عليه وسلم .

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُ :

نَوَّرَ اللهُ قَلْبِي وَقَلْبَكَ ، وَضَاعَفَ لِهَذَا النَّبِيِّ حُبِّي وَحُبَّكَ .

اتَّقِ اللهَ وَاشْكُرْ لَهُ تَعَالَى : مِنْ أَجْلِ وِلَادَتِهِ صلى اللهُ عليه وسلم بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ فِي صَالِحَاتِهِ وَمَكَارِمِهِ وَالِاسْتِمْسَاكِ بِهَدْيِهِ ، وَاتَّخِذْ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ الَّذِي وُلِدَ فِي مِثْلِهِ – وِرْدًا . تَصُومُهُ كُلَّ أُسْبُوعٍ . وَاذْكُرْ فَضَائِلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الدَّوَامِ : حَمْلًا لِنَفْسِكَ عَلَى مَا يَزِينُهَا وَيُحْيِيهَا حَيَاةً طَيِّبَةً وَيُكْسِبُهَا حُسْنَ الْعَاقِبَةِ ، وَأَكْثِرْ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ ، فَقَدْ

قالَ ـ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ ـ : « إنَّ أَقْرَبَكُمْ مِنِّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِى كُلِّ مَوْطِنٍ ـ أَكْثَرُكُمْ علىَّ صَلاةً فِى الدُّنْيَا ، مَنْ صَلَّى علىَّ فِى يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةِ الْجُمُعَةِ ـ قَضَى اللهُ لَهُ مِائَةَ حَاجَةٍ : سَبْعِينَ مِنْ حَوَائِجِ الآخِرَةِ ، وَثَلاثِينَ مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يُوَكِّلُ اللهُ ـ بِذَلِكَ ـ مَلَكاً : يُدْخِلُهُ فى قَبْرِى كَمَا تُدْخَلُ عَلَيْكُمُ الْهَدَايَا : يُخْبِرُنِى بِمَنْ صَلَّى علىَّ : بِاسْمِهِ وَنَسَبِهِ إِلَى عَشِيرَتِهِ ، فَأُثْبِتُهُ عِنْدِى فى صَحِيفَةٍ بَيْضَاءَ » رواه البيهقىُّ فى كتابِ حياة الأنبياءِ فى قُبُورِهِم ، عن أَنَسِ بْنِ مالكٍ رضى اللهُ عنه .

وقالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِى : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِىَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِى أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِىَ الْمَغَانِمُ ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِى ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِىُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » رواه البخارىُّ ومُسْلِمٌ فى صحيحَيْهِما عن جابرٍ رضى اللهُ عنه . وقالَ الإمامُ القَسْطَلانِىُّ : وَإِنَّمَا جَعَلَ الْغَايَةَ شَهْراً لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ بَلَدِهِ ـ عليه الصلاةُ السلام ـ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ ـ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرٍ .

وقالَ صلى اللهُ عليه وسلم : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلا فَخْرَ وَبِيَدِى لِوَاءُ الْحَمْدِ ، وَلا فَخْرَ ، وَمَا مِنْ نَبِىٍّ يَوْمَئِذٍ : آدَمُ : فَمَنْ سِوَاهُ إِلاَّ تَحْتَ لِوَائِى ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ ، وَلا فَخْرَ » رواه الترمذىُّ عن أبى سعيدٍ الْخُدرِىِّ رضى اللهُ عنه .

كلمة الختام (١)

• الحمدُ للهِ الذِي بنعمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالحاتُ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ قَيُّومُ الأرضِ والسَّمواتِ ، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا مُحمَّداً رسولُ اللهِ ، خيرُ من هدَى سُبحانَهُ بِهِ إلى مايُحبُّهُ ويرضاهُ .

اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على سيِّدِنا مُحمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ الأئمةِ الهُداة .

أمَّا بعدُ : فخيرُ الحياتينِ فى تقوى الله ، وما هدأ بالٌ ، وصلحَ حالٌ بغيرِ طاعةِ اللهِ ، الذِي لا إلهَ غيرُهُ ولا معبُودَ سِواه ، ولذلِكَ أرسلَ رُسُلَهُ مُبشِّرِينَ ومُنذِرِينَ ، ودعا إلى الأمرِ بالمعرُوفِ والنَّهْيِ عنِ المُنكرِ ، وحثَّ على النُّصحِ ، وأمرَ بالوعظِ والإرشادِ ، وجعلَ مِن صفاتِ الرَّابحينَ التَّواصِي بالحقِّ ، فقالَ : « والعصرِ إنَّ الإنسانَ لفِي خُسرٍ إلاَّ الذِينَ آمنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصَّبرِ » . وقالَ جلَّ شأنُهُ : « مَنْ عمِلَ صالحاً مِن ذكرٍ أو أنثى وهُوَ مُؤمِنٌ فلنُحيِينَّهُ حياةً طيِّبةً ولنجزِينَّهُمْ أجرَهُمْ بأحسنِ ما كانُوا يعمَلُونَ » .

فلا يَليقُ بعاقِلٍ أنْ يحيدَ عنْ طريقِ التَّقوى الذِي فيهِ خيرُ دُنياهُ وآخرتِهِ ، أو يحرِمَ نفسَهُ الحياةَ الطَّيِّبةَ وحُسنَ الحالِ والمآلِ - بعدَ أنْ هداهُ ربُّهُ النَّجدَينِ ، وبصَّرَهُ بطريقِ الخيرِ والسَّلامةِ ، وبطريقِ الشَّرِّ والنَّدامةِ •

ولقدْ كانَ مِنْ توفيقِ اللهِ تعالَى - ولهُ الحمدُ الدَّائمُ ، والشُّكرُ اللاَّزِمُ -

---

(١) يأخذ الخطيب من هذه الكلمة خطبة الجمعة ، [illegible] مكررة من الكلام الواقع بين علامتين على هذه الصورة (•)

أَنْ كَتَبْتُ هٰـذَا الدِّيوَانَ المُشْرِقَ المُسْتَنِيرَ : تَعَاوُنًا عَلَى الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ، وَحُبًّا فِى أَنْ يَتَعَاوَنَ بَنُو الإِنْسَانِ عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَيَسْعَوْا إِلَى حَيَاةِ الصَّفَاءِ وَالهُدُوءِ وَحُسْنِ العَاقِبَةِ فِى دَارِ النَّعِيمِ المُقِيمِ .

وَإِنِّى لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ حَظُّ هٰذَا الدِّيوَانِ القَبُولَ ، وَيَنْفَعَ اللهُ تَعَالَى بِهِ ، فلا يَخْتَارَ قَارِئُهُ وَسَامِعُهُ غَيْرَ أَهْدَافِهِ : حِرْصًا عَلَى أَلْطَافِ اللهِ وَإِتْحَافِهِ وَرِضَاهُ العَظِيمِ ، وَفَضْلِهِ العَمِيمِ .

* اللَّهُمَّ حَقِّقْ رَجَاءَنَا وَارْضَ عَنَّا وَأَرْضِنَا وَاحْفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَضُرٍّ فِى دُنْيَانَا وَآخِرَتِنَا ، وَأَيِّدْ بِالحَقِّ حُكَّامَنَا ، وَأَيِّدِ الحَقَّ بِهِمْ ، وَآمِنَّا فِى أَوْطَانِنَا ، وَاجْعَلْ فِى دَارِ إِكْرَامِكَ - الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى مَنْزِلَنَا «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا . رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ، وَوَفِّقْنَا اللَّهُمَّ عَلَى الدَّوَامِ لِلعَمَلِ بِقَوْلِكَ « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » ، وَأَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُمَّ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ وَصَلَّى اللهُ عَلى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ *

محمد مصطفى أبو العلا ـ الشهير بحامد

دليل الديوان

الصفحة — موضوع الخطبة

مجموعة خطب موسمية

الصفحة	موضوع الخطبة
٤١٨	إرشاد الصائم
٤٢٥	تذكير الصائم بذكرى غزوتى بدر والفتح
٤٣٤	فضل ليلة القدر والحث على قيامها
٤٤٣	وداع شهر رمضان
٤٥٢	خطبة عيد الفطر
٤٥٨	التحذير من العصيان بعد شهر رمضان
٤٦٤	استقبال عشر ذى الحجة
٤٧٧	الحث على الرغبة فى الخير والرهبة من الشر يوم عرفة
٤٨٢	استقبال يوم عرفة وأيام عيد الأضحى والتشريق
٤٩٠	خطبة عيد الأضحى
٤٩٥	خطبة يوم الجمعة إذا جاء فيه عيد الأضحى [ويستعين بها الخطيب المتصرف إذا جاء عيد الفطر يوم الجمعة]
٥٠٢	وداع العام الهجرى واستقبال الآخر الجديد
٥١٠	ذكرى المولد النبوى الشريف
٥٢٥	كلمة الختام ـ وبها خطبة النعت